

**الأوانجي**

الطبعة: الأولى.

الكتاب: الأوانجي.

الكاتب: ماهر إبراهيم.

تصميم الغلاف: محمد مجاهد.

تدقيق لغوي: أحمد نناوي.

إخراج فني: محمود ربيع.

رقم الإيداع: 2019/21340.

الترقيم الدولي: 8 - 26 - 6689 - 977 - 978.



9 شارع المغفرة المتفرع من شارع العشرين بجوار مدارس حسام الدين

الخاصة فيصل الجيزة

موبايل: 01009823984 - 01126026691 - 01061813345

جميع الحقوق محفوظة

# الأوانجي

رواية

ماهر إبراهيم



## إهداء

إلى صديقي وأخي: نجم عبد المالك....  
لم أجد أكثر منك تحمسًا لهذه الرواية؛ لذلك لا يوجد من هو  
أحق منك في أن أهدئها إليه.



القصير مدينة قديمة تقع على البحر الأحمر، عمرها ممتد منذ آلاف السنين، يطلقون عليها اسم مدينة مثل مدن كثيرة في مصر، لا يوجد رقيب على الأسماء، فهي لا ترقى إلى هذا الاسم، كشك صغير لتصليح مواير المياه يحمل لافتة كتب عليها «المركز العالمى للصيانة» وآخر يطلق عليه «المركز الدولى للسيارات» وهو عبارة عن حفرة تتوقف فوقها سيارات الشحن للتشحيم، فلا بد أن نقف كثيرا أمام الأسماء. المدينة كشخص واقف على شاطئ البحر ينظر إلى المياه الصافية الذي يزداد لونها في الزرقة كلما ابتعد نظره عن الشاطئ، وإذا اتجه يمينه فهذا الجنوب وإذا مشى يسارا فهذا الشمال وأمامه تشرق الشمس خارجه كل صباح من مياه البحر وبالطبع خلفه الغرب. يقطع المدينة شارع أسفلتى مستقيم ضيق ذو طبقة رقيقة وخشنة بطول ثلاثة كيلو مترات، يصل هذا الشارع بين الطريق السريع الشمالى بالجنوبى، ويوجد شارع آخر فرعى يبدأ من نقطة على الشارع الرئيسى كانت نهاية المدينة العتيقة قديما ويتجه بتقوس ناحية البحر ويستمر في انحنائه باتجاه الجنوب حتى يتصل بنهاية الشارع الرئيسى مرة أخرى راسما نصف دائرة. شمال المدينة مرتفع عن جنوبها، لذلك اعتادوا على قول نازل إذا كان قادما من الشمال وكلمة طالع من الجنوب للشمال. يوجد ثلاثة تكتلات بشرية لهذه المدينة. عند نهاية الشارع في الجنوب توجد قبائل العباددة، والنوع الثانى هم القصيرية الذين

نشؤوا في هذا المكان من أجناس مختلفة منذ سنين بعيدة حتى انتظمت لهم لهجة خاصة بهم وطباع تختلف عن أبناء الصعيد. السمّة الغالبة عليهم هي السلم وكانوا يسكنون حول الشارع الرئيسي وداخل النصف الدائري، أما التكتل الأخير فكان من الصعايدة القادمين حديثا للعمل في شركة الفوسفات أو مناجم الذهب، واحتلوا الشمال خارج المدينة وأقصى الغرب بعيدا عن البحر. وجعلوا بيوتهم ملتصقة وضيقوا على أنفسهم على الرغم من اتساع الأرض حولهم، ونقلوا عاداتهم وكيفية معيشتهم السابقة من قرى الصعيد إلى المقام الجديد. ولم يختلطوا بأحد. وإن مررت بين بيوتهم شعرت أنك لم تذهب بعيدا عن النيل. حتى عندما يأخذ أحدهم إجازة يخبرك أنه ذاهب إلى البلد، وهذا يعنى أنه ذاهب إلى الصعيد، كأنه ليس في بلده.

مرت السيارة البيجو السبعة راكب كما يطلقون عليها، لأنها تستطيع أن تحمل داخلها سبعة أشخاص. وسائقها يقودها بسرعة مستهترة كأنه على الطريق السريع. كانوا يرفعون أيديهم يحيون الجالس على مقعد القيادة. السيارة أخذت احترامها لحملها لوحة ملاكى. فكل المدينة تقريبا في هذا الوقت لا يوجد بها عشر سيارات ذات أصول نبيلة بلوحة بيضاء، معظم السيارات الموجودة فهي للحكومة أو للشركة الفوسفات أو أجرة. أما جعل سيارة خاصة فقط للصاحب فهذا الثراء بعينه. توقف منصور الذي كان في عجلة من أمره أمام المحال الكبير الذي تمتلكه عائلته. شاب على مشارف الثلاثين من عمره، متوسط الطول، أسمر

البشرة سمرة الأسيويين، عيناه واسعتان يحيط بهما سواد، وجهه ممتلئ، على الرغم من وجود كرش، لكنه لا يعيبه لتناسقه مع بقية جسده. مدخن للحشيش بشراهة، حاد الطباع لا يعرف عنه استمراره على مزاج واحد، متقلب، له نظرات سارق، ينظر بطرف عينه كثيرا. زير نساء، مريض بالتحرش الجنسي، لا تميز بين كبيرة وصغيرة، محارمة أو ساقطة. حريص على معرفة أخبار الناس خاصة المستور منها. لم يستطع أن يكمل تعليمه الجامعي في أسيوط، لا يجيد إلا الصيد ولعب الدومينو. ظهرت أسنانه من أثر ابتسامته رسمت على وجهه عندما وجد يافطة معلق للصلاة على الباب، تلك التي أهداها الشيخ هارون لأخيه الأكبر. فتح المحال بمفتاح معه وترك مفتاح السيارة على المكتب وخرج مسرعا قبل أن يأتي أخوه الكبير فاروق من الجامع بعد صلاة الظهر. المحال يوجد في منتصف الشارع المقوس على البحر، اتجه جنوبا ماشيا إلى بيته في منطقة الأوانجى. هي قطعة أرض فاصلة بين منطقة العباددة والقصيرية. كانت في السابق منطقة جمرك وتجمع للجمال التي كانت تحمل البضائع. أصبحت منطقة خالية بعد توقف أمور التجارة بهذا الأسلوب. استولى على أكبر مساحة فيها الصول ناصر الهجان أبو فاروق ومنصور. وبنى عليها بيت على مساحة ١٤٠٠ متر مربع. البيت عبارة عن باب رئيسى مرتفع يوجد بعد صعود أربع درجات، بعد المرور من الباب الرئيسى يوجد صالة صغيرة تفصلها ستارة ضخمة معلقة أمام الباب عن بقية المنزل. يوجد في هذه الصالة مقاعد خشبية

بسيطة، بعد الستارة مباشرة صالته واسعة، تتراص حولها حجرات. من على يمين الداخل أول حجرة لها باب يفتح على الصالته من الداخل ولها باب خارجي يشبه الباب الرئيسى ولكنه أصغر حجما. خصصت هذه الحجرة للضيوف وبها حمام خاص. وكانت أكبر الغرف اتساعا. وبجوارها بقية الغرف لهم أبواب تفتح على الصالته الكبيرة فقط. وجعل المطبخ والحمام في الركن الأيسر وخصص غرفة لفاروق على يسار الباب الرئيسى كانت لأبيه في السابق. في الصالته الكبيرة سلم خشبي للصعود إلى الدور العلوى لشقة فاروق وزوجته وبناته. ويوجد باب خلفى يقود للفناء متسع يشكل نفس مساحة المبانى محاط بسور مرتفع يسمى الحوش متصل بالبيت به بعض الغرف ضيقة المساحة تستخدم كمخازن لبضاعة المحال وقطع غيار سيارات قديمة وبعض الأخشاب والبراميل وحبال للمراكب ضخمة وبعض أبواب للسفن وأبابيب صغيرة للغاز وشبك صيد وبنادق هوائية للصيد الأسماك وكشافات إضاءة تحت الماء. ويحد البيت من الخلف مرتفع جبلى ملاصق للسور الحوش على شكل هضبة مقام فوقها معسكر للجيش. ومن الأمام مدق ترابى. ولا يوجد أي مبنى أمامه حتى يرى الجالس أمام البيت اتصال الشارع المقوس بالشارع الرئيسى في جنوب المدينة على بعد عشرين مترا وينتهى امتداد الرؤية بعد ذلك لوجود بعض المنازل التي تحجب رؤية الملاحه والبحر، تظل البيت من الأمام أربع شجرات نبق. أقدم من المنزل. وتوجد مصطبة صغيرة ملتصقة بالجانب الأيسر. لما ينعم طويلا

الصول صاحب البيت بما شيد. الصول ناصر الهجان، صول في مكتب مخبرات حرس الحدود بالمدينة. قادم من سوهاج. استقر في المدينة وتزوج منها. معظم القصيرية والعبادة يزاولون الصيد في البحر إما كمهنة أو عمل إضافي بجانب وظيفة أخرى. فالبحر هو المصدر الرئيسي للرزق. لذلك كان يعرف الجميع أهمية الصول السوهاجي، فيتجرعون سماجته وثقل ظله وتظاهره بالعفة والطاهرة بالابتسامات والمجاملات حتى لا يمنع أحدا من الصيد. ببساطة لو كان مزاجه ليس على ما يرام. فإن البحريتحول إلى حمام سباحة في فندق بعد الساعة السادسة مساء. لا يستطيع أحد أن يقترب منه، كانوا يقدقون عليه بالهدايا من أموال وأسماك واستاكوزا وصار بيته ومكتبه متحفا للكائنات البحرية المحنطة. الكل يحاول أن يخدمه دون مقابل، حتى بعد قدوم بعض الضباط المعينين من قبل القوات المسلحة للخدمة في المكتب في الاعوام الأخيرة للصول ناصر في الخدمة لم يستطيعوا السيطرة عليه، بسبب درايته الجيدة بالمنطقة الممتدة لمئات الكيلومترات على ساحل البحر الأحمر. ولاكتشافهم علاقته القوية التي كونها في سنوات خدمة بعض اللواءات. الذين يأتون في الصيف للممارسة هواية الصيد وكيف أنه امتلكهم بحسن الضيافة، وتوفير كل ما يحتاجون من مباح أو ممنوع، تبعاً للهوى الضيف. لذلك فضل كل ضابط صغير قادم للعمل في المكتب أن يقضى مدته في هدوء دون إزعاج للحاكم الفعلي للمكتب مخبرات حرس الحدود وعليه أن يقنع بما يتركه له ولا يبحث

وراءه. بذلك لم يتأثر دخل الصول بأي نقصان من الهبات من أهالي المدينة بل زاد بعد إحساسه بالقوة ونشوة السيطرة. حتى استيقظت القصير ذات يوم على شيء يحدث كل فترة ولكن لا تحدده أمور طبيعية كدرجات حرارة أو أمطار أو زلازل لذلك يأتي أحيانا على فترات قريبة أو متباعدة ولكن لم يحدث أثناء خدمة الصول ناصر قبل ذلك اليوم. شاطئ القصير منذ الصباح الباكر رست عليه عوامات سوداء هي في الأصل جوانات داخلية لإطارات سيارات مملوءة بمخدر الحشيش. ويتم هذا الحدث إما لتحطم مركب المهريين للصطداه بالشعاب المرجانية في عرض البحر أو إلقاء المخدرات في المياه عندما يشعر المهريون بأن مراكب حرس الحدود تقترب منهم. كانت مهمة الشرطة في هذا اليوم جمع مارس على الشاطئ داخل المدينة. أما قوات حرس الحدود فكانت تمشط شمال وجنوب المدينة للمسافات بعيدة فبعض الأوقات كانت العوامات تصل إلى خمسين كيلو مترا جنوب القصير، استطاع بعض الأهالي القليلين بأن تخبئ عن عين الشرطة بعض العوامات القليلة. للضعف إمكانيات الضبط والسيطرة وقلّة أعداد رجال الشرطة. المدينة كلها بها قسم واحد للشرطة به مأمور وضابطان ومجموعة من المجندين والمتطوعين. منع الصيد أو الاقتراب من البحر لمدة شهر. استطاع الصول أن يجنب كميات كبيرة لنفسه والسبب لا يرجع لذكائه أو خبرات سابقة ولكن للتوتر الذي أصاب كل رجال السلطة في ذلك الوقت في بادئ الأمر. الظاهر عليهم غير الخفى في

ثنائهم. كأن مخدر الحشيش قد لعب بعقولهم دون أن يدخنوه أو يلوكوه. ارتباك جعلهم يتعرقون دون مجهود. الأفكار تتسابق داخلهم كذرات سائل تعرض لدرجات حرارة عالية فاندفعوا كلهم لاتجاه واحد فرادى مع تغميض العين عن الآخرين، فهجموا كالنمل على قطع السكر داخل القسم أما هو فكان يتحرك بمفرده بالسيارة الخاصة يلتقط بنفسه ما يجده. ويفتش جميع نقط حرس الحدود التي يوجد به عساكر فقط. فإذا وجد بعض المخدرات مع بعض الجنود دون تبليغ مسبق فكان يأخذ منهم. وينهار المجندون لمعرفتهم بحجم الجرم الذي ارتكبوه. وأنهم سوف يقضوا سنين طويلة في السجن وكل شخص منهم يسرح بخياله في المصير المظلم الذي ينتظره، ومنهم من فكر في أن ينهض من على الأرض ويجرى هرباً في الصحراء فهذا أهون عليه من السجن حتى يفاجئهم الصول ناصر بالعفو الملكي، وأن له أولاداً في مثل عمرهم ولا يريد أن يؤذيهم فهم ما زالوا صغاراً فيكون بذلك أعاد لهم الحياة فيكتموا الفضيحة خوفاً على أنفسهم ويتركوا له أن ينهي الأمر بما يتراءى له، وبالطبع لا يستطيع أحد أينما كان أن يتابع ما يفعله الصول ناصر. وتم بيع كل ما تحصل عليه في أيام قليلة بعد ظهوره على الشاطئ لتجار من الصعيد والدلتا شمال مصر. أصبح الصول من الأغنياء شديدي الثراء، ولكنه لا يستطيع أن يضع أمواله في البنك الأهلي الوحيد في القصر. فما يملكه يعتبر أضعاف ما يوجد في البنك في يوم توريد للمبالغ كبيرة من شركة الفوسفات. ولا يوجد دليل لكيفية الحصول

على كل هذه الأموال فجعلها في حقائب في البيت الجديد. لا يعلم مكانها إلا الأم الحاجة منيرة والابن الكبير. تفاعل خيرا بالبيت الجديد لأن الأموال الضخمة أتت بعد تمام بنائه وأصبحت مقولة «الفلوس تحب الفلوس» ملازمة له يجب أن يقولها كثيرا. وفتح المحال الأكبر في القصير لبيع الأدوات المنزلية والبلاستيك والأقمشة وأدوات الصيد. كان يحضر لنهاية خدمته. ولكن بعد مرور ثلاث سنوات على الحدث الأهم له. ينتهي عمره مقتولا في حادثة غريبة شمال القصير بحوالي سبع كيلومترات. على يد عسكري درك أطلق الرصاص عليه وعلى نفسه بعد ذلك ولم تعرف الدوافع لهذه الحادثة وقد قيد بأن العسكري مريض نفسيا. في كثير من الحوادث المشابهة تذهب إلى المرض النفسى الذي لا يسمع عنه الناس إلا عند حدوث جرائم.

\*\*\*\*

حفايت منطقة تقع في الصحراء غرب قرية مرسى علم تبعد عن البحر بحوالي سبعين كيلومتر، توجد به تجمعات قليلة من قبائل العبادة التي ما زالت تسكن الصحراء ومعظمهم ليس لهم سجلات لدى الحكومة، يتم استخراج بطاقة لرجل عندما يتعدى السن الذي لا يطلبونه في الخدمة العسكرية إذا أراد أن يكون له بطاقة شخصية ويتم هذا عن طريق التسنين عند طبيب القصير في مركز الصحة، أما المعظم لا يفضلون أن تكون لهم أي ذكر في سجلات الحكومة. وكل التجمع في حفايت عبارة عن عشش

خشبية وخيم ولا يتعدى العدد إلى خمسين فرد من رجال ونساء وأطفال ويكونوا خمس أسرع على الأقل. غالبا يكون الأزواج أخوة أما الزوجات فهن من تجمعات أخرى. عادة الذكر هو الذي يستمر في المكان. أما الأنثى هي التي تغير مكانها عندما تتزوج. النساء هن الأكثر قدرة على التكيف في بيئة جديدة عنهم. رضينة إحدى فتيات حفافيت. قد وصلت إلى سنة العشرين ولم تتزوج. كانت دائمة الرفض للمتقدمين لها. الكل يعجب بهذه الفتاة السمراء رقيقة القد، تتحرك في خفة غزال صغير، بشوشة، كل شيء فيها دقيق، شفيتين صغيرتين وانف دقيق، أخذت من أجدادها الكف الطفولي والمعصم النحيف، العينين شديدة السواد ولهم اهداب طويلة تجعلهما ساحرتان، نشيطة لا تهدأ في الذهاب والمجيء. على الرغم من حزن عم فراج والدها لعدم زواجها، إلا أنه لم يضغط عليها أبدا للزواج ومن عاداتهم ألا يزوجوا الفتيات إلا برضاهن ورغباتهن. وقبل عيد الأضحى بأيام قليلة. قبل الغروب بساعتين ظهر غبار من بعيد على الطريق السريع كان يشير بقدم سيارة كبيرة بسبب هالة الأتربة التي كونتها حولها ولما اقتربت عرفها الأطفال بأنه عربية مياه فاخذوا يصيحون على أهلهم حتى يستعطفوا السائق بالتوقف ويحصلوا على أي كمية من المياه. ولكن هذه المرة بدأت السيارة في تخفيض سرعتها وتوقفت دون أن يلوحوا لها ونزل منها شخصان ملامحهما تشير بأنهما عبادة. بدأ الجالس بجوار السائق ينادى على عم

فراج بعد أن ابتعد عن السيارة وبقي الآخر بجوار سيارته يسلم على الأطفال الذين اقتربوا منه. الشخص الذي ينادى ويتقدم ناحية الخيم يعرف المكان جيدا. تقدم عليه عم فراج حتى تبين له أن المنادى هو حامد، أخذه بالاحضان والترحاب. وأشار حامد إلى السائق بأن يأتي ليسلم. قدم حامد السائق للعم فراج. وأخبره بأنه سائق جديد في مجلس مدينة القصير. توظف مثله بعد التجنيد. وهو عبادى ولكن من أبناء النيل، أوكل له بنقل المياه إلى المناطق النائية عندما يكون هناك زيادة في المياه في القصير. ويحدث هذا كثيرا في الشتاء أما الآن فلا بد من توفير بعض المياه للقريّة أبو الحسن الشاذلى في موعد المولد للعارف بالله. وكانت هي المهمة الأولى للسائق الجديد وكانت فرصة لحامد أن يحضر فرح لأحد أبناء عمومته في أم غنام الواقعة على نفس الطريق بعد حفافيت. وبذلك يونس وحده زميله الجديد ويعرفه على أهله من قبائل العبابدة عموما ويجد له أبناء قبيلته الخاصة به. فكل عبادى يعيش في المدن المنتشرة في مصر ما زالت جذوره موجوده في الصحراء لم تهجر كلها إلى العمار، ما عليه إلا أن يحفظ اسم قبيلته. وبعض من الكبار في السن يستطيع أن يعرف اسم قبيلة الشخص من ملامح وجهه. وبعد الترحاب والتعارف جلسوا جميعا حول أدوات عمل الجبنة التي أحضرتها رضىينة. والجبنة هي المشروب المفضل الذي لا يختلف على حبه أحد حتى من ذاقه من أبناء المدن لأول مرة، عبارة عن قهوة بالزنجبيل. بدأ أخ من أخوان رضىينة تحميمص البن على نار هادئة بواسطة طبق معدنى صغير

مجوف ذويد طويلة كى لا يشعر بشدة الحرارة أثناء التخميص. وبعد ذلك يطحنها في هون خشبى ضخمة ويخلطها بالزنجبيل ويضعها بعد ذلك في قارورة فخارية به ماء ويتركها على النار وقت قصير وقبل أن يصب الجبنة لابد أن يسد فوهة القارورة بقطعة قماش أو شبكة صغيرة لتعمل كفلتر. وتكون الفناجيل صغيرة جدا ويفضل أن يشرب الضيف ثلاث فناجيل أو أكثر على أن يكون العدد فردى. امتدت الجلسة حول الجبنة في جو عائلى حميم وكانت هذه الليلة من أسعد الليالي بالنسبة للرضيئة فقد جلسوا كلهم حول النار للعدة ساعات يتسامروا لا فصل بين النساء والرجال في مجتمع الصحراء إذا كان كل الحاضرين عابدة حتى ولو كان أول لقاء بينهم. ملك حامد قلب رضىنة في هذه الليلة. علمت من الحوار الذي دار أنه قد زارهم قبل ذلك عدة مرات ولكنها لم تتذكره. وقد لمحت تغير عينيه عند رؤيتها وفضحه النور الذي لمع فيهما، وكيف كان يستعرض مواهبه أمامها. حتى يجذبها. ظانا أنه هو صاحب المبادرة ولكنها تعلم أنها لو لم تعط الإشارة لما بدأ العرض. تعلق ذهنها بالشاب الطويل ذو البشرة السمراء الخفيفة ولكن لا يقال عليه أسمر في صعيد مصر. ذو شعر كثيف يظهر من تحت الشال الذي يعقده حول رأسه، نحيف بجسد رياضى، كفيه لهما ضخامة، له وسامة في ملامحه تزداد إذا تكلم. ونسجت أحلام في خيالها الواسع الذي أخذ اتساعه من صمت الصحراء وقلّة الكلام في معظم أوقات اليوم. فكانت معظم منسوجاتها مصبوغة بصبغة شباب ونار

مشتعله ولم تنزعج لذلك لأن معروضاتها لن يراها غيرها. وداعبت أكثر من مرة أجزاء من جسدها برفق مستحضرة وجهه أمامها الذي لم يغب عنها بعد تلك الأمسية.

\*\*\*\*

لم يأسف فاروق لمقتل أبيه، منطقة بعيدة داخله ارتاحت وسرت بمغادرة الأب للحياة، كان يناديه دائما بكلمة يا «حج»، ظاهرها احترام للأب زائد. ولكن كانت بالنسبة للفاروق أخف من كلمة أبي. لم يطلع أحد على الفرحة التي داخله لفقدان الصول بل كان يظهر الحسرة والألم على الفقيده، ويذكره بين الناس بالمحاسن كأنه وليا لله. من طبيعة البشر أن ينسوا الأيام القاسية ويتذكروا الماضي بحسرة على انتهائه كأن بالماضى سعادة فقط. لذلك تجد غالبية الناس عندما يتقدمون في العمر يترحمون على زمانهم الذي مضى. لذلك نسى أهل القصير شر الصول وأصبحوا يتذكروه بالخير خصوصا عند منع الصيد في بعض الشهور ويستخدمون عبارة «أين أيامك يا صول ناصر»، «وهل كان يجرو أحد أن يكسر له كلمة عندما كان يعيش بيننا». «وأنه أبدا لم يجور على أبناء مدينته، كان شديد لكن بينفع». فاروق الابن الأكبر متوسط الطول، أبيض البشرة مثل أبيه، وجهه ممتلئ ودائري، حليق الرأس والذقن دائما، به قسوة في نظراته اكتسبها من أبيه، سمين تظهر أرتال الدهون تحت جلبابه إذا تحرك. يتباهى بذلك، يطلقون عليه الرومى في

القصير ولكنه لا يحب هذا الاسم، ولا يجروا أحد على مناداته به، اشتهر بين الناس بأنه متدين ومواظب على الصلاة في الجامع الكبير بالقرب من المحل، له لازمتان لا يفارقه؛ الأولى أنه يبصق على الأرض وخصوصا لو كان يتحدث مع آخرين، والثانية يعدل من وضع قضيبه بيده كل بضعة دقائق قليلة من فوق جلبابه طالما كان واقفا كأن به مرض جلدي، اعتاد على هذا منذ صغره كعقيدة داخله أنها صفات الرجال حتى أصبح الأمر تلقائيا يلازمه. وبطبع لم يشعر أبدا بحرج مما يفعله أو أنها أفعال قبيحة حتى عندما وصل عمره للأربعين، لأن المجتمع الذي حوله ذكوري جاف لا يستشعر الرقى والسمو في المعاملة. لم يحب أهل القصير، قد يعود هذا السبب لأبيه الذي لم يقل يوما كلمة حسنة في المدينة في حياته وأهلها، أو يكون السبب الهمسات أو الكلمات التي تكون حمالة أوجه التي تصل إليه عن ثروة أبيه من عينة قيراط حظ ولا فدان شطارة، لا أحد يستطيع أن يخفى شيئا أو أن يكتتم سرا، ليس له أصدقاء إلا الشيخ هارون إمام المسجد الذي يصلى فيه، علاقته باخيه علاقة الأخ الأكبر المهاب من الأخ الفاسد الصغير الذي ينتظر دائما الإحسان من أخيه، منصور يعطى له ما يريد من احترام أمام الناس ليحصل هو على المال، وله أخت صغرى لما تتجاوز العشرين تدعى منى، ولدت فاقدة لعقلها، لا تتكلم إلا بكلمات قليلة، تعرف أشياء بسيطة ولكنها مهمة لها مثل مكان بيتها وطرق المدينة ورجوعها قبل الغروب عندما تكون في الخارج، تعرف الشرير من الطيب، تبدأ

يومها من الصباح الباكر تجوب المدينة، تجمع الأكياس الفارغة في جيوبها وإذا وجدت امرأة تضع عجينها خارج المنزل تحت أشعة الشمس ليخمر، تجلس بجوار هذا البيت حتى يعطوها أصحابه رغيف عيش من المخبوز، كانت الناس بها رحيمة لا يأتيها الأذى إلا من مناوشات الأطفال عندما يرمونها بالحجارة، تجرى خلفهم وتصرخ وتسب حتى يهدوؤها شخص تعرفه ويبعد عنها الصبية، فاروق ومنصور لم يعطفوا عليها أبدا حتى وهي طفلة. لولا وجود الحاجة منيرة الأم على قيد الحياة لأصبح مصير منى أسوأ. الحاجة منيرة امرأة ذات سمنة مفرطة، لها ثديان كبيران يصلان إلى فخذيها وهي جالسة، يزيد من متاعبها الصحية... متوسطة الطول، بيضاء البشرة، وجها دائري، توحى ملامحة أنها كانت ذات جمال في الماضي. التجاعيد لم تحتل وجهها على الرغم من سنها المتقدم، الشيء الوحيد الذي استفادته من زواجها هو كثرة أساور الذهب في يديها وهذه مقولتها الدائمة عندما تكون وحيدة. كانت من أبناء القصير، جميع أهلها في المدينة، فهي من القصيرية. تزوجت من الصول ناصر ورضيت بحظها. لم تشعر بالراحة والهدوء إلا عندما دفن جسده تحت التراب. حتى أنها بعض الأحيان تحدث نفسها بأن الهواء الذي تتنفسه أصبح أفضل. وأنها متأكده أن لون طلاء البيت تغير كأنه جدد بعد موت زوجها ولكن لم تخبر أحدا من أبنائها بأمر لون الجدران لأنهم سيعتقدون أن أهمهم قد هرمت وبدت تفقد عقلها. في سنواتها الطويل الماضية لم تزر أهلها إلا قليلا في بداية زواجه وانقطع الأهل عنها عندما وجدوا

أنهم غير مرحب بهم من صاحب البيت. وعندما أتحت لها الفرصة بأن تخرج لتتري المدينة بعد العمر الطويل في المحبس، بعد مرتين فقط من المشى والخروج في مساحات أوسع، شعرت بالدوار وأن قدميها نسيت المشى وأنها غريبة بعيدة عن جدران البيت. قد يكون هذا من تقدم العمر. ففضلت أن يكون لها مجلس أمام البيت تحت شجرة النبق على المصطبة. تقابل السيدات العابرات إلى السوق. وأغلبهن فقيرات، تدعوهن إلى الجلوس وتغدق عليهن ببعض الأطعمة والفاكهة، فاشتهرت بينهن أنها كريمة، وإن كان يوجد فيها بعض التعالي الخفيف الغير قاسى بالنسبة للنسوة، حتى أصبحت بعض السيدات يتعمدن المرور أمامها ويلقن عليها السلام ليجلسن بجوارها. فأصبح البيت من وقت لآخر يوجد به بعض النسوة للتنظيف. ليسوا خادمات ولكن لا مانع من ساعة أثناء المرور أمام البيت للمساعدة للسيدة الكبيرة، كن يسمونها هكذا حتى لا تضيق بها أنفسهن، وكن يشجعن بعضهن، بانهن لا يأخذن مرتب ثابت ولا يوجد ميعاد لهذا العمل فما المانع، وبالطبع ما يصوروه لأنفسهن ليس الحقيقية، الإنسان بطبيعته يستطيع أن يكيف أي أمر طالما هو يحتاجه. أما إذا كان الشيء ليس به فائدة له أو لم يتورط في تجريبه قبل ذلك ينكره ويحتقر من يفعله، كان مجلسها من الصباح الباكر حتى قبل الظهيرة بوقت قصير. وساعتين أو ثلاث قبل الغروب لشرب الشاي. كانت منى أحب أبنائها إليها، تلبسها أجمل الملابس وإن كانت بعد دقائق من ارتدائها تتحول إلى حالة

سيئة الهيئة. لا يوجد حرج للحاجة منيرة من ابنتها بل كانت تقبلها كثيرا أمام الناس وتدللها بكلمات كأن منى طفلة في الخامسة من عمرها. توجد عقيدة توارثتها الحاجة منيرة عن أهلها أن الطفل الذي يصبح حاله مثل منى إما أنه شاهد بعض الأنوار والتجليات الإلهية ففقد عقله أو أن هناك ابتلاء من السماء قادم فتحمله لوحده، لذلك تكونت عقيدتها في اتجاه الابتلاء الموجه إما لناصر أو فاروق أو منصور فكلهم يمكنهم جلب سخط الله بسهولة. ومع الأيام أخذت كلمات المجاملة والدعم من الناس الذين يرون جنون بنتها إلى ثوابت. فالحاجة منيرة جزء من مجتمع يهتم بالحياة التي بعد الممات ويوظف كل شيء حوله لخدمة الحياة الأبدية بعد البعث. ومن هوايته المفضلة البحث عن علامات يوم القيامة كالآخرين وكان ينشط هذه الهواية صديق ابنها الأكبر الشيخ هارون عندما يكون موجود في البيت بعد التهام ما يقدم له فيخبرها بكثرة العلامات على قرب النهاية للعالم وأن يوم الحساب قد قرب ويعدد لها الأحاديث الدينية الدالة على ذلك من أمثلة ضياع الأمانة وانتشار الزنا والربا عن طريق البنوك وظهور الموسيقى وشرب الخمر والزلازل والموت فجأة وتكلم الجمادات مثل المذياع والتلفاز وظهور الرواحل الجديدة مثل السيارات فكانت دائما تسعد بسماع هذا الحديث وهي فاخرة فاها ولا تعقب على أي شيء حتى ولو تناقضت بعض العلامات مع بعضها مثل ظهور الجهل بين الناس وكثرة الكتابة وانتشارها فيسعد الشيخ هارون بمنظرها المتعجب المصدق وينتشي بفرعها

من اقتراب يوم القيامة الذي يدل له أنها سيده مؤمنة تخاف الله مع أنها لا تعلم عن أمور الدين إلا الشعبي منه. وبالطبع يخفى عنها بعض العلامات التي يحفظها عن ظهر قلب لأنها قد تسبب لها حرج مثل أن يكثري بين الناس السمن والزيادة في الوزن أو علامات لن تستوعبها مثل هلاك نخل بيسان في الأراضي الفلسطينية على يد اليهود واستبعاد هذه العلامات وعدم ذكرها أمام الحاجة منيرة ليست نابعة عن رقة في المشاعر عند الشيخ ولكن مهابة للسيدة في نفس الشيخ. لذلك كان تفكيرها يدور على الحياة بعد الممات، فدائما كانوا يخبروها بأن منى ستكون سبب دخول الحاجة إلى الجنة والبعد عن جهنم لأنها ترعاها ولا تتأفف منه ولم تشتك أو تندب حظها. عشقت الأم هذه الكلمات. وإن كان يراودها تفكير بعد موت الأب. هل يصح دخول الصول الجنة لأنه أبو منى. فتمط شفتيها إلى الأمام مستهزئة وتقول لنفسها «لابد أن يعاد تربيته في القبر إن كان لابد من دخوله الجنة».

\*\*\*\*

الهواء منعش بالقرب من مياه البحر. على الرغم من شدة حرارة الصيف إلا أن الحر ليس له قدرة على البحر. صوت الأمواج وهي تصطدم بالشعاب كقيلة باعطاء إحساس بارد يبدد قوة الشمس التي قاربت على الانتصاف في السماء الزرقاء. ما زال حامد يصطاد منذ الصباح الباكر أمام عشة فضائية في الكيلو عشرة جنوب القصير. صاحبة العشة جالسة على رمال الشاطئ منهمكة

في قص الملابس القديمة التي أحضرها لها حامد لتجعلها شرائط رفيعة بنفس عرض شريط الجروح الطبى، وكلما انتهت من تحويل قميص أو جلباب إلى شريط طويل تخيطة في آخر حتى تكون كرة ضخمة من الشرائط الملفوفة بحجم كرة السلة، وبعد ذلك عندما يكون عندها وقت تصنع من هذه الكرة سجاد بدوى بواسطة النول. فتخرج السجادة بعد ذلك خليط عشوائى من الألوان وتبدو زاهية. فضائية لا تتوقف عن العمل أبدا. تجاوز عمرها السبعين أو الثمانين فلديها شهادة ميلاد بتاريخ وقسيمة زواج بميلاد آخر، وجهها يوحى بأن عمرها تخطى المائة دون نقصان. أما إذا شوهدت من بعيد وهي تتحرك أو تعمل لا بد أن تكتب لها شهادة ميلاد بتاريخ يجعلها امرأة في الخمسين. غامقة السمرة. نحيفة. التجاعيد في وجهها كالوديان المتجاورة والمتقاطعة في بعض المناطق. الحواجب اختفوا مع التجاعيد، فقدت ملامحها مع الزمن. ما عدا لون العينين هما عسليتين والرقبة الطويلة القوية كساق شجرة عتيقة. لا تظهر أسنانها المتبقية أثناء الكلام، فعندما تتحدث لا تبتعد شفثيها عن بعضهما كثيرا. تلبس أربع عقود بسيطة صنعتهن بنفسها من صدف البحر الصغير. تضع على رأسها شال قطنى أحمر اللون طوله متران دون أن تربطه أو تلفه على رقبتها. تغيره بأخر جديد كل بضعة سنين بنفس اللون، وجلبابها أسود اللون منذ موت ابنها الوحيد. هي من نفس قبيلة حامد. ولدت وعاشت طفولتها وأول شبابها في وادى خريت بالقرب من مدينة كوم امبو باسوان وعندما تزوجت كانت أم

حامد طفلة تلعب في الفرح. زوجها ابن عمها من القصير، سكنت معه في بيته بمنطقة العدوّة أقصى الجنوب تبعد عن المدينة تقريبا بكيلومتر واحد. يوجد في منطقة العدوّة بيوت قليلة لا تتعدى الثلاثين بيت. كلهم من قبائل العباددة. البيوت قريبة من شاطئ البحر. لذلك كل أرض العدوّة رملية بيضاء. وأيضا منخفضة بقليل عن سطح البحر. ترى المدينة فقط من على الشاطئ. أما بالداخل لا تشاهد المدينة لوجود مرتفع هضبي من الشمال يشكل حائط فاصل بين العدوّة والمدينة. وقد يكون هذا الحائط هو الذي جعل العدوّة ما زالت محتفظه بأغلب عادات العباددة من لهجة ولبس وأنواع الطعام. لذلك من يحن إلى جذوره وللماضى من أبناء العباددة المختلطين بقدر أوسع بالقصيرية عليه أن يأتي ماشيا من على الساحل من المدينة وهذا أفضل وأسهل من صعود وهبوط المرتفع مع الطريق الأسفلتي، للزيارة سكان العدوّة، وما هي إلا لدقائق من الحديث حتى يرجع لسان الزائر إلى لهجته الأولى، وبالطبع يمدح المكان وأسلوب الحياة مثل سائح أوربي يزور دولة فقيرة ويحسداهم على حياتهم التي يعيشونها ولكنه لا يفكر للحظة أن يترك بلده السيئة كما يدعى.

عمرت فضاية بيتها لأعوام طويلة وسعدت بابنها الوحيد التي انجبتة بعد زوجها بعام ولم تنجب بعده. عملت مع زوجها في المهنتين الأساسيتين لأهل هذه المنطقة الصيد والرعى. وعندما كبر ابنها أصبحوا الثلاثة على قدر واحد من الخبرة في هاتين

المهنتين. لا يوجد عمل للمرأة أو آخر للرجل. حتى الطهى فكثيرا يفعله الرجال. وعندما تجاوز ابنها الخامسة والعشرين من عمره، فقدته عندما انفجر لغم فيه أثناء سيره. فالقصير محاطه بكثير من حقول الألغام شمالا وجنوبا. فبعض المناطق مع طول المدة يتأكل جزء من السلك الشائك فلا يلاحظه السائر بالليل بأنه قد دخل حقل اللغام. وبعد موت الابن لحقه والده في نفس العام. أصبحت فضاية بعد ذلك تذهب كثيرا إلى العشش التي أقامتها مع زوجها على ساحل البحر من الصاج والخشب. وفي بداية كانت تقضى يوم ومع مرور الأيام أخذت تأنس بقضاء فترة أطول يومين أو ثلاثة. إلى أن انتهت علاقتها بيتها في العدو. وأقامت بصفة دائمة في عشتها. كان الغرض من هذه العشش الصغيرة أن يتركوا بها شباك وأدوات الصيد من خيوط ومخالى وصنارات وسكاكين وحراب ويكون مكان للتمليح السمك تحت أشعة الشمس وتركه فوق أسطح العشش. وأن يأتوا بالسمك المملح على حسب الطلب وخصوصا قبل انتهاء شهر الصيام في رمضان للبيع في المدينة لأنهم اعتادوا في هذه المناطق أن يكون هذا السمك المملح هو أول شيء يتناولوه في أول صباح باكر بعد شهر رمضان. ظهر موضوع العشش على البحر نتيجة للحاجة لها. ولتجعل مهنة الصيد أسهل لعدم الوجود الدائم للسيارات لنقل احتياجات الصيادين. فكانوا يذهبون إلى أماكن بعيدة عن المدينة مشيا أو بالتنقل عن طريق الوقوف على الطريق والانتظار لأوقات طويلة حتى تمر سيارة كل بضعة ساعات. فكان

الأفضل أن تكون خفيفا لاتحمل أشياء حتى تساعد السائق على اتخاذ قرار في صالح الصياد. لذلك كان لكل عائلة أو مجموعة عشة على البحر في المكان الذي يختارونه تسمى باسمهم. ولا يتعدى عدد العشش في كل مائة كيلومتر العشرين. وكل عشة كانت محاطة بالأمان لا يستطيع أحد أن يعبث بمحتوياتها في الأوقات العديدة التي لا يكون أصحابها موجودين. وهذا ليس بسبب الأمانة فكل مجتمع به لصوصه ولكن بسبب سهولته اكتشاف من سرق. المجتمع صغير ويعرف كل من يذهب للصيد متى واين وكم من الأسماك اصطاد. كانت العشة الأشهر هي عشة فضائية لأنها سيدة ومقيمة بها والمكان الوحيد الذي يجمع بين الصيد والأغنام. كانت عشتها عبارة عن مجموعة عشش صغيرة كأنها غرف يشكلوا مجتمعين حرف «ب» باللغة الإنجليزية كتب على خط موازى للبحر. توجد ثلاث عشش صغيرة متجاورة على هيئة خط مستقيم عمودى على البحر، العشة الأولى الأقرب للبحر تبعد حوالى ١٥ مترا عن الماء في أقصى مستويات امتلائه بها مدخل دون باب وفتحة صغيرة للتهوية في كل جانب ما عدا الجانب المشترك مع العشة التالية. ويعتبر هذا المكان للضيوف أو المارين للاستراحة. العشة الثانية بعدها بها باب بقفل صغير ولها فتحة بشباك يقفل أيضا. وتستخدم كمكان نوم للفضائية في الأوقات شديدة البرودة، الملابس القليلة معلقة على الجدران والأرض مفروشة بالسجاد البدوى، والعشة الثالثة مثلها تماما لتخزين الأطعمة مثل الدقيق المطحون

والأرز والشاي والسكر والبن. وكل عشة من الثلاثة لا تتعدى مساحتها التسع أمتار مربعة والسقف مترين. ويوجد عشتان يبعدان عشرة أمتار جنوبا على خط متوازي مع العشش الثلاث، مساحتهما كمساحة الثلاثة مجتمعين، الأقرب للبحر لوضع أدوات الصيد من شبك وخيوط، ويوجد بها أيضا كميات كبيرة من العيش الجاف التي تجمعها فضائية من عساكر حرس الحدود ليكون غذاء للماعز. أما العشة التالية فهي للأغنام ويكون لها باب قوى. وجعل مكانها هنا حتى يأخذ اتجاه الريح أي رائحة غير مرغوبة للأغنام بعيدا. ويوجد صف من البراميل مرصوصه بانتظام من نهاية عشة الأغنام حتى عشة تخزين الطعام، ليصل الصفيين وبذلك يصبح المدخل للعشش فقط من ناحية البحر. أربع براميل فقط للماء الشرب والباقيين وضعى بها رمال.

علاقة حامد بفضائية بدأت عندما أتى حامد للعمل في مجلس مدينة القصير بعد انتهاء الحرب بين مصر وإسرائيل مباشرة. قد أوصلته أمه أن يسأل عن فضائية. سأل عنها بعد قدومه بأيام قليلة ولكن لم يجدها في مسكنها ودله عن مكانها على البحر صديقه الجديد يونس. وصل إليها وعرفها عن نفسه فتركت غزلها وأخذته بالاحضان وقبلت يديه وأجلسته بجانبها. ومن تلك اللحظة لا يعلم من ملك الآخر. قص الاثنان على بعضهما الأخبار عن مات ومن حج ومن ولد. لم يتركها بعد ذلك. فلا يمر أسبوع إلا ويكون عندها يرتب المكان ويساوى الرمل بين العشش

بالجروف ويجمع القمامة التي يتركها الزائرون والمارون. وكان يقوم بأشياء ما كانت تتوقعها فضائية من ابنتها لو كان لها ابنة. فكان يمشط شعرها الخفيف ويصنع لها دفيترتين صغيرتين، ويحضر لها العفار دائما من القصير الذي يوزع مجانا في المدارس لوضعه على رؤوس الأطفال إجباريا مثل التطعيم لقتل القمل والصبان. وكان يونس وحدتها بأن يسامرها كثيرا ويحثها على الكلام عن قصص السابقين ممن عاصرتهم ويظهر اهتماما زائدا بالاستماع. تعلم منها الصيد. وأصبح له مع الوقت أشياء في العشة من ملابس وأدوات نجارة. زاد طوفان المودة والتعلق بالآخر بين فضائية وحامد وخصوصا بعد موت أمه بسنتين من مجيئه للقصير. حتى عندما تزوج حامد بفاطمة من عبادة القصير لما تأخذه زوجته من فضائية، ولقبه بعض الخبثاء بحامد فضائية بغرض التقليل من شأنه بينهم ولكنه تقبل الاسم عندما علمه من نداء طفل عليه في الشارع. وأحبه أكثر من اسمه السابق. وشيئا فشيئا أصبح يدعى بحامد فضائية في القصير. وكانت فضائية أسعد منه. في إحدى جلسات الجبنة حول الحطب المشتعل. أمسكت بفنجانها ورفعته أمامها كأنه كأس خمر انتشت منه. قائلة بصوت مرتفع: «أنا التي تنسب إلى الرجال، وتكتب باسمى الأماكن». هلل له الحاضرون ورفعوا أيديهم اليمنى محدثين صوتا من احتكاك الإبهام بالوسطى قائلين: «حبابك عشرة». وهذا الكلام يقال لمن استحسن حديثه.

\*\*\*\*

فى ظهيرة يوم من أيام الصيف الحارة التي تستمتع الشمس فى عرض قوتها من خلال أشعة لا توقفها أي حجب فى السماء أو تقلل من شدتها. جالسة على الأرض لا تعبأ باتساخ ملابسها من الطين المبلل من قطرات الماء المتساقطة من الزير، ناظره إلى حجرها كالمعتاد. مقتربة من الزير لتستظل بجريد النخل الجاف الذي وضعوه أصحاب سبيل الماء فوق أربعة أعمدة من الطوب اللبن. تنظر إلى الذباب الذي يحوم حولها وإلى أنواع النمل التي على الأرض وتسرح بخيالها ماذا لو كانت مثلهم لا فرق بين حشرة وأخرى. من نعومة أظافرها لم تتمنى إلا حياة الحيوانات ومع ذلك لم تجدها. أرادت قطيع شبيه بها تختبئ فيه، تأكل وتشرب وتتكاثر ولا يهمها نوع الأكل والشرب وشكل الذكر. توقفت عن ما دار بذهنها مع توقف سيارة نقل صغيرة متهالكه ككل شيء فى مصر كأن أهلها لا يعرفون الجديد، كانت محمله بأقفاص خضراوات وفاكهة وأجولة عيش وجراكن للسولار وقطع صغيرة تبدو للأجزاء من مواتير سيارات وكله متراص فى الصندوق الخلفى دون فواصل. نزل منها سائق شاب ملابسه ملصخه بالزيوت والشحوم السوداء من أثر عمل متواصل. اتجه إلى الزير وشرب حتى ارتوى فانتبه بعد ذلك إليها وإلقاء السلام واعتذر لأنها لم يلاحظها موضحا أن العطش قد أفقده بصره، واستخدم كلمة أمى فى حديثه. ارتاحت له وإلى كلماته. فعينيه التي لا يظهر لونها بتضييق فتحات الرؤية بسبب ضعف بصرى قديم يصبغه بملامح طيبة. فسائلها إن كانت تريد أن

يقلها إلى مكان في طريقة. فابتسمت متسائلة: «والى أين أنت ذاهب؟». فأخبرها أنه مسافر إلى القصير. فحمدت الله على فضله وكرمه بأنها منتظرة منذ وقت طويل أي عربة تأخذها إلى موقف السيارات الأجرة. فاستعجب الشاب وأثنى على الحظ. ولكنه نهر نفسه سريعا على تفكيره هذا مستغفرا لله كأنه أخطأ في الذات الإلهية وغير كلامه ليرجح كفة التوفيق من عند الله بكلمات يحدث بها نفسه بصوت مسموع ويمدحها بعد ذلك موجها لها كلماته: «لابد أنك كنت باره بوالديك وبك شيء لله، فأنا منذ الصباح يقتلني العطش وكلما اقتربت من مكان لشرب الماء يحدث شيء فينسينى حتى أتخطاه إلى أن وصلت إلى هنا». أعطته الحماس والانبهار المطلوب في مثل هذه القصص. فهو سيصبح بعد قليل صاحب فضل عليه وسوف يأخذها معه في هذه السيارة التي ربما سوف تطلب منه المساعدة أيضا في كيفية فتح الباب. لا تتذكر آخر مرة شاهدت سيارة. وحدث ما توقعته لما تعرف مكان فتح الباب، لكن الشاب ساعدها ظانا أن الأوكرة لا تعمل جيدا بعد الأحيان لقدم السيارة. انطلقت السيارة في الطريق المؤدى إلى قرية قفط حتى تتأخذ بعده الطريق الصحراوي للبحر الأحمر. فالرحلة قد تستغرق ثلاث ساعات متواصلة أو أكثر. المسافة حوالى ١٨٠ كيلومتر حتى ينهوا الطريق الصحراوي. بدأ الشاب في الحديث عن عمله في البحث وأنه أهم شخصية بالنسبة للمعسكرات الجيولوجيين الذين يعملون في الجبال. لأنه هو المسئول عن نقل الطعام والماء وكل ما يحتاجون.

وزادت نشوة الشاب وافتخاره بنفسه لأنه كان عليه أن يشرح معانى لكلمات كثيرة للجالسة بجواره، فكان يتعمد استخدام كلمات مثل جيولوجى ولاند لوفر ويورانيوم وفوسفات وروسيا وأوكرانيا. هي كانت تسمع كثيرا ولما تسأله عن أي كلمة غامضة. هو الذي كان يسألها بعد نطق الكلمة «أتعلم ماذا تعنى؟». ولا ينتظر الرد ويخبرها مسرعا كأنه خائف من جوابها بنعم أعلم. استمتع الشاب بالطريق بسبب قصصه. شعر بقيمته وذاته كما ينفس المسافرون في القطار عن أنفسهم مع أشخاص لا يعرفونهم ويستمتعون بتغير حالهم إلى الأفضل حتى ولو كان غير حقيقى. وهي بدورها قصت عليه من أين أتت ولماذا ذاهبة إلى القصير. وفي منتصف الطريق عندما انتهت الحكايات البطولية للسائق أخبرها أنها تستطيع أن تنام قليلا إذا أرادت فليس عليها أن تقلق فإنه يستطيع أن يقود لمدة ثلاثة أيام متواصلة دون توقف. ابتسمت كعادتها مؤيده رأيه.

سيدة تجاوزت الخمسين بقليل. لم يبذل أبوها جهد في البحث عن أسما لها. فاتحة البشرة، قصيرة، وجهها مليء بتجاعيد كثيرة قد يكون بسبب نحافتها الشديدة. وجهها كمثلث قاعدته جبهتها. بها وشم أخضر عبارة عن خط يبدأ من أسفل منتصف شفتها السفلى ويمتد ليقسم ذقنها لنصفين وينتهى الوشم أسفله. كانت تأتي إلى القصير مع أهلها أيام الطفولة وأول أيام الشباب من قنا لبيع القماش والتسول بعض الأحيان وكانوا يدعوهم الناس بالحلب، أي الذين ليس لهم أصل وجذور وغالبا

دون سكن دائم. بعد ذلك توقفت عن المجيء بسبب زواجها من رجل يكبرها بأربعين عام على أقل تقدير فهي لا تستطيع الجزم في ما يكتب في شهادات الميلاد والبطاقات الشخصية لجهلها بالقراءة والكتابة. هذا العجز له أبناء من زوجته السابقة التي لم يمر عام على وفاتها إلا وكانت هي في بيتها. لم تعلم كم دفع العريس لأبيها حتى يتركها له، واعتادت الأيام في البيت الجديد لم تشعر بالقسوة على الرغم من وجودها لأن ما مرت به في صغرها يجعلها لا تقيم وزنا لما تلقاه من أبناء الزوج ومن الزوج نفسه. لا مانع لديها إذا ضربها زوجها فهو لن يستطيع أن يصل إلى درجة التعذيب التي كانت تصل إليها عندما كانت طفلة صغيرة. يكيل لها الضرب باليد وبالرجل وما عليها إلا أن تكون صامته لا يخرج صوتها خارج البيت وتغطي نصف وجهها من تحت عينيها بطرف الشال الأسود الخفيف الذي على رأسها. وتردد على مسامعه «حاضريا خويا أو يا حج». أسباب الضرب تافهة مثل نتيجة سؤال يخرج منها له في وقت يجده زوجها أنه غير مناسب مثل «أين ذاهب يا حج؟». أو وجود شعرة في إناء اللبن. لا توجد أسباب للغضب أكثر من تلك. اليوم مثل سابقه لها، الاستيقاظ فجرا لتقديم الأكل للمواشى والتنظيف حولهم وحلب البقر وبعد ذلك تحضير فطار وغذاء وعشاء وبين الوجبات كنس البيت من التراب المتواجد به دائما ورش الماء على أرضية البيت داخل وخارج حتى لا يحدث غبار من الأتربة. لا جديد طيلة العمر الطويل الذي امتد إلا زيادة جرعة القسوة من قادمات جدد بعد زواج الذكور من أبناء الزوج

وانضمامهن إلى حظيرة البيت. تذكرتهن وتذكرت حالها في أسى وهي صامتة تسمع صوت الماتور العالى للسيارة كأنه يريد أن يخرج من العربة وتنظر إلى الجبال العالية، كل شيء تغير ليلة أمس بعد استمرار أيامها المتشابهة، لم يقرب من ثلاثين عام على الارجح مع زوج كهل امتد به العمر كأنه تغذى على أيامها، فكانوا دائما يتندرون بأبنائه أنهم لا يبد أن يفعلوا مثل أبيهم ويتزوجوا فتيات صغيرات. وبالطبع كان هذا سبب إضافي لكره الزوجات لها. فقد اجتمعوا الأبناء الذكور في البيت وأبوهم على فراش الموت لا يتكلم ويأكل بصعوبة والقرح ملئت ظهره بسبب عدم قدرته على النهوض وتبولة الدائم على السرير. وبعد انتهاء اجتماعهم اتضح لها بأن الجمع كان بسببها. أتوا بها إلى مجلسهم وأخبروها أن والدهم قد طلقها، صعقت من الأمر لأنها لم تتوقعه عندما كان زوجها بصحته فكيف فعل هذا وهو لا يستطيع أن يقرر متى يتبول وأصبحت الدنيا بالنسبة له خارجة عن حساباته. وعندما قررت أن ترد في حياته لأول مرة وظهر على وجهها الاستغراب وأن أعين الأبناء لا تريد النظر إليها. اقتحمت الغرفة زوجة الابن الأكبر. وكالت إليها الشتائم والسب، وأنها بلا شرف أو أصل وأنهم تحملوه في البيت بعارها طيلة العمر بسبب حماه كخادمة وأن سبب وجودها قد ينتهي خلال أيام. وأنهم لا يستطيعون أن يرفعوا رؤسهم بسببها وأن بناتها قد تأخر زواجهن بسبب نفور العائلات من دخول بيت به حليية. قام بعض الأبناء باسكات الزوجة مطالبين الابن الأكبر بأن يوقفها ليس

رحمة بزوجة أبيهم. ولكن لرغبة ذكورية كيف لأنثى بأن ترفع صوتها بين الرجال وإن كانوا كلهم داخلهم شاكرين لها فعلتها؟! ولكن روتين التقاليد لابد أن يتبع. لم تنطق بكلمة تستوضح كيفية الطلاق المزعوم. تركوها هذه الليلة في بيتهم وأخبروها بأنها عليها أن تذهب لأهلها غدا وسط نظرات شماتة من الزوجات. فكلهم لا يعلمون لها أهل منذ أن دخلت بيتهم. فقد انقطعت عن رؤية أهلها نهائيا كأن هناك اتفاق بين زوجها وأبوها بالألأ يمرروا بالقرية بعد أن تركوها له. جمعت ملابسها ولفتهم في شال. وعند خروجها من حجرة نامت به ليلتها لأنهم لم يسمحوا لها أن تنام على فرشتها على أرضية الحجرة بجوار سرير زوجها في المكان التي اعتادت عليه طوال الأعوام السابقة فالرجل أصبح غريب عنها كما أخبروها، وجدت في الصباح التالي الزوجات وبنات زوجها جالسات على الكنب وبعضهن على الأرض. وابتسامات كريمة على وجههن لم يتكلفن أن يجعلن لها غطاء. وعندما همت أن تنطق بتوديعهن المربك لها فهي لا تستطيع حتى الاختيار بين أن تظهر غضبها وسخطها بسبب ما آل إليه مصيرها أو تحاول معهم مرة أخرى بكلمات الاستعطاف وتستجدي الرحمة من قلوبهن، ففك هذا الارتباك خطف طفل من أبناءهن البقجة التي في يديها وجرى بعيدا فقامت أمه وراءه متكاسلة وهي تبتسم بخبث وتنادى عليه بسخرية واضحة وسط ضحكات مكتومة للباقيات بأن يحضر أشياء جدته. وما كان هذا إلا ملعوب منهن ليعرفن ماذا أخذت معها. لأنها عندما فتحت بوقجتها عند الزير وجدت بعض

الملابس ناقصه. تأسفت على أيامها السابقة معهم. استهلكت عمرها لهم. طالما حاولت ترضيهم لم تجعل نفسها أبدا مساوية لهم. تعودت على أكل بقاياهم من الطعام بعد أن يتركوا لها جمع الأطباق والطواجن التي اكلوا فيها حتى تظهر لهم أنها ليست كالجائعات من أبناء الشوارع حتى فقدت مع الأيام قدرتها على الأكل مع أحد. تكلفت في نظافتها، حرصت عمرها كله على أن تؤدي دور الشرطى الأمين الذي لا يعبت بشيء حتى ولو بخت ثمنه. مع ذلك لم يغيروا ما زرع في عقولهم من من سبقوهم. فكان لا بد أن يتم التفتيش فيما تحمله. فهل سوف يتعلموا من هذا الدرس بأن عليهم إلا يظلموا الناس باحكام مسبقة توارثوها بعد أن وجدوها أمينه. بالطبع لا.

توقفت السيارة على جانب الطريق في الصحراء. ونزل منها السائق وفتح غطاء الماتور لتبريده وإراحته وأخرج بيده جبنا قديما شديد الملوحة من جرة معه وضعها في طبق ألومنيوم قديم كثير النتوءات والقطع في دورانه العلوى كأنه مقذوف من طائرة على قمة جبل علية في صحراء مصر الشرقية، ثم أخذ ينحدر إلى الأسفل وهو يرتطم بالصخور الصلبة حتى وصل إلى الأرض فوجده بعد ذلك هذا السائق أثناء رحلاته الاستكشافية مع الجيولوجين. صب بعض من السائل الموجود بالجرة المملوء بديدان صغيرة بيضاء فوق قالب الجبن. وقدم الطعام إليها فأكلت معه شاكرة دون انزعاج من الدود فهذا نوع من أنواع الجبن المنتشرة في مصر. كل شعوب له غرائبها ولكن لا يراها غريبة إلا الغريب. ومن شب

على شيء يعتقد بأنه الأصلح. وبعد انتهاء وقت تبريد الماتور عاد السائق إلى مقعد القيادة. ورجعت هي إلى ليلة أمس مرة أخرى وأخذت تعاتب نفسها على أنها كانت لا بد أن تدافع عن موقفها. كيف يتم التطليق من رجل مريض لا يستطيع الكلام، لا بد أن تسمعه يرمى عليها يمين الطلاق كما يقولون. لماذا لم تذهب إلى شيخ البلد وتخبره بقصتها وأن يحضر المأذون ويسالوه عن شرعية هذا الطلاق وبذلك سوف توقف كل ترتيبات الأبناء والزوجات. ولكن إذا فعلت هذا لن يتركوها أبناء زوجها أن قالوا عليها أي شيء سارقه زانية لها في السحر. سوف يصدقهم الناس فهم أبناء أصل أما «أنا حلبية، نعم حلبية حلبية» كررتها بصوت منخفض مسمعه نفسها «أن هذا هو أصل المشكلة. فأنا لن اسبب لهم عقبة في الميراث فأنا امرأة لا تورث. حتى بناته لن يرثن فيه. سوف يأخذن شيئاً من الترضية من الذكور. هم أرادوا فقط أن يبعدوني عنهم ويدعون الله بقلوب خاشعة في كل صلاة أن ينسى الناس فعلت أبيهم». أغلقت عينيها غير نائمة حتى سمعت بعد قليل صوت التة التنبية. ففتحت عينيها فوجدت مقام الشيخ عبد العال على الطريق. فعادة السائقين أن يحيوا المقامات التي على الطريق كأنهم أشخاص أحياء. فابتسمت أنها ما زالت تتذكر رغم مرور العمر أن ما يتبقى على دخول القصير ٢٥ كيلومترا. بدأ الهواء في التغير ليصبح الطف من سابقه ولكن انتابها ألم في أمعائها بسبب المجهول الذي ذاهبه إليه. كل ما قالت له للسائق عن سبب قدومها إلى القصير وليد لحظة ضياع. وما شجعها على الكذب

واختلاق قصة وهمية. السائق ليس من القصير وأنه لابد أن يكون لها حكاية بديية ونهاية. الناس تخاف من المجهول وخصوص لو كان من امرأة. هل كان سوف يعذرها لو علم بكذبها بالطبع لا. ولكنها أراحتة وأراحت نفسها. فنحن نكذب لأن كل منا يحتاج للآخر ولو زال هذا الاحتياج ما الداعي للكذب؟ دخلت السيارة أطراف المدينة الغربية وخلفها تتوارى الشمس لتختفى وراء الجبال. شكرت السائق وغادرت العربية. لم يتغير الكثير منذ الطفولة إلا زيادة قليلة في عدد البيوت. مشيت قليلا بجوار الشارع الأسفلتي على التراب فوجدت بعض الرجال جالسين بجوار باب حديقة نخل هي الوحيدة في القصير يوجد بها أشجار نخل لا يتجاوز العشرين نخلة ولكنه بالنسبة لأهل البلد كثيرة في منطقة أرضها قريبة من البحر. ألقى عليهم السلام وسألتهم عن شيخ البلد. فهما أصغرهما بالسؤال عن السبب فنهزه شخص أكبر منه سنا بنظرة صارمة. فنادى هذا الرجل على طفل صغير ممن يلعبوا أمامهم ليدلها على بيته. وسمعت وهي ماضيه مع الطفل صوت زجر وتوبيخ من الشخص الأكبر لمن سألها عن السبب ولن تتذكر مستقبلا ان ذلك المتطفل كان منصور. لم يستغرق وصولها إلى منزل شيخ البلد إلا دقائق معدودة. طرق الطفل الباب وعندما سمع صوت أقدامه تركها وهرب. فتح لها الباب رجل طويل أسمر ذو شنب طويل وكثيف أبيض يزين وجهه بوقار. بعد السلام. خرج وجلس على المصطبة وجلست هي على الأرض أمامه. هناك أمور تتم دون استفسار أو شرح. هي غريبة محتاجة

لديها مشاكل. قصت عليه قصتها بصدق كما هي. استمع إليها باهتمام. صدقها الرجل ولكنه لم يظهر وسالها بعد أن انتهت ماذا تريد منه. «المروءة» كلمة وحيدة نطقها للسؤاله وهي ناظره للأسفل. مسح كفيها ببعضهم كأنه يغسلهم وصفق بصوت منخفض قائلاً: «للمروءة أسبوع أو اثنان تكونين ضيفة علي معززة مكرمة حتى أعلم ما وراءك بالسؤال في قنا في قرية زوجك. فإن كان ما قلتيه صدقاً عشت بيننا وسوف أدبر حالك بنفسى». فأدخلها بيته. فساعدت أهل البيت على العمل ولم يشعر بها أحد حتى استدعاهها بعد عدة أيام قليلة ليقول لها بجدية: «مبروك نجحت في الامتحان». فقد علم بصدق قصتها وعزائها في زوجها الذي مات بعد يوم من مغادرتها. رسمت ملامح حزن على وجهها احتراماً للتعبيرات شيخ البلد أثناء تعزيتها. ومن ذلك اليوم تعيش سيدة في حجرة صغيرة بمنطقة تسمى العوينة بناؤها لها شيخ البلد من الطوب اللبن فوق هضبة صغيرة مرتفعة بالقرب من بيوت قبائل العبابدة لعزوف الناس عن السكن فوق هذه الهضبة لأنهم عندما يبنون بيتهم يحفرون بئر حتى يصلوا إلى الماء ليكون صرف للمياة. لذلك لم ينزعج أحد من أخذها تلك الأرض. ومرت السنين واشتهرت سيدة الحلبية في القصير بين الناس كدلالة لبيع القماش وامرأة تضرب الودع. والنساء هن من دفعوها لضرب الودع هذا بسبب اسمها الذي يوحي لهم بأنها تجيد معرفة الطالع لأنها من الحلب. وسكنها في الأعلى وعدم خوفها من الظلام مع قلّة الكلام أحاط بها بغموض جعل منها شخصية

مناسبة لهذا العمل. وإن كان داخلها سببان رئيسان؛ الأول مادي، فما تحصل عليه من الخدمة في البيوت قليل ولا يكفي. لأنها فقيرة تخدم فقراء أحسن حالا. والسبب الثاني معنوي ساعدها فيه ذكائها هو حبها لاستكشاف المستقبل ببعض الإشارات التي تعتقد فيها مثل تفسير حلم أو جفن عينها اليسرى يهتز بعض الاوقات فهذا دليل شؤم قادم أو إحساس مفاجئ في كف اليد يتطلب الهرش فهذا يعنى أموال قادمة، وغرامها بالحظ فقدومها للقصير تركته للقدر، وحتى عندما كانت تريد أن تحلب بقرة في الماضي ترمى قشة في الهواء وتترك للريح أن توجهها لتقع على ظهر واحدة من البقر لتحلبها. كل هذا دفعها للضرب الودع للنساء و الرجال وأصبحت تخدم بالنهار في بعض البيوت إذا كان عندهم مناسبة كفرح أو ظهور أو أسبوع للمولود. وفي العصر تمشى إلى زبائنها الكثر في المدينة. فأصبحت كمدرس يعطى دروس خصوصية في البيوت ملتزم بجدول مواعيد السبت والأحد مناطق العباددة. الإثنين والثلاثاء والأربعاء بيوت القصيرية. والخميس والجمعة مناطق الصعايدة الجدد. لدرجة أنها عندما تشاهد في حى يسأل الشخص الذي رآها لنفسه «أي الأيام اليوم؟». وكان الودع ملفوفا في منديل قديم تحمله في طيات ملابسها تخرجه عندما يطلب منها. فيحضروا طبق واسع به رمل. فترمى السبع ودائعات في الطبق بطريقة عشوائية. كان الودع عبارة عن ودع صغير بحجم أصغر عقلة اصبع يصبح لونه أبيض كقشر البيض بعد فترة لخروجه من ماء البحر، فتجعل الودع نوعين

ذكور وإناث. الذكور هو الودع المكسورة ظهره. وبعض الأحيان يرمز الودع الذكر عندها بالسيارات تبعا لتفسيرها. فمثلا بعد رميها للودع في الطبق إذا وجدت ودعة ذكر فوق ودعة أنثى فهذا دليل على زواج قادم. ولو أصبح الودع الذكور متراص في صف فهذه إشارة إلى ضيوف قادمون. وكانت دائما تختار الشيء المفرح لمن تضرب الودع له. كانت تمر كثيرا أمام البيت الكبير في منطقة الأوانجى طالبه الود في خدمة أصحابه ولكن لم تلق بوادر للاقتراب من صاحب البيت كأنه منطقة عسكرية له. وكانت تحدث نفسها أن الأوان لم يأت بعد فكل شيء بأوان وميعاد. هكذا كانت تصبر نفسها مستلهمه قصة المكان القديمة التي عرفتها من بعض عجائز المدينة. هذه المنطقة لقبت بهذا الاسم لأنها كانت مكان لتجمع الجمال حاملة البضائع منذ أعوام ماضية بعيدة في القرن السابق يتذكرها الكهول من المدينة. وتلك الجمال كانت تتدلى من رقابها علب صغيرة من الصفيح كعلب العصائر المعدنية تعمل مثل الأجراس فإذا سمعها أهل القصير قادمه يقولون الأوان جه بالعامية أي الميعاد أتى ومع الوقت أصبح الكلمتين تنطق ككلمة واحدة وسمى المكان بها الأوانجى ونسى الناس أصل الكلمة واعتقدوا أنها كلمة تركية مثل السفراجى أو العربجى وهكذا.

سيدة ليست المرأة المحببة إلى التملق والنهم في جمع المال ولكن اعتيادها على خدمة الآخرين منذ طفولتها جعل نفسها ترتاح إلى العمل في بيوت عليية القوم لاستساغة الذل منهم وأنه

أسهل من التغيير اليومي. فبعد ممات الصول ناصر وجدت الانس من القائد الجديد الحاجة منيرة. فكانت تجالسها وتسامرها. وكانت تأتي أحيانا لتخبر الحاجة في بعض الأوقات عن بيع للسّمك طازج أو وجود حمام صغير أو بعض الطيور الأخرى في السوق مثل البط فإذا وافقت الحاجة على الشراء. تهرول مسرعة للشراؤها لها. كانت تنظر إلى البيت كأنه الجنة تطوق إلى دخوله. لم يسمح لها أبدا بدخول. إن كان الصول غاب فإن فاروق لم ينظر لها برضا ولا حتى مرة واحدة في مرات التقاء الأعين أمام البيت في خروجه ودخوله وكانت تصمت الحاجة منيرة عندما يراهما معا على المصطبة كأنه قبض عليها متلبسة بذنب. مع مرور الوقت يتضح ما كان غامضا في ماضيه. فاروق يكرهها لنزعة دينية استولت عليه وشكلته. يطلق عليها «العرافة» عندما يذكر اسمها أمامه عندما يكون مع امه. وأكثر من مرة حذر الحاجة منيرة من الجلوس معها وكان يزيد وهج هذا البغض لها بعض النساء والفتيات التي كن يدخلن البيت تحت مسمى مساعدة الحاجة منيرة لأنهن قد احتالن على أنفسهن بانهن هنا كمساعدات أما تواجد هذه الحلبية في نفس العمل معهن يوقظ بثناياهن ظلال كبرياء اختفى أصله. وذات يوم كان الشيخ هارون معزوما عندهم كالعادة وأثناء رجوعه من الحمام بعد غسل يديه استوقفه فاروق في الصالة حتى يرقى ابنته الصغيرة لكثرة الأحلام المزعجة التي تفرزها فانتظر الشيخ هارون على كنية. فأتت الحاجة منيرة ممسكة بيديها تشجعها

على القدوم. حيا الشيخ هارون الحاجة باحترام زائد لا يمكن أن يفعله أمام الناس وغطى يده بطرف عباةته ليسلم على الحاجة حتى لا يلمس يدها. وفاروق واقفا متفاخرا بصديقه. المتبع للكتاب والسنة في كل أموره. وضع الشيخ يده على رأس الطفلة وأخذ يتمم بكلمات غير مسموعة ينطقها بسرعة. الكل يعرف ماهية هذه الكلمات إلا الطفلة. وبعد أن انتهى سأله فاروق مبتسما بخبث ظاهر أمام الحاجة عن مصير من تضرب الودع، لم يعجب الحاجة السؤال ونظرت لابنها في عتاب واضح. لم يهتم فاروق وأصر على السؤال. أطلق الشيخ هارون ضحكات منخفضة مصطنعة متقطعة في حياء وانسل مسرعا تجاه الغرفة التي كان يتناول فيها طعامه. بقى في الغرفة لبرهة من الوقت كافية لتسليك بقايا الطعام بين أسنانه بلسانه مع تحريك فكه السفلى وخروج أصوات من فمه أثناء هذه العملية كصوت فاروق في مصيدة. الشيخ هارون قادم من قوص منذ أعوام مضت. لقي تعليما أزهريا وأتى إلى القصير كشيخ للجامع الأكبر. له سكن داخله خاص. قصير القامة، أصلع الرأس لا ترى إلا في حالات نادرة بسبب عمامته، بدين، ذو ابتسامة مصطنعة يرسمها عند مقابله الناس تفضح عدم صدقها عينيه التي لا تبتسم مع ظهور أسنانه شديدة البياض نتيجة لاستخدامه الدائم للمسواك، ذو لحية كثيفة مطلقها دون تهذيب، مخفف الشارب، مظهر لحيته بشاربه غريب عن أهل القصير في ذلك الوقت لم يروا هذا الجمع بين اللحية والشارب بهذه الطريقة، لاحظ هذه الدهشة منذ أن

قابل أول شخص في المدينة، فأصبح أول همه في أمور الدين أن يكرر عليهم في دروسه ومقابلاته العابرة باهل البلد فضل اللحية وأنها طاعة وحائق اللحية مخالف لقول النبي وفعله وفعل الانبياء السابقين له ولكل أصحاب النبي. فيخبرهم بحديث نبوى في صحيح البخارى للاحاديث النبوية (انهكوا الشوارب واعفوا اللحي). فيعلوا صوته بعد ذلك ملوحا بسبابته في حركة ذات مغزى للوعيد ويتلوا عليهم آيات من القرآن مثل «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا»<sup>(\*)</sup>. ثم ينظر بعد ذلك في وجوه من حوله في مشهد مسرحى بارع لأنه قام به كثيرا. مظهرا كم الاسى والاسف على حالهم. لأنه مصدقا لكلامه مقتنعا تمام الاعتقاد بما قال. فهو لا يكذب عليهم فيما أخبرهم به لأنه نابع من قناعات بذرت داخله من صغره. أشياء أبسط من حلق اللحية تجعل الإنسان في النار بعد الممات في كتاب العقوبات الذي يوجد في رأس الشيخ. مع أن المجتمع في المدينة في وقت قدوم الشيخ هارون يعتبر مثالي له ولأفكاره فمعظم الناس أميون لا يقرءون ولا يكتبون ولا توجد في أذهانهم أي شيء يعارض راي قادم من الجامع أو رجل دين. وحتى من يجيد القراءة لا تحميه من سهام إذا كان راميهاممثل للدين. ولكن غلبت أشياء أخرى جعلت اهداف الشيخ هارون الدينية تتأخر في تقبلها عند أغلب الناس إلا من بعض صغار السن والمراهقين الذين

(\*) سورة النساء آية ١١٥.

كانوا يملؤون الجامع في كل خطبة جمعة وينبهروا بكلامه وقصصه. ومقارنته الدائمة بين الأيام الحالية التي يكثرفيها الفساد والموبقات وبين الحياة في أيام النبي من أكثر من ألف عام وكيف كان الإيمان وحلوته بين أفراد المجتمع. من امثلة الأشياء التي كانت حاجزين للناس والشيخ هارون، علاقة الصداقة التي جمعت بينه وبين فاروق حليق اللحية. وزادت هذه العلاقة أكثر بعد موت الصول ناصر. قدم الشيخ هارون كل عرابين المحبة والود. أقام الثلاث الليال للعزاء في الصوان الذي أقيم في الشارع أمام البيت. كان أكثر ظهورا من منصور ابن المتوفى. ألح في طلبه للفاروق بالألا يحضر شيخا يقرأ القرآن فقام هو بتلاوته في الثلاث ليال للعزاء كأن المتوفى أب بار له خرج هو من صلبه. سمع كالأخرين في المدينة عن حديث الأموال التي تركها الصول ومن أين حصل عليها. فداعب قلب صديقه أكثر من مرة على مسامعه في خطبة جمعة قائلا: «إن له صديق شديد الإحسان للفقراء ولكنه يحب أن يحسن في الخفاء». كل الموجودين في الجامع تتجه ابصارهم للفاروق أما في مكر وسخرية من نفاق الواقف أعلى المنبر أو نظرات رضا من فعل الخير مع تذكر مقولة يخرج من ظهر الطالح صالح. فلا صديق غنى للشيخ في القصير إلا واحد الذي يعزمه دائما في بيته.

دخل فاروق مبتسما متسائلا بمزاح غريب عن طباعه لا يلائمه لثقل الظل المتوارث: «كيف يا شيخ لم تجب على السؤال،

ألم تأخذه في الأزهر؟». فعاتبه بود الشيخ هارون مستنكرا ما فعله فاروق أمام الحجة، وسرد موضحا أن الذنب على من تعمل بالدجل أما الحاجة فلا جرم عليها. وحديث من أتى عرافا أو دجالا فلقد كفر بما أنزل على محمد. هذا وزر من يذهبون إليها لهذا الغرض. أما اختلاط الحاجة بها فهو من نوع آخر. سيد و خادم. تحسن لها. وأخذ يعدد أسباب تبرئة الحاجة الأم بالبراهين الدامغة في نظره. فهارون سطحى المنطق في الدين كاغلب المتدينين ذو ذاكرة حديدة يستخدم آيات قرآنية وأحاديث عن النبى تثبت صحة منهجة وأسلوب حياته هو ومن على شأكلته. ينقل الكذب والخرافات على أنها حقائق إذا ظنوا أنه خير للإسلام. آمن مثل كثيرين أن الحق هو ما توارثوه عن أجدادهم. الفرق شاسع بين الرضا مما وجدت نفسى عليه والتفاخر على من يختلف معى بأنى الأفضل. فهذا منطلق قبلى. حتى حدود الدول قبلية في درجات مرضية خفيفة. فالشيخ هارون سعيد أنه ذكر مسلم صعيدى عربى. كأنه أختار ذلك قبل أن يولد أو أن ذلك اجتهاد سابق له في الأزل أتاح له هذه النتيجة. نزعتة القبلية تختفى عندما لا يكون لها القوة. ويظهر هذا عندما تتيح له المناسبات مرات بالجلوس مع جماعات من قبائل العبادة فلا يستطيع أنكار فخرهم بانسابهم القديمة ورفعته أصلهم ويرجع هذا ليس لعدم قدرته على التشكيك فيما يقولون ولكن لخوف من جمعهم فكان يلجأ إلى الدين ويستحضر الكلمات المستهلكة كثيرا مثل أن الإسلام ساوى بين الناس ولا فرق بين عجمى ولا عربى إلا بالتقوى.

المحبة أو المصلحة قد تغير أشياء كثيرة. نفس الحدث ونفس الفاعل ونفس القانون وقد يتغير الحكم تبعاً للقاضى. أو ثبت القاضى والقانون والحدث وغير الفاعل سينتج حكماً جديداً. أفراد في مجتمع تحكمه معتقدات تجعل من البريء مذنباً والمجرم سيدياً. غارقون في مستنقعات ويلطخون وجوههم وأجسادهم بالوحل وينظرون إلى بعضهم شاكرين الحظ والقدر على وجودهم فيه.

خرج الشيخ هارون من الباب، يصحبه فاروق مودعاً. وقبل أن ينهى درجات السلم لاحظ وجود شخص على المصطبة الملاصقة للبيت. وتبددت علامات السرور وانقشعت السحب الظليلة وأتى وهج الصيف على الوجه فضاقت العينين من شدة الحر. رآه الجالس ينظر إليه فوق وتقدم نحوهما في خطوات بطيئة ليسلم عليهما. انتظروه في تملل متعمد اظهاره. فاروق ما زال أعلى السلم جاعلاً الباب مفتوحاً بيده اليمنى ويظهر نصف جسده... ليعطى انطباعاً بأنه متعجل في قفل الباب. سلم على الشيخ هارون باليد ونظر بعد ذلك إلى درجات السلم ليصعد لفاروق فضحك الشيخ هارون بصوت خافت معترضاً أمراً إياه بأن يلوح بيده فقط بالسلام للحج فاروق. ونظر بعدها لفاروق بابتسامة ذات معنى وحرك رأسه بسخرية قائلاً بصوت منخفض: «ورانا مشاغل». ثم رفع يده مستدركا: «سلام يا حج فاروق». ليقتفل باب البيت بعد ذلك وينفرد الشيخ هارون بيونس ماسكاً ذراعه الأيمن فوق كوعه بقوة ومقترباً من إذنه قائلاً بهمس كأنه

سيخبره بسر: «قال رسول الله (من أطلع في بيت قوم من غير إذنه  
حل لهم أن يفقؤوا عينه)». وأشار بعد ذلك بيده إلى المصطبة التي  
كان يجلس عليها يونس مستفسرا عن سبب جلوسه عليها دون  
أن يعلم أهل البيت بأن هناك من يتلصص عليهم تحت الشباك. ولما  
أراد يونس أن يخبره أنه ألقى الاستراحة هنا تحت شجرة النبق منذ  
زمن، لم يمهل الشيخ هارون ذلك وأكمل حديثه قائلا: «يعنى  
لوقع الحج فاروق عينيك يبقى حلال شرعا». وتركه وغادر  
مسرعا يتمت بكلمات واصفا يونس بأنه صبي لزج. لم يحاول  
يونس أن يوقفه ليبرأ ساحته فهذا طبعه وارتاح بأنه تخلص من  
قرب فم الشيخ هارون لوجهه الذي تخرج منه رياح محملة برائحة  
الضن كأنه مر على وادٍ ضيق ممتلئ بالخرفان في يوم شديد  
الحرارة مرتفع الرطوبة.

\*\*\*\*

يونس شاب لم يتجاوز الثلاثين من القصيرية. متوسط الطول.  
نحيف ذو شعر كثيف اعتاد أن يقصه بعد خروجه من الجيش،  
ملاحظة مريحة، مغلوب على أمره منذ الصغر، لا حيلة له في  
أي شيء، لا يشاوروه في أدق التفاصيل وأهمها في حياته وهو لا  
يمنع أبدا بذلك. لا يعرف أن هناك كلمة في اللغة يستطيع  
أن يستخدمها وهي «لا». يلبي كل ما يطلب منه. اجلس هنا يا  
يونس؛ حاضر، اذهب الآن؛ تمام، كل، اشرب، نم؛ ينفذ، حتى إذا  
صادف وجوده مع مجموعة تدخن الحشيش أو تشرب البيرة إذا أراد

أحد أن يستهزء به ويقدم له مما معهم كان يصمت مبتسما دون أن يمد يده. حتى يتطوع أحدهم بنهر هذا الشخص. لا يدافع عن نفسه. رحم من الإساءة بالضرب بعد أن تخطى مرحلة الطفولة. كان يشاهد أحيانا وسط جمع من الأطفال في مثل سنه يتناوبون عليه بالضرب بالأيدي والأقدام كأنه متظاهر أحاط به الجنود من كل جانب أو لص تم ضبطه بمعرفة الأهالي. كان الأطفال يخرجون عليه هذا العنف ليس لشيء قد بدر منه ضدهم، ولكنه كان عنفا فائضا لديهم يخرجونه على من هو أضعف منهم كيونس والقطط والكلاب. ومع كل هذا الذي تعرض له في طفولته لم تصبغ طباعه بالذلل والمسكنة وإحساس القهر حتى يداهن هذا ويستعطف ذلك. ربما يكون هذا لأنه لا يريد أي شيء من أي شخص. يشعر بمرض في جسده منذ الطفولة ولكن لا يعرف لماذا هذا الضعف. لون أظافره زرقاء ملتوية بتقوس واضح. إذا فعل مجهود زائد يشعر بضيق في التنفس وضربات سريعة في قلبه، اكتشف مرضه بعد أن قضى ستة أشهر في الخدمة العسكرية. رأف بحاله ضابط صغير في الجيش وأخذ على عاتقه مسئولية إثبات مرضه (عيب خلقى في القلب ولد به) لأنه لا يصح أن يبقى في الجيش. وبعد أن اثبت مرضه رجع إلى القصير وبالحاح من والده واخوه الكبير في أذن عضو مجلس الشعب الأستاذ تهاى تم تعيين يونس في مسجد صغير تابع للوزارة الأوقاف كعامل. له أخ واختان فرحوا جدا بهذا الحدث العظيم بالنسبة لهم بطريقة مبالغ فيها. قد يرجع هذا الحزن أصابهم بعد ذهاب يونس

للكشف عند طبيب لأمراض القلب في مدينة أسيوط في وسط  
صعيد مصر ومعرفتهم بأن أخوهم الأصغر لن يستطيع الزواج أبدا  
ولا تصلح معه أي عمليات في عمره هذه. عليه فقط أن يتابع  
الطبيب ويلتزم بالتعليمات إن أراد أن يعيش فترة أطول. يونس  
لم يهتم بما قاله الطبيب كثيرا. وعدم الانزعاج ليس واردا نتيجة  
عدم إدراك أو تبدل في المشاعر. قد ينزعج لو كان هذا الكلام  
موجها إلى أحد من أسرته أما هو لم يوتر فيه. رجع من أسيوط.  
مارس حياته الطبيعية كما هي. يحب أن يمشى كثيرا في  
القصير بالطبع أصبح يتوقف كثيرا أيضا، اعتاد على ذلك وله  
أماكن جعلها نقاط وقوف كأنه أتوبيس نقل عام في القاهرة.  
من أهم نقاط الوقوف مصطبة الحاجة منيرة. عاشق للكرة القدم  
كمشجع يعشق نادى مصرى يسمى «الزمالك» مثله مثل كثير  
من القصيرية. معظم المدن التي تطل على بحر تجد مشجعين  
كثرا لهذا النادى للمؤازرته، ولا يعلم السبب. يشعر بكيانه  
عندما يقرأ لمن حوله بفضل سنواته القليلة في المدرسة الوحيدة  
في المدينة ماذا كتب في المجلات عن النادى واللاعبين فيه. لقلته  
من يستطيع القراءة في ذلك الوقت. كان مكانة المفضل وقت  
المباريات أن يلتف مع الآخرين للسماع الراديو وقت البث. والجلوس  
في المقدمة في اليوم التالى من أنتهاء المباراة للمشاهدة مسجلة  
على شريط فيديو سجلها صاحب القهوة الوحيدة الذي لا بد عليه  
أن يكون متواجدا في مدينة قنا أثناء إقامة المباراة... وبالطبع  
يكون معظم أهالي القصير موجودين. ويتم إعادة المباراة أكثر

من مرة حتى يستطيع معظم أهالي المدينة المشاهدة حتى يوقف صاحب القهوة الفيديو خوفا على سخونية الجهاز من كثرة الإعادة. ويتم هذا دائما بسبب عدم وجود بث تليفزيونى. كان هناك بعض البيوت القليلة التي تعد على أصابع اليد الواحدة التي بها تليفزيون. ولكن كان يعمل فقط في فصل الصيف في الأيام التي تخلو من رياح بواسطة طبق طعام المونيوم وجعله مستويا تماما كاستوانة موسيقية لي عمل كإريال فكان يلتقط قنوات السعودية أكثر الوقت ومرات نادرة الأسرائيلية.

وبعد أن تم تعيينه لم يتغير شيء. فقد تعود قبل تعيينه على الجلوس في هذا المسجد الصغير على شارع البحر. فيونس مواظب على الصلاة في ذلك المسجد منذ صغره كان يشعر بالأمان والسكينة بعيدا عن أقرانه. كان دائما يساعد إمام المسجد في الأعمال البسيطة. فلم استلم عمله واصل ما كان يقوم به من أعمال خفيفة وتطوع بعض الأهالي للعمل الشاق بدلا منه مثل مسح الحمامات أو إخراج الكليمات بعض الأحيان لتخلص من الأتربة التي به. له سمات وافعال خاصة به. الأولى في المظهر. لا يلبس الجلباب إطلاقا مثل معظم أهالي المدينة، فكان يوجد أربعة أو خمسة أنواع من الجلابيب تبعا لانتماء الشخص بقبيلة أو منطقة، لم تروق له واحده منهم. داوم على لبس البنطلون والقميص وكان يجعل القميص خارج البنطلون بشكل غير مهندم وينتعل «شيشبا خفيفا» جدا أسفنجى. والسمة الثانية الملازمة له في القول وهي كلمة يا رئيس. ينطقها بسرعة

ويوجهها إلى أي شخص ينادى عليه أو يسأله كان عجوزا طفلا شابا، تافه، ذو شأن. لا فرق. واللازمة الثالثة والأخيرة وهي التي تغلب عليه كثيرا. إذا قال له أحدهم نكتة. وأعجبتة. تتردد عليه كلماتها مرارا لعدة أيام كأنه يسمعها لأول مرة ويحاول كثيرا أن يكبح ضحكاته ويسبب هذا له إحراج في أوقات مثل أن يشاهد في المسجد أثناء خطبة الجمعة يحاول أن يخفي رأسه بين ركبتيه. حتى لا يرى أحد وجهه المبتسم. يصفه الصالحين بالطيبة والظالمين بالخبل ونقص في الذهن.

\*\*\*\*

درجات الحرارة ما زالت مرتفعة ويزداد الشعور بها في أوقات الظهيرة. أنهى عمله وودع زملائه بضحكات وكلمات متوارية خبيثة تصلح بين الأصدقاء. وهو يبتسم للفهمه مغزاها. حامد بالنسبة لهم شخص مفيد ومسل في نفس الوقت. ميكانيكي ذو مهارة ولا يبخل عن من أراد التعلم منه. وأتت التسليية بسبب الذاكرة القوية للقص النوادر والحكآيات وإن كانوا لا يطبقونه إذا خالفهم في رأى أو أتى لهم بما لم يعتادوا عليه. ركنوا جميعا للرأى القال بأن علاقته بدكتور سراج هي السبب. ابتعد عن الورشة ماشيا وهو يسرع في خطواته. فمنذ بضعة أيام بدأ في تجهيز بيت الزواج. لا يريد أن يكون قريبا من زوجته السابقة. لا يعلم لماذا ارتاح شيء داخله عندما أعطته فضاية قطعة الأرض التي أمام بيتها في العدو لىبنى له منزلا أمام البحر.

الظاهر أنه عاشق للبحر ولكن ما داخله هو البعد عن طليقته. لا يريد أن تراه زوجا للأخرى. ويحدث نفسه «ما الداعي بأن تشاهد رضينة كل يوم. وتكتوى من مقارنة بينها وبين ابنت حفافيت. يكفيها ضربات السمع القاصية. حامد تزوج. حامد يرتوى من وادي عسل آخر. هل ما زلت تحبها؟». أخرج ضحكة حزينة مكتومة مستنكرة هذا السؤال. وهمس مسمعا نفسه «بل قول أنك تخاف منها. وتخشى أن تمر في شارع في القصير وتصادفها فيه». أنه لم يحبها إلا أيام معدودة حبا كاملا وبعد ذلك أصبح يحبها منقوصا مشروطا بسبب يومى أو لحظى. وسرح بذهنه إلى أيامه السابقة معها. كانت سليطة لسان متسرعة بالظن السيء على الرغم من بعض مظاهر الطيبة التي تظهر على أوقات مختلفة لا يعرف أسباب ظهورها وانزوائها. مهملة في أعمالها. لا تطيق أي عمل. كان يفعل كل شيء في البيت. حاول مرارا أن يعلمها فذهب دائبة هباء منثور. لا تطيق أن يستضيف أحدا في بيتها. متعتها الوحيدة في الجلوس في بيت أبيها مع أمها وبعض النسوة. سعد بانصهاره معها في أوقات الشبق التي كانت تجود بها كليلة أو ليلتين فقط في الأسبوع. عشق رائحة جسدها وأنفاسها المثيرة التي تخرج في أوقات القرب وكيف كان يتشممها كأنه ذكر للحيوان في موسم التزاوج. على الرغم من أهمية هذه الليال عنده ولكنها لم تستطع أن تكون وقودا كافيا لاستمرار الحياة بينهما، بل أصبحت ذكريات تؤله وتشعل أشواقه لافتقاده اللذة التي أصبحت عبئا ثقيلا يشعر

به في عظامه. وما جعله يصبر على بعدها هي الجرعة الأخيرة من السم التي بثتها بفحيح له مسمع. لن يغفر لها أبدا ما فعلته في ذلك اليوم الذي زاره الدكتور سراج للعمل بعض الإصلاحات في سيارته. وبعد أن أنهى حامد المطلوب في السيارة. دعا الدكتور سراج للجلوس داخل البيت للبعض الوقت للشرب الشاي. فالإثنان يأنسان بالحديث مع بعضهما. فتتطرق حامد لأمر الإنجاب مع الدكتور سراج مظهرا وجهها قويا لا يهمله الموضوع كأنه يفتح حوارا لا يخصه مع الضيف ليكسر جمود الدقائق الأولى. وساله عن أسباب تأخر الإنجاب منوها عن حالته وهو يبتسم فإنه قارب عامه الثالث دون طفل. اختار حامد هذه الطريقة في السؤال حتى يرفع الحرج عن صديقه الأكبر عمرا الدكتور المهذب. ويخبره بالحقيقة ولو كانت مره. ابتسم الدكتور السراج لحامد ابتسامة بعيون حزينه مع هزة خفيفة لرأسه للأعلى وللأسفل أظهرت أنه أحاط بما يدور في رأس صديقه الشاب المشتاق إلى رؤية طفله. شعر حامد بأن الجو أصبح خانقا له ورباطة جأشه قد تنهار في أي لحظة ولن يستطيع أن يتحمل لحظة أخرى فهرب خارج الغرفة متحججا باحضار الشاي. فكانت فرصة لتنظيم ضربات القلب وعودتها إلى طبيعتها. وعندما عاد بصنية الشاي ووجهه مبتهجا مرسوما بصدق مع إعادة كلمات الترحيب بالطبيب. وبعد أن قدم كوب الشاي وجلس على الكنبه الوحيدة في الحجرة واسند الصنية بينه وبين الدكتور سراج. وبعد بضعة رشفات لم يطيل الدكتور سراج عليه الانتظار قائلا: «أولا أنا

دكتور أطفال وما تسأل عنه ليس تخصصى ولكن أستطيع أدلك على الطريق». وأخذا يشرح له بعض أسباب عدم الإنجاب. بدأ بأسباب تتعلق بالرجل وبعدها أخبره عن أسباب أخرى تكون للزوجة. استمر الحديث لما يقرب من ساعة. وأيقن حامد من كلام صديقه الأعلى مقاما ألا يتعب نفسه في هذا الأمر. فنسبة العلاج قليلة جدا لو كان أمر الإنجاب تأخر بسبب خلل من أحد الزوجين. أغلق يومها الباب بعد مغادرة الدكتور وما كاد أن يلتفت حتى اصطدم بمن كانت خلفه. فاطمة زوجته خلفه كأنها في طابور الماء أو كسارق سيثنى يده ليشعره بجد السكين في جنبه. فنظر إليها باستغراب لوجودها مع استشعاره بوادر حرب شوارع. فعندما تكون راحتا اليدين ممسكتين منطقة أعلى الحوض. فهذا دليل أن هناك علاقة بين الإنسان وبعض الزواحف ككوبر أو بعض الطيور كالديوك والطاووس تتضح عند الاستعداد للقتال. تركها واتجه إلى صينية الشاي ليحملها. ما زالت في مكانها لم تتحرك. يشعر بأن عينيها تلاحقاه. هو ينتظر مبادرة الهجوم ليعلم ما الأسباب. فانطلق السؤال منها بتهكم: «ماذا يقول هذا الكهل القح؟». فاستشاط حامد من السوقية في الكلام من سيدة هي زوجته. أرجع الصينية من يده إلى مكانها على الكنبه ونظر إليها محاولا كبت انفعاله ومشيرا بيده بأن تهذا، مستفسرا بصوت منخفض «ماذا فعل الرجل حتى تنعته بهذا؟». فلما تجب عن سؤاله واستمرت في سب الدكتور بأقبح الألفاظ متهمته إياه بأنه سكير ولا يعلم عنه شيئا من ماضيه. وأقسمت أنه لا بد أن

يكون هاربا من شيء يعيره ليمكث في بلد بعيدة عن أهله. فلم يستطيع بعد ذلك أن يقف مكتوف اليد أمامها فهما متقدما نحوها ليضع راحته الضخمة على فمها ليسكتها. فلقد أصبح الصوت مسمعا لكل من في العويئة موضعا بأن هناك سيدة تسب وتلعن داخل بيت. متوسلا إليها بكل جوارحه بأن توضح له ماذا فعل الرجل حتى تثور عليها هكذا. كانت نظراتها شريرة وزاد انبعاث الشرم منها عندما أصبحت راحته كبرقع أو لثام فوق فمها وأنفها. تعلم يقينا بأن حامد لن يستخدم يده الضخمة أبدا في إيقافها كما يفعل الأزواج بضرب زوجاتهم، تخلصت من قبضته وأفصحت عن سر بذاتها باتجاه الدكتورة قائلة: «أنا لست امرأة معيوبة لا تستطيع أن تنجب. صديقك يحاول أن يرميني بالسبب». فأسرع حامد بكلام قائلا: «مادمت تنتصتي علينا ألم تسمعي قوله بأن الأمر قد يشترك فيه الزوجين». لم تعره اهتماما كأنها لا تسمع وأشاحت برأسها قائلة: «أنا أستطيع أن أحمل بسرعة مثل جميع أخواتي، العيب عيبك». فانفجرت ضحكة ساخرة منه سائلا: «وكيف عرفتى؟». فأجابت: «أنا لا أستطيع أن أتأكد. فأنت أول حظى وقد تكون أنت الذي لا تجيد المعاشرة. وأن بقية الرجال لهم أسلوب مخالف لما تفعله معي». وأكملت كأنها تخاطب شخص آخر معهما في الغرفة قائلة: «حتى صديقه الوحيد عاجز لا يستطيع الزواج. تقصد يونس- البيض الخسران يتدحرج على بعضه». هذا الكم من السخرية والتهكم جعلت من حامد يصمت ويجلس على الكنبه بجوار

صنية الشاي لا يستطيع أن يستوعب الأمر. قاتل متبلد موجود في الغرفة ومعه سيف حاد يضربه في جسده بحد السيف غير طاعن. لا بد أن يكون نفس الإحساس من الألم. لم يجرب ضربات السيف من قبل ولكن يستطيع أن يشعر بها. أن تدخل بعض قطرات الماء في صدرك أثناء السباحة فتسعل وتشعر بأن روحك سوف تخرج هذا كافي ليؤلهمك كيفية الغرق. لمسة سيجارة أو قطعة فحم مشتتله تطأه بقدمك تعطيك فكرة صغيرة عن الحرق الكامل للجسد وكيفية تخيله. نعم أجزاء من جسده تقطع أمامه. ليس لديه القدرة على النهوض. اختفت من أمامه وهي تتمتم ببعض الكلمات وتكيل السباب للخراب البيوت قاصده الدكتور بمحاولة بائسة ترمى عليه أسباب انفعالها. علمت بفجاعة ما فعلته بزوجها. لم تمر أيام إلا وكان الانفصال تم بينهم. لا يوجد تقريبا طلاق في المدينة. فكان حديث الكل. وبالطبع نهشت فاطمة في سيرته انتقاما لفعلته في تطليقها. كان الأمر في أوله مؤلما له. ولكن قد قلب الأمر بعد ذلك عليها. فبعد أن شبعوا العامة من الناس في غيبة حامد. اتجهوا إليها كطامعين ذكور في زوجة سابقة اشتهت من عدم وجود الانس مع رجلها. حتى النساء فأبي امرأة متزوجة لا تريد أن تقترب منها لأنها بالطبع جائعة. المجتمع لا يطيق أن تخوض امرأة في عجز زوجها أو أنها لمحت أنها لم ترغبه كأنثى. فالنساء قبل الرجال ذكوريا الطبع.

مع استرجاعه للذكريات المؤلمة له في الماضي التي شفي منه

بفضل خبرات لم تخطر له على باله من قبل. وأن يخوض في بحارها ويصبح عليما برياحها وتياراتها العميقة. بفضل زميله حسان السائق الخاص لرئيس المدينة. المحب للنساء الذي كان دائما يقول: «الحمد لله أنني خلقت ذكر لو قدر الله لي أن أكون أنثى بهذه الروح التي أعيش بها لجلبت العار لأهلى ولأصبحت عاهرة». حسان قليل الحياء كما يشتهر عنه. محب للاحاديث الماجنة ويعشق أن يتكلم عن جميع التفاصيل بين الرجل والمرأة في السرير. وله معتقدات خاصة به. فقد سمع بحديث الناس في البلدة عن حامد وما تقولت عليه زوجه مع الإضافات الجديدة من المرددين التي تعطى للقصة سخونة أكثر. عرض عليه بصراحة عاهر ألا يركن لهذا الأمر. وساله ضاحكا ملعبن للحواجه وهو يتلفت خلفه «الذي معك عمود كردان أم خرطوم زيت؟» . فتتطورت علاقة الزمالة إلى مقابلات في القاهرة عندما يذهب حسان في مأمورية مع رئيس المدينة فيقدم حامد على إجازة في نفس التوقيت حتى يقضى مع حسان بعض الليالى مع فقيرات يبعن الهوى يعرفهن حسان منذ زمن. فارتاح حامد لإحداهن وأصبح كلما سنحت فرصة للسفر إلى القاهرة يذهب إليها وحيدا غير منتظرا للمرشد القديم الذي كان يكلفه الكثير في بادئ الأمر. وقد علم الدكتور سراج ذلك بطريقة استنتاجية غير مباشرة عن طريق توقف احتياج حامد للعلاج من الجرح عن طريق قراءة كتب ومجلات في مكتبته بخصوص العلاقات الزوجية ومدى الارتباط بين الإشباع الجنسي والإنجاب والاتجاه إلى نوعية

أخرى من القراءات ومرافقة حامد الدائمة له أن ذهب إلى القاهرة في أي أمر.

انتبه حامد - من غفلته في أحداث الماضي القريب الذي كان له عظيم الأثر في تشكيل حياته الجديدة - أثناء سيرة من صوت يسلم عليه من الجهة المقابلة للشارع فالتفت فوجده أخو يونس الأكبر سالم والاقرب إلى يونس كأنه أبوه الثانى. أسرع حامد في عبور الشارع متجها إليه حتى لا يرهقه بالقدوم إليه. فلقد علم من يونس أن سالم قد ثقلت رجله اليمنى وأصبحت تعيقه أثناء السير ولا يستطيع أن يرفعها وأصبح يجرها ساحلا أعلى القدم على الأرض وكل جسمه يهتز من الاجهاد للعمل خطوة بها. بعد السلام والسؤال عن الأخبار. سأله: «هل يونس في المسجد أم البيت؟». فأخبره أنه على سور البحر جالس. فغير حامد من اتجاه سيره ليأخذ الطريق المقوس المتجه إلى شاطئ البحر. متمنيا أن يجد يونس في مكانه. ليعلمه بميعاد الزواج. مع أن هذا الأمر لا يطيقه. يونس بالنسبة له أكثر من صديق. تألم لليالى طوال في التفكير فيه وفي مرضه. شعر بأنه قد لمس وترا بعيد في أعماقه عندما أخبره عن رضينته. كان يفضل ألا يخبره بأمر زواجه ولكن لا مفر. الأمر سيصبح أسوأ إلا لم يعلمه كاول شخص. يونس هي الروح التي عشقها حامد مثله مثل فضائية. الاثنان كقطبين للمحبة يمثلان معادلتة حسابية في قلب حامد فكلما اقتربت صفات أو طباع شخص لأي أحد منهما زاد وعظم حب حامد له. ومن بعدت وتنافرت خصاله منهما قل وده واهتمامه

به. فكثيرا يسرح عندما يكون وحيدا محدثا نفسه «لماذا لم  
أولد قبل فضائية بأعوام قليلة وأتزوجها أو أخلق أنثى وأطلب من  
يونس أن يتزوجنا حتى وإن كان مريضا».

\*\*\*\*

وصل قفط بعد غروب الشمس، فتركت السيارة الطريق  
الأسفلتى لتخترق طرق ترابية ضيقة بين ابنية طينية كئيبة  
كلها من طابق واحد أرضى، دون ألوان تحوى بشر داخله وماشية  
لا جديد منذ قرون مضت إلا السيارة المارة. أطفال بجلابيب قصيرة  
مترهلة قدرة يملؤن الطرقات. الذباب على وجوههم المتسخة يجعل  
الناظر لا يرى الملامح. كانوا يركضون خلف العربة وهم سعداء  
محدثين أصوات تصف فرحتهم. أما الرجال فيتراصون جماعات  
بجانب جدران البيوت يتسامرون حول موقد نار من الحطب للإضاءة  
وللشرب الشاى. ومنهم من يقف عند مرور السيارة بجانبهم لينظر  
من داخلها ومنهم من يسعد برفع يده لتحية صاحبها وأثار البهجة  
تكشف أسنانه الخريبة السوداء المتباعدة عن بعضهم متفاخرا  
على رفقاء السمر بمعرفته بمن مر. أما فاروق فرافعا يديه منذ  
تركه للشارع الرئيسى ليس للرد السلام ولكنه يتمتم بآيات  
من القرآن لتحفظه من شر أعينهم، ويرفع صوته بالآيات منزعجا  
عند تعثر العجلات في طين أو بعض الحجارة. تفأجا أهل زوجته  
بتوقف سيارته أمام البيت. خرج حماه مسرعا تسبقه كلمات  
الترحاب وكلمات أخرى بصوت منخفض تأمر من في البيت

بالتحرك لاستقبال الضيف المهم. لم تكن ابنته بهيئة ذات شأن لديه من محبه أو دلال زائد في قلبه. لم يرتقى حالها إلا بزواجها من فاروق ثرى البحر الأحمر. فأصبحت أهم شخصية في بيت عبد الرازق عمران. تغير حالها حتى يظن بعض الأحيان أنها ليست ابنته التي كانت قبل الزواج تخبز وتطبخ وتغسل ملابس لتصبح أقل اتساخا وتحضر القش من الأرض الزراعية لبهائم. تزوجها فاروق بالصدفة تحت بند مشهور عند أهل الشرق «سبحان العاطى الوهاب الذي إذا أراد شيئا لا يستطيع أحد أن يوقف تدايره». هذا ما يعتقدده عبد الرازق الرجل الريفى متوسط القامة ذو نحافة من أثر العمل الشاق الذي شكل ملامحه. أما إجابة لماذا تزوجها فاروق فيرجع إلى كثرة عدد أبناء عمومتها وانسابها الذين استقروا في القصير بمنطقة الصعايدة. فأراد فاروق أن تكون له عزوة وعدد، يستطيع أن يستخدمه متى شاء. فلا يهمله فقرهم إنما أراد عدد الرؤوس. وكلما زاد الفقر أصبح الأمر أسهل. فعجل واحد مطبوخ يمكنه أن يجمعهم حوله كعجل بنى إسرائيل. تعلم من أبيه أنه لا وجود للدولة. الحكومة عبارة عن فتوات لا يطبقون القانون إلا على من كان خارج دائرتهم أما من استطاع أن يكون واحدا منهم فقد نجا من أي مساءلة أو تكون لك جماعة تحكيمك. وقد أختبرت قوة عددهم في بعض الأمور. فأخوه منصور كثير العداوات في القصير بسبب طيشه وسرعة غضبه وسوء صحبته. وكثيرا ما أشعل غضب بعض من أقرانه ومن في مثل عمره من القصيرية أو العبادة للعراك. فكم من مرة أتوا وحاصروا البيت

الكبير مطالبين أن يخرج لهم منصور ويأخذوا منه حقهم المزعوم ولولا مجيء جماعات من الشباب من منطقة الصعايدة من أقارب عبد الرازق عمران للدفاع عن منصور لأصبح الأمر مخز. فيحدث الاتزان فلا تهدى الأمواج العاتية الضاربة إلا إذا أتت رياح البر من الصحراء في نفس التوقيت ويصبح السطح قطعة زجاجية. فيجلسوا من أتوا لمنصور إلى جلسات الصلح العرفية. فيتسلط الضوء على فاروق كنجم مسرح محترف يجيد لعب هذا الدور متلفح بعباءة المال وتعداد الرجال ولا يمانع إذا كان خطأ منصور بين وصريح أن يعتذر ويقدم ما يطلبوه في الجلسة وقد يزيد عليه. تبعا لمثل «الزعيم غارم». ودائما يقيم مائدة لكل الحاضرين.

سلم فاروق على حماه في تعال يحيطه بقشرة هشه من الاحترام الواجب، وإن كان يزيد منه إذا وجد أغرابا، أما الآن فالظلام لا يتيح لأحد من الجيران بأن يشهد المقابلة، فقليل منه يكفى بالنسبة لفاروق. وتقدم إلى داخل البيت كأنه هو صاحب البيت دون أي التزام بالقواعد الريفية الصارمة في الصعيد فالبيوت منشآت عسكرية لا بد أن يكون من يتقدم صاحب البيت في الدخول أو من ينوب عنه من ابن أو أخ ليعطى إنذارا بصوته عن طريق نحنه كأن شيئا قد انحسرفي حنجرته أن هناك قادم فلا بد أن يلتزم كلا بمكانه. القواعد وضعت حتى لا يدخل غريب إلى البيت فيشاهد أحدا من نسوة البيت في وضع يسمى مخجلا مهذرا للشرف عندهم، مثل أن تكون كاشفة لشعرها أو مرتديه ثيابا تتيح للغريب أن يلحظ ثديا أو ذراعا أو فخذا.

فهل فاروق لا يعرف تلك القواعد. بالطبع يعلمها جيدا ولكنه لا يقيم لها وزنا معهم ويتعمد أن يكسرها أمامهم. استخفاها بقدرهم. فهم بالنسبة له لا بد أن يحمدا والله كثيرا على فضله بأن جعلهم ينتسبون له. أما حماه فيدعوه دائما بابنه البكرى وأنه لا يشعر بأنه غريب عنه قد تزوج ابنته. وما هذا إلا ليدأوى جروحا غائرة تدمى داخله ناتجة عن ما يفعله فاروق من عدم اكتراث. ويركض وراءه حماه محاولا أن يتقدم عنه بوضع كتفه كلاعب كرة قدم مدافع ولكنه لا يستطيع. تخرج من عبد الرازق ضحكات كاذبة خافتة متقطعة دون أن يفتح فمه وهو يشير بزجر للبناته وزوجة ابنه الأكبر بأن يختفوا بالداخل حتى يسترأوا أجسادهم، على الرغم من خفوت الإضاءة المنبعثة من اللمبة المضيئة في آخر البيت والتي لا تتيح بالرؤية عن بعد. فتح فاروق غرفة الضيوف ودخل وهو يتأفف من الرائحة والظلام. فهرع حماه إلى الداخل ليحضر مصباح كبير وسين للإضاءة. فرجع ومعه ابناه الأكبر والأصغر ليسلما على زوج أختهما. وهما أيضا حتى الآن لما يصلا إلى قناعة أنه زوج لبهية وتربطهم به علاقة نسب، فمثلا لا يستطيع الأخ الأكبر الذي تعدى عمره عمر فاروق من أن يذكر اسمه متجردا دون كلمة حج أمامه مع أن فاروق ينادى عليه باسمه متعمدا حتى دون استخدام أبسط الأمور تهذبا بأن يناديه باسم ابنه بابو عبد الرازق. سلموا عليه وجلسوا على الكنبه الأخرى أمامه. ظهر الضوء. فهربت الأبراص كتماسيح نيلية لسقف لتختفى بين العروق الخشبية. انضم

عبد الرازق إلى نفس الكنبه التي يجلس عليها أبناؤه تاركا للضيف الكنبه الأخرى. وما زالت بعض الضحكات المكتومه المتقطعة تخرج منه مع خليط من كلمات الترحاب المعتاده. حتى شعر بأن فاروق قد أصابه الملل. فتوقف عن تكرار الاسئلة المعدة سلفا الصالحة لأي شخص. فضرب عبد الرازق ركبته بلطف وأخذ يحرك راحته يده عليها كأنه يدلکها سائلا عن أحفاده بنبرة صوت مختلفة بها بعض الثقة فتذكره بنات بهية أعطته شيء من القوة. فابتسم فاروق مخبرا أنهن بخير وكن يرغبن في المجيء معى لولا السفر المفاجئ وعدم استعداد بهية. صدق عبد الرازق قول فاروق عن رغبة البنات في القدوم إلى قفط أما مقولته عدم استعداد بهية للسفر المفأجا بالطبع لا. حدث نفسه الأب «ماذا تريد حتى تستعد؟ كانت في الماضى تمشى بكيلومترات لزيارة عماتها والمبيت عندهم للتقضى بعض الوقت مع بنات عماتها. وتمتطى الحمار خلف أخيها للحضور عرس في نجع مجاور يبعد عشرات الافدنة». استمر صمت الأب تاركا ابنه الأكبر يكمل الحديث مع فاروق. سرح في التفكير في الماضى وكيف يمكن أن تتغير النفوس «ابنتى كرهت الفقر. وما يذكرها به. تأتي لنا مرة واحدة في السنة لأسبوع أو اثنين بالكثير. لما تعطينا حتى تلميحات لنتجراً بالاكثر بالزيارة في القصير. انتهج فاروق نهج أبيه مع زوجته التي لم تعان مشقة لأنها لم تشتاق لأهلها كما حدث للحجة منيرة في بداية زواجها. ولولا احتياجها لامها في أثناء ولادة بناتها الثلاثة والاقامة كل ولادة لمدة أربعين يوم طبقا للعادات

والتقاليد لكان الوضع أسفر على المرة الوحيدة في السنة. بالطبع تغدق علينا بالهدايا عندما تأتي ولكنها كالمولد النبوى يأتي مرة واحدة في العام. نفرح بعده للشهر أو شهرين ويدور الفقر رحاه فينا بعد ذلك. إن كان الزمن يغير فأنا أيضا قد تغيرت على الكبر في نهاية عمري. ما فعله فاروق عند قدومه واقتحامه البيت كأنه بيت للمومسات. لماذا لم أنبه للخطيئة التي يفعلها دائما معي ولا أجرؤ أن افعلها في بيته أو بيت سائقه الجالس في السيارة بالخارج. لو كان فاروق مثله مثل بقية أزواج بناتك لكان لك موقفا آخر. لخرج منك النار كجبل في اعلاه فوهة بركان. انفجر من أثر زلزال في أرضه الشريفة. ولكن وقع المال وسطوته جعل كل شيء بردا وسلاما. النار التي داخلك هي نار إبراهيمية لا تحرق أبدا». رائحة طشت الثوم المقلى بالسمنة البلدى وصلت انفه فسأل لعابه. فرجع بذهنه إلى الغرفة وبدأ ينتبه للحديث الدائر. فاروق سوف يأخذ القطار الذاهب إلى القاهرة ليلا ليكون غدا بالقاهرة ليشتري بضاعة للمحال في القصير. يفعل هذا الأمر مرتين أو ثلاثة في العام. ويفضل أن يستقل القطار بسبب وجود قطاع الطرق في منطقة الزعفرانة حتى مداخل القاهرة. وقد تم توقيف بعض سيارات الأجرة الذاهبة إلى القاهرة وسرقة ركابها. لأن دائما يكون المال بصحبة من يسافر إلى القاهرة وليس العكس. لأن العاصمة مقصد للتجار وطالبي المتعة ففي كل الحالات المال موجود في صحبة القادم من الاقاليم. ومهما خب المال في طيات الملابس أو في لفافة حول الصدر تحت الجلباب أو

في مناطق بالقرب من الأعضاء التناسلية فإنها مأخوذة بلا مجال للشك لأن من يوقفوا السيارات ليسوا نشالين. صوت السلاح ورؤية فوهة البنادق لها مفعول السحر في قول الصراحة وإعطاء المال في سرعة خاطفة.

قام الابن الأصغر بعد إشارة من أبيه بالعين بأن يذهب ليستطلع أمر العشاء الذي تفوح دسامته في أرجاء البيت خارجه من الأبواب والنوافذ غير المحكمة الغلق لتعلن وجود زائر مهم عند عبد الرازق عمران. وإن كانت معارك القطط فوق السطح وحول البيت اسبق إعلانا للوليمة. أتت الطبلية الخشبية في الأول، عبارة عن منضدة دائرية لها أرجل قصيرة فلا يحتاج المرء للمقاعد. وبعد لحظات وضعت الصينية الامونيوم الواسعة التي غطت مساحتها كل الطبلية، عليها أطباق البطاطس والفصوليا البيضاء مطهية مع عصير الطماطم بالإضافة إلى طبق الملوخية وأربع أطباق من الأرز وفي المنتصف طبق كبير به أربع دجاجات محمرات بعناية بلون واحد. السمنة البلدي فعلت مفعول زيوت الشمس المستخلصة من الجزر على أجساد محبين الاستلقاء تحت أشعة الشمس. بدأوا تناول الطعام. فترك لهم الحديد فاروق وأخذ يملأ معدته بما وجد أمامه فهو عاشق نهم للطعام. ينسى نفسه أمام الموائد، تتغير سحنته بعد أن يبدأ في اللتهام. فأسباب الصداقة التي ربطته بالشيخ هارون كثيرة ولكن من ضمنها نفس الهواية. واكتفى الابنان والأب بدجاجة ونصف. وأقسم الأب

بكل الأنبياء والمرسلين أنه سيأخذ فاروق المتبقى من الدجاج. بعدما انتهى فاروق وضع بعض من بقايا الطعام في طبق الأرز الفارغ الذي كان أمامه مستخدماً يديه المتسخة. فأعطى الطبق لابن الأصغر مشيراً برأسه في اتجاه الحائط. فظهرت علامات عدم الفهم على الفتى. فلاحظه فاروق مستغرباً من أمره. فنطق بصعوبة نتيجة ارتداد هوائى من المريء وإجهاد من امتلاء البطن قائلاً: «أعطيه لابن المركوب الذي في الخارج». ففهم على الفور بأنه يقصد السائق. كان عبد الرازق في أول عهده بفاروق يحاول أن يدخل السائق إلى البيت أو يعطيه الطعام في نفس الوقت الذي يأتي فيه للآخرين ولكن شعر مع الزيارات المتكررة بنوع من الاستياء في نفس فاروق من ذلك ورفض تام من السائق في أن يتساوى مع الحاج فاروق.

أحضر الأبريق والوعاء. صب الفتى للفاروق من الإبريق ليغسل يديه. بعدها طلب بصوت عالٍ وهو ينظر إلى باب الحجرة المفتوح أن يسلم على أم بهية. مع أن عبد الرازق أمامه في الحجرة فلا يحتاج إلى رفع الصوت بهذه الدرجة. فيتهدأ من الداخل لقدوم فاروق بعد أن سمعوا طلبه من قبل مجيء عبد الرازق وأخبارهم فالرجل اليوم غير موجود في البيت. مرت الساعات المطلوبة منهم ليشتغلوا وقت فاروق حتى موعد السفر. الأب وابنيه صحبوا فاروق حتى محطة القطار في مدينة قنا. مسافة ثلاثين كيلومتراً ذهاباً وأخرى عودة. كانت بمثابة مكافئة لهم بأن يركبوا السيارة

متباهين أمام أهل قريتهم فمثل هذا لم يحدث تقريبا لمعظم أهل القرية. مع بعض الأسف لأنه ليلا ولو كان الأمر بيد عبد الرازق لجعله يوم عيد ومناسبة يحتفلوا بها فيوقظ أهالي قفط ونجوعها كليلة اختناق القمر. فمنذ أن تزوجت ابنته حظى بهذا الشرف عدة مرات كل عام في مناسبات عدة. بالطبع كان طريق العودة أجمل بالنسبة لهم بعد أن ودعوا فاروق. فتغيرت الملامح الوديعة الساكنة إلى أخرى ذات ثقة. كأنهم أجسام بالونية قد نصب الهواء قامتها فظهرت ملامحها الأصلية وأظهر عبد الرازق قليل من الكبر على السائق. وسروحوا جميعا في خيالهم وتمنوا أن يطول الوقت في طريق العودة ولمس قلب الأخوين بعض الحسد لأختهما. وعندما وصلوا حاولوا مع السائق حتى يبيت ليلته بدوافع غير صادقة كالخوف والحرص عليه من طريق العودة ليلا، ولكي يأخذ قسطا من الراحة. مذكرينه بالأقوال الشهيرة من التراث الإسلامى أن لبدنك عليك حق. اعتذر السائق وإن لاحت في عينيه بعض من التردد والتفكير في الموافقة ولكنه أثر الذهاب خوفا من غضب الحج فاروق وكيف أوصاه كثيرا قبل وصولهما ألا يركن إلى توسلاتهم للمبيت وأن يعود فورا إلى القصير.

\*\*\*\*

القمر قارب على الاكتمال تنقصه ثلاث ليال. يبدو كمصباح عظيم في الصحراء إضاءته لا يعكرها سحب أو رياح محمله بأتربة. يجلس الشيخ فراج منتظرا منذ يومين أي سيارة تمر لتنقلهم لمدينة مرسى علم. لا بد أن يستخرج شهادة

ميلاد للرضينة. ستتزوج في القصير. وطالما سوف تعيش هناك لا مفر من الوريقات. بطنه تعتصر ألم كمن أصابه مغص كلما تذكر أنه سوف يقابل موظفين حكوميين وكلما طال انتظاره للسيارة تقلهم من حفايت يسكن ما داخله. فكان عليه أن يكون مستعدا كل ليلة للسفر. يرتدى جلبابه الأبيض الواسع النظيف ولكنه فقد نصاعة بياضه بسبب سوء الماء وعدم وجود منظفات، وفوقه السديري الأسود وتغطي رأسه العمامة البيضاء ذات الأمتار الخمسة. ورضينة جهزت بعض الملابس القليلة التي اعتقدت أنها تصلح للقصير وإن كانت ستعرف لاحقا بعد الزواج كيف كانت تبدو في أول يوم لها في المدينة. فسوف يتكرر مشاهدتها لنفسها في القاديات من بعدها. فكانت تتضع البقجة بجوارها عندما تنام كل ليلة مستعدة. وقبل أن تدخل أمها العشة التي تنام فيها. كان ضوء السيارة في الخارج قد ايقظها. فهبت واقفة كأنها لم تنم. ساعدتها أمها في لبس جلبابها وأحكمت في أعلى ذراعها الأيسر حجاب من الجلد قديم شديد السواد عبارة عن ثلاث علب فضية صغيرة جدا بشكل أسطواني مغلقة بطول سنتيمتر وعرض بضعة مليمترات مربوطين ببعضهم بسلسلة جلدية رفيعة قد توارثته أمها عن جداتها. جرت تاركه العشة عندما سمعت أبوها ينادى مستعجلا. وأمها تنظر إليها وهي تناجي الصالحين وأهل الله أن يكونوا مع ابنتها مذكرة إياهم أنهم فقراء لا مال ولا علم يحميهم. وأنها سوف تعمل كرامة يوم عودتها سالمه غانمه بذبح شاة لتطعم الأهل والطيور

الجائع فوق الجبال. جلس الأب في المنتصف بجوار السائق وابنته بجوار الباب متكوره على نفسه بخجل. كان السائق عبادى من قبيلة المليكاب من سكان أبورماد على ساحل البحر الأحمر جنوب مرسى علم. يأتي دائما في أوقات ما بعد المطر ليحضر على مرات عديدة بعض الأغنام لترعى في الوديان الخضراء. وعندما تتطرق الحديث للسبب السفر. سعدت رضىنة بذكره وبدا عليه الفرح كمراهق يتفاخر بدرجاته في امتحانات نهاية العام الدراسى المؤهلة لدخول الجامعة. أول مرة تشعر بهذا الفخر وأنها موضع اهتمام وحسد. ومع كلمات من السائق تزيد نشوتها مثل كلمة القصير عندما يردد لها بعلامات الاستعجاب في نطقها. بالطبع لا وجه للمقارنة بين مجتمع رعوى ثابت ومدينة بها خليط مختلف من الأجناس ولهجات مختلفة. الأمر لا يشعر به إلا المحروم. قد لا يعنى شخص كوب ماء مثلج في صيف شديد الحرارة لمن ولد واعتاد على وجوده، ولكنه حلم يريد تحقيقه لمن سمع به من محرومين مثله قد زائقوه مرة أو مرتين. فالسكر هو الحلوى عند البعض. وصلوا سيدى سالم قبل مرسى علم بخمسين كيلو متر، توقفوا لبضعة دقائق دخلوا المقام الصغير الضيق واشعلت رضىنة شمعتين أخرجهما من طيات ملابسها وتركتهما على المكان المخصص لهما بجانب الشباك. أخذ يهمس عم فراج بحديث بصوت منخفض لصاحب المقام المنتقل منذ سنين طويلة جدا كأنه أمامه. خرجوا بعد ذلك وأكملوا الطريق إلى مرسى علم. اليوم هو الثلاثاء فعليهم أن يمكثوا في مرسى علم حتى

عصر الخميس ليستقلوا سيارة البريد الكبيرة إلى القصير. فهي  
المواصلة الوحيدة الثابتة التي تذهب كل خميس من كل أسبوع  
إلى القصير ببعض مظارييف البريد القليلة وبعض الحوالات  
وأغلبها كلها حكومية. فكان السائق يستغل هذا الأمر  
لخدمة الأهالي وخدمة نفسه ببعض الأعمال التي تدر عليه دخل  
إضافي صغير. فكان جميع أهالي مرسى علم الذين لا يتعدوا  
ألف مواطن في ذلك الوقت. يكتبوا قائمة بما يريدون من فاكهة  
وخضار وبعض البقوليات وأشياء أخرى مثل أقلام وكراسات  
وأكواب زجاجية وأدوات بلاستيكية وأقمشة وأدوية وبعض  
جراكن الماء الأقل ملوحة من ماء محطة تنقية المياه في مرسى  
علم. فالأسوء يتمنى السوء. فيأخذ السائق كل الطلبات باسماء  
أصحابها مرفقه معها النقود مع كلمات عرفان وشكر له ودعاء  
بالصحة والعافية. ويملاء صندوق السيارة الضخم الخشبي بكل  
من ود الذهاب إلى القصير دون مقابل وإن كان بعض الأشخاص  
الدائمين على الذهاب إلى القصير يعطوه بعض النفحات الغير  
ثابتة من المال، ويجود عليه أيضا الصيادون الذين يتركهم في  
بعض المناطق في الطريق ليأخذهم في طريق العودة فلا ينسأهم  
فكانوا ينشطون ذاكرته بالسماك لأنه الشقاء بعينه أن نسيهم  
يوم العودة. أو تأخروا عن الخروج للشارع في ميعاد مروره.

وصل عم فراج ورضينة بعد تركهم السيارة وسيرهما قليلا  
لبيت أحد أقارب عم فراج. الوقت يقارب منتصف الليل ادخلت  
رضينة للنوم في الداخل مع النساء والأطفال وبقي عم فراج في

الخارج مع صاحب البيت وأولاده الكبار. ولم يأخذ الترحاب وقتاً طويلاً حتى نام الجميع في نفس المكان الذي لقيهم فيه عم فراج. فالبيوت في مرسى علم قليلة وتبعد عن بعضها بمسافات تتيح الخصوصية. الأمر بدي مختلف لرضينة كل شيء يبدو مختلفاً بالنسبة لها. دفء البيت والنظرات الحانية من صاحبة البيت على الرغم من النعاس. وتركها لتنام على سرير من الجريد لأول مرة في حياتها بعد أن ايقظت الام طفلين لها ليناموا بجوار الآخرين. رقدت رضينة بملابسها على جنبها وضمت ركبتيها بالقرب من وجهها على الرغم من عدم وجود البرد. وفي الصباح انقشعت غيوم الكائبة والخوف من القادم. وجدت انسها في ثلاث أخوات أكبرهن أصغر منها في العمر بقليل. وجدت اختلاف بينها وبينهن. فهن أكبر منها بما يعرفن. يتكلمن أحياناً بنفس لهجتها إذا تتطلب الموقف. زودوها بكم من الأخبار التي سوف تقابلها غداً من سيارة البوسطة الكبيرة حتى وصولها إلى القصير. قضت اليومين في بيتهم تراقب وتنظر لكل شيء. الطعام واللبس والكلام والحمام الذي كان هو الأغرب بالنسبة لها. أول مرة تشعر بأن ذهنها يجهد. وكانت يدب فيها لحظات ندم وياس ولكنها قليلة. تطردها بعزيمة نابعة من داخلها وكلمات تشجيع ترددها لنفسها.

فضل عم فراج الذهاب قبل ميعة السفر بساعات لينتظر في المكان الذي أخبروه به. مع رفض تام منه لمناقشة ما جدوي الذهاب مبكراً للانتظار تحت أشعة الشمس. وعندما وصل الاثنان لم

يجدا أحد كما قيل لهما. وظلا جالسين صامتين حتى بدأ بعض الأشخاص يأتون فرادى وجماعات. أغلب المتواجدين حولهم عبادة. منهم من سلم عليهم ومنهم من فضل الصمت المترقب كعم فراج. أتت العربية. صعد الشباب بسرعة عن طريق التسلق على إطارات السيارة الضخمة. أما النساء وكبار السن فقد صعد عن طريق سلم خشبي أنزله من سبقوهم أولاً. جلست رضىنة بجانب النساء بعد استغرابها للتدافع في الصعود. تحركت السيارة وبدأ الهواء المنعش يلطف من حرارة الجو. لا تعرف لماذا تذكرت حكايات جدتها القديمة عن هجرة الحيوانات البرية والقصص التي يتناقلها القادمون من السودان كيف كانوا يرون القطيع الواحد يمر في أرض الوحوش ويقطع أنهاراً مليئة بالتماسيح. الهجرة أمر حتمى لا بد منه لبقاء الحياة. وأخذت طول الطريق ترى التشابه بينها وبين القطيع كله. فموت واحد من الحيوانات بالنسبة لها نظرة سيئة من شخص غريب. نهش قدم للغزال من ضبع غادر هي حيرة جاهل كيف يصعد العربية. صوت حيوان النوء وهو يتالم بين فكين للتمساح جائع هي عدم القدرة على النطق باللهجة التي لا تعرف غيرها. ولكن كل هذا سيقوى القطيع ويعيش. لا بد للحياة أن تنتصر...

\*\*\*\*

حالة الاهتمام بدأت منذ عدة أيام قبل يوم العيد ولم تنته بعد. بيت عزوز أبو يونس خلية نحل. بناته وزوجة ابنه سالم وأحفاده

الكل يعمل من الفجر. يصارعون كتل العجين فيرفعونه ثم يعاجلونه بطرحه أرضا في المواجير الضخمة. إشعال الفرن الكبيرة مسئولية صاحبة الدار. الفرن تشبه سلحفاة بريّة ضخمة مصنوعة من الطين وروث البهائم. أحضرت من عشرات السنين من قنا وما زالت صلبة تقاوم النار. كأنها أخذت عمرها من صاحبة الشبه بها. ترقد في آخر البيت العتيق في الحوش الخلفى. لا يوجد بيت في القصير دون حوش في نهايته حتى عندما بنت الحكومة بيوت جعلت لها «فرنده» من الأمام وحوش في الخلف. جلست صفيّة على مقعد خشبي صغير ليس له مسند لا يتعدى ارتفاعه عشرين سنتيمتر من الأرض. متكئة على حائط وممددة ساقها أمامها. لها ضخامة في كل جسمها طولاً وعرضاً. مع مرور العمر امتلأت وزاد وزنها. ذات صوت حاد مرتفع، أحيانا يشدّد بالدعاء والمديح ومرات بالسب والصراخ لبناتها. فهي بالنسبة للبيت رئيسة وردية في مصنع أكثر من كونها أمًا. يسمع المارون دائما بجوار البيت منها الأوامر التي تعطيها لمن داخل، التي تكون عبارة عن أوامر طهي أو غسيل أو أشياء تابعة للعمل اليومي. وتتحول إلى أم لطيفة عند قرب انزواء الشمس. الحنية والنكات والمداعبة مع الكل تظهر في آخر اليوم. مثال للمدير يعرف كيف يفصل بين وقت العمل وما بعده. ينظر يونس الجالس بجوارها على الأرض على تورم قدميها وهو يتذكر أنه منذ بدأ يدرك في طفولته يرى أمه وأبوه كبارا في العمر. فيكتم ضحكة لمحتها أمه وهي تتابع خروج الصوانى من الفرن بأقراص العيش ذات القرب الذهبية

التي يعشقه الأطفال. فسألته وهي منشغلة عنه : «ماذا يضحك يا شيخ يونس؟» فأجابها وهو يطلق ضحكاته الخافتة. «أنتِ وأبي كيف انجبتموني في سن متأخر؟» همت بالرد ولكنها صمتت ولمعت عينيها بطبقة رقيقة من الدموع مسحها وتعلت قائلة بصوت مرتفع بأن يخففوا نار القرن. وحمدت الله على عدم انفلات لسانها كالعادة. ولم تتفوه بما كانت تريد أن تقول له. شاعره باسف لعدم قدرة ابناها على الزواج. وأخبرته بأن يتركها فهي مشغولته. ناصحه إياه بأن يذهب لعمل أي شيء يخصه أفضل من الجلوس في البيت. ظهر الأب عزوز بينهم فجأة تبد عليه علامات الإجهاد ويصفق بيده لتشجيع أحفاده من البنات. لم يوجه أي كلمة لصفية وهي لم تنتظر منه شيء. ينسحب مسرعا وتكاد ساقيه من شدة اندفاعهم أن تمزق جلبابه. تمصص شفيتها بعد أن يغادر وهي تتندر عليه وعلى مجيئه المهم.

عزوز ذو هممة عالية لا يستطيع أن يظل في مكان مغلق واحد لمدة قليلة إلا للنوم. وهذا الذي أبعدته عن صيد الأسماك مثل أهله فلا قدرة له بمكوث ساعات فوق مكان واحد على الشعاب المرجانية أو الجلوس داخل فلوكة أو مركب لمدة يوم أو أكثر. امتاز بالعضلات في بنائه الفارع. لم تضر حتى في عمره الذي قارب على السبعين. انحناء بسيطة للظهر وتقوس دائم لأصابع اليد وأكثرهم قربا لراحة اليد الخنصر والبنصر مع تجاعيد في الوجه تخبر الناظر بالعمر الذي ولى. يلبس عمامة ذات لفتين على الرأس من شال أبيض قصير. ادهش من عرفه بقوته الخارقة التي

جعلت منه مهايا منذ الصغر وتحكى عنه حكايات بين الأهالي واشتهر بأنه ممسوس. له علاقة بالجن. وروح الفكاهة التي ورثها من جينات القصيرية في الهزل. جعلته يتمادي في هذا القول بين الناس بأنه على علاقة بالجن السفلى وله زوجة منهم جميلة جدا. ولو وجد العدل في الدنيا لأصبحت صفيّة خادمة لها. ومع الأيام تكبر كرة الثلج. انقذ يوما رجلا من سقوط السيارة عليه وهو يغير إطارها. وما هي ثوان ويأتي الآخرون لحمل السيارة مع عزوز. فتصبح السيارة الصغيرة مع الزمن وتناقل الحكايات سيارة نقل محملة باطنان من البضاعة. حتى هو مع قدم الحدث يصدق ما لم يكن. قضى عمره في شركة الفوسفات كعامل معين في المحاجر. بالإضافة إلى عمل جانبي يدر عليه دخل يعتبر كبير بين أهل القصير هو حفر الأبار. معظم ابار الصرف التي تحت البيوت هو الذي حفرها. يوافق على حفر الأبار الأعمق التي تصل إلى سبع أمتار. ومع توجيهات زوجته صفيّة في بداية حياتهما استطاع أن يبنى بيتا كبيرا بين بيوت القصيرية في أرض أعطاهها لها أبوها. فقد استغلت صفيّة هذا الثور أحسن استغلال. يعمل نهارا ولا يكل بفحولته ليلا. لولا موت الاطفال الرضع الشائع في تلك الفترة الزمنية لكانت لها منه عائلة كثيرة العدد.

وصلته إشارات أثناء قيامه وجلسه تذكره أنه لن يستطيع أن يستمر في حفر الأبار وعليه احترام العمر. تركها متعللا بأنه لا بد أن يجد وقتا لتقرب من الله بالطبع لن يكون المسجد.

فدفعته الأقدار بعد ذلك إلى عمل جعل حوله هالة بين الناس. وهو حفر القبور، لا يأخذ عليه أجرا. فهو في مرحله من العمر لا يسعى وراء الرزق. كان الأمر قبل عزوز لا بد أن يبعث أهل المتوفى شخصين أو أكثر لتجهيز المكان الذي سوف توضع فيه الجثمان. أما عند ظهوره في هذا النشاط الجديد. غيره بالكامل. فكان يحفر أكثر من قبر معد لأموات ما زالوا على قيد الحياة. فرفع عن الناس ثقل هذا الجهد. فلا يجعل ميت يتأخر في دفنه. وهذا يعد مكرمه بالنسبة للمسلمين. فكانت الدعوات والمدائح يلاحقوه. وأحب جزءا خفيا في هذا العمل. بأن يراه الناس وهو ذاهب إلى الجبانة في يوم لم يسمع عن أحد قد غادر الدنيا. وكثيرا لا يموت أحدا في نفس اليوم الذي راوه. ولكن مرة واحدة في السنة كفيلة بأن تعيد للاذهان القصص القديمة عن علاقته بالغيبيات والنورانيات الخفية عن الآخرين. فيشتعل الحديث عنه مجددا.

والأمر الثاني الذي أعطاه أهمية كبيرة في المدينة هو مسئولية الأعداد إلى يوم النصف من شهر شعبان. فهذا يوم عيد بالنسبة للقصير. أطلق عليه عيد العباددة. ورث هذا العمل الخيري من حماه. لذلك يفهم مدى الجدوية عند جميع الأسرة من صفية وبناتها. في هذا العيد يكون هناك مسئول من القصيرية وآخر من العباددة. عزوز عليه فقط أن يفعل كل الخطوات التي كان حماه يفعلها دون أي إضافات وهي أن يتولى أمر جمع النقود من العائلات الكبرى للقصيرية في الحارات الثلاث تبعا لما اعتادوا عليه منذ زمن. وهذه النقود تنفق أغلبها على فرقة الزمار

القادمة من صعيد مصر. فهذه الفرقة الموسيقية تأتي إلى القصير في مناسبة عيد النصف أو الاحتفال بالفوز في انتخابات مجلس النواب وإن كانت منذ عامين أتت على غير العادة لاحتفال بقدم أثاث جديد لبيت عروس تدعى زينب فاروق. الجديد الذي وضعه عزوز هو الترتيب والتأكد من كل شيء لا مجال للأقذار. الفرقة لا بد أن تكون في المدينة قبل العيد بيوم. وكان يجمع البلح مبكرا من البيوت التي بها فاض منه ويعيد غسله وفرزه ويبعثه إلى مسؤول العبادة ليوزعه على الأطفال في نهاية اليوم. ويتابع مع عادل جرجس الخياط الوحيد الانتهاء من تفصيل القماش الساتان الجديد ذو الملس الحريري الناعم الخاص بكسوة المجسمات الخشبية للمقامات الشهيرة في القصير، التي سوف تحملها الجمال في الاحتفال ويتم إعادتها إلى أماكنها بعد نهاية العيد. وهذا الأمر يدخله في مشحنات لا تنتهي مع السيدات وخصوصا العبادة منهن. لاعتقادهن الراسخ بأنه يفضل نسوة القصيرية عليهن. لأن عدد المتبرعات الراغبات كل عام بتجديد كسوة مقام يكن أكثر من عدد المقامات السبعة الموجودة في المدينة. لذلك يشعرن المستبعدات دائما بغبن في الاختيار. في بداية توليه الأمر بعد موت حماه كان يحاول إقناع كل سيدة أو عائلة أن الأمر حظ واسبقية، ومع السنوات علم أن الأفضل عدم الشرح واعتماد اللامبالاة وسيلة ناجحة. لأنه أيقن أنه متهم في جميع الأحوال. كل شيء على ما يرام. فلا بد من الفخر. على الرغم من تعبه. فضل أن يتواجد في «الحارة الوسطية» كما يطلقون

عليها ذات المدقات الضيقة النظيفة، كل منازلها من دورين ومشربيات بسيطة خشبية. يرى حماس الأطفال بين الطرقات بيوم غد حتى أنه يصبغ على لعبهم بصبغة ما سوف يكون غدا فيرى طفلا يلعب البلي مع الآخرين يكتب على الأرض ٤٤ حتى لا يستطيع الطفل الذي عليه الدور من عمل ضربة سديدة ليفوز عليهم، وكان الأطفال يهللون عندما تفشل ضربة الصبي وكان سحر الرقم بعدد الأولياء في المدينة قد جعله يخسر، فسرح مبتسما «الحمد لله أنني نعرف فقط سبع مقامات والامن أين نحضر الجمال لكل هذا العدد». يتسامر مع من يجده في شوارعها الضيقة. فكلهم أما أقارب أو أنساب. التداخل متشعب. لمح من بعيد. لا يطيقه بسبب يونس مما يسمعه من الآخرين. فيونس لا يشتكى. عن تضيق الشيخ هارون عليه في العمل على الرغم أنه ليس مسئولا عنه بصفة مباشرة. وعندما اقترب من الجمع المحيط به. رفع عزوز كفه بطريقة عسكرية قاطعا حوارا عن يوم غد مع صحبته وبصوت مرتفع قائلا: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا مولانا». إلقاء السلام كاملا به تهكم واضح. جعل المتواجدين معه يصمتون منتظرين ماذا سوف يفعل عزوز. توقف الشيخ هارون ونظر إليه بابتسامته المزيفة التي لا تفارقه قائلا: «أليس من الأفضل أن تنتظر منى إلقاء السلام».

- الذكرى تنفع المؤمنين.

وهو يتلفت حوله وهو يتغمز لمن معه مستدركا: «ظننت

أنك لا ترانا، فالغبارينبيء بالسيل، والغيم سابق المطر، فلم نرمنك  
سابقة تدل على إلقاء السلام علينا.»

تململ الشيخ هارون وزادت الابتسامة زيفا وفضل الصمت.  
فلحقه عزوز قائلا: «لا نرغب في تأخيرك ولكن غدا عيد النصف  
من شعبان وكل سنة وأنت طيب، والجمال...»

قاطعته الشيخ هارون مع حده ظهرت في نبرة الكلام قائلا:  
«أي عيد، أنا لا أعرف إلا عيد الفطروعيد الأضحى، أنا مسلم يا  
حاج عزوز.»

- الأعياد كثيرة يا مولانا.. الظاهر لابد أن يمر عليك كل  
عيد من أعيادنا مرات عديدة حتى تحفظه- مذكرة بنبرة  
مهدة بأن إنكاره لعدم المعرفة على الرغم من وجوده منذ  
سنوات لم يستسغه- ونحن نحب أن تستمر في بلدنا.

استخدام عزوز لأسلوب يفهمه الشيخ هارون ومن على  
شاكلته في صعيد مصر بتذكير الغريب بغربته بأنه ضعيف  
وليس له سند. جعلت الشيخ هارون يلين ويستأذن في مغادرتهم.  
فهو يعلم أيضا بأن عزوز رجل كبير في السن ولكنه يحتفظ  
بكثير من أفعال المراهقين معتمدا على قوة بنيانه ولو أطاح به  
لن يجد له معين يصد عنه. بعد ذهابه باح عزوز للحاضرين بأنه  
يكره هذا الرجل. وما هي إلا لحظات حتى غادرت سحابة الكائبة  
التي تركها الحوار مع الشيخ هارون إلى أشعة هزل تتبعث من  
الحاضرين وعلى رأسهم عزوز قائلا وهو يتوه بنفج: «آه لورأيتك

يا شيخ هارون في شبابه لكان وجهك امتلاً بالنتوءات من النوم على رمل الشاطئ». فتعالت الضحكات فيقول آخر: «لو كنت مكانك ومات في هذه الأيام، لا أحفر له قبراً». فيرد عزوز وعينيه تدمع من الضحك قائلاً: «لا يصح فالموت له احترامه ولكني لن أجعله على جنبه الأيمن، فأمثال هذا يدفن وهو على بطنه».

\*\*\*\*

أنهى درس الفقه بعد صلاة العشاء مستعجلاً على غير العادة. فالتطويل سمة ملازمة له في كل أمر هو قائده. خرج من الجامع برفقة بعض الفتيان الذين حضروا الدرس. رافقوه حتى وصل إلى الأوانجى فعرفوا مقصده. البيت الكبير. فتركوه مودعين وهو يتمتم بالدعوات لهم. ما زال يغلى كقدر مغلق فوق نار شديدة الحرارة بسبب عزوز. ويتذكر الأسلوب الفج الذي عامله به. إهانة ومذلة تلقاها من عجوز سفيه. قرر داخله بأنه من اليوم لن يوازن ولن يهادن. الحق أحق بأن يتبع. وتداخلت الأحاديث في أعماقه «بلد فاجرة جاهلة. لا تحترم العلماء. مثلى لو كان في مدينة بها إسلام حقيقى لكان مقامه الأعلى فيها. مدينة منحلته لا يعرفون أبسط الأمور عن الدين. لولا دروسى لأصبح نصف المدينة على جنبه طول العمر».

دخل البيت ساهما عابثا. جلس ولم ينطق. أنفاسه الغاضبة أوحى لفاروق بأن هناك شيئاً ما. لحظات قليلة ودخلت إحدى بنات فاروق بالشاى فكسرت ثقل الكلام. وضعت الصينية

على المنضدة بالقرب من طبق الفاكهة المعد سلفا قبل مجيء الشيخ إلى البيت. وعندما أصبحا منفردان. سأله فاروق مستغربا سبب العبوس الذي فيه منذ أن قابله في صلاة العشاء في الجامع. فتحدث الشيخ هارون موضعا أن ذلك الحزن هو ما جعله يطلب زيارته بعد العشاء على غير العادة. فحتى كلمات الملاطفة من فاروق بتذكيره بأنه صديقه الوحيد ولا يستأذن في زيارته لم تزيل مسحة الألم المرسومه على وجه الشيخ هارون. اعتدل رافعا رأسه وموجها عينيه إلى فاروق بحدة كأنه سوف يخبره بمصيبة قائلا: «الأمر جليل يا حج فاروق، دين الله يحارب في القصير». ظهرت علامات على وجهه فاروق لا توحى بأنه قد وصلت إليه ما يقصد الشيخ هارون بتعبيراته. لمعت عيناه بخبث وأشار برأسه ويده لشيخ بأن يكمل. وكله استعداد لسمع قصة غرام محرمة قد وصلت للشيخ وانزعج منها فلا حرب على الدين إلا بين أفخاذ النساء. استدرك الشيخ هارون قائلا: «أنا منذ أن قدمت إلى هذه البلد وأنا أرى العجب كله، بنات القصيرية والعبادة يخرجن سافرات دون غطاء للرأس وإن غطوا لا يحكمن الغطاء وبعضهن يلبسن كنجمات السينما ويظهرن ما حرم الله، ولا أحد يستغرب هذا من الأهالي كأن أنوفهم اعتادت رائحة العفن، اتخذت هذا حملا ثقيلا لي. ووعد الله أن أحارب هذه الظاهرة، ولكن أن يأتي يوم يسمونه عيد غير العيدين ويلبسون فيه الجديد ويوزعون

الخلوة والله هذا كفر، لأنه بدعة ولو تركنا كل مبتدع يا حاج فاروق أن يضيف شيء سوف نجد بعد ذلك أن يهمل الأصل ويترك ويتمسكوا بما لم يأمر به الله، والله أن ما بي كلسع عقرب لا أضيقة وأريد منك المساعدة على العلاج».

بالطبع عندما اكتشف فاروق الموضوع وأن ما توقعه لم يجده. شعر بإحساس مندفع بسيارة فوجئ بحائط خرساني فتهيأ للاصطدام وعند ملامسة الجدار وجد حائط أسفنجي. فقال دون اكرات: «وماذا بيدنا؟ إنه عيد قديم وقد مر عليك كثيرا منذ أن أتيت القصير».

انتفض الشيخ هارون انتفاضة متوقعة كأنه يعيد تمثيلها، وأنه انتظر الرد بهذه الكلمات قائلا: «بيدك الخير كله. لك علاقات قوية ورثتها عن الوالد واضفت لها أخرى أعلى والمستقبل القادم كله لك بعون الله وفضله، أريدك أن تكون عثمان ابن عفان سنداً لي، كما كان هو سنداً للنبي محمد، هؤلاء الصالحين لا يموتون، فالأنوار التي كونت نطفهم موجودة في الدنيا لأنها من نور الله، فأنا علي أن أوضح للناس أمور دينهم ولكن دون توريه، بل بقوة في الزجر لا يهمني أحد، مثل الدعوة في الأيام الأولى للإسلام في مرحلة الإعلان عندما جهربه، فتكون أنت ظهري إذا أراد أحد أبي سوء. فأنت أعلم بطباع القصير أن أهل بلدتك يحترفون الشكوى للمستأولين في القاهرة».

تخطى في كلامه على قول فاروق أن هذا العيد ليس

الأول له في المدينة كأنه لم يسمعه. بارع في تشكيل أي  
حادثة للمصلحته بسلطات اللالهيته. المتحدث الرسمي للإله.  
الدين هو. من عاداه فقد عاد الدين ومن أحبه فقط أطاع الله.  
تم الاتفاق وانشرح صدر الشيخ هارون. وشعر أنه يجاهد في  
سبيل الله وانفجرت أساريه وهدات القشعريرة التي أصابته من  
مقابلة عزوز وأكثر من مرة هم بذكره مع فاروق ولكنه يتراجع  
قبل أن ينطق. لأنه لا يريد أن يكون له عداً شخصياً مع عزوز  
فهذا يعتبر خطر عليه وأيضا لا يريد أن يفهم فاروق أنه تذكر  
عيد النصف هذا العام بسبب تحرش عزوز به في الطريق. وأخذ  
وعدا من فاروق أن يحاول لاحقا بأن يوقف هذا الاحتفال في العام  
القادم عن طريق أحد معارفه في القاهرة الذين لهم علاقة بضباط  
كبار في الشرطة. ليتم المنع بحجة التجمهر وأنه خطر على الأمن  
العام ويحتاج إلى قوات أمن لا تستطيع القصير توفيرها. وبالفعل  
سوف يتم إلغاء هذا العيد بعد عدة سنوات كما خطط له. فالشيخ  
هارون سوف يذكر فاروق بوعدده عندما تصبح شوكتة قوية.

\*\*\*\*

القمر في السماء اكتمل. أضاء كل العدو باللالئ  
الفضية. والرمال البيضاء تزيد تألق الليل. أهل المكان يدب  
بهم الفخر طالما وجدوا ضيفا قادم من الصحراء. فالغزال الصغير  
الأسمر القادم يتلفت تصنعا لو كان الأمر بيده لكان كعباد  
الشمس لا يتوجه إلا إليه. إلهه أمامه. من دماء الأضحية تخرج

غزلانا كما توارثوا من أساطير الأولين. فقد نحرت الشاة قربانا في حفافيت عندما تلاقت الأعين وتحولت بعد الممات إلى غزال عاشق يطوف حول مقام صاحب الكرامة. قررت أن تخوض بحر هواه. داعية الله إلا يفسد عشقها مستورا فيه لا تعرفه. نفس الأمانى في الجالس أمامها بين الجمع. صمم على المضى في حبها. عشق من أجل العشق. يكفيه ملامحها الشابة أن تدفعه رغما عنه في حبها. وصل الأربعين فاكتشف أن له عين مغايره لي التي كانت معه في بداية العشرينات من عمره. عين ترى النضارة تتساقط من وجوه الفتيات في أول شبابهن كأنه عسل. لم ير هذا الصفاء عندما كان في مثل عمرهن. قد يكون نضارة شبابه شغلته عن رؤية جمال أنداده.

وصلت رضينة وعم فراج القصير مع الغسق. اتجهوا إلى قريب لهم في العدو. الأخبار سبقت بقرب مجيئهم من بضعة أيام من حامد وآخرين. ولكن وصل الخبر الأكيد بوصولهم عندما انطلق سباق من ثلاث أطفال بالعدو المارثونى باتجاه خط النهاية لبيت حامد الجديد، ليخبروه بوصول ضيوف له. وعندما قرب وصول أسرهم وأكبرهم سنا للحامد. أطلق الصغير المتأخر من بعيد بخبث طفولى نكائية في الفائز «العروس وصلت العروس وصلت». ترك حامد أفرع الخشب الجافة لشجرة النبق التي كان يكسر منها أجزاء للموقد الشاى الذي يعده لفضائية. واتجه مسرعا إلى داخل البيت ليغتسل سعيدا بالقدوم المناسب للرضينة. لأنه قد حلق شعر رأسه اليوم وذقنه استعداد للعيد غدا. فالانطباع الأول يدوم. أخذ

يبالغ في تعطير نفسه برائحة الصندل السوداني. خرج على عجل واضعا شالا جديدا على أكتافه. فصوت الأطفال المتناحرين في الخارج لن ينتهى إلا بتدخله. لأن فضاية ما زالت نائمة في غفوة ليست غريبة عليها وبكاء أصغرهم الذي أفسد فرحة الوصول للأسرع لن يجعلها تستيقظ. تغفو كطير وهي جالسة متربعة على الأرض كأنها خيمة صغيرة لا يعرف أين مدخلها.

وعند قرب الوصول إلى الجمع الجالس لاحت له من بعيد موقع رضينة. بدا الخفقان بشدة. أزعجه وتلكأ في السير على عكس البداية متعللا بفضاية كأنه يستعد شالها. وأصبحت خطواته التي كانت تدفع فضاية للامام أصبحت بطيئة كأن في رجليها أثقال. أسعفه الوقت حتى ينظم ضربات القلب. هو الوحيد الذي يعلم ضعفه. التفوا جميعا حول الجبنة ودارت القهوة بينهم وقاد الحديث بخبرته المعهودة بعد هدوء الهياج الداخلي. وفضل الحاضرون أن يتركوا المجال للأمير. مرشد سياحي لا يعرف ما هو المهم بالنسبة للسائح. يمتلك كم هائل من المعلومات. أخذ يتنقل من جهة لأخرى. أراد أن يخبرها بكل شيء حتى الأمور الخاصة التي لا يلتف لها الزائر أخبرها عن أصدقائه وعمله. لم تنطق بكلمة في هذه الأمسية ولكن ثغرها المبتسم قال الكثير وافاض. كانت تتخيل كل كلمة يقولها حامد. وتسرح وترسم بمخيلتها الصحراوية ملامح للعمله وبيت الزواج ويونس والدكتور سراج وعيد النصف. وملابس الفتيات من القصيرية والعبادة الأقرب

للمدينة في العوينة. الأمر الذي لاحظته من زوج المستقبل هو علاقته بالأغراب خارج العبادة وهذا لم تشاهده في غيره. فهو لا يغزل مع الجمع في سجادة الانا عندما يغزلون. يفضل السكوت. وهم تظهر منهم علامات عدم الاهتمام عند ذكر من لم تجمعهم بهم جذور. انتهى السمر مخبر ارضينة بهمس بأنه سوف يرجع خلال دقائق ليهدىها ثوب جديد. اتجهت فضاية حاملة ابريق ماء باتجاه الطريق السريع الموازي للبحر عابرة إلى الخلاء لتقضى حاجتها. على الرغم من عمل حمام في بيت حامد إلا أنها كأغلب سكان العدو في تلك الأيام ما زالوا يفضلون الوديان. والشئ الذي يدعو للعجب. لا تجد أي أثر للبراز في أي مكان، ولا أحد يصادف آخر في الخلاء كأنهم ققط. فمن عاداتهم ألا يتغوطوا في أماكن المرور. على عكس كل قرى الصعيد المصرى - باستثناء النوبين - تجد الأطفال الذكور عرايا من الأسفل يطوفون حول جدران المنازل ويتركون مخلفاتهم واضحة أمام الجميع دون أي استياء من أحد.

\*\*\*\*

أطفال كثير يترقبون في جماعات بملابس فقيرة بالية ولكنها لا تفرقهم. مقسمون طبقا للسكن والصحة إلى عصابات. لا يخلوا الأمر من مشاكسات بينهم وبكاء صغير هنا أو هناك. مغلقين مدخل المدينة من ناحية الجنوب بأجسادهم الضئيلة. تواجدهم في أسفل مطلع العدو فلا يرون القادم من الجنوب إلا بعض صعوده قمة المرتفع الأسفلتى. ثم يهبط

باتجاههم. اختيارهم لهذا مكان لرهبة الترقب التي سوف تأتي مع القادم. الشمس غادرت ماء البحر واستقرت متوسطه بينه وبين منتصف السماء. بعض الأطفال الكبار يتحزلقون على الصغار بوضع أذانهم على الأرض بجدية تليق بطبيب أثناء الكشف على صدر مريض. محملقين في الآخرين ليصمتوا حتى يتيح لهم سماع هجيج أو همهمة للقطيع أو جعجعة جمل قوى. ويتم التأكيد على قرب دخول الجمال إلى المدينة. وعند ظهور أول جمل أعلى المرتفع وعلى ظهره شاب جالس يشد عنقه للخلف ليقف للحظات كأنه فارس ينظر بشغف وشوق للرجوع لموطنه ليدخل المدينة التي غاب عنها لعام مضى. تعلو الصرخات من الأطفال. ويحضنون بعضهم ويهنتون كبيرهم الذي نجم بقدومه. ويندفعوا متجهين لأعلى الشارع ومن يتعثر يقوم غير مبالٍ للألم ويكمل الركض في اتجاه أول جمل ولا ينتظرهم الفارس فيتقدم باتجاههم ولا ينزعج الجمل بالأطفال فقد تم اختياره من أعواما سابقة لهدؤه. ويمشى في موكب تحيطه الصبية مقلدين الكبار في الرقص وتستهوئهم حمل السيوف الخشبية. وبعد لحظات من إكرام الجمل الأول بتشريفه تليق به، ينادى آخر من الخلف بصوت منادى خبير بمهنته بصوت جهور واضح على مهل يمتط في الكلمات قائلا: «جمل آخر وصل». فيصمت الأطفال ويعم السكون ثانية واحدة لا أكثر ويتركون الأول ويتجهون راكضين للخلف مرة أخرى بأصوات عالية وهم شاهرين سيوفهم الخشبية تلبيه للصوت القادم كأنه قال هجوم وليس جمل آخر.

ويستمر هذا المشهد حتى تصل جميع الجمال المشاركة في العيد القادمة من أماكن تواجدها في الوديان القريبة من جنوب القصير التي يربطها العبادة الذين ما زالوا خارج المدينة. ويعرف كل راكب للجمل ما هي التقاليد المتبعة كل عام. بأن يأخذ الشارع الأسفلتي المقوس للبحر حتى شمال المدينة ويتجه غربا خارج المدينة ويدخلها ثانية كأنه قادم من مدينة قفط ويستقر في جنينة النخيل حتى صلاة العصر. ويعتبر مرور الجمال هذا الطريق هو عبارة عن دعوة أهالي المدينة للاحتفال بعيد النصف.

\*\*\*\*

الجامع الكبير امتلأ على آخره في صلاة ظهر الجمعة. كثافة الزحام بسبب الأطفال التي تكدست في نهاية الجامع المنتظرين الموكب الاحتفالي من الصباح الباكر. مع عدم خروج الصيادين للبحر في هذا الشهر الذي يعتبر مثاليا في معظم الاعوام. فشهرا أغسطس هو الأفضل لارتفاع درجات الحرارة ولكن أتت رياح في أول الشهر القمري ولم تنتهي حتى كبر القمر في السماء. فافسدت الشهر. لذلك يسمى الخلل الخريان وذلك بالنسبة للصياد أم الذي لا يطيق حر الصيف أو يريد أن يستمتع بالهواء الرطب فهو شهر مقارب للربيعي. ما زال اجتماع أمس يعطى القوة والصلابة للشيخ هارون. لم يهنئ بساعتين متصلتين في الليلة السابقة في النوم. ينتظر خطبة الجمعة وهو متحمس لابعاد الحدود. غرق ليلته السابقة في أحلام يقظة وتخيلات لانتصاراته

الخارقة. بأن يتحول المجتمعين في الجامع بعد سماع خطبته العصماء إلى مؤمنين مثله يتبعون الكتاب والسنة. ويتوبون على يديه في المسجد. ويسمع بكائهم ونحيبهم وهو على المنبر لم ينه حديثه. ويصمت أكثر من مرة بسبب علو العويل كما يحدث مع مشايخه المشاهير بمصر. وبعد أن ينهى صلاته معهم يخرجون مكبرين في جماعات كبيرة، ويهاجموا جنينة النخل في العوينة ويطردون من بها وينحرون الجمال ويوزعوا لحمها على الفقراء في المدينة. ويصبح العيد منتهى من هذا اليوم. ثم يعودون بعد ذلك أمام المسجد وهم يقولون بأصوات مرتفعة حادة واضحة جاء الحق وزهق الباطل وهو يشير إليهم من أعلى سطح المسجد ويكبر ويهلل مثلهم. ويطوفون شوارع المدينة مهللين مثل يوم زينب فاروق. تذكر بأسى ذلك اليوم ولا م نفسه لأنه كان عليه أن يستثمر ذلك اليوم ويستغل نشوتهم بنصرة الدين ليقضى على بعض البدع المنتشرة بينهم.

تأكد من ثبات عمامته وقام ماسكا طرفي عباةته وصعد المنبر. ينظر بعض المقربين إليه لبعضهم باعين عالمه بما سيكون وألقى السلام على الجالسين في الجامع. وأثناء الأذان الثانى أخذ يمشط لحيته الكثيفه بيده اليسرى مستخدما أصابعه وبيده اليمنى سواك يمرره على أسنانه التي تظهر أثناء تمرير السواك. المنتمين إلى فكره من المصلين يقولون ما أجمله والغالبية الباقية ترى فيه القبح بدرجات متفاوتة تبعا لأسلوب تفكير صاحبها. انتهى الأذان نهض قائما مقربا الميكروفون من فمه. وبدأ بآيات

الوعيد لمن يحيد عن الصراط المستقيم. والعذاب المنتظر لمن ابتدع شيئاً في الدين. وأخذ يصف جهنم وكيفية العذاب والملائكة المكلفين بهذا العقاب. الصراخ هو المسيطر على الخطبة. حتى صدى الصوت الذي كان يجعل بعض الكلمات لا تفهم لم يوقفه عن الصراخ. طال الحديث وصل الملل إلى المستمعين ولكن لا يمكن لأحد بأن يوقفه طبقاً للأداب الدينية. سلموا أمرهم لله. وهم يتأففون. حتى اتجهت كل الأنظار إلى وسط الجامع. قام فجأة أحد كبار السن من القصيرية المعمرين في المدينة الذي أتاح له العمر أن يرى أبناء أحفاده. وهو يستند على عصاه ويتلفت باحث عن صغير من أحفاده الذي قد أتى به إلى المسجد. فشعر الصغير بالخرج عندما ناداه باسمه. فهرع إليه ممسكاً يده. واستمر الكهل في زجر الصغير لتأخره عليه. صاباً غضباً مفهوم دوافعه. وعندما وصل إلى باب الخروج الكبير التفت إلى الورا وهو ينصب قامته جيداً بقوة غاضبه ثم قال للجميع بصوت واضح جهورى: «السلام عليكم». فردوا معظم من في المسجد عليه السلام ومنهم من على صوته برد السلام ممزوجاً بابتسامات فتداخلت الأصوات. لم يتوقف الشيخ هارون أثناء خطبته في هذه الأحداث. لو كان تم تسجيل كلماته وماذا كان يقول عند رويته للكهل واقفاً في وسط الجامع حتى مغادرته لاكتشف أنه كان يتحدث بكلمات ليس لها أي معنى، غير أنها مسبوغة بألوان دينية. خبرته جعلته لا يتوقف عن الحديث حتى وإن كانت عينه تتابع شيء آخر. لم يستمع أحد من الموجودين إلى ما

يقوله الشيخ هارون كأنهم سدوا أذانهم، فمعظمهم تابع بفضول خروج العجوز المعروف بفكاهته لديهم. قطعة ثلج أصابت عموده الفقري ينزلق من رقبتة حتى مقعده. تمت الصلاة بعد انتهاء الخطبة وأثر الهزيمة على وجهه. كل ما قاله ذهب مع الريح كأنه حشائش جافة. لم يخرج من المسجد كعادته بعد انتهاء التسايح التي يقرأها بعد كل صلاة. جلس في مكان تواجده كإمام، جاعلا كل المتواجدين خلفه. لا ينظر لأحد كأنه في خصومة معهم. منتظرا خروجهم جميعا. بد الأمر له كأنه كابوس سوف ينتهي بعد خلو المسجد من الجميع. عم الهدوء تمام. الأصوات تأتي من الخارج. قرب منه صديقه فاروق وضعا يده على كتفه فلما راه. نهض مسلما. ازره صديقه بالضغط على كفه وانصرف. ثم وجد بعض الشبان السلفين ياتون إليه ويحيطونه ويخبروه بأن خطبته كانت عظيمة. وأكدوا له كيف اثرت في بعض الأصدقاء الذين يعرفونهم. واحساسهم يرجح بأن يوم هدايتهم قد قرب. ولم يتجرأ أحد منهم على أخباره بأن إطالته أضعفت الهدف.

\*\*\*\*

أنهى وجبة الغذاء وحيدا اليوم على الرغم من أنه يوم الجمعة. لم يزره يونس أو حامد. الاثنان مشغولان اليوم. تذكرهما بابتسامة صافية وأخذ يحدث نفسه وهو يتحرك داخل شقته. قد ينشغل حامد طويلا في الأيام القادمة. ينظر إلى كتبه المترصنة فوق بعض بجانب جدار الغرفة التي قرأ معظمها حامد.

كان وقتا مفيد له بعد طلاقه. يبتسم وهو ينحن قليلا ليتمرر اصابعه على أسماء الكتب في الأعلى. شاعرا بالفخر محدثا نفسه «من يستطيع أن يصدق أن ميكانيكى في القصير يقرأ روآيات مترجمه من الأدب الإنجليزى واللاتينى وكتب لفلاسفة أمثال سبينوزا وليبتز وطريقة الأمام الأكبر محى الدين بن عربى في التفكير والتصوف. فما فعلته هو إعطاء الطعام للجائع. فحامد دائم التفكير». ثم سرح في الماضى. مر عليه أصدقاء كثر ومتعلمين حاصلين على أعلى الدرجات العلمية ولكن السطحية أسلوبهم في الحياة. وعندما يتذكر الجهل يتجسد أمامه طبيب شركة الفوسفات الدكتور عصام السكرى الذي يأتي منتدب من القاهرة بعض المرات القليلة من العام. المنتمى إلى عائلة عريقة في صعيد مصر. معظم أفراد عائلته أماقضاة أو مسئولين. وهذا بفضل التزامهم التعليمى وتفوقهم مع ثروة تبعد العقبات. نشأة بينه وبين هذا الطبيب زمالة بحكم المهنة والتواجد في مجتمع صغير. وفي إحدى المرات التي كان الدكتور عصام موجود في القصير. سرق من استراحته مبلغ كبير من المال قد استلمه من أحد أقاربه من الصعيد. كان نصيبه من إيراد أرض زراعية تخصه يستلمه كل عام في القصير. ضجت المدينة في ذلك اليوم من هول الصدمة لعظم المبلغ. وبالطبع تواجد الدكتور سراج مع زميله ليهون عليه المصيبة. وأثناء الضجر والارتباك في استراحته وإعادة القصة عشرات المرات عند قدوم كل مهم من مأمور القسم إلى عضوين مجلس الشعب ومدير شركة الفوسفات وبعض الأعيان. حتى فاجأهم

الشيخ هارون أنه يستطيع أن يعيد المال المسروق. قالها في ثقة وهو يتسم متفاخرا أمام الحاضرين كأنه ساحر سوف يعيد الحمامة التي تحولت إلى قطعة قماش وسط ذهول الناظرين. كان وجوده طبيعى لأنه كان دائما يقول على الدكتور عصام أنه ابن عمه في درجة القرابة. فقد تعرفنا على بعض منذ زمن في بيت فاروق. وتوجد لدى الدكتور عصام نزعة دينية وقبلية متجذرة فيه على الرغم من درجته العلمية. نظر إليه وهو في أشد حالة الياس متسائلا: «كيف يا شيخ هارون؟». فرد عليه بابتسامة لا تناسب الموقف قائلا: «بأن نقرا عديّة ياسين على السارق». أصاب الاحباط الدكتور عصام ثانية وودى لو بكى أمامهم. وبدأ الحاضرون يصابون بالحرج لكلام الشيخ هارون. الطبيب المسروق ومعظم الحاضرين ليسوا أهل منطق وتفكير. ولكن أتى استنكارهم من جانب آخر فمثلا كانوا سوف يصدقوا القصة بسهولة التي يريد أن يسردها الشيخ هارون لهم لو كانوا مستمعينها ولكن صعب عليهم التصديق لأنهم أفراد داخلها. فاوقف هذه النظرات الغاضبة المتجه إليه وخصوصا من الدكتور سراج قائلا: «أنا محتاج عربية نقل صغيرة وميكروفون فوقها». وارتفع صوته مكملا: «وأنا أعني ما أقوال». وفرت له العربية من شركة الفوسفات وانطلق يطوف القصير ويجوب شوارعها بأنه سوف يقرأ عديّة ياسين على السارق بنفسه في المسجد بعد صلاة العشاء ومن أراد الانضمام فالباب مفتوح. وانطلقت الاقاويل. في نفس اللحظة التي إذاع فيها الميكروفون عما سوف يحدث في المساء. تحكى ماذا

ستفعله عدية ياسين في السارق لو لم يرجع المال المسروق. بأنه سوف يسخط لعمود خرساني أو يصاب بمرض لعين أو يجن ويفضح بين الناس. وبسبب الاعتقاد الراسخ لدى الناس بقدرة الآيات القرآنية في إيصال الأذى للسارق تعاطف معه كثير من الناس، وأخذوا يدعون على الشيخ هارون بأنه يجب الانتقام والشر وتوقعوا له بسوء الخاتمة. حتى الذين كانوا مرضى في هذا اليوم فضلوا أن يكتموا مرضهم حتى لا تصيبهم سهام الاتهام. ثأر في هذا اليوم الدكتور سراج. ناهرا زميله بأن هذا تخلف وجهل. ولا يصح بأن يخرج منا مثل هذا أو نسمح للشيخ مخرف أن يقود أمورنا - امتلأ الشيخ هارون بغضا للدكتور سراج من يومها - وراجيا الدكتور عصام بأن يوقف هذه المهزلة. ولكن لم يجد أي أذن صاغية من كل الموجودين باستثناء الأستاذ تهاى ولكنه لم يتكلم. وواسى الدكتور سراج بأن ربت على كتفه كأنه يخبره لافائدة من غضبك. اتركهم وشانهم. وقبل أن يجتمع المتطوعون للقراءة مع الشيخ بساعة إلا وكان كيس المال ملقى خلف استراحة الدكتور عصام بعد أن قذف حجر على الاستراحة من الخلف، محدثا ضجة ليجذب انتباه الموجودين في الاستراحة. السارق خاف من السخط. ذكريات لا يجب تذكرها الدكتور سراج. نظر إلى نفسه في المرآة معدلا وضع شعره الأبيض الناعم الذي يطيله من الجانب الأيمن حتى يغطى مواضع الصلع التي انتشرت بها القطع البنية الغامقة ليصل به للجانب الأيسر. طوله الفارع مع نحافة غير معيبة. وبشرة شديدة البياض ونمش بالوجه. وملابس أوربية جعلت

أهالي القصير يعتقدون بأن أصله إيطالي. وخصوصا القصيرية منهم. فالجالية الإيطالية التي عاشت بينهم في أوائل القرن العشرين لفترة من الزمن وكثير من أطفالهم ولدوا في القصير وكانوا يتكلمون العربية ولهم صداقات مع أقرانهم في المدينة لم تنته حتى بعد مغادرتهم. وقد توفى بعضهم ودفن في مقابر المسيحين في القصير. ظهر التأثير الأكبر بالإيطاليين على القصيرية لقرب سكن الإيطاليين بمساكنهم. لذلك هم الأكثر عملا ونظافة وقابلية للتطور ومنفتحين عن الباقين إذا قورنوا بباقي أهل المدينة فقط. وأتقن بعض الأشخاص اللغة الإيطالية والمعظم يعرف الكلمات البسيطة بالإيطالية مثل التحية والسؤال عن الأحوال والصحة والعمر وبعض الكلمات المستخدمة كثيرا بين الناس. فكان عندما يمر الدكتور سراج أمام بعض الجالسين أمام البيوت أو الأكشاك ويسلم عليهم يردون السلام بالإيطالية ويداعبوه بلطف ومرح مستحب له ببعض الكلمات الإيطالية. تعود على أسلوبهم في المزاح ولكن لا يستطيع فهم إصرارهم عن نزعة جنسيتها وإعطائه الجنسية الإيطالية. ونقل له يونس أن الناس تقسم أنه أحد الصبية الإيطاليين الذين كانوا هنا في الماضي. وبعضهم يقول أنه ابن استيفانوا وأخريقول إنه ايفانوا ابن انيو. واستقروا في النهاية على إطلاق اسم عليه بينهم الدكتور سيراجوما دام يريد ألا يصرح بحقيقة أمره. ومع مرور السنوات علم الدكتور سراج أن فترة وجود الإيطاليين في القصير كانت فترة ازدهار. فهم الذين ساهموا في بناء المستشفى وتعليم الفتيات والفتيان

حرف وفتح مدرسة خاصة إيطالية يحق لأبناء العاملين بشركة الفوسفات أن يلتحقوا بها. فتكون جيل منهم هو من ساهم في التعليم بعد ذلك. وبنوا خزانات ضخمة للمياه ومصنع ثلج صغير ومكثف للتقطير الماء المالح. لولا وجودهم لما تحركت الحكومة المركزية بالاهتمام لهذه البقعة من الأرض. فكان من الصعب عليهم تصديق أن هناك شخص مصرى مثلهم يأتي من القاهرة ليحاول أن يساعدهم. والأسلوب المذهب الذي يتصف به الدكتور سراج جعلهم ينكرون أنه قاهرى. فقد أتى القاهريون بتعجرفهم وتعاليمهم غير المبرر بأي علم أو تربية بمقارنتهم بالأجانب السابقين. معتقدين أنهم طالما يتحدثون لهجة أهل العاصمة فهم متحضرون. وهذا سر هروب القادمين من الشمال بسبب عدم انصياع أهالي المدينة لهم فكيف لا يتبع الأدنى الأعلى كما يعتقد القاهرى. فالإيطاليون أصبحوا مقياسا للقصرية يقيسون به قدر القادم من القاهرة. وفي ليلة من الليالي الأولى لصحبة الصيد على البحر في الكيلو خمسة جنوب القصير. سأله منصور عن جذوره. فقص عليهم كيف أتى إلى القصير. بأنه أصبح وحيدا بعد موت زوجته وهجرة ابنته الوحيدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع زوجها. وكيف ضاق بوحده وهبطت مثابرتة وصبره في العمل. فكل يوم يرجع يجد نفسه وحيدا بعد يوم شاق لا يستطيع أن يطالع بحثا أو يقرأ كتابا. عدم وجودها أمامه على الكرسي باعثة له بطاقة في الحياة. زاد الوجد والحزن به بسبب أنه لم يسعد بحياته مع زوجته المحبوبة. انتبه للعمر بعد أن مضى. وفي إحدى

مكالماته القليلة مع ابنته الهمته بأن عليه أن يتوقف ويفعل أي شيء يحبه في حياته خارج نطاق العمل طالما معه ما يكفيه لبقية حياته. وكيف أن من يصل إلى سن التقاعد في أمريكا يتجه إلى حياة جديدة بتربية خيول في الريف أو سفر حول العالم أو كتابة رواية في نهاية العمر. فاختار أن يعود إلى هوايته القديمة في أيام الشباب قبل أن يتزوج وهي الصيد. فاضل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. الكتب التي كانت في مكتبة بيته أختارت البحر الأحمر. فكان يأتي إلى الغردقة ويقضى بها شهور الصيف كاملة. إلى أن قابل بالصدفة عن طريق صديق مشترك الأستاذ تهامى نائب البرلمان عن المنطقة الجنوبية. فاقترح عليه أن يوفر له سكنا مجانا في القصير وما يحتاجه من أدوات صيد على أن يكشف على الأطفال المدينة بأجر وليس مجانا في أوقات الفراغ. فالخدمة التي كان يقصدها الأستاذ تهامى أن يوجد طبيب دائم. وبسبب دماثة خلق الأستاذ تهامى لم يرفض الدكتور سراج مباشرة وفضل الرفض لاحقا مستخدما أي عذر. ولكن منذ أن وضع قدمه في القصير وكل شيء لعب ضد رغبته في رفض الفكرة. ضحك بصوت عالي متذكرا أول مرة جرب الصيد فيها وكم السمك الذي أخرجه. ففي ذلك اليوم لو كان الطعم حجرا لأكلته الأسماك. واعتقد في ذلك اليوم أن الصيد في القصير وفير جدا. وزاد تعلقه بالمدينة عندما شاهد الشقة التي أعطاه إياها الأستاذ تهامى مستخدما نفوذه ضد البيروقراطية ليحصل عليها، لأنها كانت استراحة للاجانب منذ عشرات السنين ولا أحد يستخدمها ولا يعرف من المسؤولين

الحكوميين ماذا يفعلوا بها. مفضلين أن يبقى الوضع على ما هو عليه. فكانت شقة ممتازة لا يجدها في القاهرة كانت في الدور الأول علوى ذات طابع أوربي في الأرضيات وسقف خشبي مثلثى مرتفع مثل البيوت المعدة للسقوط الثلج. وبلكونة اعدت بمهارة فنان من الخشب الارييسك واسعة. بالإضافة إلى توفير ممرضة شابة تابعة للكنيسة جعلت الشقة التي تستخدم كسكن تصلح أن تكون عيادة نظيفة وتكتسب جدرانها مع الأيام روحانيات صافية من كريستينه التي تمثل العطف في صورة شابة نقيية. واستقر في المدينة وبعد شهر من قدومه جلب كل ما يحتاج من سكنه في القاهرة.

تذكر الكاميرا أثناء سرحانه فأحضرها من درج مكتبه واتجه بها إلى البلكونة فهي شيء قيم في المدينة لعدم وجود مثيلتها. لا يبخل بتصوير أحد وعند ذهابه إلى القاهرة يحمض جميع الأفلام ويهدى أصحاب الصور مجانا. ما زال الوقت مبكرا لقدوم الموكب. فجلس في البلكونة واضعا قدميه على المنضدة الصغيرة التي أمامه. فخره الهواء القادم من البحر.

\*\*\*\*

فضل ارتداء الجلباب الضيق الذي يظهر عضلات الذراع وتقسيمة عضلات الظهر عند الحركة. وشال خفيف غامق الألوان طويل يغطي الرأس من الجبهة مارا فوق الأذنين ويربط خلف الرأس بمحاذاتهما بعقدة واحدة مكونا ضفيرتين من بقية

الشال، يسدلان على العنق في تجانس مع بقية الشعر الطويل للحامد. ونظارة شمس أهداها له الدكتور سراج، جعلت قلب رضىنة سيقفز خارج صدرها من ما ترى. لا بد أن يظهر أصغر من عمره حتى يناسب العروس الصغير. أما هي فقد لبست الثوب الذي أهداه إليها أمسى. الثوب الرسمى لكل بنات وسيدات الجنوب الذي ترتديه النسوة حتى مناطق بعيدة في أفريقيا. يشبه نوعا ما زى الهنديات في اسيا مع عدم تعرية البطن. ولكن لا يرتدونه كثيرا إلا في المناسبات لغلو ثمنه، وكونه غير عملى لأن من ترديه عليها أن تحافظ على هندمته الدائمة. دائما ألوانه زاهية ذات بريق. فكان أول ثوب لها لونه بمبي. مشيت بجانبه شاعره أنها الحدث الأكبر ولا يجب أن يحزن أحد في هذه الأيام. غير مصدقه لكل ما هي فيه من فرط السعادة. كانت هي اشجع منه بعد أن ابتعدت عن العدو بدأت بالكلام وأنه مختلف تماما عن كل من راتهم في حياتها من شبان. وخصوصا عندما يتحدث. كاد يغمى عليه من ثقل لسانه. «دقيقة أو اثنتين أمهلينى يا صغيرتى. أه إنهم كدهر. ماذا ستظن في من السكون المعيب». صمتت. إنه كمحرك لعربة كبيرة يحتاج إلى وقت حتى يسخن. مصارع ذو باس يحتاج لبعض اللكمات حتى يثور وتظهر حقيقته. مر الوقت المطلوب تكلم وأفاض وأنساها ثقل الدقيقتين. وأضحكها، فجميع النساء لا تحب الرجل السمج. اقتربوا من الجنىنة فالطريق من العدو إلى تجمع الجمال به بيوت قليلة لأنه ممر للسيول. لذلك لم يزعجهم أحد أثناء السير.

وعندما وصلا اقتربت أكثر منه فالزحام له هيبة بالنسبة لها. أتى الأطفال الذكور مسرعين ناحية حامد يسلمون عليه فقد أصبح بالنسبة لهم في القصير شخص مهم جدا. ويتقربون منه ويتوددون مطلقين عليه «عم حامد». وكانت رضىينة تخبئ فمها بطرف الثوب من الابتسامة من كم الأطفال الذين يسلمون عليها. فصاح بالقرب من أذنها بسبب الضجيج العالى المنبعث من الناس بأنه سوف يخبرها لاحقا ماذا يريدون هؤلاء الشياطين منه؟ بدأ حامد يتلفت كثيرا ويبعد عينيه لتلتقط من أبعد مسافة مستغلا طوله. يبحث عن زوجته السابقة. لا يريد أن يراها أو تقع عينها عليه فتعكر صفاء النقية التي بجواره. فإن لها من كيد النسوة الشريرات القبيح ذو السخافة. فهو يعلم تمام أنها قد ترسل إليه طفل صغير يتحرش برضىينة أو يشد ملابسها فقد سمع منها الكثير في السابق وهي تتباهى بأفعالها أمام صديقاتها. لام نفسه كيف تعطل عقله عندما انجذب إليها. لو كان لم يتغير في السنوات الماضية لظن كاغلب الناس بأن زوجته السابقة قد عملت له سحر حتى تجعله يتزوجها. ولكن سذاجة الشباب وقلّة الخبرة هما ما أوقعاه. أما رضىينة لم يقترب من ذهنها التفكير في فاطمة نهائيا حتى أنها لم تسأل عنها واين تقييم وما شكلها. قد تكون الغيرة وليدة الراحة أما حياة الصحراء لا تعرفها. وجدت في الزحام فتيات يلبسن مثلها فبث داخلها الثقة وسالت حامد عن بقية الفتيات المختلفات في الملابس هل هم من العابدة. فأخبرها بأنهم كذلك ولكن يختلفن قليلا بسبب القرب من القصيرية

فهم الآن في المنطقة الوسطى بين عبادة الصحراء والمدنية بصورتها المتمثلة في عائلات القصير. فأخذها من يديها واتجه بها إلى أختين واقفتين يعرفهما فهو زميل لأخيها في العمل. فقدم لهم رضينة فهي من نفس قبيلتهما. فرحبا بها بشدة. فهناك عاطفة خاصة داخل قبائل العبادة لأبناء القبيلة الواحدة. فأخذت تنظر إليهم رضينة بعين الإعجاب وأنه غدا سوف يكون لها بنات مثلهن. فقد وقعت في حب حياة الحضر.

ظهرت العريتان الربيع نقل من على بعد، تحملان البيارق قادمتين في سرعة جنونية وأثارتا الأتربة لدى وصولهما. ونزل من صندوق أحد العريتين عزوز وهو يسب ويضرب إطار السيارة بقدمه بطريقة مضحكة يتضح فيها الكذب معبرا عن عدم رضاه للمشهد السرعة المحبب له. أسرع إليه شباب كثير ليساعدوا في إنزال البيارق السبعة الخاصة بالسبع مقامات الموجوده في القصير. والبيرق اسم صوفى يطلق على المجسمات الخشبية التي توضع فوق قبور الأولياء وهو عبارة عن قفص خشبي مفتوحة قاعدته يعطى شكل منشور رباعي فوقه منشور ثلاثى عندما يغطى بقماش الساتان كأنه مجسم صغير لقصر أوربي. قاعدته مستطيلة عرضها متر ونصف وطولها مترين، وارتفاع البيرق تقريبا لا يتعدى مترين. يتم المناداة على من تبرع العام السابق بقماش البيرق حتى يسترده. أول اسم لاقى استحسانا بين الناس هو اسم فضاية. فترك حامد رضينة مع رفيقتيها واتجه لمن ظهرت وهي تستلم الكسوة القديمة. وعندما شاهده عزوز انفجر

في عتابا موجها حديثه لحامد قاصدا الكل قائلا: «أنا لا أفضل أحدا على أحد. خالة فضاية حجرت بأعوام، فالأمر دور يأتي على صاحبه والصالحون هم من يختارون من يكسوا مقاماتهم وليس عزوز». وبعد أن تطاير الرزاز من فمه من شدة الانفعال. اقترب من فضاية وهو يعطيها الكسوة القديمة هامسا لها وهو يضحك قائلا: «لومعك كسوة جديدة أعطنى إياها الآن الأمر بيدي». فنغزته بعصها. وبعد تسلم قماش البيارق القديمة لأصحابه وغالبا يكون سيدات وتغطى البيارق بالقماش الجديد. ويسلمها عزوز بعد ذلك للعبادة ويركب في صندوق السيارة ويحيه الزمار أثناء مغادرته وهو يرفع يديه ويتمايل وتعلو الأصوات في تحية يعشقها عزوز. وتوضع بعد ذلك البيارق السبعة الجديدة فوق الجمال التي تم اختيارها بدقة تبعا لهدونها ومزاجها في ذلك اليوم. وعندما اقتربت فضاية وحامد من رضينة. تقدمت الفتاتان لتحية الخالة فضاية وقبلها. وفعلت رضينة مثلهما فابتسمت فضاية لحامد قائلة: «رضينة تركت حفايت للأبد». بسبب تقليد رضينة لطريقة تقبيل الفتاتين. واحتضنتها بصدق وصل إلى رضينة وزاد من الألفة بأن قدمت كسوة البيرق لرضينة هدية لتتبارك به وتجعله في منزلها. أخذه حامد وتركه في الجنيئة ليأخذه معه بعد الاحتفال فهو ثقيل الوزن. علت أصوات الجمال أثناء قيامها معلنة بدأ الموكب. تم تقديم الجمل القائد وبعده الآخرين الحاملين بيارق مثله وفي النهاية بقية الجمال. ويكون عددهم من العشرة والخمسة عشر جمل. فيعزف الزمار مع دقائق

الطبل ويكونوا في المقدمة ويبدأ السير على مهل. ويحيط الجمع بالموكب من الجانبين والكتلة الكبرى منهم مكونة رأس القافلة. ومن له أطفال صغار يرفعوهم لركوب الجمل تحت البيرق المحمول كأنه هودج لجمل. ويتباهى الشباب بالرقص بالعصى في هذا اليوم أمام الزمار وهذا الأمر لا يتم إلا بسبب نغمات الزمار التي تدفعهم لهذا النوع من الرقص الذي لا يجيده القصيرية ولا العباددة. فيمر الموكب الكرنفالي في شارع العوينة فترمى السيدات من أسطح المنازل والبلكونات الحلوة وتعلو الزغاريد التي لا تسمع من علو صوت الزمار وصخب المحتفلين ولكن مشاهدة السيدات وكل واحدة منهن تضع راحة يدها كأنها تؤدي تحية عسكرية خاصة بالنساء يبهج الجميع، بأن تتضع الكف أسفل الأنف صانعا مظله لخروج اللسان من الفم ليتحرك بسرعة مذهلة بتكرير حرف الراء ليذكر الأرض القديمة بأن اسم الإله رو إله العريس عند المصريين القدماء ما زال يتردد بين الأحفاد وخفاء قصته عن العامة وهبته الحياة والالكان لقمة سائغة للغربان القادمة من وراء البحر. طول الطريق ترفع فضاية عصاها من حين لآخر مع النغمات فما زالت تحفظ الأماكن وأصحاب البيوت ولكن ظهور الماء الأبيض في عينيها جعلها لا تميز السيدات التي على الأسطح. وتقف الفرقة الموسيقية أمام كل منزل لكبير عائلة فتحيه فيخرج رب البيت واضعا بعض الورقات المالية في جيب جلباب كبير العازفين. ومن أراد أن يستخدم العصى الوحيدة في الرقص فعليه بأن يظهر ورقة مالية قبل أن يستلم العصى من

سابقه. ويستمر هذا الوضع حتى يصل الموكب إلى نقطة الفصل والاستلام. بيت الأوانجى. فبعده بأمطار قليلة التجمع الأكبر منتظر على أحر من الجمر من أبناء القصيرية لاستلام الركب لا يتقدمون خطوة واحدة يحفظون مكانهم. فيظهر منصور رافعا يديه عاليا بورقة مالية ذات فئة كبيرة. فيعلو صوت المزمار بطريقة واضحة ساحبا كل أنفاس عازفه حتى تخلو أمعاؤه من أي هواء متبق. فيمسك العصى ويتمايل بالرقص فهو يجيد هذا النوع بسبب اختلاطه السابق عندما كان صغير بأهل والده. ويلوح له زوجة أخيه بهية وبناتها وأمه من أعلى البيت وهي تحرك ذراعيها بالأسوار الذهبية التي لم تشاهد سيدة فى القصير مثلها في هذا الكم من الذهب. وبعد ذلك يبدأ جمع العباددة في الانصراف ويتأخذوا طريقا جانبيا ليصلوا إلى مكان الانتهاء التي سوف تأتي فيه الجمال لينتظروها هناك. فيأتي عزوز لاستلام الموكب لأنه لو ترك الأمر بيد منصور فإنه لن يستلم الموكب أبدا. منصور يعيش لنفسه لا يشغل باله بالآخرين. محاط بغشاء غير مرئى لا يرى أو يشعر بأي شيء خارجه. مثل عربية توقفت في منتصف الطريق تعوق السير. فقائدها ينشغل بأمر خاص ولا يرى من خلفه. فيبدأ الاحتفال للقصيرية بنفس الأسلوب. هو فيلم آخر مشابه لسابقه ولكن بنجوم آخرين وأماكن أخرى. أما الأطفال من العباددة والقصيرية لا يهتموا بالحدود والفواصل الرسمية فهم يبذلون الاحتفال من أوله لآخره. ومنى لا تختلف في هذا اليوم عنهم. مرتدية جلبابا جديدا زاهي اللون ومعها منديل بنفس اللون

يغطي رأسها. يحسدها عليه كثيرات.

\*\*\*\*

انشغل حامد هذا العيد برضينة فقد زادت التصاقها به بسبب التدافع لا مفر من ملامسة جسده ليحميها من الآخرين. فكان لها كرداء خلفها. بسبب قوة ثباته لا يندفع للأمام ولكنها رقيقة تجبر على الارتداد للخلف فتستقر بين ذراعيه ورجليه. اكتشف روعة أردافها التي لا تظهرهما الملابس بسبب نحافتها. شعرت به. سكنت له. لم يحاول هو بل ترك الأقدار تتحكم. في النهاية فضلت أن ترسو سفينتها داخل الخليج بعيدة عن الأمواج المتلاطمة خارجة. حتى ولو احتكت قليلا بالقاع فهو حنون لن يكسر قعرها.

\*\*\*\*

صوت اقتراب النغمات أيقظ الدكتور سراج من غفوته. أطل من البلكونة فوجد الشارع ممتلئ من الجانبين والبلكونات متكدسه بالسيدات، أخذ يلتقط الصور من مكانه من أعلى. وهو يبتسم محدثا نفسه لو وقعت هذه الصور في يد الحزب الحاكم لنشرها تحت عنوان أهالي القصير في انتظار مرور السادات في أبهى حالة لهم. ومن دفعه لهذا التخيل تهليل بعض الأطفال له من أسفل بترديد كلمات «صورنا صورنا». باستخدام مقطع معروف لأغنية لمغن عاطفي شهير في مصر كان يعتبر ملمع لأي ديكتاتور أكثر من كونه فنان. رأى يونس فحدد

مكانه من أعلى ثم هبط لينضم إليه وأخذ يداعبه بالكاميرا والتقاط صور له وهو يضحك من خجل يونس من الكاميرا وسط حسد الناظرين. الدكتور سراج لم يصاحب أحدا في القصير حتى الأكابر من الأهالي فضل الرسميات معهم وصحبة الصيد جعلها على الساحل فقط بسبب حماقة منصور لا تستمر معه بعيدا عن البحر باستثناء يونس وحامد وإن كان الأقرب إلى قلبه هو حامد بسبب الحوارات التي يفتحها دائما حامد بأسئلته بينهم أم يونس فروح ظاهرة خفيفة تحيط بهم وملازم لحامد. ات الموكب فتبعه يونس والدكتور سراج متشابكى الذرعين في مشهد أسعد عزوز. الذي حدثته نفسه داعيا الله أن تحدث أي مشادة أو إزعاج لدكتور سراج حتى يفتك بالفاعل. أنه يريد أن يرد الجميل بعد أن جعل من ابنه المريض شخصا مهما يصادق طبيبا. بعد مسافة صغيرة ترك الدكتور سراج الاحتفال مودعا يونس الذي استمر بالقرب من الجمل الأول. بطئ السير يناسبه ولا يجهد.

\*\*\*\*

كما يقولون ما دام هناك حب فلن تشعر بالمل والاستياء وقد تقبل ما لا تطيقه من أجل القرب. حامد لا يحبذ التواجد في الزحام. العرق يتصبب في شهر أغسطس في مكان لا توجد به رياح. بسبب جدار المدرسة الوحيدة يعمل كأنه نافذة مغلقة. لتخفف من أثر حرارة الأجساد المزدحمة في مكان واحد على شكل دوائر حول الجمال الباركة بعد تعب السير على الطريق الأسفلتي

المریح للإنسان والقاسى بالنسبة لهم. تدافع الأطفال لأخذ البلح من الموزع یشیر الأتربة لتلتصق بالأجسام المبللة بالعرق. كل هذا وحامد یرقص قلبه طربا وینبض بالسعادة. نعم هو الحب. عندما كان صغیرا كان یرى النوبین فى أفراحهم یفرشون الأرض ویوزعوا الطعام على الحاضرین. فكان یمر صاحب الفرح وهو یحس الجالسین على المائدة الأرضیة بلمس أكتافهم أثناء الأكل بلهجة أمرقائلا: «حب حب» مكررا فعل الأمر. الیوم یشعر بالمعنى فتناول الطعام وأنت تحب. فهذا یجعلك لا تنظر لشیء یوقف شهیتك لو كنت ارفع مقاما من صاحب المائدة فلن تتأفف من طعامه الأقل حظا مما تعودت علیه إن كنت تحب. مثل الأم مع رضیعها. الحب فن لا یصلح للأغبیاء. هل یمكن لغبی أن یحب. الحب یتطلب ذهن لا یکل عن التفكیر فیمن یحب. القلوب مكان للمحب. خرج حامد من منتصف الدائرة الاحتفالیة النهائیة بعد قدوم الكل لیجلس فى مكان أقل ازدحاما على أطرافها على قطعة أسمنتیة تتیح بأن تجعل رضینة قریبة منه متلامسة معه كأنهما فى مقعد صغیر فى أتوییس أو قطار. یزداد الوهج داخله. تخیلها أكثر من مرة أثناء متاهات التدافع عاریة تمام. کیف سیصبر حتى ینتهى شهر رمضان. علیه أن ینتظر ٤٥ یوما آخر حتى تصبح الفتاة الشابة بین احضانه. وأثناء حسابه وعده فى الأيام. رأى امرأة واقفة على مقربة معطیة ظهرها لهم. أنها هی فاطمة لابد أن یغیر مكانه. اختلق عذرا لم تسمعه جیدا رضینة لیكون سببا لتغیر المكان. وما أن اتجه فى

الاتجاه المعاكس حتى اكتشف أن من شاهدها من ظهرها ليست المقصودة. فاطمة أمامه الآن تنظر إليه من أسفل إلى أعلى بصحبة أخريات يطابقنها في الطبع. ماذا يفعل يرجع للخلف أما يتقدم. كبرياؤه جعله يكمل سيره إلى الهدف الغير معلوم. تمنى داخله أن يزداد صخب الأطفال وتعلو أصوات الجمال حتى تغطى على أصوات البارود الذي سيخرج من فم القاذفة البشرية. وعند مروره بجانبها الارتباك تملكه جعله أصم ولكن شعرببرودة تسرفي جسده بعد طلقات قد أصابته. رضينة كما الغزال الصغير يمشى بين الجمع فلا يشعر بانثى الضبع التي تراقبه وتحفظ شكله. وعندما ابتعدا وجلسا في مكان آخر دارت رأسه بما يحدث معه وماهية الأسرار الكونية الغامضة المتعلقة باستنتاجات غيبية، «هل للأرواح حالات غير مريية حولنا ذات أقطار تتعدى عدة أمتار فتماس مع بعضها فيشعر بها صاحب الروح. هل هناك من يراقبنا وينادى علينا أحيانا من بعيد لينبهننا ولكن مرات نسمع جيدا ومرات لا نسمع إلا القليل. لماذا تذكرت فاطمة من ظهر أخرى ووجدتها بعد ذلك؟. لماذا أكون في مكان وأتذكر شخص. أراه بعد ذلك أو أرى من يشبه أو يعرفه أو يكون قريبا له؟ هل شيء خفى همس في أذنى وذكرنى به لأنه شاهده قبلى من أعلى. لماذا أقابل اليوم في الصباح الباكر حسان ويعطينى خطاب وصل لي من القاهرة تحكى السطور عن الأشواق وتذكرنى بأخر لقاء بيننا عندما اكلنا سويا الفراولة. فتسالنى رضينة في نفس اليوم أثناء السير هل ذقت قبل ذلك الفراولة؟ بعض الأحيان الحقيقة

أغرب من الخيال وعلى المرء أن يكذب ليجعلها خيال يصدق». ايقظه يونس من لحظات التفكير. فقام محتضنا صديقه في مبالغة كأنه لم يره منذ أمد بعيد. فعلمت من شكل الاستقبال بأنه يونس. عرفها به في جو شديد العذوبة تنضح نسمات المحبة منه. ابتعدوا عن الزحام حتى يستطيعوا أن يسمعوا حديثهم. فأخبره يونس بأن أمه تنتظره وأنها لمناسبة جيدة أن ترى رضينة. فقرر حامد بأن يتجهوا فوراً إلى بيت يونس حتى لا يتأخروا في الرجوع إلى العدو ليلاً. وفي أول طريقهم لاتخاذ الشارع المقوس المار على البحر. وجدوا منى وهي تلقى الحجارة على بعض الغرباء الموجودين داخل منطقة اللاسلكى يظهر على ملابسهم أنهم عمال يأتون كل فترة للعمل المزيد من الأعمدة الحديدية العالية في السارى. ويقيمون في خيام بجوار عملهم. نادى عليها حامد بصوت مرتفع أكثر من مرة. فتوقف المثيرون لغضبها عن لعبهم القبيح عند انتباههم له. وبعد اللحاح في استقدامها. أتت وهي تسب وتحاول أن تشرح سبب المضايقة ولكن لم يفهم منها أحد. واستمروا في المشى البطيء ومنى تلف حولهم مبتعدة ومقتربة. ربتت على رضينة أكثر من مرة كأنها تتعرف عليها. ورضينة بين الخوف والثقة من كلمات حامد عنها فهي لم تقابل في مجتمعها الصغير أحداً بنفس حالة منى. تسمع عن الجنون ولكن لم تره في شخص. حتى وصلوا إلى بيت يونس على البحر يفصله الشارع الأسفلتى عنه. ولولا الغبار المتطاير من شركة الفوسفات وخصوصاً في توقيت مليء السفن عن طريق التليفريك

المحمل بالبضائع من الشركة إلى السفن في الميناء الذي يمر بطول الشاطئ من أمام البيت لأصبح موقع بيت عزوز من أجمل الأماكن. صفية وبناتها وبعض الأحفاد الإناث وسيدة الحلبية متواجدون في الخارج البيت يتسامرون وعندما اقترب القادمون إلى مجلس صفية. رفعت ذراعيها بحركة اندهاش تمثيلية وهي فاعرة فاهما مع اتساع حدقتي عينيها وهي تقول: «أهلا بالعروس». وجذبت رضينة إليها وهي جالسة على الكنب العتيقة جذبة متجبر ذي قوة وبأس مع ضعيف غافل. انطلقت الضحكات من المتواجدات واحدى بناتها تقول لها: «على مهلك يا أمي على الفتاة». وبعد أن انتهت من القبلات والأحضان. تركت رضينة لتعدل من ملابسها. وقالت بصوت مرتفع لحامد «البضاعة تمام». مبتسمة وهي توجه كلامها لكل بأنها أفضل من المهندسين الجيولوجيين في الشركة لفحص الخامات. وبغمزة عين لحامد شاهدها الكل مستدركة «خصوصا عندما تكون قادمة من الجبال». وأثنت عليها بأنها ذات ملامح جميلة جدا. وإن كان قد أفلت من لسانها بعض العبارات الجارحة غير المقصودة. فعندما رأت أذني رضينة خاليتين من أي أقراط. وبهم فقط خيطين رفيعين يحفظان الفتحتان من الانغلاق. قالت لحامد بأن عليه ألا يركن لهذا التقشف الجبلى والطيبة الموجودة في الفتاة وأن يشتري لها حلق ذهبى يزيد من تألق عنقها. وعندما رأت الأعين تخبرها بأن تتوقف على الرغم من أن رضينة لم يظهر الخجل عليها لأنها لا تستوعب أهمية وجود حلق أم لا وأيضا إلى تقوقع رضينة الخائف

كشخص يهاب الناس. ولن تستطيع رضينة كسر الحاجز بينها وبين القصيرية حتى بعد مرور الأعوام. اتجهت صفية إلى منى المتواجده البعيدة عنهم. جالسة على الأرض ترتب الصفحات الورقية التي جمعتها من الشوارع من مجلات ممزقة. كأنها أوراق نقدية. نادتها: «تعالى يا بنت الصول». فاشاحت برأسها بضيق في هيئة شخص منشغل بعمل ما. فسألتها صفية مستفسرة عن عدم مجيئها اليوم لأخذ بعض أقراص الكعك كعادتها. فنهضت منى بطريقة طفولية تناسب عالمها قائلة: «أنت سيئة وأنا لا أحبك» واتجهت إلى يونس وربتت على كتفه قائلة له بصوت خافت مسموع لهم «اقتل أمك» فانفجر الجميع في ضحك وخصوصا يونس وصفية. وظهرت ابتسامة عريضة بلهاء من منى بسبب استحسان الجميع لما قالت. وفي أثناء علو ضحكاتهم على ما تفعله وتقوله منى، مرت سيارة الشرطة مسرعه بشيء من الريبة والتساؤل في أمرها فاطفت وهج الإنس. ثم قالت صفية لإحدى حفيداتها أن تحضر العشاء إلى حامد ورضينة. انتبه حامد إلى نسيانه أمر العشاء بسبب فرحته بالقرب من محبوبته الصغيرة فأنب نفسه على نسيانه ذلك تمام. ولكن رضينة رفضت رفضا قاطعا بأن تأكل في بيت صفية. ومالت على حامد باستحياء شديد راجيه إياه بأن يرفض مثلها. فاعتذر متفهما خجلها.

اعطت صفية كارتونة مملوءه بما خبزت اليوم للحامد. وأخبرت رضينة أن حامد ابنه ولكن من العباب. بالفعل محبة

صفية لحامد قديمة بسبب علاقته بأصغر أبنائها يونس ولكن زادت اسهم حامد لديها بسبب الأحفاد. واحدة من ابنتيها ولدت طفلين توأما. وكانوا يجدون على أجسادهما بعض الخرايش والجروح السطحية. ومع التنبيهات المشددة على جميع الجيران بالأذى ضربوا أو يؤذوا قططا بالليل ويمنعوا أطفالهم من ذلك. إلا أنها اعتقدت أن النسوة حولها لا يصغين إليها نتيجة للحسد في قلوبهن بسبب مولد صبين جميلين في بطن واحدة. فالاعتقاد الراسخ في جميع الأهالي بأن التوأم تتحول أرواحهم بالليل أثناء النوم إلى قطط. ويذهبون إلى البيوت المجاورة خلف رائحة الطعام وخصوصا الأسماك فكانت القلوب الرحيمة لا تضرب أي قطط بالليل خوفا أن يكون روح طفل وخصوصا لو عرف أن في الجوار توأم. فكان لا بد من عمل شيء لوقف هذا التحول الروحي. فتوجد طريقتين أما أن يوضع الطفلين في كفة ميزان وتوضع في الكفة الأخرى فضة مساوية لوزنهما. فكانت هذه الطريقة صعبة لعدم توفر فضة كافية في المحال الوحيد في المدينة. والطريقة الثانية هي أن يسقى الطفلين بلبن جمال. فكان حامد هو المورد لهذا النوع من اللبن بسبب كونه من العبادة سمح له بأن يوصى أحد القادمين من الوديان أن يأتي له بجركن صغير. وبالطبع بعد أن شرب الطفلان اللبن توقفا عن التحول ولم توجد بعد ذلك اليوم أي جروح على أجسادهم، وأن وجدت فلا بد لها سبب آخر واقعى غير موضوع التحول. هذا ما أجزمت به صفية وجميع الجيران بأن قطتين بالوان معينة قد اختفيا تماما، وهذا يؤكد أنهما التوأم. ولا تمل صفية

من ذكر القصة دائما وأصبحت تطلب اللبن من حامد لأي أم لها توأم حديث في القصير.

انتهى اللقاء وحمل حامد اقراص الخبز مع تدمره المكتوم داخله. مشت بجواره رضىنة تتبعه في الطرق الجديدة عليها. ألقى خطته العاطفية بالرجوع مساء إلى الجنىنة لجلب الكسوة التي أهدتها فضاية لرضىنة. وانتهاز الفرصة في مزيد من الحب ورشف قليل من بحر المستقبل. ولكن كارتونة صفية أتت كالعزول. ما زال لديه بقايا من أثار الماضى. الحرب تخبو وتظهر. نار في حطب. هبة ريح من الماضى يحركها إلى السنة من اللهب. ويدور الاقتتال بأعماقه والمناقشات التي لا تعرف النهاية.

« لا يصح أن استغل سبب طاهر لعمل دنىء. أن استبدل الأعلى بالأدنى. ولكن ليست كذلك. ما الدونية في بعض القبالات لمن يعشق. أنى تخلصت من ما أصاب أغلب الذكور في وطنى. الحب هو الطهارة. دع عنك الكذب أنها الشهوة. وما المانع نعم شهوة والكل مبتلى بها. حرام وما الحرام. قبلت من حبيبي لي تحرم. أنت وأمثالك تريدوها عهر. أنا لم أقل هذا. ولو أحببت العهر لتمنيت أن أعيش في القرون التي تحترمها وتظنها أيام الحلال. اثنان تحابا نتركهما وشأنهما. العهر من يكذب. العهر أن نفعل كل شيء في العتمة وإن وقع النور على أحد بالصدفة أو بالخطأ أو بنقص الحرص. يفضحه الآخرون الذين ما زالوا في الظلام». سألته رضىنة عن الكسوة فابتسم ابتسامة تمثلت أمامه مجسمة شاهدا بنفسه من سحرها. فقال: «ليس لن فيها نصيب الليلة سوف

أحضرها غدا فإنها ثقيلة ولا يمكن الجمع بينها وبين ما أحمل الآن». واستفسر منها عن اليوم هل أعجبها. وإن كانت العيون قد أجابت أكثر من مرة عن مدى السعادة. أخبرته أن كل شيء راق لها. العيد والناس وأصدقاؤه. هناك خوفاً لذيذ من المستقبل. أفصحت وأفاضت عن ما يدور داخلها. كانت سليمة الفطرة. لم تلوث بالخبث النفعي للحياة. خوفاً من أن يستغل تعلقها به وبحياتها الجديدة. لم تخف أي انبهار. دعت له على مسمعه بأن يكافئه الله بسبب السعادة التي جلبها لها. كانت أجراً منه في مدح ملامحه وطول قامته. تعلم منه في تلك الليلة أنه لا بد أن يخبر من يحب بأنه يحبه. غدا سيقولها مباشرة «أحبك يا خالتي فضائية، أحبك يا دكتور سراج. أحبك يا يونس. ما المانع. لا بد أن أستمع بالأشعة المنبعثة من أثر استقبال المحبوب لكلمات المحب في الحب». «رضينة أنا بحبك» قالها فجأة. سكنت بفعل وهج الكلمة وزادها سحراً ضياء القمر الذي امطر ماء البحر بالفضة. أنزل حامد الكرتونة من فوق كتفه وجلسا على الرمال البيضاء. أخرج بعض الأقراص الذهبية من الخبز لياكلاً بشغف ولذة.

\*\*\*\*

لم يرق لمنصور كيفية أخذ العصا منه قبل أن يتم استكمال رقصته التي يجيدها أكثر من كل المتواجدين في الاحتفال. ولولا نظرة أسعد طابية له الجاده والمحملقة بأن ينسحب من هذا الجمع لأمر مهم لكان له تصرف آخر مع عزوز. بالطبع لن يستطيع أن

يفعل شيء والا كان عبرة وذكرى يسطر اسمه في الدفتر الطويل الذي يحفظه أهالي القصير أسفل من سبقوه. ولكن بعض من الاعتراض الدبلوماسي بكلمات يوضع أمامها لفظ عم لا مانع منها أمام الناس لحفظ ماء الوجه. أسعد طابية صديق بدرجة خادم منصور. نشأ مثل أبيه يبحث عن الأكابر ويرافقهم. أبوه كان نعم الرفيق لناصر أبو منصور واسعد يكمل المسيرة مع منصور. شاب صوته عالي جبان يبحث أين يأكل كل يوم. تربي على ذلك من صغره. ليس له وجهة ولا أحد يسأل عليه. قد يقابله منصور صدفة فيأخذه من الشارع لسفر لعدة أيام دون أن يخبره في أول اصطحابه أمر السفر. يتحمل سخافات منصور وإهانتة دون أي امتعاض. فمنصور بالنسبة له بئر الكيف الذي لا ينضب. يدخين الحشيش معه بصفة مستمرة دون تحمل أي أعباء مالية. منصور ليس كريما ومرات كثيرة يتقاسم التكلفة مع من يرافقه أما أسعد فلا. لأن أسعد له طرق أخرى في الدفع. أهمها المرح والبهجة التي يجعلها في الجلسة فهو يمتاز بأن يصبح مهرج في سيرك وبالإضافة إلى الاصابع المحترفة في لف السجائر بسرعة ملحوظة مع ضبط في المقادير والخادم المطيع القابل للإهانة أمام الآخرين وعين منصور في القصير ومعرفة كل ما يدور فيها.

وعندما اقترب أسعد من منصور همس في إذنه باسم زينات وهو يتلفت. انسحب منصور من الزحام وتبعه أسعد مبتعدان عن أصوات الزمار. كأنه يراها أمامه الآن. محدثا نفسه «أه لو تكون رسول الغرام من عندها يا أسعد وتنتهي عذابي لصدها لي في

السنين السابقة». زينات سيدة في منتصف الثلاثين بيضاء ذات جمال جذاب وصوت ناعم به رغبة شديدة يلاحظه من يسمعه لأول مرة لطريقة نطقها للكلمات. عينان فاضحتان تعطيان إحياءات كثيرة لم يلتقط بثهما. تعرف كيف تظهر مفاتن جسمها المثير الممتلئ عندما تتحرك وهي ملتحفة بملاية سوداء فوقها تغطي حتى أسفل ركبتيها بقليل وأحيانا تكشف عن رأسها وتجعل نهاية الملاية عند كتفيها. شهرته أنها ذات جرأة فى الحديث وأن بها ولع بصغار السن المراهقين والفتيان على أول درجات الشباب. وهذا ما اثير عنها بسبب نظراتها لهم التي جعلتهم يطوفون حولها كأنها شمس يتلذذون بنورها ولكن لا يجرء أحد أن يقترب. هي من تحدد ايهم من تلهبه بنارها وايهم قبسا من النور يكفى. حتى صاروا خدامها في المدينة يحضرون له طلباتها أو يحملون عنها ما تحمل إذا مرت في الطريق أمام أحدهم. أتت مع زوجها من الصعيد منذ سنوات قليلة وهو أحد الطباخين في شركة الفوسفات رجل في مثل سنها عرف عنه الطيبة وأنه ليس صاحب قرار في بيته ومظهره لا يناسب هذه المتانقة دائمة الوهج لذلك أطلقوا عليه فيما بينهم أنه ذكر هادئ.

عندما وصل الاثنان إلى ركن بين البيوت خفف عن مسامعهم صوت الزمار استعجله منصور بالافصاح عما معه. تلفت أسعد حوله وبصوت منخفض قال: «زينات سوف تقابل الجيولوجيا حديث التعيين المغترب أحمد عطا في استراحتة في المستعمرة هذا المساء».

بدلت الرغبة إليها إلى عداء بنفس القدر. وردد اسم أحمد عطا في نفسه بقدر من الاستغراب فتجسدت هيئته أمامه وكأنه ينظر إليه ثم التفت إلى أسعد مستنكرا قائلاً: «هذا الشاب الأقرب للإناث الناعم الذي لو استفرد به المولعون بالجنس مع البهايم في الأرياف لفتكوا به. أهو من تختاره؟». ثم أشاح بيده وهو ينفخ مستدركا «لا أستطيع أن ابتلع مثل هذا الحديث». ثم زاغت عينيه وقال بصوت هادئ: «هل أنت متأكد».

«نعم متأكد فلقد رأيته وهي تلقن طفل صغير كلمات وبعدها توجه الطفل تبعا لإشارتها لأحمد الواقف منتظر بعيدا وبعد أن اختفى الحيبان - قالها بتهكم - ناديت الطفل الذي لم تغب عيناي عنه وسالته فأجاب بأن الرسالة هي الساعة السابعة انتظرنى في الاستراحة». توقف أسعد طابية عن الكلام لحظات لا تتجاوز شهيقين وزفيرين وهو ينظر في حركة استعراضية واثقا من نفسه ومغمضا عينه اليسرى قليلا مستدركا: «فأجبنى أنت يا كبير ماذا تفهم من ذلك. إن كان شيء آخر غير ما توقعت أخبرنى به».

هز منصور رأسه بحركة بطيئة مؤيده وهو ساهما وفجأة انتفض كأن الروح قد عادت فيه مرة أخرى واتجه ناحية البيت ليحضر مفاتيح السيارة وقطعة حشيش. وبعد ذلك اتجهوا بسرعة بطريق غير اتجاه الموكب الاحتفالى. توقفت السيارة في منطقة بمنصف المدينة الخالية تماما ليرتجل أسعد من السيارة قاطعا

مدق ترابى ليصل لشارع البحر المزدحم بالمنتظرين للموكب ليحضر ثلاث أصدقاء لهم من القصيرية كانوا منتظرين الجمال أمام بيوتهم وبعدها توقف منصور أمام موقع نهاية الاحتفال مرسلا أسعد مرة أخرى ليحضر اثنين آخرين أصدقاء من عبادة العوينة. وبعد أن تم العدد المتنوع الذي يطمئن منصور بالقوة الفعالة في المدينة. شرح لهم منصور القصة مع أول سجارتين حشيش في السيارة. وبعد تمام القصة صمت الجميع باستثناء خروج بعض الكلمات البذئية الموجهة إلى زينات واحمد. تيقن منصور أن التأثير عليهم واحد. فاقترح أحدهم أنه لا بد أن يرتبوا مع بعض الشباب المقيمين في المستعمرة فهذا الأمر يخصهم أكثر وأنه يعرف منهم صحبة سوف يسعدوا بلقاءهم وبعد ذلك نعرف ماذا سنفعل. كلهم استحسنوا هذا الرأي. وأسرع منصور في السرعة وكلهم حماس مثله وأثار الاهتمام المسبوغ بالمسئولية على وجههم كأنهم يعدون للحرب. الطريق حتى الوصول إلى المستعمرة من المنطقة النهائية لتجمع الأخير لموكب الاحتفال لا يتعدى كيلومتر واحد أو أكثر بقليل. عبارة عن مناطق واسعة خالية إلا من أعمدة اللاسلكى العالية على يمين السيارة المتجه إلى شمال القصير ومقبرة المسيحين وجراج مجلس المدينة وبعض البيوت القليلة للأهالى أما اليسار فمكاتب حكومية ومحطة الكهرباء وبعدها على نفس الطريق بيوت جديدة بنتها الحكومة ولم تسكن بعد. وتأتي المستعمرة على يمين الطريق على شاطئ البحر. وعند وصول المستعمرة يترك السيارة صاحب

الاقتراح الأخير ويتجه ليحضر مجموعة من الشباب في مثل أعمار القادمين. ويرتلجوا جميعا من السيارة في اهتمام زاد ويصافحون بعض بحميمية فى مشهد طفولى ساذج يناسب الجهلاء كأنهم ممثلين فاشلين يؤدون دور رجال قوات خاصة تابعين للقوات المسلحة وسوف ينفذون عملية خلف خطوط العدو. اتفقوا على أن تسبقهم السيارة إلى شاطئ البحر ليجلسوا هناك. وما هي إلا دقائق حتى تكتمل المجموعة المثلثة للمدينة ويصر منصور بكرم رجل كهل جاعلا صوته به خشونة ضفدع على عدم الحديث قبل أن يدخلوا بعض السجائر الملفوفة. منطقة المستعمرة هي تجمع كبير للبيوت عمال المناجم وعدد لا يتجاوز العشرة منازل صغيرة مخصصة للموظفين موجوده على بعد بسيط من هذا التجمع ولكنه يكفى لعدم الاختلاط. قص عليهم منصور ما وصله من أخبار عن امرأة تدعى زينات. لعدم معرفتهم باهل المدينة. سوف تأتي إلى أحد المستخدمين لاستراحة في منطقة الموظفين في المساء أثناء انشغال معظم البلد بعيد النصف. استشاطوا غضبا لدرجة جعلت منصور يهدئهم ويخبرهم أنهم أتوا إليهم حتى لا يضيع حقهم. وشعر أكثر من مرة أن الأمر سوف يفلت من بين يديه. فهم اثنان منهم ليتركوهم حتى يذهبا ليعطوا لأحمد عطا درس لن ينساه طول عمره. وأصبح منصور يقوم ويجلس ويمسك هذا ويثنى ذلك عن ما يريد أن يفعل. وانفعل أكثر من مرة بحدة بصوت عالي. وتبخر مفعول الحشيش في لحظات قليلة لا يوجد له تأثير إلا في احمرار أعينهم. هذه الأمور

لا يستطيع استيعابها إلا من عاش في بلادنا. الذكور من البشر يتعاملون مع هذه المواقف مثل ذكور الحيوانات فلا يصح لذكر غريب أن يمارس الجنس مع أنثى في منطقة لا تتبع سيطرته. أو لا تستطيع أنثى أن تذهب إلى ذكر في منطقة أخرى لتنام معه لأن هذا يثير ذكور منطقتها. يعنى أنه لو كان أحمد عطا من أبناء المستعمرة لكان الوضع أصعب للمنصور ورفقائه للبلدلة لها وله. وقد يجد مؤيدين لأحمد عطا في هذه الحالة الافتراضية. إذن فالغضب هو غضب غرائزى كيف للذكر غريب أن يجعل ذكور المنطقة كلها غافلين. لأنه لو تم له ذلك وانتهى اللقاء الحميمى دون منغصات. فالأغلب سيتم الفخر لذكر الغريب ويبقى العار والخزى لهم لأنه فعل فعلته وهم غافلون. لذلك كل هذا الغضب هو حيوانى واستبدل بول ذكور الحيوانات على الأرض لتعريف الغرباء منطقة ملكيتهم بالعناوين والشوارع. وفي النهاية يصبغ بلون دينى يناسب التقاليد كما يؤمنون. انتهى منصور لإقناعهم أن الأول عليهم أن يتأكدوا أن زينات سوف تأتى. وبعد ذلك يتم الهجوم على الاستراحة فلن يلومنا أحد بعد ذلك. وعند غروب الشمس قبل اختفاء ضوءها تركوا الشاطئ واتجهوا إلى جانب في أول المستعمرة في الاتجاه المقابل من الشارع عبارة عن منطقة جبلية فارغة من أي بناء فجلسوا بعيدا عن الشارع ولكن الرؤية كانت واضحة تماما لكى يرصدوا القادمين القليلين من القصير. ولم يختفى نور الشمس تمام ويحل الظلام حتى ظهرت امرأة من بعيد عرفوها السبعة

القادمون في السيارة من هيئتها. وأيقن الآخرون بصدق تنبئهم بعد أن شاهدوها تتجه يمينا قاطعه الأرض الفضاء ثم بعثوا أسعد وقتى من المستعمرة صغير السن يتتبعها من على بعد وما هي إلا دقائق ويعودوا مسرعين بأنفاس تلهث ليخبروهم بأنها دخلت الاستراحة دون أن يخرج لها أحد. فالباب كان غير موصل. بدأ الادريلانين يخرج من فتحات انوفهم ووصلوا إلى درجة عالية من الأثارة والتوتر. فأخبرهم منصور بأن عليهم أن ينتظروا نصف ساعة حتى يتم مداهمة الاستراحة. لم تتحمل اعصابهم النصف ساعة وقبل أن تنتهى اتجهوا إلى الاستراحة من الخلف ورفعوا طفل صغير نحيل لا يتجاوز عمره العشرة أعوام، أخ لواحد من فتيان المستعمرة وأمره ألا يحدث أي صوت وأن يتسلل من المطبخ حتى يفتح الباب الرئيسى لهم. وشدوا عليه في الحرص والهدوء. وما هي إلا لدقيقة واحدة حتى فتح لهم باب الاستراحة واندفعوا إلى غرفة النوم الوحيدة المغلقة، فتحها منصور ومن خلفه حوالى خمسة عشر شخص تختلف وجوههم على حسب ما داخلهم فمنهم من ينبعث منه الشر والأذى وآخر الشماتة وآخر الوقاحة والبحث عن اللذة. كان أحمد ناما على السرير متأكأ على ظهره بملابسه الداخلية، أما زينات فكانت ما زالت بملابسها دون منديل الرأس والملايا والحذاء التي تركتهم في الصالة. جالسة على حافة السرير الأقرب للباب لكن يبدو من هيئتها أنهما كانا في وصلة من القبلات والأحضان ويؤكد ذلك الشعر المبعثر لها واحمر الشفاه الذي انتقل جزء منه إلى أحمد. وقع الثانية الأولى

على أحمد أحرصته وجعلته دون رد فعل حتى أنه لم يقوم من مكانه وعيناه مفتوحتان على آخرهما وأنفاس دخلت رائتيه ولم تخرج. ولا يمكن أن يمر هذا الموقف دون أن يترك مرضا نفسيا أو عضويا لأحمد عطا قد يكون سبب للوفاته في المستقبل أو لدفع سبب آخر لنفس المصير. يدعو الله داخله أن يكون نائما ويصحو ويجد كل هؤلاء غير موجودين. أم هي فقد أدركت أسرع منه الأزمنة ولم يظهر منها موقف ضعف إلا الشهقة الأولى لحظة دخولهم. فقامت وهي تنظر في حدة متجهة ناحية الواقفين أمام باب الغرفة. فسألها منصور متهكما: «إلى أين؟». فردت عليه بثبات «وما دخلك انت؟». فبدأ التوتر من القابعين خلف منصور وهم يلوحون برؤوسهم كنعام ليروها. فقال أحدهم: «عاهر وعينها قوية». فلم تسكت زينات فارادت أن تجعل الموقف لصالحه فسبته باقذر الكلمات وبدأ يعلو صوتها بتوضيح سبب وجودها أنها تعطيه مبلغ من المال لأنه مشترك معها في جمعية منذ شهور. للشهرتها في عمل الجمعيات بين الناس في القصير. بالطبع سبب لا يقنع طفل. ولكن لا بد أن تقول إجابة للسؤال لم يسأل. الأمر جلل بالنسبة لها كابوس مخيف. فقد رأت زوجها وانكساره بين الناس والجيران وابنها وبناتها ومصيرهما المفجع في القصير عندما يكبرا. فدفعها منصور بقوة فانكبت على السرير بظهرها. فأخرج مطوة أحد شباب المستعمرة من طيات ملبسه. وهو يردد «سوف أقتلك وأقتله أين الخجل أيتها المومس». فالتف حوله الآخرون حتى يوقفوا اندفاعه. ابتعد منصور بحركة تلقائية

كأنه يحترس من المطوة التي في يد مشهرها ولكن كان غرضه الأساسى أن يتيح لزيينات أن تراها. وبدأ منصور يقول لأصدقائه الذين أتوا معه ارجوكم أمنعوا أهل المستعمرة من الدخول لا نريد جريمة. وأخذ يدفعهم بعنف لخارج الغرفة ويسحب أصدقاءه للوقوف لغلق الباب بأجسامهم. لقد رفع منصور درجة الغليان بهذه الحركات الشيطانية. انهارت كقدرة غلت وتتطاير غطاؤها بكت بنحيب شديد بصوت رجل فقد عزيز وليس سيدة. يبدو أنها فقدت أنوثتها إلى الأبد. حاول أحمد بحركات بطئية أن يلتقط أي لبس ولكنه منع بنظرة واحدة من منصور ذات معنى أن يرجع إلى طرف السرير الذي وجد عليه. فاستجاب لنظراته فهو يعلم أن الفضيحة قد تمت ولكن الأفضل أن يجعل من حوله في هدوء ولا يثيرهم. خرج منصور من الغرفة فوجد أشخاصا آخرين في الصالة فاتجه إلى باب الاستراحة فصعق من الأعداد التي وجدها بالخارج. جميع الموظفين وأهالى المستعمرة وأصواتهم غاضبة غير مفهومه كأنهم قشريات بحرية زحفت من كل اتجاه من على الساحل ليلتهموا السمكة النافقة على الشاطئ التي رمتها الأمواج. لا أحد يهتم بسبب نفوقها. المهم أنها قد ماتت وأصبح لحمها مرتعا لهم. فسرت في نفس منصور رعشة رهبة من الموقف ولا يعلم إجابة متى سمع هؤلاء؟ الوضع قد ينفلت منه. لو كان هو ضمن المتفرجين لما ارتبك. بالتأكيد لكان تمنى أن يزيد انفلاتا ولكن ما دام هو صاحب الحدث ومفجره، فعليه بقليل من الحكمة أن يعالج الأمور فلا يريد أن يرتبط اسمه بجريمة قتل. فما زال وجهها الاثنين

الذين أنهكاه في تخفيف حدة انفعالاتهما في جلسة الشاطئ أثناء الترتيب عالقين بذهنه يذكرانه كيف الحال إذا كثرت عدد من نوعيتهم هذه الليلة أمام الاستراحة. فهمس في أذن أسعد المجاور له كظله بكلمات لم يسمعه أحد فانطلق خارجاً بهيئة رسول من العصور الوسطى معه رسالة إلى الوالى ليطلع على أثر محاصرة القلعة من قبل الأعداء وعلى وجه علامات الجدية التي لا تظهر في أسعد إلا في مواقف مثل هذه أو على شأكلتها. والكل يتابعه ولا يتجرأ أحد على توقيفه من سكان القلعة فلا بد أنه يحمل أمر يخص الموقف الذي هم فيه. متسائلين فيما بينهم «أين يذهب هذا الفتى؟».

عندما تحدث الكوارث إن كانت طبيعية مثل الزلازل والبراكين والسيول أو غير طبيعية مثل الحروب أو أعمال تخريبية فتظهر بين الخائفين والمتضررين- إن كانوا تحت انقاض كوبرى أو محاصرين بكميات من المياه أو من قبل مسلحين- نوع من الصداقة تجعلهم يخافون على بعضهم ويتوحدون ويقدمون المساعدة كأنهم تربطهم صداقة منذ زمن ويظهر من بينهم قائد يتبعون أو امره دون نقاش لأنه يستحق هذه القيادة. ما حدث في الاستراحة في أي مكان من المدن والقرى المصرية يعتبر كارثة بشرية وعدوان أثم. هذا هو القائد فإنه هو من كشفه وخطط لفضحه. هيئته وملابسه توهمه لذلك بينهم. فمعظمه يعرفونه أما أسما أو شاهدوه مرارا في القصير فمثله لا تراه العين كثيرا فينسى. فأصحاب المال قليلون. تجمع حوله بعض الموظفين في

الاستراحات المجاورة وبعض من أصحاب العمامات كبار السن من الأهالى. وبعد أن قص عليهم ما حدث. استغفروا الله واستنكروه. كأنهم أول مرة يسمعه منه. مع أنهم قد عرفوا الحدث عند وصولهم من الذين سبقوهم. وطلب منهم المساعدة حتى لا تحدث جريمة من قبل الثائرين الشباب. فدخل منصور إلى الاستراحة ومعه بعض من من أختارهم بأن يأتوا لصالته. فاستبدل بهم الموجودين من صغار السن الذين خرجوا وهم متدمرون. فأصبح الوضع اهدى داخل. مع استمرار قذف الاستراحة من الخلف بالحجارة من بعض الصبية حتى كسر زجاج الشباك الصغير للمطبخ. وما هي إلا دقائق حتى عاد أسعد ومعه الشيخ هارون. وسع المتجمهرون في الخارج طريق للمرور الشيخ هارون بوجهه المكفهر الناظر إلى الأرض مع كلمات بها أسى وحزن غاضب تخرج منهم مرسله للشيخ «شرع الله انتحك يا مولانا»، «النجاسة لطختنا كلنا»، «راضين بحكمك يا شيخ». وبعد أن صعد الدرجات القليلة للاستراحة ودخل الصالة ليقدم له منصور المقعد الخشبى الوحيد الذي كان يجلس عليه دون أن ينظروا لبعض. موقف جنائزى. ما زال وجهه متجهم من أثر ما قاله له أسعد في الطريق وبالطبع لولا بشاعة الحدث لما ترك المسجد فقد اقتربت ساعة صلاة العشاء. الصوت الوحيد الثابت الغير متغير لحدثه الذي يجوب المكان هو نحيب زينات من الداخل. فاستوضح الشيخ بهزه من رأسه سائلا منصور أنها هي؟ فأجاب منصور بإيماءة برأسه بقصد نعم وهو مطبق لشفتيه فى هيئة شخص مهموم مع زفير مسموع تدافع

أنفاسه يوضح الحزن الذي الما به. وقبل أن ينطق الشيخ بكلمة انتبهوا إلى صوت قدوم سيارة الشرطة الجيب القديمة وخلفها سيارة المطافئ الوحيدة فقد علم المأمور بالخبر بأن هناك تجمهر حول الاستراحة وبطبع علم الأسباب. قدوم سيارة المطافئ كان باعثا بفكرة حرق الاستراحة في ذهن معظم الحاضرين. اندفع المأمور وضابط المباحث وبعض المخبرين والعساكر إلى الداخل في عجلة مع صوت غليظ من أحد المخبرين ذاع الصيت بالقصير بالابتعاد عن الاستراحة. اندفاع رجال الشرطة كان دفاع سائل بلون مختلف ليزيح السائل القديم بانسيابية دون اختلاط لفروق في الكثافة. خرج معظم الموجودون في الصالة ليتركوا أماكنهم للرجال الحكومة كما يطلقون عليهم. بالطبع بقى الشيخ هارون ومنصور ورفقائه. فمنصور والشيخ هارون جمعتهم موائد كثيرة مع رجال الشرطة معظمها تحت رعاية فاروق. بعد أن تفقد المأمور ورجاله المكان وتمت المعاينة. اختار موقعا في وسط الصالة ليلقى أوامره. بلهجة طفولية عبسية يجيدها رجال السلطة في الدول النامية لأنها تأتي بنتائج جيدة قائلًا وهو ينظر إلى الجميع: «أحضروا زوج العاهرة ليستلمها من هنا، أما ابن القحبة- قاصدا أحمد عطا- فلن ينام الليلة في المدينة وسوف تنهى شركة الفوسفات عقد عمله بتوصية مني شخصيا».

فنطق أحد الحاضرين من أهل المستعمرة بنبرة استنكار قائلًا: «وما فائدة ذلك علينا يا حضرة المأمور؟». فتلقى القائل نظرة حارقة من عين المأمور كادت أن تجعله يتبخرف في الهواء من

شدتها ولولا وصول دعم من أحد الواقفين الذي لم يرد أن يترك  
المبتدء بالاعتراض وحيدا لمصيره السيء المعلوم قائلًا بلهجة اعنف:  
«أين حقنا نحن؟ فلقد وطىء ذلك الفاسق على رؤوسنا بحدائه  
القدر». فبدأت الهمهمات الآتية من قريب وبعيد بتأييد كلام  
الأخير. فاخفت النظرة القوية للمأمور بأخرى حانية وظهرت عليه  
سمات الأبوة كأنه خلع زيه العسكري وارتد لباسهم. عندها  
استقبل أحد الصبية هذا التبدل بفطنة جرو صغير شعر بالأمان  
معلنا بجسارة تناسب سنه بأنه سوف يحرق الاستراحة بمن فيه  
ويخبره بأنه سوف يسلم نفسه بعد ذلك ولن يكلف الشرطة  
مشقة البحث عنه. تكهرب الجو وبدأت تختفى هيبة الشرطة مع  
تداخل الأصوات والكل يتكلم. فاتجه المأمور بعينه إلى الشيخ  
هارون متوسلا أن ينهى الموقف. فقام الشيخ رافعا يديه وهو يعلو  
بصوته ولكن لم يتوقف الصخب فانفعل الشيخ هارون وهو  
يقول بصوت مرتفع: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر». فبدأ  
السكوت تدريجيا وبعد أن عم الصمت سعل الشيخ هارون سعالا  
كادت روحه تخرج فاجلسه منصور على الكرسي وهو يقول:  
«هواء يا خلق». والتفوا حوله وأسرع آخر بجلب كوب ماء. واستمر  
هذا المشهد المفاجئ الدخيل من العطف والرحمة للشيخ الذي لا  
يناسب الجو المشحون بالكراهية والانتقام الذي قد يجعلك تفهم  
مفهوم الرحمة بين النوع الواحد من الجماعات الأصولية التي لا  
تستخدم إلا بينهم. وبعد أن ارتشف الشيخ قطرات قليلة من الماء  
قال بصوت مبحوح: «اسمعوا نداء العقل. والله الذي لا إله إلا هو لو

لم يعيد الأمور تربية هذا الفاسق في قسم الشرطة لأجلبه لكم بنفسى وهذا وعد أمام الله أولا وأنا قادر على ذلك».

فالتقط الخيط ضابط الشرطة قائلاً: «سوف يعلق من رجليه عاريا في القسم».

وبعد مداولات بين الأهالي والشرطة دارها الشيخ هارون واختفى دور منصور فقد فضل ذلك. انتهى الأمر إلى أن يتم ترشيح خمسة أشخاص من أهالي المستعمرة على أن يتولوا تأديب أحمد عطا بأنفسهم. وافق المأمور على هذا الحل بشرط أن يتم أمامه وإذا نطق بكلمة كفى ولم تنفذ فسوف يستخدم سلاحه الناري دون أي حسابات فإنه لا يريد أن يأخذ أحمد قتيلاً وأنهم لو أرادوا قتله فيقتلوه ولكن ليس في دائرة سلطته. وأخرج أحمد عطا أمام الاستراحة بملابسه الداخلية كما وجد في لحظة دخول منصور ورفاقه حتى يأخذ جرعة العقاب أمام الأهالي واعدت الدائرة لهذا الأمر بأجساد عساكر الشرطة. ولا تغيب المواقف المضحكة لهذه المآسي. فقد تأخر قدوم الخمسة بسبب ترشح كثيرين لهذا الأمر وإصرار البعض منهم بأنه أقوى جسمانيا من الآخر فهو الأصلح حتى كاد ينفذ صبر المأمور. فاتوا ستة أشخاص في النهاية فتغافل المأمور حماقة أحد الجنود كأنه لم يسمعه عندما قال: «أنهم ستة يا جناب المأمور». كان كل واحد منهم يستطيع أن يشق أحمد عطا بضربة من حد كفه وعندما رمى لهم أحمد عطا داخل الحلقة الرومانية ومع أول الضربات. اقتربت

سيارة التعينات للشركة الفوسفات وخرج منها زوج زينات تهتز ساقيه لا تتحمل الوقوف كأنه ذاهب إلى طبليّة الإعدام، لحظات ويصبح تحت الأرض ميتا وما هذا الذي يعيشه الآن أنها سكرات موت، مرض ينهش في جسده. لا يسمع شيئا مما حوله وأثناء المرور بين الحشد لا يعلم سبب الأيدي التي تلمسه هل يدفعوه ليتقدم أم يزجروه لينكب على التراب. أنه ذكر ناقص أمامهم. الأنثى بحثت لتشبع غريزتها بعيدة عنه. مروقت عليه لا يشعر أنه قليل أم كثير. من دله أين هي أو من قال له تسلم زوجتك. لا يستوعب أو يتذكر أي شيء. فضل غلق كل الحواس، يتوجه تلقائى. خرجت معه حافية القدمين، تغطى جسدها من أول رأسها حتى كعبها بملاية السرير الذي كانت جالسة عليه. لا يعرف مصير ملايتها السوداء القصيرة ولا منديلها ولا حذاءها ذو الكعب العالى. لقد تبعثرت أشياءها تحت أقدام المندفعين في لحظات الهياج الثورى للغرائز. المهم أن يتم تنفيذ سنة أحد الخبثاء السابقين المحفوظة من قصص الأولين. بأن تخرج المرأة ملفوفة في عارها أي في غطاء السرير الذي كانت تنعم فيه. وبطبع لم يفوت بعض السيدات أن تبصق عليها وهي خارجة أمامهم حتى تعلن كل واحدة منهن كيف انها عفيفة وشريفة وليست مثل الفاجرة.

انتبه المأمور إلى أن العدد زاد عن ستة. فأشار إلى رجاله أن يأتوا بأحمد عطا. فتدخلوا سريعا وانتشلوه من بينهم. غابت ملامحه، عيناه دفنت تحت الانتفاخات التي ظهرت في وجهه. أسنانه بعضها خرس في شفثيه وبعضها كسر. يسيل دم من فمه غليظ القوام

مختلطا بذرات تراب. منظر أصابعه و احد رسغيه يوضح أن هناك كسور ولكنه لا يشعر بأي شيء. اختفت بعد ذلك الشرطة ومعها الغريب الذي لا يأسف عليه أحد وبقي عدد من العساكر ومخبر لحراسة الاستراحة مع بعض الخفراء التابعين لشركة الفوسفات خوفا من حرقه. وأخذ الجمع يتفرق على هيئة جماعات سعيدة ومستلذة بما حدث. محاولات مستميتة صادقة لم تفلح من قبل بعض أهالي المستعمرة لابقاء الشيخ هارون ومنصور وأصدقائه لاستضافتهم للعشاء. فضل الشيخ هارون أن يعود إلى مسجده مشيا وليس بالسيارة كما أتى. فترك منصور سيارته لأسعد واختار أن يصل القصير في صحبة الشيخ هارون مع كل الحاضرين للواقعة. بالطبع الكل منتشى داخله بالنصر. وكل شخص على حسب رويته للموقف. ويزيد عليهم الشيخ في المردود الذي تلقاه من الحدث فهو كالشفاء بالنسبة له وعالج فاجعته في صلاة الجمعة. واعد له بعض الثقة. واعتبرها إشارة من الله فقد نصره الله في نفس اليوم الذي يقومون فيه عيد على غير رضى الله. فجعل لهم فضيحة لن ينسوها أبدا ويتذكرونها في كل عيد. عطا يزنى في زينات وأنتم تمرحون حول الجمال. أصر على المشى حتى يصل بهذا الجمع ليمروا على نهاية موكب العيد فيصل إليهم الخبر المشؤم. احتفلوا أنتم أما الشيخ هارون كان يعالج فضيحة طالت كل بيت في بيوت القصير. حال الشيخ كحال الكل. إذا مرض شخص وصف بالصلاح بينهم فهذا ابتلاء واختبار من العلى الحكيم. أما إذا أصيب أحد يعتبروه شريرا أو

فاسقا أو مختلفا عنهم في دين أو فكر يقولون هذا عذاب من الله له في الدنيا. هارون يسقط كل شيء سيء على المدينة لأنها لم تقف معه مع أن أطراف الواقعة ليسوا من أهل المدينة ولكن يجعلهم منها. ولو كان أهل البلد اتباعه، سلفيون الهوى مثله لكان الوضع مختلف لقال أن المدينة الصالحة تكشف الخبث فيها كالنار مع المعادن وتطرده خارجها بسرعة لأنه لا يستطيع أن يصبح من نسيجها. اطلب أيها السائل يمكن أن يؤول أي شيء في صالحك أو ضدك.

وأخذ زمام الحديث طول الطريق يخبرهم أنهم شباب ما زال بهم نخوة وغيره نابعه من دينهم وأن حادوا بعض الشيء عن مسار الدين الحنيف ولكن البذرة الطيبة داخلهم وسوف تنبت وتنضج ولكن لا بد أن يبدوا. لا أحد يستطيع أن يعلم متى تنتهي حياته. فأشار إلى مقابر المسيحيين عندما اقتربوا منها فقال بصوت به أسي مفتعل وتنهد مسموع بوضوح وهو يخرج زفيره بشيء من الضيق «قد لا يهلككم العمر لتوبة». وبدأت خطواته تزيد في السرعة وينصحهم بأن يسرعوا مثله ليتخطوا المقابر أثناء المرور بجانبها بسبب أن العذاب ينزل عليها من السماء وهم ينظرون لنا الآن في حسرة وحسد. يقصد الأموات من المسيحيين الذين دفنوا في تلك المقابر. زادت جرعة النشوة داخل المستمعين الشباب.

\*\*\*\*

بعد وصوله من العمل استقبلها في البيت الذي سوف تكون

هي سيدته عما قريب. غلبت الفرحة وجهها الصغير واهتز قلب الشيخ فراج. الوضع مختلف. أب يرتجف من كثرة الهم والتفكير الذي ارقهه كيف سوف يدبر أمر الزواج. ظهورها لحامد بوجهها البشوش ذو الملامح الطفولية كان كفيلا بتبديل حاله الذي كان عليه في يوم عمل كئيب متأثرا بأحداث أمس التي أختتم به اليوم الاحتفالي.

البيت أمام البحر مباشرة لا يفصله عن البحر أي حاجز. مبنى مقسم إلى جزئين. القسم الأول هو الرئيسي من الطوب الأسمنتى الذي صنعه بنفسه حامد وبعض الجيران والأصدقاء مجاملة له على مدار شهور. غرفتين صغيرتين مساحة الواحدة منهن اثنا عشر مترا مربعا. واحدة جنوبية على يسار القادم إلى البيت والأخرى شمالية على اليمين تنعشها الرياح الرطبة أكثر من الأخرى. والغرفتين يفصلهما عن بعضهما طرقة صغيرة لا يتعدى عرضها مترين وطولها بنفس طول الغرفتين. لا تستخدم إلا للمرور فقط. خالية من أي أثاث. البيت مرتفع عن رمل الشاطئ بمقدار نصف متر. الغرفة الجنوبية جعلت للضيوف. فرشت بسجاد صنع بايدي فضائية. الأم المختارة. ولا يوجد إلا بعض وسائد قطنية رقيقة تصلح كمساند للظهر للجالسين أرضا. ولها نافذتان وباب هذه الحجرة بجوار باب البيت. أما الحجرة الأخرى فبابها يفتح في نهاية الطرقة ولها نافذة واحدة. وجعلها غرفة نوم بها سرير خشبي صنعه من الخشب الذي يرميه البحر على الشاطئ، يشغل مساحة كبيرة من الغرفة. ودولاب خشبي صغير وصندوق آخر بجواره للملابس.

وبعد الطرقة يوجد القسم الثانى للبيت عبارة عن فناء واسع بسور من الطوب اللبن مكونا مع القسم الأول شكل مستطيل للبيت كله. أرضيته منخفضة عن القسم الأول في منتصفه ساق للشجرة نبق غير حية ثبتها في الأرض لتعليق أشياء عليها وتوجد في نهايته في الركن الأيمن المطبخ والحمام. جعلهم على مرتفع أعلى بقليل من البيت بقسميه بسبب قرب المياه عند الحفر بسبب البحر. وسقف جميع الحجرات عبارة عن عروق خشبية فوقها صاج معدنى محكم بسبب الضغط الذي صنعة الطين فوقه. وأرضية البيت كله أرضية أسمنتية ناعمة بلون فضى. وبسبب إصرار الدكتور سراج بطن السقف من الداخل بألواح خشبية رقيقة فلا يشاهد الصاج في السقف. وفرشت طبقة أسمنتية رقيقة في كل الفناء. وطلّى جميع البيت بالجير الأبيض. للحوش باب كبير خشبى في الجدار الملاصق للغرفة الضيوف. وعند الخروج منه يوجد في محاذاة نهاية البيت حظيرة صغيرة للماعز لا يتعدى ارتفاعها متر ونصف المتر. ويجوار حائط غرفة الضيوف الجانبى غير المواجه للبحر. مساحة رملية بيضاء منظفة بعناية عبارة عن نصف دائرة قطرها الجدار. محددة بأحجار صغيرة واصداف بحرية متلاصقة يوجد داخلها وعاء كبير معدنى به رماد وحطب، عبارة عن موقد للنار في جلسات السمر عند قرب انكسار الشمس واتجاهها ناحية الغروب. ولا يوجد جيران لحامد إلا من الخلف. فحدد البيت من الناحية الجنوبية بشجر الفيكس، الذي سينتشر لاحقا فى معظم بيوت العدو بعد ذلك تزرعه للنجاحه في الأرض المالحة

واحتياجه القليل للمياه. وبعد أن شطبت تاريخها القديم في الصحراء وثقل هم الأيام المتبقية قبل المجيء النهائي. فكل خطوة كانت تخطوها في بيتها كانت تلغى أشياء في الماضي. تنهت لأبيها. قرأت ما يدور برأسه. الحال هي به أعلم من أبيها. سألت حامد بللهجة بها بعض الدلال بصوت مسموع: «ولكن هناك مشكلة في البيت». أدرك حامد الدعابة وانتظر الإفصاح متسائلاً بعينه وهو ينظر لها. فاستدركت قائلة: «كيف يتاح لأبى بأن يبقى في بيتنا هذا ذو الأرضية الأسمنتية دون سعوط؟». فأسرع حامد إلى المطبخ محضراً وعاء فخارى خفيف واسع الفوهة عميق القاع وبداخله قليلاً من الرمل الأبيض قائلاً: «حامد لا ينسى عم فراج». وأصر عليه أن يجلس في غرفة الضيوف ليستخدمه. فأخرج عم فراج من جيبه السعوط وكور جزءاً منه على قدر بليّة صغيرة ووضعها بين شفته السفلى ولثته محكما الوضع بضغطه بلسانه. استشعرت بالهدوء الذي بدأ يدب في أبيها. فتذكرت أمرين الأول هو الاسم الغريب الذي سمعته من صفية عن العبادة والثاني سبب تعلق الصبية الذكور بحامد. ولكن انتظرت ولم تفصح عن السؤالين إلا عندما صاروا لوحيدهما. لا تعلم لماذا فضلت هذا. لعله الحرص بأن تحطاط من أي شيء غامض قد يعكر صفاء الجو الذي بدأ يروق لها. أو طبيعة جديدة تتشكل داخلها. وعندما أتت القطط في الخارج تنادى على مطعمها في الميعاد المعتاد يوميا. انتهزها فرصة حامد ليخلو برضيته. قام مستأذنا عم فراج ليأخذ رضينة كى تتعرف على أصحاب البيت القدامى. أجاب

حامد في الخارج عن تساؤلها عن اسم العباب الذي ذكرته صفة بصوت منخفض كى لا يسمع أحد، مع أن صوت ريح القادمه من البحر لن تتيح لأحد بأن يسمع. فعلمت أن هذا الاسم يستخدمه بعض القصيرية وإن كان لا يعجب العباددة. وعندما ذكر له مثال مطابق وهو إطلاق اسم النصارى على مسيحين مصر لم تستوعب المثال من أوله لآخره لعدم وجود خبرات في الماضى عن هذا الأمر ولكن في النهاية أدركت أن العباب اسم لا يحبه العباددة وفيه من التقليل لهم من القصيرية لاصرارهم على تسمية شخص بغير اسمه الحقيقي. وشرح الموقف جيدا مع الحرص بأن لا تقع في بغض صفية. وأنها تكرره فقط دون قصد. وبعد ذلك اصطحبها ليريها ماذا يوجد خلف البيت، رأت كميات كبيرة من صفائح فارغة من عبوات زيوت وسمن وجبن وأسياخ حديد صلب سهلة الثني وجوال مملوء باغطية معدنية لعبوات المياة الغازية وزجاجات البيرة. وبعض القطع الخشبية. وشرح لها ماذا يفعل بكل هذا. وهي صناعة السيارات لأطفال.

عندما كان يسكن في العوينة من قبل. كان يرى الأطفال يشكلون سيارات بالطين الموجود بكثرة في منطقة منخفضة من سطح البحر وبالقرب من الملاحنة وبعد ذلك يحملوه لأمهاتهم حتى يضعوه في الفرن ليتحجر بفقد الماء. وبسبب عاطفته للأطفال التي نبتت داخله وأخذت جذورها تتشعب حتى امتلكته دون أن تظهر بالخارج وأحيانا لا يعرف هل اشتياقه للأطفال هو من لطف قلبه ورقته أم من حرمانه من الأبوة حتى الآن أو أن

مشاعره كذلك من صغره أو أن القراءة وصحبة فضائية ويونس والدكتور رقت أحاسيسه. أم كل هذا شكله. وجد نفسه يوما يجلس أمام البيت وينشر قطعة خشب جعل سمكها مثل علبة كبريت وطولها كالقدم على شكل مستطيل. وجعلها على أربع إطارات. الإطارين الأمامين أبعد من المنتصف في نهاية الثلث الأول لقطعة الخشبية أما الإطارين الخلفين فهم بالقرب من نهاية القطعة الخشبية. والإطارين الأمامين يتحكم بهم سيخ حديدي ثاقب القطعة الخشبية ومتصل بالسيخ الرفيع الواصل بين الإطارين. وسيخ القيادة طوله أكثر من متر وينتهي بلفة دائرية تعمل كإطار قيادة. والإطارات الأربعة عبارة عن عقد دائري مكتظ بالاعطية المعدنية للمشروبات الغازية يصنع إطار قوى يصلح للأراضي الوعرة. وتظهر مهارة حامد في هيكل السيارة الذي سيقام فوق القطعة الخشبية المكون معظمه من الصاج الرقيق للصفائح، كان الأمر في أوله عمل إنسانى للطفل من الجيران ولكن مع الوقت وانتشار الخبر وزيادة الطلب مع الرفض بسبب الوقت. ضغطت عليه صفة بأن يفعل ذلك مقابل أجر. كان الأمر في بدايته صعب جدا على حامد بسبب تربيته وسط العباددة الذين يجدون حرج في بيع الأشياء ويفضلون الهدية. ولكن مع استحسان الأصدقاء وخصوصا زملاء العمل. تم الأمر لأول طلبية التي كانت لصفية. وانتشر بكاء الأطفال طلبا لهذه السيارة. فاخذ يسجل أسماء الأطفال وما نوع السيارة التي يريدونها وفي الاغلب تكون سيارة نقل كبيرة. ومع زيادة الطلب. انقص

الثلث مع ضرورة إحضار الصفائح الفارغة والاعطية. فكانت الأطفال أول الموجودين في الأفراح وأمام الدكاكين ليس إلا يتم جمع الاعطية. وانتشرت لعبة المقامرة بين الأطفال على الاعطية بكل الأشكال. استخدام العملة المعدنية ملك وكتابة أو مثلث مرسوم على الأرض ووضع الرهان فيه مع استخدام مهارة التصويب بقطع حجرية. وبذلك اختفت من الشوارع أي أعطية للمياه الغازية. وكان يصنع سيارة واحدة أو اثنتين في اليوم الواحد بجوار جلسة الجبنة في العصرية في صحبة الزائرين. وكان يشعر بالفخر بتواجد صناعته في جميع الشوارع الجانبية للعب الأطفال وكان يجد لذة في إنتاج المزيد وأن يغير في الأشكال واكتشف مدى براعة الأطفال في محاكاة الكبار بأن بعضهم قد زين سيارته كأنها حقيقية ومنهم من كتب عليها آيات قرآنية أو كلمات شعبية تستهوي طبقة السائقين فيكتبوها على سياراتهم من الخلف. ولاحظ بغير قصد كيف أن الأجيال تكون مماثلة لسابقتها في الاغلب إذا لم يوجد تغير. فالارتكان للماضى هو الأسلم والأسهل للجماعات الإنسانية. لم ينكر حامد بفضل صفية في زيادة الدخل ويترك لها العنان لمدح نفسها أمامه. أنها هي من جعلته يكسب مالا ولكنه على الرغم من مهارته في ميكانيكا السيارات لم يردخ لها في الضغط عليه ليفتح ورشة بسبب مشاغل اجتماعية يهوها مثل زيارة فضائية الدائمة وحب الصيد وجلسات الدكتور سراج حول كتاب فهو يشعر بنفسه في ذلك ويكتشف مدى توسعه في الفهم والابتكار من

نظرات الدكتور والتي لا يجدها من أي أحد غيره في المدينة. ولا يحتاج إلى المال الكثير. فهو في مستوى لا يعد فقير بين من حوله. الفقر الأعظم بالنسبة لمجتمعه هو ألا تستطيع أن توفر ما تاكله اليوم. والأمر الخفى الذي لا يعلمه أحد أنه كان يجد مشقة في تنظيف نفسه بعد يوم عمل بين الشحوم والمواد البترولية في ورش مجلس المدينة، فعلى الرغم من حدوث ذلك مرة أو مرتين في الشهر فكيف يجعله يوميا وهذا يتعارض مع صحته وجلوسه وتناوله الطعام أحيانا على مائدة صديقه الطبيب فأصبح يتكلف في هذا. حتى أنه يشعر بالحرج إذا رأى أي أثر لسواد في أي ظفر في أصابعه وهو معه.

\*\*\*\*

أخذت رضينة ترتب أشياءها الجديدة التي اشترتها من القصير من أحذية بسيطة وبعض الاقمشة التي بهرتها وشغلت لبها كطفلة صغيرة. وتقلب في الملابس الداخلية التي أعطاها إياها حامد. وتتساءل مع نفسها كيف سوف تلبس هذه الملابس عندما تكون معه. بالطبع سوف تترك كل هذه الأشياء في العدوة وأخذت بنصيحة أبيها بأن تتركها في بيت حامد حتى لا تعبت الفتيات الصغار فيما ستترك وراءها في بيوت أقاربهم. رضينة تتشكل بسرعة مذهلة للحياة الجديدة. لسانها استطاع التغير واستخدام مرادفات غريبة عليها في اليومين التي قضتهم في القصير. النساء هم النساء. هم الأقوى. كان في الأعوام البعيدة

عن العالم المتحضر والقريبة لبلادنا. يفضلون الجارية عن العبد الذكر. ليس فقط لغرائز جنسية ولكن لشيء مهم آخر. هو القدرة على المعاشية الجديدة. الذكر ضعيف في الغربية يحن دائما للعودة. ويخرج التمرد مظهرا شراسة تغطى لين وضعف ينهش فيه من الداخل. لذلك كان يفضل شراء الذكور الأطفال أما النساء حتى ولو كانت عجوز ستتغير للتعيش. هن سر الحياة. وقد ينبع ذلك من ما يطرا عليهن في سنوات العمر التي يعيشونها. شكل جسدي جديد. بيوت داخل تبنى وتهدم شهرى مع قسوة في الهدم المنهك. تجعل منهم أقوياء من عذاب الالم. وانبعث روح أخرى داخلها لجسد جديد تكون منها وأصبح جزءا منها وبعد ذلك يتركها. وغربة موقته لجسدها. وانتهاء البناء والهدم في مراحل متأخرة. تغير في تغير يجعل صاحبه أقوى. أما الذكر فلا جديد إلا في بعض حشائش الأرض التي تنمو شيطانيا دون تعب واكتشاف اللذة. فخبثه في المفاجآت الطبيعية معدومة.

استعجلها أبوها للخروج لذهاب إلى حامد وفضايتة. بالطبع ارتاح الأب من هم مواجهة الموظفين أصحاب القمصان والبنطلونات في الحجر الصحي لتسنين. فهم غلاظ القلوب بالنسبة له وطريقتهم المعتادة التي يعرفها في الرد على استفساراته باستخدام لهجة الصحراوية بطريقة بها تعال واحتقار كانت تنهش فيه كسرطان في الماضي. شكر داخله ما قام به حامد بأن حضر معه. وكيف تبدل الوضع السيء المتوقع من اسئلة سخيطة من الموظفين إلى شيء مفرح يبعث بالفخر. بسبب صديق حامد الدكتور سراج

عندما قابلهم صدفة في مكتب الطبيب وعاتب حامد عتابا لا يتم إلا بين الأصدقاء المقربين كيف لم يخبره أنه سوف يستخرج اليوم شهادة ميلاد لعروسه. وتم كل شيء بعد ذلك دون أسئلة أو معوقات اكراما للرجل الأحمر ذو الوجة التي لم يشاهد عم فراج مثلها إلا في بعض المستكشفين الروس في الصحراء أعوام عبد الناصر في الحكم. فهم عم فراج لماذا هذا التناق في الملابس الدائم للحامد. فصدقة مثل هذا الرجل تفرض الكثير. واكتملت لديه بعض الأجابات لاسئلة في ذهنه مثل الغيرة المقروءة في أعين بعض من العبادة بسبب علاقات حامد الغير قبلية.

غابت شمس الصيف وبدأت نسيمات البحر يصبح لها تأثير أقوى. جلسوا في الركن الجنوبي خارج بيت حامد. طقطقت الحطم المتوهج مع رائحة الدخان جعلت الجو أسرى. بعد السلامة الكثيرة والمتكررة طبقا للعادات التزم به عم فراج وفضاية. والكل في سكون ينظرون إلى حجورهم. مع خطف بعض النظرات من حامد. افتتحت الحديث المهم فضاية قائلة: «يا فراج، حامد تزوج رضية ورضينة أصبحت صاحبة البيت، وكل الأمور الآتية بعد ذلك ما هي إلا أفعال ثانوية شكلية لا بد منه لإتمام العرس، ونحن أهل، وليس غريبا نتكلف ونتجمل بأشياء ليست موجودة، وفي نفس الوقت ما نظلمك أو تظلمنا، حامد بنى البيت لبنتك، وما نقدر نلزمك بعفش مثل ما يحصل هنا أو نترك حامد دون تقدير، لذلك الحل يأتي برأى من عندي كأمر لاثنين». الكل ما زال صامت يسمعون فضاية في انتباه. فاستطرد فضاية بعد

رشفات من الماء بيد مرتعشه من كوب معدنى أمامها ناظره إلى عم فراج قائلة: «أن ترسل إلى حامد عدد من الغنم قبل الزواج ليبيع منه جزءا ويشترى ما يريد لبيته ويحتفظ بباقي معه يدفعوا بها ثقل الأيام الأولى في الزواج قبل التعود». استحسّن عم فراج هذا الحل. فقد أتى من خبير مثل فضاية. لأنه لو حاول أن يبيع الغنم في حفافيت لن يستطيع ذلك في وقت قصير وأن تم له البيع فلا بد عليه أن يأتي أكثر من مرة ليشتري ما يحتاجه بيت ابنته وهو ليس ذو معرفة بحياة المدن. فالأفضل له أن يبعث لحامد الغنم وسوف يكثر له فهذا متاح وكل هذا سوف يكون لابنته. وبذلك انقطع المجيء للقصير إلا بعد شهر رمضان للتمام الفرح. قبلت رضينة فضاية بقبلاات شاكرة فضلها. فقد لاحظت البهجة المتحفظة التي علت وجه أبيها بعد اكتمال حديثها عن تجهيز العرس فقد زال الهم. وبعد أن وضعت رضينة كيسين مملوئين في الصندوق الخشبي للغرفة النوم. مسك حامد كف يديها الأيسر وهي واقفة أمامه وخرجت منه أنفاس الرغبة، استعذبتها ولكن هربت منه دون كلمة. همّ وراءها ك شخص غير الذي تركه في الغرفة. وبقي معهم حتى أتت سيارة البحثة التي أوصى سائقها بأن يأخذها معه إلى مرسى علم. ولم يرجع من الشارع بعد الوداع. وجد فضاية نائمة على الرمال في مكان جلستهم، والقمر ما زال كبيرا ولكن لم ينتصف ليتحول نوره الأصفر الخافت إلى الأبيض في أعلى درجاته. أنهت فضاية مهمتها باتقان. الرأى كان له بعد دراسه وبحث مع صديقيه يونس والدكتور سراج. شعر

بنوع من الخبث البريء . فهو يريد أن يرتاح في بيته الجديد . ليس معه أي مبلغ إضافي بعد أن أنهى بناء البيت كل ما معه . زيارته المتكررة لدكتور سراج جعلته يرغب في وجود بوتوجازدا أنبوبية غاز في المطبخ مع منضدة خشبية عالية ودولاب صغير للأطباق والأكواب ، وحلم بأن يكون له في غرفة الضيوف مقاعد مذهبة ذات وسادات قطنية . وراديو بحجارة البطارية . وأن يبني خزان مياه أسمنتى سعة طن غير متصل ببنائة البيت مباشرة خلف المطبخ والحمام وتكون قاعدته على نفس ارتفاع السقف لهما ومحمول على أربع جدران من الطوب الأسمنتى بنفس اتساع الخزان . ويمتد منه ماسورة مياه معدنية رفيعة تصل إلى المطبخ والحمام ، وبذلك يصبح البيت الوحيد الذي به صنبرور مياة في العدو وينضم ضمن المنازل القليلة جدا في القصير في ذلك الوقت التي تشاركه في نفس الخاصية فالمعظم يستخدم الأبريق لغسيل الأيدي والوضوء ويشرب من البراميل المعدة لذلك بطلائها من الداخل بالعازل البترولى الأسود . وسوف يتم ذلك مباشرة مع أول شحنة من الأغنام تصل من حفافيت . وسوف يحتفظ ببعض الأغنام بعد ذلك ويعتنى بها لتزيد عددا حتى يستطيع بعد ذلك أن يشتري تلفازا ويجعله يعمل عن طريق بطارية سيارة ولا يربطه بوصول الكهرباء إلى العدو . لقد اكتسب حامد من حياته في السنوات الأخيرة بأن عليه أن يستمر في أحلامه ويحاول تحقيقها ولا يركن إلى منتقديه الأصوليين المحافظين فهؤلاء تحولوا أكثر من مرة إلى مصفقين له بعد رويتهم للنتيجة ،

غير متذكرين أنهم كانوا صخور في طريق النهر عند بدايته  
تحاول أن تعوقه.

\*\*\*\*

برغم من تناول بهية الغذاء مع بناتها في الدور الثاني جلست  
على الطبلية مع الحاجة منيرة وزوجها فاروق ومنصور وهم ياكلون  
لتسمع القصة الأشهر في المدينة للمرة الثانية. لأن فاروق كان  
مشغولا في المحال ولم يجتمع بمنصور من يوم العيد أول أمس.  
أفاض منصور بالتفصيل لإرضاء أخيه الأكبر الذي أبدى درجات  
الاستمتاع أثناء الاستماع على الرغم من عبوس مزيف كان  
ظاهرا على وجهه قدم به من الخارج. وبالطبع السرد كان في المرة  
الثانية للمنصور به أحداث جديدة تضيف عليه أهمية وتنزع من  
زينات اغطية للجسدها. لم يوقفه أحد أثناء إلقائه الحكاية بل  
كانوا يتفاعلون معه بكلمات من عينة اللهم استر على بناتنا  
ولا تفضحنا أو أيتها الفاجرة أو رجل يا منصور احسنت فعلا أنك  
حقا ابن الصول ناصر. وكان وقع ذلك على منصور كأنه مغنى  
استعذب الحاضرون صوته فتركوه ينشد ويشدو ولا يسمع  
مع صوته إلا بعض كلمات المديح الغير مزعجة للجو الطرب بل  
مشجعه. وبعد أن انتهوا من غذائهم المادى والروحى. وحمد الله  
على نعمة الغنى في المأكل ونعمة الشرف والظهارة. وأثناء شرب  
الشاي أخبرهم فاروق بأن محافظ البحر الأحمر الجديد يطلبه غدا  
في الغردقة بدعوة أتت إليه عن طريق رئيس المدينة وأنه لم تريحه

هذه الدعوة لأنها خاصة به فقط. حاول الاستفسار من رئيس المدينة عن السبب ولكنه لم يجد إجابة بل زاد عليه الأمر غموضا بسبب الالاحاح من رئيس المدينة على استنطاق فاروق ومحاولة استخراج جواب. لم يخف فاروق بوادر بهجة تلوح في وجهه من أن لأخر ولكن هبات الدهشة الممزوجة بالخوف تبعدها وتجعله يذهب مفتشا عن سبب لجعل شخصية بقدر المحافظ يطلبه شخصا لموعد. بالطبع في الفترة الأخيرة عزز علاقاته برجال الحكومة ولكن في مستوى المحليين مثل رجال الشرطة وكل موظفين مجلس المدينة وضباط القوات المسلحة في الكتائب الموجوده بالمدينة حتى يصير مهما لأهالى المدينة ويطلبوا وده ومساعدته عندما تجور السلطة عليهم. وليس حبا في عمل الخير ولكن طمعا في كرسى البرلمان الذي لم يظهر لأحد حتى الآن عن نيته فيه فهو ما زال صغيرا على هذا المركز. وبعد محاولات من فاروق مع منصور لحل هذا اللغز. جاءت كلمات على لسان الحاجة منيرة عفوية تريح فاروق وتهديه الحل قائلة: «لعل والدك خدم معه في الجيش ولا زال يذكره بالخير ويريد أن يرد الجميل لابنه». انفرجت الغمة ولاح الارتياح على فاروق فتبعه جميع أفراد العائلة فأشار فاروق معلقا على ما قالته أمه بحركة من اصبعه الخنسر بيده اليمنى بأنها على صواب قائلا: «صدقتى يا حجة. المحافظ يحمل رتبة لواء ولا يمكن أن يجمع بينى وبينه إلا هذا». مشيرا على صورة اباه بالابيض والاسود المعلقة في الصالة. مستدركا: «الصول ناصر كان مقربا لعدد كبير من القادة العسكريين»

وخصوصا الذين كانوا ياتون للصيد في أيام خدمته وله أفضال عليهم». فنظر إليهم وهو معجب بنفسه مكملا حديثه: «آه لو كان هذا صحيح فإنه سوف تكون قفزة العمر كله، سنتحول إلى مكان لن يصل إلينا فيه أي شخص في المدينة». وقبل أن ينفذ المجلس العائلى نصح فاروق منصور بأن لا يفقد علاقاته الجديدة في المستعمرة ويحاول أن ينميها. فابدى منصور إعجابا بالنصيحة موضحا أنه يريد ذلك ولكنها مكلفه. ابتسم فاروق ابتسامة لها مغزى وصل مقصدها إلى منصور وقال: «إن كان الهلس مفيد فلا مانع». وبفضل الحاجة منيرة نام فاروق ليلته في هدوء ومع أول ضوء للصبح كان فاروق ينظر في دولابه ويخرج منه البدل والقمصان التي لا يلبسها في معظم أيام السنة. فهو يفضل لبس الجلباب والعباءات فوكة كرجال الخليج العربى لكن دون عقال أو أي شيء فوق الرأس. لاحظ في أثناء تجريبه لبعض البنطلونات أنه زاد عدة كيلو جرامات لدرجة أنه شك لحظات أن هذا الملابس ليست له. فاضطر في النهاية أن يلبس آخر بزة اشتراها من القاهرة وبدأ فيها مثل الريفين عندما يظهرون في المناسبات وتخبرك هيئتهم أنهم حديثى عهد بهذا الملابس. لم تخف بناته ضحكاتهن عند رؤيته في الصباح. وعندما خرج ليستقل سيارته. جعل خروجه من البيت ودخوله للسيارة في عجلة على غير المعتاد. لا يريد أن يراه أحد. يشعر أنه مهرج بهذا الزى. وعندما وصل إلى شمال المدينة وجد المأمور بنفسه في الكمين الشمالى. ركن سيارته جانبا وعندما هم بالخروج ليسلم عليه

فتقدم المأمور نحوه في خطوات تضيء على فاروق إجلالا من قبل المأمور له. فوصل إليه اليقين بأن الخبر قد وصل إلى قسم الشرطة بالزيارة المرتقبة. ويريد المأمور أن يجعل كلمات المديح لفاروق هي آخر شيء يتعلق في ذهنه قبل أن يقابل المحافظ. وبعد أن غادر فاروق الكمين والكل يلوح له كأنهم على رصيف الميناء يودعون الأحباب. نظر في المرأة التي أمامه فوجد المأمور ما زال ينظر إلى السيارة. فقال فاروق بصوت مسموع «طول عمرك كلب مثل جميع من سبقوك في القسم لا بد أن أرمى لكل واحد منكم عظمة ليعض فيها، ليبعد أسنانه عنا أما النجاسة فلا مفر فيها منكم. فلا بد من الاختلاط بكم».

فضحك في السيارة ضحكة مجلجلة متذكرا صديقه المقرب الشيخ هارون وأنه لولا الزيارة الرسمية لأخذه معه. سبب ضحكه أنه تخيل نفسه يغسل يده بالتراب بعد سلامه على المأمور وضباط الشرطة طالما أصبحوا كلابا فلا مجال من إزالة النجاسة إلا بالتراب طبقا لدروس الشيخ. العلاقة بين الضحك والشيخ هارون هي أن الشيخ هارون من المشايخ المولعون بالتوفيق بين البحث العلمي والقران. ففي أحد الأيام السابقة القريبة لهذا الصباح بعد عشاء مجمع أخبرهم الشيخ هارون عن إسلام عالم نرويجي بسبب حديث نبوي. بأن هذا العالم كان في مؤتمر علمي يتحدث عن قوة فيروس موجود في للعاب الكلب وأنه لا يموت أبدا حتى ولو سلطت عليه أعلى درجات الحرارة ارتفاعا أو خفضتها للتجمد. فكان موجودا عالما مسلما فتذكر الحديث النبوي

الذي يقول (طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاًهن بالتراب) فأخبره أن هناك رجلا في بلاد العرب من أكثر من ألف عام يقول افعلوا كذا وكذا. فاقترحا عليه أن يجرب. وبعد استخدام التراب انتهى الفيروس تماما من الوعاء الذي به لعاب الكلب. وبعد أن اقتنع أطلعه العالم المسلم على أن من قال هذا هو نبي الإسلام. فأسلم العالم النرويجي. بالطبع ينتشئ فاروق وأغلب المستمعين. ولا يدققوا مع الشيخ أن ذكر القصة في مناسبة أخرى وتحول الفيروس إلى دودة شريطية أو جعل جنسية العالم سويدي أو فرنسي. المهم أن يكون من الدول المتقدمة. ولا أحد يسأله لماذا أسلم فقط العالم ولم يسلم الآخرون ولا يستفسر منه أحد في أي مؤتمر علمي تم ذلك وفي أي المجالات العلمية نشر هذا الخبر ومن الناشر وما دليل صدق خبره وما اسم العالم المسلم واسم العالم الغربي وما التخصص العلمي لهما. مع أن الشيخ هارون ومن علموه يقتنعون بأنهم خريجي المدرسة التي انتجت كيفية جمع الأحاديث النبوية الدقيقة بعد أكثر من مائة عام من وفاة النبي بسبب أنها من فلان لفلان. معنعه ولا مجال فيها إلى الإضافة والحذف على حسب الهوى.

فاروق يسلى نفسه في الطريق بأحلام شخصية وأحلام عامة دينية. وصل إلى مدينة الغردقة واتجه فورا إلى مبنى المحافظة وبعد السؤال علم بأنه عليه أن ينتظر في الدور الأرضي في صالة معدة لانتظار وعندما دخل وجد آخرين موجودين. لم يعرف منهم أحد غير أن هيئتهم ولهجاتهم توحى بأنهم من أهالي البحر الأحمر. وبعد

السلام المتكلف في إظهار الأهمية بينهم مع وجود عامل مشترك عندهم جميعا وهو الترقب. وبعد مرور ساعة من الانتظار مع قدوم مدعويين آخرين. تكلم رجل كبير السن متذمرا قائلا: «إلى متى ننتظر؟». كان الرجل من قبائل المعازة التي توجد في صحراء الغردقة وسفاجا حتى الخط الفاصل الذي يمثله طريق القصير قفط الذي يفصل أراضيهم عن أراضي العبادة طبقا للمراسيم القديمة في رسم الحدود الداخلية ولا أحد يجرو من القبيلتين على عدم احترام تلك الحدود في أثناء الرعى أو العمل. لم يجبه أحد وصمتهم يخبره بأن عليه الصبر. اتجه فاروق إلى شخص بعيد عنه يلبس ملابس عبادة الجنوب وبعد السلام عرف منه أنه من قرية الشلاتين ولكنه يتردد على مدينة الغردقة فله بها بيت. ولكن فاروق لم تصيبه راحة من هذا الجمع الغريب ومن وقع اسم هذا الرجل العبادى أيضا فقط سمع به أكثر من مرة على فترات متباعدة. تتخبطه الأفكار وتتلاشى بعيدا أوهامه وأوهام الحاجة منيرة بأن المحافظ معرفة قديمة. انتبه لضجة في الخارج وما هي إلا لحظات حتى كان المحافظ أمامهم والكل يقف واتجه الذين يعرفونه شكلا ليسلموا عليه وتبعهم الآخرون أمثال فاروق. وبعد أن جلسوا على مقاعد القاعة المبعثرة، تم ضمهم حتى يكونوا أمام منضدة المحافظ التي على أرضية أعلى بقليل كأنه فوق مسرح. أخذ يتحدث عن التنمية وأهمية المحافظة. لم يخلع نظارته وصوته به فخامة مكتسبة من قوة عاشها من صغره مع تأثير جرعات مستمرة من الويسكى وسجائر مستوردة

قوية. وجهه ضخم وبه تجاعيد تحدد ملامحه يستطيع أي رسام كاريكاتيري مبتدا أن يرسمه بسهولة. ذو طول فارغ وقامة ممشوقة على الرغم من سنة كأنها لفلح قوى. ضل فاروق ولم يهتد بكلمة تجعله يعرف طريقة في هذه الصحراء المخيفة الذي يمثل فيه المحافظ والأشخاص القليلون حوله الصامتون مردة من الجن. أعاد السكون المفاجئ لفاروق وعيه ثم تبعته ضجة فوجد المحافظ يترك المسرح ويهرول نحوه الحاضرون. اندفع فاروق معهم بقوة الجذب الجمعى فوجدوا في الخارج أتوبيس كبير أنيق. جلس فاروق ولم يتفوه بكلمة استفسار عن المكان الذي سنتجه إليه. وبعد بضعة دقائق علم فاروق أنهم ذاهبون إلى غذاء في فندق الشيراتون الشهير مع المحافظ. وعند وصولهم اصطحبتهم فتاة شديدة الجمال بالنسبة لضيوف المحافظ وكانت هي مرشد لهم حتى أوصلتهم إلى منضدة كبيرة معدة بأفخم الطعام على جانب من الشاطئ بجوار السقالة الخشبية الممدودة على ماء البحر. انبهر فاروق بجراة السائحات المستلقيات على الشاطئ بلباس السباحة تحت اشعة الشمس. وأصابه اعتقاد راسخ لا يتزعزع من النظرة الأولى أنهن عاهرات لو طلب من إحداهن الجنس لوافقت دون تردد. شاركه في ذلك أغلب الحاضرين ومنهم من داعب المحافظ بأدب ببعض الكلمات يستعيز بالله من شر هؤلاء النسوة. وبعد أن فرغوا من التهام المائدة بأيديهم. قد تكونت بعض الصدقات اللحظية بين المدعويين. أما فاروق فعيونه ذائغة وابتسامته بلهاء. والقلق ملازمه المستمر كأنه مملوك في القلعة ويعرف أن هناك

غدر قادم وسوف تنطلق من فوهات البنادق رائحة الموت. وزاد هذا الإحساس عندما طلب منهم المحافظ صورة تذكارية في صالة استقبال الفندق وعندما تجمعوا لأخذ الصورة لم يتوسطهم المحافظ قائلاً: «أنه يريد الصورة لهم فقط لأنهم أبناء المحافظة أما أنا فغريب». انتهى اللقاء وفاروق محمل بالأسئلة. حفظ في ذاكرته بعض الأسماء وعندما وصل إلى القصير لم يذهب إلى بيته للراحة ويتخلص من البدلة ولكن فضل أن يزور الحج محمد طابية أبو أسعد غير مهتم بنظرات الناس له بزيه الجديد مثله مثل شخص ألم به مرض فلا يقيم للناس وزناً مع ألمه. وجده قعيد الفراش كما تاتيه الأخبار عنه ولكن ما زال عقله يعمل. سأله عن اسمين فقط ممن احتفظ بهم في ذهنه. فجاءت الأخبار منه تؤكد الشك الذي تولد عندما سلم على العبادي ساكن الشلاتين. لم يبداً فاروق أمامه أي انزعاج واختلق قصة تجارية ليوضح له سبب السؤال فمحمد طابية لحوح في معرفة الأخبار. على الرغم من عمره المتقدم وكم الأمراض التي تعجل برحيله ولا يعلم أسماءها ولكن طبعه السيء ما زال فتياً يتغمز دائماً بعينه من وراء الجالسين معه حتى ولو كانوا أصدقائه أو محسنين له وقد ورث هذا ابنه الأصغر أسعد كأنها جينات وراثية أو كما يقولون الذي خلف لم يمت. فكان لا بد على فاروق أن يضع تحت وسادته بعض الورقات المالية حتى يوقف سيل الأسئلة الخبيثة منه والعتاب بسبب عدم السؤال عنه.

لما يستطيع أن يمنع أمه أو زوجته من الأسئلة إلا بنهر بصوت مرتفع حتى يتركوه يفكر. الأيام تمر ثقيلة بين راحتى الفخر والرعب. الأولى كان مصدرها من أنتشار خبر لقائه بالمحافظ الجديد وأنه هو الوحيد الذي التقاء به من المدينة قبل أي مسئول أو نائب في البرلمان. مع أن المحافظ قابل الأستاذ تهاى مرات عديدة في المحافظة قبل زيارة فاروق ولكن الناس ضخمت الحدث النادر والغريب. واختلاق الأسباب الواهية لبعض الشخصيات المهمة في القصير بأن يحضروا بنفسهم إلى المحال ليشتروا بعض الطلبات في توقيت وجود صاحب المحال خلف مكتبه وإظهار محبة زائدة وبعض كلمات المجاملة وحدوث أشياء نادرة مثل إصرار مأمور القسم على دفع الحساب على غير العادة مثل المرات السابقة. وعدم معرفة الجميع بسبب الدعوة جعل الكل يجتهد على حسب قدراته الخيالية والوظيفية مع خليط من محبة أو كره لصاحب الدعوة أو لمتلقى التفسير. فمثلا إذا كان مدعى العلم ببواطن الأمور عبادى فلا بد أن تكون القصة أن فاروق هو صاحب مقعد القصيرية في البرلمان في الانتخابات القادمة وإن كان مختلق القصة قصيرى أقسم بجميع الأنبياء والمرسلين أن العبادة فقدوا كرسى البرلمان لابن الأونجى. وصل كل هذا إلى إذن فاروق وجعله يخلق بأحلامه المدفونه ومؤشر تفكيره يهديه بأن المحافظ يريد منه ومن أمثاله أن يتبرعوا ببعض الأشياء التي تحتاجها المحافظة. ولكن الرحة الثانية جمره النار التي يحملها برجليه تنغص عليه طيرانه ولا يستطيع أن يتركها تسقط

فتحرق عشه على الأرض. فلا بد أن يخمد نارها قبل أن يلقيها. في طريق عودته ليلا قابلته سيارة رئيس المدينة فوقفت فارتجل منها رئيس المدينة. فعلم فاروق أنه المطلوب. الابتسامه تسبق الرجل وشيء خفى أجبر فاروق على عدم التقدم نحوه وأن ينتظره في مكانه يكفيه أنه انتبه له ولم يستمر في السير. قد يكون الهيئة التي اكتسى بها رئيس المدينة وقراءها فاروق من على بعد هي من الهمة بذلك. سلم رئيس المدينة على فاروق بانحناء بسيط ولكنه معبر عن أشياء كثيرة جديدة. وأخبره أنه ذهب إليه البيت وعلم أنه في المحل. ليعلمه بنفسه أن سيادة اللواء محافظ البحر الأحمر منتظره غدا في مكتبه في مبنى المحافظة صباحا. الرجل يخرج الكلمات واضحة في نبرة واحدة بصوت مسموع دون أي لبس كأنها مكتوبة أمامه. صمت لحظة فاروق وتبعه رئيس المدينة في صمته. جندي ينتظر قائده أن يعطيه التعليمات أو ياذن له بالانصراف. هذه البلاد قد تتحول من حال إلى حال. صورة تلتقط لك مع مهم فتصبح ميسور الحال. نسب مع وجيه يحول اسم العائلة من شهادة الوفيات إلى شهادة ميلاد فعلية. أو خفة ظل أعجبت ذا شأن فأنت من العظماء. سأله فاروق في أي ميعاد في الصباح. أجاب لا يوجد ساعة محددة. سكرتير المحافظ ترك رسالة فقط غدا صباحا. شكر فاروق رئيس المدينة وتركه وهذا يعتبر تغير شديد في العلاقة. فلم يلح عليه فاروق بأن يصحبه إلى منزله الذي على بعد خطوات قليلة ويستضيفه والأمر الآخر أن رئيس المدينة لم يجد أي حرج في طريقة وداع

فاروق له. وجد الكل ما عدا منصور منتظرين في البيت وعلى وجوههم الفزع. وهو محمل بجبل لا يعلم هل سيكون قريبا فوق هذا الجبل أما غدا يثقل وزنه ويدفن تحته. أمر زوجته أن تأخذ البنات وتذهب لأعلى. وأشار لأمه بأن يدخل حجرتها. وبعد أن أغلق الباب أخبرها أن المحافظ يريد مرة أخرى. ولكنه لا يستريح لذلك نهائيا. وأنه يشعر أن هذا الرجل يريد أن يأخذ المال الذي معه. ووضح لها أن كثيرا من الشخصيات التي كانت مدعوة المرة السابقة عليهم علامات استفهام وتنتشر حولهم في أماكنهم الشائعات حول مصدر أموالهم وتكاد تكون هي نفس حكايتنا القديمة. فشهقت الحاجة منيرة أكثر من مرة محمولة أثناء سرد فاروق مخاوفه وشعرت بالمرح في أعانها. واقترحت أنه من الضروري نقل الحقائق الممتلى بالنقود خارج البيت. وافقها فاروق على الفكرة ولكن أوضح لها ضيق الوقت فعدا صباحا لا بد أن أكون في الغردقة. واتفق مع أمه أنه سوف يتصل بتليفون البيت بعد أن ينهى حديثه مع المحافظ ليضمئنها أو يخبرها أنها عليها أن تعلم منصور أين مكان الحقائق فيحملها خارج البيت في أي مكان وإن لم يتصل نهائيا حتى العصر فعليها أيضا بنفس العمل. لم ينم ليلته نهائيا وبعد الفطار أخذ يمص قطعة أفيون ويتلذذ بمرارتها لتساعده على اليقظة وتؤخر التعب الناتج عن عدم النوم إلى ما بعد المقابلة التي لا يعرف هل ستكون مشؤمة أو سعيدة. فأخذت تبث في أوصاره الهدوء وإن كان ظهور نور الشمس التهم كثيرا من الهم الذي كاد أن يفتك به ليلا. وعندما استلم

الطريق السريع أخذت الأفكار تتناوب عليه وأكثرها سوء. يفكر في أي مكان سوف يخبئ ماله وأن لقي مكان جديد كيف سوف يأخذ منه كلما احتاج إلى ذلك. وأن استيقظ في يوم مشؤوم واكتشف أنه كان هناك من يراقبه وقد سرق المال كله. بالطبع لن يتحمل ذلك فالموت أهون عليه من العيش بعد حدث كهذا. ومنصور سوف يعرف حجم المبالغ التي تركها أبوه وهذا أخطر وأشد فتكا. منصور السفية سوف يطلب بعد حين نصيبه ويبقى إصبعه دائما تحت فكه وقد يفتضح أمرهم كله. ثم باغته صورة المحافظ ووجهه القوي ذو الصرامة فانتقلت الأفكار إليه. ما المبلغ الذي يجعل هذا الرجل ذو الملامح الثرية يشعر بالكفاية والرضا. وهل يستطيع أن يساوم معه؟. مثانته أوقفت أفكاره فتوقف على جانب الطريق فانتابته قشعرية جعلت شعر يده ينتفض. لقد قطع أكثر من ثمانين كيلومتر ووصل سفاجا ودخل المدينة وقاد سيارته بسرعة منخفضة داخلها وخرج منها ولا يتذكر كل ذلك. أرجع ذلك إلى الهم والتفكير المتواصل. وسب المحافظ ناصحا نفسه ماذا سوف يستفاد إذا انقلبت سيارته بسبب عدم التركيز. وأرجع توقفه إلى عناية إلهية. وأخذ يتلفت كثيرا يراقب الطريق يريد أن يتبول ولكن أصبح الوضع سيء بسبب مرور عربات وزيه الرسمى الجديد. فقد تربي فاروق على أن يتبول جالسا ويللمم جلبابه حوله كأنه خيمه وبعد ذلك يستجمر أي يمسح عضوه بقطعة حجر صخرى. فكان يتم ذلك بسهولة بسبب اتساع البنطلون القماش الذي تحت الجلباب أو

عدم وجوده أصلاً والاكتفاء بشورت واسع. أما مع بنطلون البدلة والرداء فالأمر صعب وجديد عليه لكن لم يرضخ لهذا الوضع وترك سيارته واتجه بعيداً عن الشارع في اتجاه الصحراء واختبأ عن المارين بعرباتهم وتبول جالساً دون خوف من أن يرى أحد مؤخرته. وانشغال فاروق بأمر مثانته واتباع الإرشادات الدينية لكيفية التبول جعلته أكثر هدوءاً ورجع سيارته وهو سعيد بحل هذه المشكلة. وأكمل طريقة إلى الغردقة منتبهاً حتى وصل إلى مبنى المحافظة. وعند دخوله مكتب السكرتير وجد ترحاب منه وطلب له قهوة من العامل الذي يوجد على الباب، التي لن تأتي ورفع سماعة التلفون الداخلى مخبراً بصوت منخفض جداً بأن السيد فاروق قد وصل. وبعد ذلك أشار له السكرتير باحترام واضح بأن يتفضل أن المحافظ ينتظره. قلبه يخفق وينظر إلى السكرتير سائلاً نفسه هل يسمع ضربات قلبه. تركه بعد أن فتح له الباب وأشار له بأن يتقدم. واغلق الباب خلفه. كأنه خرج لتوه من غرفة خلع الملابس للاعبين والآن أنه في الملعب الفسيح. المكتب يبدو بمساحة كبيرة جداً. والوحش قابع هناك متمستر خلف مكتبه ونظاراته البنية اللون التي تغطي جزءاً كبيراً من وجهه العريض. خلفه سجادة حريز ضخمة معلقة نسجت بصورة الرئيس السادات في زيه العسكري، نطق من بعيد بصوته الفخيم. قائلاً: «تفضل يا حج فاروق. أليس هذا اللقب الذي تفضله أما نقول يا فاروق بك ليناسب هذه البدلة الأنيقة».

ابتسم فاروق وخرجت منه بعض النهنات وهو يتقدم في خطوات متسارعة نحو المحافظ قائلاً: «حضرتك تنادى بأي شيء تحبه. فمجرد نطقك لاسمى فهذا فخرلى». استعذب فاروق كلماته واسترجعها أكثر من مرة داخله ليراجعها وهو في طريقه إلى المحافظ، فأشعرته بالثقة وزاد التأثير بسبب مردودها على اللواء صديق. لم يقف المحافظ له ولم ينتظر ذلك فاروق. توجد نجفه كبيرة في منتصف السقف. لا يعلم لماذا أتى إحساس لفاروق أن له عينان ينظرى إليه من أعلى. قد يأتي ذلك بسبب المظهر الجديد الذي لم يره لنفسه قبل ذلك. الأمعان في أبداء الذل. فلقد كان يكفى أن يسلم على المحافظ وهو بجوار المقعد الذي سوف يجلس عليه أمام المكتب ولكنه وجد نفسه تلقائى بلا ارادة يتجه إلى مقعد اللواء ويقترب منه وينحنى في وضوح ويرجع إلى الكرسي الذي أشار عليه المحافظ دون أن يعطى ظهره إلى الرجل وهو يتخبط في المكتب والكرسى الذي كاد أن ينقلب على الأرض مع ابتسامات بلهاء. بطريقة مشابهة لما كان يفعله الخدم مع الملوك والامراء في الماضى والمتصوفين حالياً عند زيارتهم لقبر عظيم لديهم مثل النبى أو أحد أبنائه. وبعد أن جلس متادبا في شكل فتاة صغيرة تضم ساقها. بدأ المحافظ في الكلام عن أبناء المحافظة ووصفهم بسمات لا توجد في أماكن قد خدم فيها أوزارها المحافظ. وبدأ الدفء يملأ المكان حتى نسى فاروق مخاوفه واندمج في حديث عن البحر والجو. متذكراً أنواع لبعض الأسماك كان يردد أسماءها أخوه منصور في البيت لأن فاروق لم يقرب

البحر نهائيا مثل أغلب أهل القصير. حتى اتجه المحافظ بالحديث عن جمال محافظة مثل البحر الأحمر تتصف بجوها الساحر طول العام ولا يستثمر أبناءها فيه. وأنه لذلك فضل أن يتناولوا الغذاء في فندق شيراتون في اللقاء السابق حتى يروا بأنفسهم كيف يكون الاستثمار. بدأت خيوط العقدة تنفك عند فاروق. فاستوضح أكثر سائلا المحافظ عن قصده. فأكمل اللواء بصوت تغلفه هموم لا تناسب شخص مثله قائلا: «يا حج فاروق أنا رأيت أن خير السياحة ومكسبها لا بد أن يذهب إلى أبناء المنطقة. لذلك لا بد أمثالك هم الذين يقودون حركة التنمية في المحافظة».

- ولكن ليست لي خبرة في هذا المجال.

نظرات فاروق بدأت تتغير ونبرة صوته قد عادت إلى طبيعتها التي يتحدث بها في القصير

- ليست مشكلة الخبرة. فترك هذا لي فسوف استقدم كفاءات تدير الفنادق ويتم تدريب العاملين. أنا أريد تنمية حقيقة لو تركت هذا للحكومة لن تفعل أي شيء لكم. فلا توجد خطط أو أي نية لتطوير قطاع الخدمات في المحافظ. فمثلا أنت من القصير لولا وجود الإيطاليين في السابق لأصبحت القصير حتى الآن تعيش في العصور الوسطى. عندي أمل أن أجعل كل أبناء المحافظة يعملون وأن أجعل المحافظة مقصد لأبناء مصر كله للعمل فيها.

انفعل المحافظ في لطف محملا بالأمل ولكن فاروق لم

يلتقط أي شيء. ولم يصدق كلمة مما قالها المحافظ مثل العمل، البلد. وقال لنفسه كل هذه الكلمات لا تصح أن تخدع شخص مثله يفهم جيدا العسكريين وجشعهم عندما يخرجوا من ثكناتهم. أنه يريد مبلغ ضخم جدا من المال ولكن يجمل الوضع تحت مسمى فندق...

- يا سيادة المحافظ أنا ممكن أتبرع لصندوق المحافظة بمبلغ جيد للخدمات وأنا تحت أمر سيادتك.

- حتبني فندق يا فاروق في الغردقة الأمر منتهى.

خرجت الكلمات منه كأنه لم يسمع ما قاله فاروق.

- يا فندم أنى لا املك المال لبناء فندق وحتى لو شاركنى آخرين أنى لا أستطيع أن اجعل مكان املكه به عرايا وأن اتاجر في الخمور.

- أكمل وبعد.

قالها المحافظ بعد أن وضع نظارته على المكتب موحي ببعض التراجع فاستطرد فاروق

- أنا شخص أعرف دينى جيدا ولا اتصور في يوم أن اكسب من بيع الخمور أو ابنى غرف ليمارس فيها الجنس غير المتزوجين. تذكر الحديث الشائع بين الناس في القصير الذي يأتي من الصيادين بأن وفرة الاسماك في القصير عن الغردقة بسبب البركة التي قد هجرت شاطئ الغردقة بسبب النساء العاريات

على البحر وما يفعله السائحون من نجاسة في الجزر- بسم  
الله الرحمن الرحيم (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ  
أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (\*) إن  
هذا الفجر يجعل الثروة السمكية تهجر البحر.

انتهى من عرض وجهة نظره وهو يشعر بالنصر وقوة الحاجة  
التي سوف تجعل المحافظ يقتنع بما قال ولمحت عينه اليافطة التي  
تحمل اسم المحافظ صديق عفت لا توحى بأنه مسلم. ارتعد من  
الفكرة ولكنها عاد لسكينته بسرعة بأنه من النادر أن يصل  
مسيحي إلى درجة مرتفعة في الجيش وأن وصل أحدهم لا يجعلوه  
محافظا ولو كان مسيحي لكان الخبر انتشر في المحافظة  
أكثر من أنتشار ذرات الهواء في يوما عاصف. ضحك المحافظ  
بصوت مرتفع ولا زال محتفظا بهدوئه.

- يعنى يا حج فاروق سيقان السيدات وموخراتهم هي التي  
جعلت الأسماك تهجر إلى بحار أكثر إسلاما، أنت رجل  
جامعى وتعلم أن هذه الأمور تتأثر بسلوك الإنسانى مثل  
تكسير الشعاب بواسطة الغام والديناميت أو تلوث البحر  
بسبب تصدير الفوسفات مثلا في القصير. لا لا يا حج فاروق  
أنا لست معك في هذا التفكير غير المنطقى.

لم يكثرث فاروق بما سمع وبدأ وجهه يكفهر وأيقن تماما  
أن في الأمر طمع مبالغ فيه من هذا الجشع. وبدأ فاروق يتململ

---

(\*) سورة الروم آية ٤١.

في كرسية. تعمد فاروق على استمرار الصمت المهين بالنسبة للمحافظ. عندها انفجر غضب وتبدل المكان. عاصفة اقتلعت الجدران وتكسرت معها النوافذ. لا يعلم أين يختبئ. لا مفر. انتفض المارد واقفا وابتعد عن مكتبه متجها أسفل النجفة. وما زال فاروق جالس. الحيرة ثبتته في مكانه. فخرجت السنة اللهب من فمه صارخا. الرجل لم يغادر كتيبته. نطق كلمة واحدة: «قف». واقترب منه قائلا: «أنا لا أترجلك. أنا أمرك أن تخرج جزءا من أموال المخدرات التي ورثتها عن أبيك لتبنى فندق. وهذا أفضل لك وإلى أسرته. سوف تكسب مالا كثيرا أضعاف ما تملك. أفضل من العمل الساذج الذي تشغل نفسك به ولا يفيد أحد. بالفندق سوف يعمل لديك على الأقل أكثر من مائة شخص. سوف تصبح رجل أعمال حقيقى. تفتح لك الأبواب الموصدة. أما إذا رفضت سوف ترمى في السجن للأبد وأنت تعلم أن هذا الأمر أسهل من كوب ماء اشربه. وتتشرد بناتك. والكل سوف يشمت فيك. نهاية طبيعية لرجل عاش بمال حرام. آه تذكرت كل من كان في الصورة الجماعية التي التقطت في بهو الشيراتون، لا أحد يريد الفضيحة. فكلكم معروفون ولكن لا بأس».

كاد قلب فاروق يتوقف. دارت به الأرض، انهار جالساً دون إرادة. روحه تتخبط داخله كأنه هيكل مجوف فارغ. ذكريات تأتي سريعا أمامه وتختفى. صراخ لا يسمعه إلا هو. ضحكات أسى لم يضحكها. شعر بأنه يهلوس في أعماقه ويكلم نفسه «أنت مفضوح يا فاروق. أصغر طفل في القصير يعرف من أين

مالك. ولكن الفرع هو معرفة وحش مثل الذي قابع أمامك الآن. هذا الذي يحوم حولك يستطيع أن يقتلك وتأتي الشرطة لتحمل جثتك فقد لوثت بدمائك أرضية مكتبه. أنت نكرة. قبل يديه. أفعل ما يريد منك. ماذا طلب منك حتى تغضبه. أنه يريدك أن تبني فندق. أعطيه المبلغ المطلوب ونجى نفسك وما سوف يتبقى معك فهو ليس بالقليل». نهض فاروق منحى الرأس كأنه لص في قسم شرطة ثم نطق بأدب جم يليق بتلميذ مهذب بأنه تحت أمره. طلب المحافظ سكرتيره. وقبل أن يأتي. أشار بيده على فاروق ليجلس. أتى السكرتير ومعه مجموعة من الأوراق. وإعطاؤها للمحافظ وخرج. أمسك الملف ونادى على فاروق لينظر ملوحاً بما في يده قائلاً: «هذا ملفك يا فاروق». افلقت بعد لحظات قليلة هي دهر على فاروق رزاز من فم المحافظ ضاحكاً بسخرية مخبراً فاروق أنه يمزح معه. أن الملف ما هو إلا ورق عقد تخصيص الأرض التي سوف يبني عليها الفندق. وبعد أن وقع عليها فاروق. ظهر المحافظ بصورة جديدة. صديق حميم وأخذ يداعب فاروق ووضع يده أكثر من مرة على كتفه وضمه بلطف. أصر على أن يذهب معه فاروق إلى بيته الخاص ويتناول الطعام ويكمل له شرح ما سوف يفعله. والتبريد والتسخين جعل فاروق ينهك. استأذن قبل أن يذهب مع المحافظ أن يستخدم التليفون ليتصل بالبيت. طمئن أمه ومشى مع المحافظ وهو يصبر نفسه ويعالجها بأن المحافظ رجل دولة. «لا بأس من تهديد أو وعيد من جانبهم. المهم ألا أخسر نفسى وسط الضعفاء من العامة فهؤلاء لا بد أن أجعلهم

يرونى شاهقا عاليا بعيدا عنهم. وطالما درسنا أن الأمراء لهم وجوه ضعيفة أخرى أمام الملك وهذا لا يقلل منهم فهذا الذي بجانبى لو قدر لي أن اشاهده وهو أمام رئيس الدولة لابد سيكون في شكل طاووس دون ريش. أصلع باهت».

وعلى مائدة الغذاء وضح لفاروق كل شيء. المحافظ لا يريد أي أموال منهم. ولكن وجد صعوبة في إقناع رجال أعمال من القاهرة أو عرب لياتوا إلى البحر الأحمر ليستثمروا في قطاع السياحة إلا مجموعة تعد على أصابع اليد وهي التي بدأت تبني بالفعل ولكن لن يستطيعوا أن ينفذوا خطة المحافظ لتنمية فهو يريد أعمال ضخمة سريعة التنفيذ، فكان الحل على يد كل من معه مال من أبناء المحافظة. بالطبع يقصد من أموال المخدرات ويظن أن من يحكمون البلد لا يعرفوا عنه شيء. فهؤلاء لن يخافوا من المغامرة فإن خسروا مال المباني فلا يهم رضا السلطة المتمثلة في المحافظ. كل هذا لم يذكره المحافظ ولكنه مرادف لكلمة أبناء المحافظة في ذهن فاروق. علم فاروق أنه سوف يبني فندق من مائتي غرفة. يبدأ في أول عام بمائة فقط. ثمن الغرفة الواحدة يكلف عشرين ألف جنيه. أكد المحافظ له أن كل ماله سوف يعود له بعد عام واحد من استقبال السياح. وأن المحافظة سوف تعطيه كل المساعدات من ماء وكهرباء وحماية من أي شيء يعطله. بل سيجعله الشخصية الأهم في مدينته. وأخفض صوته بلمحة أبوية قائلاً: «صدقنى يا فاروق عندما تصبح رجل أعمال فعلي وتخرج أموالك إلى البنوك لن

تحتاج أمثالي ليحموك.» وصل الحديث بعد ساعات إلى حميمية وفرحة منبعثة من عين اللوء صديق. وظهر كيف يعشق المحافظ استخدام الكلمات الفاحشة في الحوار وانعطف الحديث معظمه بعد ذلك في سرد النكات الجنسية من اللواء.

اتفق فاروق على المجيء المتكرر إلى الغردقة فلا مجال للانتظار. رجع فاروق القصير ليلا. أهم ما حدث اليوم بالنسبة لفاروق أن منصور لم يعرف أن هناك أموال وبقي السربينه وبين. امه. وقد اكتشف أن المحافظ لم يطلب أي شيء من الباطن لنفسه. فقصة الفندق ليست كلها شرفسوف يمتلك أرض شاسعة ويستطيع أن يتمتع بامواله. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليّة أن الله هو الغفور الرحيم.

\*\*\*\*

قبل وصول الاتصال من فاروق ليضمّنهم عن أحواله. كانت سيدة الحلبيّة بثت السكينة في نفس الحاجة منيرة. ادخلتها حجرة الضيوف الخاصة بفاروق وامرتها أن تفك كيسها وتنظر في الودع لتعرف مصير مستقبل ابنها الأكبر. بالطبع كانت هناك معلومات قد وصلت إلى أذن سيدة بمقابلة فاروق للمحافظ. مثلها مثل الكثيرين في المدينة الصغيرة. فرمت ودعها في الطبق الرملى ومع بعض الشفافية التي لديها وسمات الاستنباط التي تتميز بها من أي معلومة تمتلكها. ادارت شكل الودع كما تريد. ف اشارت إلى الودعة الأكبر التي اتكت عليها ودعة صغيرة

بأن هناك شخص ذو جاه وسلطة سوف يساعد ابنها الأكبر وأنه سيكون ظهرا له ويسانده في كل الملمات. وباقي الودع ما هم إلا حساد لابنك. وجمعت الودع في يديها ورمته أكثر من مرة وفي كل تشكيلة له على الرمل كانت تؤولها بنفس التفسير الأول. حتى ات الاتصال من فاروق. فاستبشرت خيرا الحاجة منيرة بسيدة الحلبية وأنها فعلا تعرف قراءة الطالع واعطتها مبلغ من المال واطعمتها في هذا اليوم وأوصت بهيئة وجميع بناتها بأن لا يخبروا فاروق بمجيء سيدة الحلبية. وكانت ذات صرامة وخشونة في هذا الطلب حتى يعلم الجميع أنه إذا علم فاروق بذلك فسوف تكون شديدة القسوة مع من تخبره. فرسالتها وصلت للجميع وتكتموا الخبر فلا أحد يستطيع الخروج عليها. فهي الشخصية الثانية في البيت في الأهمية. ويرجع السبب إلى السر الذي بينها وبين فاروق ولا يعلم أحد أن هناك سر. فالكل يردد أن فاروق وأمه يجمعهم قلب واحد. وهذا غير حقيقى لو كانت هناك محبة فإنها من الأم لابنها وهي فطرية لا أكثر. فلا قدر للمحبة في هذا البيت. وبعد أن امضت سيدة في الجلوس مع الحاجة منيرة عدة ساعات دون أي منغص وقصت عليه أنها ساعدت امرأة من بيوت الصعايدة منذ عدة أيام على الولادة. ات لها الطلق في وسط الشارع أثناء سيرها فكانت قريبة منها. وكيف وصل خبر الولادة سريعا إلى تركية المولدة وتأكد لها أنها امتعضت من ذلك عندما قابلتها في السوق فلم تكن معها لطيفة كما اعتادت في السابق. فضربتها الحاجة منيرة على صدرها ضربة غير موجهة وهي تضحك قائلة:

«لابد أن تكون معك شديدة لأنك تحاربيها في عملها. وكيف لك أن تعرفى كل هذه الأشياء يا أيتها الليئمة». بادلتها سيدة الضحكات وهي متفاخرة بما قالت الحاجة منيرة. ثم أخبرتها أنها عليها أن تغادر لأن مع العصر سوف تذهب الى البحر مع أمهات قد ختن بناتهن وأنها وعدت إحداهن بأن تأخذ بنتها بدلا منها لظرف يمنع الأم من الذهاب إلى البحر. فلا بد لحمل البنات الصغار لعدم قدرتهم على المشى. بسبب الجرح مكان اتصال الجزء العلوى في فروج البنات، فاتسعت حدقات عين الحاجة منيرة بطريقة فكاهية قائلة: «ولك أيضا في طهارة البنات، تركيبة لن تترك يوم آخر في القصير». فأنكرت سيدة وهي تكتم ضحكاتها بأنها ليست الفاعلة.

اتجهت سيدة إلى بيت صفية على البحر لتمكث فيه حتى العصر. فواحدة من البنات المختنات هي حفيدة لها. وإن كانت ما زالت حزينتة من هفوة لسان صفية أمامها عندما تكلموا عن زينات في نفس الليلة التي حدثت فيها الفضيحة. فقد أخبرتهم صفية أنها لا تتوقع أن تعاقب زينات من قبل أهلها بعد الطلاق الحتمى من زوجها لأنها تظنه من الحلب. والوحيدة التي شعرت بأنها أخطأت في حق سيدة هي صفية نفسها. أما بناتها وبعض السيدات الحاضرات من الجيران لم يلاحظن مدى قسوة لسان صفية على الجالسة المتعبئة بالقرب منهم بعد يوم طويل أمام الفرن لعمل الخبز الخاص بالعيد. وفسرت سيدة ذلك بسبب الحنية والاهتمام الذي حل بصفية تجاهها بعد خروج الكلمة وانسحابها من نقاش

مسلى يجذب الجميع كالضوء للفرشات وتفضيل الجلوس بجانبها وفتح موضوع آخر عن جمال الفتاة السمراء رضىينة. بالطبع قد سامحتها فهي ليس لديها رفاهية الاختيار. فيكفيها إحساس صفية بالذنب وأنها أرسلت إليها أكثر من مرة بعد تلك الليلة لمجيء فهذا يكفي كرد اعتبار لشخص في مثل حالها. وعندما علمت ما جرى لزينات. قالت لنفسها كأنها تتكلم مع زينات «يا ليتك كنت من الحلب كما ادعت صفية». فلم يأتي صباح اليوم التالي لليوم المشئوم إلا وكان طليق زينات وابنيه خارج القصير في الاتجاه المؤدى الى القاهرة كما قيل. فقد طلقها في نفس الليلة. وتلق أهل زينات في الصعيد الخبر من شيخ البلد لقريتهم بعد أن علم بالكارثة من اتصال تليفونى من متطوع لا يعرف من هو. لزمت زينات بيتها وحيدة حتى أتت سيارة بها رجال على وجوههم الحداد ولا يريدون أي كلمات لتعزية. لم يختلطوا بأي شخص في المدينة. نزل كبيرهم في السن من السيارة ليدخل البيت ويخرج مصطحبا زينات في ثوب جنازى وشال أسود تغطى به رأسها. الصمت هو المتحكم في الموقف وسط نظرات الجيران وهم يشعرون بالعطف المفاجئ الذي امتلكهم. على عكس ما كان يملؤهم منذ عدة أيام من جلد سيرتها بسياط الشرف. وانتشر خبر بعد ذلك متوقع أن زينات لم تصل إلى قريتها.

احتضنت صفية سيدة عندما وجدتھا داخله عليها غرفتها. وداعتها وصرحت لها بأن لا تأخذھا على سقطات لسانھا. وبعد أن نامت سيدة وصفية في نفس الغرفة وقت الظهيرة المقدس

خصوصا في الصيف حتى أذان العصر. أيقظ سيدة صوت عزوز في الخارج وحركة أقدامه السريعة في الصالة قبل الأذان. فاعتدلت مستعدة لدخوله في أي وقت بلا استئذان فهي تعلم طباعه البربرية أحيانا. وأنه تحرش بها في البيت أكثر من مرة كأنه مراهق وتظن أن صفيّة على علم بصغائر زوجها الكهل. واستيقظت صفيّة مع صوت الأذان. شربوا الشاي أمام البيت واكتملت السيدات بناتهن وتسلمت سيدة بنت أكبر أبناء صفيّة وآخر العنقود له. فزوجته لا تستطيع الذهاب معهم بسبب ملازمتها لزوجها الذي تتدهور حالته ويجد صعوبة في السير والحديث. يزداد مرضه سوءا مع مرور الأيام. حملت سيدة الطفلة وانطلقت في السير مع الباقيين سوف يذهبن إلى شاطئ لا توجد شعاب مرجانية داخل مياه حتى يجلسن البنات في الماء فيتم تطهير الجرح. المكان الوحيد في المدينة بهذه المواصفات هو المنطقة بين بيوت القصيرية والعدوة. ولا يسكن على شاطئها أحد لأنها مصب لمياه السيول لذلك ماتت كل الشعاب المرجانية بسبب المياه العذبة التي تأتي كل بضعة سنين وتختلط بمياه البحر المالحة. ووضعت البنات في الماء بملاسهن ولو مر أجنبي عن بلادنا وشاهد البنات لظن أنهن معاقات لا يستطعن السير والحركة. بالطبع كل الأمهات نشطت ذكراتهن بهذا الحدث فاخذن يسردن عن الماضي ومن ختنهن ومتى كان وأخذن يتذكرن بعض الذكريات. كلهن ذكرياتهن متشابهة إلا من اختلافات بسيطة قد تكون في عمر الختان أو كيفية الجرح.

بالنسبة لسيدة فهي مختلفة عنهن تماما. فعندما تزوجت. في أول ليلة اكتشف زوجها أنها غير مختنة. لا تستطيع أن تنسى وقع الصدمة على وجهه وكيف أن هياجه في هذه الليلة خمد فجأة على عكس المتوقع بعد الذي أظهره في كيفية البدء، وهي لا زالت في ترقب ورغبة مشتعلة في كل جسدها. فسبها وسب أبوها وجميع أهلها. ولم يلمسها لمدة أسبوع وهو متعفف فيها حتى وثب عليها في نهاية الأسبوع الأول بطريقة حيوانية دون رغبة. فقد علمت بعد ذلك أنه أراد فقط معرفة أنها عذراء أما لا. وبعد مرور شهر على زواجهم اصطحبها في عربة ليست من القرية يجرها بغل حتى وصلوا إلى قرية تبعد مسافة بعيدة جدا عن بيتهم وادخلها على امرأة قوية البنيان لن تنساها أبدا وبمساعدة أخريات تم الختان لها وهي فتاة كبيرة. لم تصرخ ولكن أنت كمدبوحته. تلوت على الأرض الترابية من الالم. دموعها نزفت بغزارة من عينيها ورجعت في نفس العربة وهي تستند عليه بيد والآخرى جعلتها خارج كم جلبابها كأنها مقطوعة الذراع لتمسك بقطعة قماش على الجرح بيدها أسفل الملابس. تمت كثيرا أن تفقد الوعي وهي في العربة ولكن الحظ لم يسعفها. وعندما وصلت البيت ليلا حملها مخبرا ابنه المستيقظ الذي قابله في البيت أنها قد تعرضت للحادث أثناء زيارة مقام السيد عبد الرحيم في قنا وهو يلعن خروج السيدات من بيتهن. واعتبر الابن وباقي أخوته عندما علموا من حمل أبوهم لها بأن العروس تتدلأل على أبيهم لصغر سنها. واستمر الزوج دائما يعايرها بذلك

لأنه أكرمها بتطهيرها الواجب على أبيها وأنه فعل ذلك حتى لا تسيطر عليها شهوتها فتفعل شيء يجلب العار. وأنه لديه أبناء ذكور فمن غير الختان قد تتهجم على أحدهم. يالها من ذكريات سيئة ولكنها قد تكون أسوأ لو علمت سيدة أن ما فعله زوجها وما تفعله الأمهات جريمة في حق أي انثى. ولكنها لا تعلم وتعزى نفسها بأنه فعل الصواب وإن كان قاسيا. فالقسوة بالنسبة لها هي الطريقة وعدم الاكتراث بألمها بعد ذلك. أما الختان فهو بالنسبة لهن شيء ضرورى. نابع من الدين وكل المشايخ ينصحون به. وكما يقولوا المهم هو أن تشعر بالظلم، فكثيرون يظلمون ولا يشعرون أنهم يتعرضون للظلم. الطفل في المدرسة يضرب وهو مقتنع أن ذلك ضرورى ووالده ومدرسه ودولته. طفل يعمل من نعومة أظافره فهذا شيء جيد لجعله رجل قوى يتحمل الصعاب. قراءة الكتب والروايات مضيعة للوقت لأنها للأشخاص غير المشغولين بأمور الحياة. إن كنت لا تدرك فلن تتعذب كثيرا في حياتك. الجهل نعمة أحيانا لتعيش ضمن القطيع.

\*\*\*\*

من بعد رحيل رضىينة أصبح فريسة إلى الهم والغم نتيجة ما يحدث حوله. حامد مثل عبوة بلاستيكية فارغة مغلقة، بفعل الأمواج انحصرت بين صخور وأصبح مصيرها معلق لا الموج يسمح لها بالرجوع ولا الصخر يجعلها تمر فوقه لتخرج إلى الشاطئ ولا الغطاء المقفل يسمح بتسرب الماء داخلها حتى تستقر في القاع.

لابد عليه أن يتحمل دفع الماء وصلابة الصخور هذا موطنه الأخير. كلما اختلط بمنصور يشعر أن روحه تتأذى ويستقبل من نظرات عينه ورنين كلماته طاقات سلبية تنهكه. يعلم تمام أن صديقه الدكتور سراج لا يطيق منصور مثله ولكن يمنع الاثنين الحياء عن التوقف عن الذهاب إلى البحر معه. لأنه كان ذو فضل عليهم من أيام أبيه الصول ناصر بأن يسمح لهم بالمبيت على البحر دون تعقب أو قبض من قوات حرس الحدود لمنعهم التام لأي شخص بأن يوجد على البحر من بعد غروب الشمس. وبعد أن تطورت علاقات الدكتور سراج في القصير من خلال إقامته الدائمة فإنه لا يحتاج إلى منصور ولكن ذكر منصور الدائم إلى أنهم لا يحتاجونه وتلميح أنهم يستطيعون أن يذهبوا دونه جعلهم أكثر تمسكا به قد يكون ليخبروه أنهم ليسوا مثله. والسبب الثاني أنهم يفضلون الكيلو خمسة جنوب القصير وهذا المكان يعتبر منصور وقريبه عم سمير هم الأقدم. وفي أول ليلة صيد لهم بعد عيد النصف كانوا جميعا على البحر وبالطبع كان منصور محمل بأطنان من الحكايات عن ما فعله. وبسبب إلحاح سمير قريب منصور من جهة أمه الحاجة منيرة وهو رجل متقارب السن مع الدكتور سراج ولكن يبدو أكبر سنا. حكى لهم منصور. لم يعلق حامد ولا الدكتور سراج واختفوا في ظلام الليل. ويونس يسمع ويضحك ضحكاته المكتومة وهو يدفن قدميه في الرمال. استغرب منصور لعدم خروج كلمة من فم حامد وحاول أكثر من مرة أن يسحبه سحبا إلى الحديث.

فكان يرد عليه ببعض الكلمات المقتضبة التي لا مجال لرفضها مثل «أن الله حليم ستار». ومن حسن حظ حامد أن كلمات منصور تجعله يتركهم للحظات ويسرح بذهنه إلى ما جرى في مكان عمله والنقاش الحاد بينه وبين زملائه في العمل عن هذه الفضيحة لذلك لم ينتبه إلى بعض تلميحات منصور الموجهة له. بأن زوج زينات ضعيف جنسيا وكان عليه أن يطلقها قبل أن تفضحه مسترجعا من الماضي القريب نهاية علاقة فاطمة بحامد والشائعات التي دارت حول أسباب الطلاق. فقد حاول حامد أن يجعل زملاء العمل يقتنعوا أن زينات لم ترتكب جريمة ولكنهم كانوا يثوروا عليه كأنه اتهمهم في شرفهم وأكثرهم حمل في قلبه ضغينة له وخيبة أمل فيه بسبب رؤيته المختلفة لما حدث. وفي تلك الليلة كل ما سمعه من مفجر الفضيحة وراعية الأول تدينه ولكن لو كانت هناك دولة له سلطة قانونية. اقتحموا بيت ودخلوه عنوة. وجعلوا لأنفسهم الحق في الضبطية القضائية. والشرطة أتت ولكنها بزى فتوات. هل القانون يعاقب على تواجد شخص مع شخص آخر في بيت أحدهم. ولماذا لم يتوقف المأمور ورجاله عند ماهية الجريمة وشكلها. الكل استلم تلقائيا أمر ممارسة الجنس بينهم كأنهم كلهم سمعوا آهات زينات وراوا الإيلاج. حتى ممثل العناية الإلهية الشيخ هارون لم يبحث في كتب الفقه التي يفتخر بأنه يحفظها عن ظهر قلب. الأمر كان ذكوريا باقتدار. أنثى في بيت ذكر غريب. انتهى. حرب ضروس تطحن داخله. ماضى قوى متشبث بجذوره مع مستقبل باهت لم

يظهر بوضوح بعد. خفف من حرارة الوهج في روح حامد عندما تجاور مع الدكتور سراج على طرف الريف البحري أثناء الصيد في تلك الليلة وأبدى رأيه قائلاً: «لو كان القانون هو الذي يحكم لكان منصور وأصداؤه في السجن على الأقل لمدة عام».

بالطبع هو يريد أن يرى من مثله. هل هو مجنون؟ هل فقد عقله؟ ما الذي يجعله يتوحد مع أم أشخاص لا يعرفهم ولا هم يعلموا أنه يتالم بسببهم. هل يبحث عن مدينة فاضلة. ما الذي جعله يبكى بشدة عندما وصل له خبر أن زينات قد تكون قتلت ودفنت في الصحراء بين القصير وقفط برعاية مجتمع فخور بشرفه وعصابة تحكم هذا المجتمع وتشاركه نفس الفخر. هو لم يقابله في سيره في القصير إلا مرات قليلة حتى أنه يأخذ معظم ملامحها من من يصفونها. فوجهها تشكل داخله منهم وليس من المرات القليلة التي صادف رويتها. أنه ينجذب نحو كل مستضعف. شعوره بالذنب لا يتوقف. ذنب لم يقترفه. لا بد أن يعتذر عن أخطاء لم يرتكبها. فأصبح أكثر مودة ورحمة مع كريستينه وسيدة الحلبية، فالاثنان يمثلان بالنسبة له امرأتان حظهم العاثر قذف بهم في موطن شديدة القسوة فالأولى مسيحية والثانية لا أصل لها. فالاثنان مهما فعلا من الخير فهم في النهاية من ضمن المنبوذين. كلما وجد الفرصة يقول لهم متأسف بطريقة غير مباشرة. فكان يشكر في كريستينه لدى الدكتور سراج بداعي أو دون. ويغتنم الفرص بين من يعرفهم ليوضح مدى أخلاق كريستينه الملائكية. ولا يجد سيدة الحلبية في السوق

أو الشارع إلا ويقف ويسلم عليها ويساعدها أن أمكن. وكان يتعمد إظهار ذلك في أثناء تجمع الناس في وقت العصرية أمام خزان الماء الكبير الخاص بالعوينة بجوار سكنه السابق ليأخذ كل واحد حصته من الماء وهي عبارة عن نصف صفيحة من الماء يوميا لكل شخص أي عشرة لترات. فكان يصر على حمل الصفيحة بدلا منها ويوصلها حتى بيتها الصغير فوق هضبة مرتفعة. وعندما يعود يتلقى كلمات العتاب من الأصدقاء والمعارف التي يكون ظاهرها رحمة به ولكنها تفوح منها روائح كريهة. من أمثال أن الحلب أقوياء وكان الأجدر أن يساعد بنات بلده أفضل. أو تعب عليك صعود الهضبة. أو كيف لعبادي ذو أصل يحمل لمن ليس لها أصل. كان يفعل ذلك ليذلهم ويثبت لنفسه أنهم أحيانا أشرار ولكن لا يشعروا. فهذا الكلام يسمعه أيضا عندما يطعم القطط حول بيته. القطط أقوياء والله متكفل بهم. الأجدر أن تطعم الفقراء المحتاجين، أليس تعب عليك أن تصطاد للقطط. تكفيه نظرات الامتنان من سيدة الحلبية وهي تمشى بفخر وراءه. لقد أصبح لها ظهر في البلد. فمن بعد أن زادت علاقته بها من كثرة لقائهم عند صفيحة أم يونس لا ينساها أبدا عند رجوعه من البحر في سمك من ما يصطاد حتى أصبحت تتذوق لذة العطاء بسببه فتعطى ما تأخذ منه لغيرها لكثرتة. اتبع نصيحة فضاية بأن يقلل من كلامه عن ما يدور في خاطره مع الناس ولكن لم يستطع أن يكبح زيادة كره للمجتمع وأن يعطيه العذر إلا عندما حدثت له حادثة هدأت من أفكاره الشرسة التي كانت

تدور في رأسه واستهلكت وقته في التخطيط. فكان يحلم أحلام يقظة بأن يخطف منصور وهو متخفى عنه ثم يقطع لسانه أو يغتال مأمور القسم أو يجعل الشيخ هارون يمشى عاريا في القصير. كانت الحادثة بانه في ذات يوم كان قادما من عمله وهو يرتدى زى عمال بخطوط فسفورية ناحية الصدر والساق أهداه له الدكتور سراج فقد تحصل عليه من أحد مهندسين قطاع البترول في مدينة رأس غارب شمال البحر الأحمر. وأثناء تخطيه منطقة الملاحه متجها إلى الشاطئ حتى يمشى بمحاذاته ليصل إلى العدو. وأثناء مروره بين الملاحه وملعب لكرة القدم الخاص بنادي شبان المسلمين الذي دون أسوار. وجد كلب قد علق في شباك المرمى وقد شاركه بعض الصبية في مشاهدة هذا الحدث فكلما اقترب حامد والصبية لرمى زادت حركة الكلب ذعرا فتزيد عقده وارتباطه بالشبكة كأنه سمكة. حتى أصبح الوضع خانقا بالنسبة للحيوان المسكين الذي لا يعرف أين المفر. يرى مجموعة من الثدييات قادمه نحوه يعرف تمام مدى سخافتها وشرها وشبكة تصر على عدم رحيله. فكلما يقطع عقدة بأسنانه يجد نفسه فعل عقدة آخره بحركته الغير مدروسة العشوائية. سيطر حامد على الصبية حتى لا يزعجوا الكلب أكثر. وجعلهم يبحثون له عن أي شيء حاد يقطع به الحبال. حتى وجدوا زجاجة فارغة فكسرها واتخذ بالجزء الحاد منه سكين وأخذ يقطع حول الكلب بحرص وانتباه شديد فالكلب يقطع بأسنانه الحبال وهو مرتاب بشدة من حامد وأن طال يده لعضها.

حتى خلصه حامد نهائيا من الشبكة. فانطلق الكلب مسرعا مبتعدا وهو يوجه رأسه ذات الأنياب الظاهرة مع النباح إليهم حتى لا يركضوا ورائه فهذا ما يتوقعه منهم. ولم يمر يومين على هذا الحدث وفي نفس توقيت رجوعه اليومي. يمر على كلب نام في ظل شجرة نخل بالقرب من الشاطئ فيستيقظ الكلب منفعلا متوجها إلى حامد يريد مهاجمته ولولا عدم خوف حامد منه لكان الأمر تطور فانسحب الكلب مهرولا بعيد. أنه هو نفس الكلب الذي ساعده ولكن من يستطيع أن يفهم هذا الحيوان المسكين أنه كان يمد يد المساعدة له يومها. وهل هذا حجة لحامد ليوقف يد الرحمة إلى الحيوانات. كانت إشارة مؤثرة له. وجعلته ينتبه لنفسه أيضا ويسقط ما حدث عليه. اليوم يسخر من أمس وما المانع من أن يأتي غدا ويرى نفسه ضئيل. طالما بدأت تزيح الأتربة عن ما في ذهنك وأصبح الضباب أمام عينك ليس بالكثافة السابقة وسمح لعينك أن تشاهد بعض النور. اخرج بعض الشمع الذي يسد أذانك فاستمر. ولا تجعل كرهك لأمس يوقفك. نعم استغرب واضحك. ارتاح شيء داخله وتمنى أن يصل إلى منطقة الدكتور السراج التي تجعله لا يكون شديد الغضب من أفعال من حوله.

\*\*\*\*

قرر أن يقضى يوم جمعة عند فضائية. فقد لاحظ أن عينيها في الفترة الأخيرة ضعفت ولكنها تكابر. فزاد تحسسها

لوعاء الطعام بيدها الدقيقة أثناء الأكل. وبدأت تأخذ صفات جديدة عليها بأن تمشى ببطئ ولا تتخلى عن عصاها التي كان عملها الوحيد في الماضي الاتكاء أو قيادة الغنم أما الآن فأصبحت كقرون استشعار لحشرة ليس لها عيون. وأصبحت لا تتسرع في اسم القادم إليه إلا عندما يقترب ويتكلم. أخذ معه علب سجائر محلية الصنع لها. لا يدخن ولكن يعشق دخان السجائر لأنه ارتبط عنده بالجلوس معها. سيحضر أخواته وأبنائهم وبعض أعمامه وأقاربه يوم فرجه بعد شهر رمضان. يشعر أحيانا بالانزعاج لابد ألا يصل إليهم أنه قد تغير. أنه ليس حامد الذي عرفوها ولكن كيف يرجع إلى الوراء. اشتهر بينهم بأنه قصاص ذو ذاكرة تحمل الكثير. عندما كان صغيرا في أول العشرينيات من عمره كان يفضل بعض أقاربه الكبار في السن أن يصطحبوه معهم في سفرهم لكي يؤنسهم فعادة العبادة أن يطلبوا من الشخص ذو اللسان الطليق أن يتكلم بالحكي فيقولون «هَرَجْنَا» أي انطلق بالحديث في أي موضوع تختاره. ودائما يكون هذا الشخص لما يعرف ما يختار لكل شخص أو مجموعة. فالأهواء والأذواق تختلف. معظم الروايات التي في ذاكرته قد توقف عنها ليس بسبب أنه نسيها أو اختلطت في ذهنه ولكن اكتشافه أنها أساطير الأولين. كيف يخبرهم بنفس الحماسة والفخر بأن الدم ما زال على الأرض بلونه الأحمر في مكان الحرب القديمة التي سميت بحرب البقارة بين العبادة والمهاجمين على الحدود المصرية القادمين من السودان. كيف

يقص عليهم بنفس الروح والقلب المصدق أن هناك قبائل نمم  
قادمه من ادغال افريقيا تصل إلى القصير وهي متخفية في  
الصحراء لتخطف بعض الناس والحيوانات وتاكلهم. ماذا يقول  
في أمر السلحفاة البحرية المرصودة بالسحر ومن يقترب منها سوف  
يتأذى مثل كثيرا من الناس حاولوا اصطياها واقتنعوا بمدى  
تأثير السحر عليهم ومؤمنين بذلك. حتى نشوة صلتهم بالجدور  
الآتية من الجزيرة العربية ونسبهم إلى الزبير بن العوم أصبح لا  
يصدق ولا يقبله منطقهم ويرجع ذلك إلى نزعة دينية جعلت  
كل مصر شقة فارغة سكنها العرب القادمون من الجزيرة.  
فالكل أشرف أو جعافرة أو هواره أو عبادة أو بشرية سكنوا  
الأرض الفضاء. بالطبع سوف يصمت وسوف يجاريهم في المعقول.  
يراهم الآن ويشاهد في عيونهم خيبة الأمل على الفتى الذي عرفوه  
في الماضي.

وصل إلى عشة فضائية فوجدها جالسة في أول عشة. جلس  
بجوارها وقبل رأسها واستنشق رائحتها العتيقة المختلطة براحة  
دخان الحطب. ما زال الوقت مبكر في أول ساعات الصباح. دبت  
في فضائية نشاط واضح. فقد أخبرها أنه سوف يقضى معها اليوم  
كله. فشعرت بالجوع عندما ذكر له أنه يريد أن يطهو على  
النار عصيدة باللبن الحامض. فساعدها للقيام والجلوس بجوار  
موقد النار الذي جعله في منطقة ظل. أحضر الدقيق وأخذ يضيفه  
بحرص على الماء المغلى الذي به قليل من الملح مع التقليب المستمر  
حتى تصبح العجينة متناسقة كتلة واحدة ولا تلتصق بالوعاء

وبعد ذلك وضعها في طبق كبير ذوقاع عميق وجعل العجينة على نفس شكل الطبق وصب في المنتصف اللبن الحامض وأخذا يقطعاً بايديهما العجين من الأطراف ويغمساه في اللبن في الوسط. وبعد أن أكلت أشعل لها سيجارة. وانطلقت الأحاديث والضحكات بينهما وهي تتمنى ألا يأتي أحد زائر في هذا اليوم. فإنها تريد فقط ابنها. أصر عليها أن تأتي معه للصيد والوقوف بجانبه فالحرقد انحصر مائه تماماً. وأخذها إلى مكان به صخرة تظهر فقط في لحظات ظاهرة الجزر الشديد حتى تجلس عليها بالقرب منه. وقت الظهيرة عندما تكون الشمس في المنتصف لا يأكل السمك على عكس توقيت الغسق والشفق. فقرر حامد وهو يداعبها قائلاً: «سوف نشوى سمك الفقراء على الغذاء فهو كثير مثل العباددة في كل ركن». ضحكت فهي تعلم على أي نوع من الأسماك يقصد. سمك «السحل» كل واحدة تزن على الأقل نصف كيلو. وله طريقة سهلة جداً للصطياده بالنسبة للصيادين. أن يربطوا ثلاث صنارات مقاس ٩ أو ٨ مع بعض على شكل هلب ويضع فوق الصنارات بعض حشيش البحر المنتشر باللون الاصفر الغامق فيندفع هذا النوع من الأسماك على الهلب مثل اندفاع الدجاج إذا نثرت بعض حبوب القمح أو الأرز امامه فوق الارض. وما على الصياد إلا أن يشد الخيط بسرعة وقوة إلى أعلى حتى ينغرز إحدى أطراف الهلب في جسم أي سمكة من المتجمعين حوله. هذا الأسلوب على الرغم من بساطة شرحه يحتاج إلى قوة ذراع وخشونة كف يد وسرعة اداء وما هي إلا دقائق حتى اصطاد

حامد أربعة منهم واكتفى بذلك. وقبل أن يخرج إلى الشاطئ أخذ يجمع لها البصر الذي تحبه ولكن ضعف العين لا يمكنها من جمعه بسبب أنه يحتاج إلى قوة نظرفي استخدام سيخ معدنى، لغرزه في وسط القوقعة التي يكون شكلها مثل شفاف ذات الألوان الجميلة فيجب أن تكون اليد سريعة في ادخال السيخ بين الشفتين قبل أن تغلقها ومع قليل من الحركة يمينا ويسرا تترك القوقعة الأرض الملتصقة بها ويتم استخراج اللحم من داخلها بواسطة سكين ويد مدربة على ذلك بأن يدخل السكين من الجانب الخلفى للقوقعة ليقطع جزءين للكائن البحرى متصلان بالقوقعة لتفتح بعد ذلك كدلفتين لباب والا فقد يحتاج المرء الغير خبير إلى وقت طويل في واحدة. أما حامد فقط جمع لها في ساعة واحدة حوالى خمسين قطعة من خمسين قوقعة. ورجعا إلى الموقد المشتعل دائما ورمى فيه بعض قطع من خشب السائلة حتى انطفت النار وبقي التوهج فقط ثم وضع السمكات الأربع فوقه . وأثناء شواء السمك . تذكر الدكتور سراج مخبرا فضائية بأنه يسلم عليها كثيرا. وأنه اكتشف أنه يأكل السبيط والأخطبوط. تضاحك الاثنان وقالت فضائية: « طالما النفس يدخل ويخرج سوف نرى أكثر من هذا». في هذا الوقت لا يأكل السكان المحليون السبيط والأخطبوط. يعتقدون أنها فقط طعام للأسماك. ومع إصرار الدكتور سراج وثقة حامد فيه أكل معه ولكن كان تقبله للسبيط أسرع من الأخطبوط. وسرح حامد في أمر السمكات التي يشويها. قد يكون هناك طريقة أفضل

لتصبح هذه السمكات اشهى وتباع. وحفز تفكيره مادام أن السبيط غالى الثمن في بلاد أخرى لأنهم علموا كيف يطهوه. وقرأ قبل ذلك أن سكان جبال الالب يضعون لحم نوع من حيوان الایل في عصير التفاح لمدة ثلاثة أيام ليصبح طعمه اشهى والا لشعروا بمرارة في لحمه. «اه لو وقع تحت يدي معلومة أو تجربة بالصدفة كاكشاف النار في الطهى للإنسان القديم، تجعل السحل اطعم من الناجل لأصبح البحر الأحمر ثروة لا تقدر بسبب كثرة السحل». قضى وقته بعد الغذاء في شرح ترتيبات الفرح وماذا سيفعل بالأغنام القادمة من حفايت. واعرب عن قلقه في تعثر عم فراج في إرسالها قريبا بسبب الموصلات.

\*\*\*\*

وصل ما كان ينتظره حامد من حفايت. مع رسالة شفوية بأن هناك المزيد من الأغنام ستصل تباعا. لم يضيع حامد وقته. أتى ببعض الأشخاص الذين قد اتفق معهم سابقا لشراء ما قد يصل. لم يعجبهم أن حامد أعطى لهم ميعاد واحد. وتم البيع لحامد مع بعض المشاحنات المعروفة في البيع والشراء لم يكن حامد طرفا فيها. وقد استفاد من مجيئهم سويا بسبب إظهار كل منهم الصلاح على الآخر. وعدم الخداع وكشف كذب أحدهم إذا عاب شيئا. وإن كان قصد حامد هو الأسراع في عملية البيع لا أكثر. اتم في الأيام القليلة السابقة لشهر رمضان أعمال البناء الناقصة للخزان المياه الأسمنتى سعة الطن الواحد وتوصيل المواسير. وكان دافع الأسراع هو اليقين الذي تربي داخله من ما حدث بالعام السابق

عندما بدأ في بناء البيت قبل شهر رمضان الماضي بعدة شهور قليلة وما عاناها عندما بدأ شهر الصيام. بأنه لم يجد كثيرين يفضلوا العمل في هذا الشهر ومن وافقوا على أعمال البناء معه كانت مأساة. مع أن كل من كان في موقع البناء معه قبل بدأ الشهر كانت كلماتهم تراثية يحفظونها ويرددونها دون تفكير «شهر رمضان أنه شهر العمل والإنتاج والجهد والعرق». ومنهم من كان يزايد أثناء وجبة الغذاء واللقمات يلوكها في فهمه من جنب إلى آخر بأن في هذا الشهر القادم- يقصد رمضان- تاتيه طاقة اضافية لبذل مزيد من العمل وهناك أعمال صعبة لا تتم إلا في الشهر الكريم. وإذا كانت لك ذاكرة متوسطة وبحث عن نفس هذا الشخص في نهار رمضان ستجده متجهم لا يطيق ذبابة تمر أمام وجهه حتى ولو لم تقف على انفه. ومع تذكر ما أخبرك به في السابق قد تظن أن ذاكرتك قد خانتك وأنه ليس الشخص الذي قابلته من قبل. نترك أمر هذا الرجل المجازي ونرجع إلى حامد. الذي لم تكن عنده أمور مهمة قبل فرحة في شهر اكتوبر القادم غير التي أتمها في بيته. قلل ذهابه للبحر حتى لا تجف بشرته من أثر الماء المالح والشمس. وكان بعد أن يأتي من عمله وينهى استحمامه بذلك جسمه بزيت الزيتون حتى تنعم بشرته. وأصبح مواظبا على استعمال الليفة الخشنة. وقد قرر أن يترك لحيته دون حلاقة من منتصف شهر رمضان حتى يحلقها قبل يوم فرحة بيوم ليزيد بريق وجهه يوم زفافه.

\*\*\*\*

ما من مرة دخل الحمام ليستحم أو خلع ملابسه إلا وتذكر  
رضينة وسرح خياله في حظه السعيد القادم مع هذه الجميلة  
الصحراوية. لم تكن له في الماضي غرام وقصص مع مثيلاتها.  
جعل الأمر مشوق مع سياط من لهب الغريزة يقلق منامه كثيرا.  
كانت الأيام القليلة قبل رمضان يقضي أمسياتها مع الدكتور  
سراج في منزله. أصبح يشاركه كاسات النبيذ الأحمر التي  
يفضلها الدكتور سراج. بدأ حامد شرب النبيذ عندما ذهب مع  
حسان إلى القاهرة في زيارته السابقة التي كانت عديدة  
ومتقاربة في توقيت الرجوع من القاهرة. حامد لا يدخل ولم  
يستطيع أن يستمر في التدخين بعد عدة تجارب فاشلة مزقت  
رثيته. ولكن جلسات الهوى والانس لا تستقيم دون مساعدات  
خارجية تغزو العقل تخرج منه متاعب وهموم الحياة مؤقتا لتتيح  
لصاحبه أن يجرع رشقات من السعادة. لذلك أبعث الحشيش من  
اختياراته بسبب عدم تحمله الدخان ولم تعجبه أيضا لسعات  
الويسكي ومرارة البيرة في أول رشقاتها للمبتدئين. فتذكر  
مشروب الدكتور سراج الذي لم يراه يتغير وجهه بالالم عند  
تجرعه فهمس في إذن حسان باسم النبيذ الأحمر. فاستحسن  
طعمه ورغب في التغير الذي يحدثه في مزاجه بعد عدة كاسات.  
وعندما علم الدكتور سراج شاركه في شرابه. بطبع كان  
سعيدا فشرب النبيذ ذو متعة خاصة مع رفيق وإن كان الرفيق  
مثل حامد يمكن التحاور في أمور عدة فهذا اروع. وهناك سبب  
خفى مريح لطبيب. أن حامد بدء شربه بعيدا عنه لأسباب خاصة

بهذا المنطقة من الكرة الأرضية. أولا شرب الدكتور سراج للبيد هو سر لا يعلمه إلا ثلاثة حامد ويونس وكريستينه. بسبب معتقدات دينية وتقاليد متوارثة. لفهم هذا الأمر أكثر. يجدر أن نعرف أن منصور وكل رفاقه وعزوز وكثيرا أمثالهم يشربون الخمر وأحيانا أمام الناس في الأفراح ويتباهون بذلك ولكن لا يصنفوا على أنهم اناس محترمون قد يكون طبيين أو محبوبين من الآخرين ولكن تنزع عنهم صفة الاحترام الداخلى من قلوب الناس. فهذا سكير. وأن أراد أن يثبت أنه إنسان صالح عليه أن يقلع عن ذلك. الدكتور سراج ابن هذا المجتمع ويعرف جيدا الاحكام المسبقة. فهو يعلم يقينا أن هذا المجتمع لا يستطيع أفراده أن يستوعبوا أنه يوجد شخص وطنى يشرب نبيذ أو إنسان خير لا ينتظر جنة من الله. أو أن سعد زغلول يقامر. وبسبب ذلك وأسباب أخرى معقدة فضل الدكتور سراج أن يكون ذلك بين من يعرفوه جيدا. وكان هذا خيار يفضله حامد أيضا لنفس الأسباب لا يريد احكام مسبقة ويكفيه من قد ناله من صحبة حسان في السابق. فحسان حريص على معرفة الناس عنه أنه إنسان يفعل جميع الموبقات فهذا فخر له. وبالرغم من وصايا حامد له بأن لا يخبر كل شخص يقابله في القصير عن حامد وماذا فعل. إلا أنه كان يتخلص من هذه الوصايا بأسلوب به خسه ووضاعة. فكان يخبر زملاء العمل بكل شيء ولكن بطريقة غير مباشرة فعندما يسأله شخص هل حامد كان يشرب معك في البار في القاهرة أو حامد له

علاقات بنساء. فكان يتجههم بطريقة مفضوح زيفها فيقول: «لو سمحتم ليس لي دخل بأحد». فتكون هذه إجابة وافية كاشفة لكل شيء ويستطيع أن يقسم بعدها أنه لم يفضح سر. وقبل رمضان بليلتين كان حامد ويونس ضمن الواقفين على سلالم الموديه إلى شقة الدكتور سراج بسبب التكديس في الصالة من الأطفال المرضة المنتظرين الدخول هم وذويهم فاقتراب نهاية الصيف في أول سبتمبر وبدأ اختلاف الجو يصيب الأطفال عادة مع إضافة أشياء خاصة بالقصير مثل مياه الشرب السيئة وضعف المناعة لعدم تنوع الغذاء بالنسبة للأطفال لعدم وجود الخضروات والفاكهة بصفة مستمرة لذلك كانت أمسية عمل مجهده لدكتور سراج. ولكن عدد المرضى كان أقل من ما كان متوقع عند مشاهدة عدد المتواجدين. فكان هناك مجموعة من السيدات والرجال أتوا فقط لدفع ثمن كشوفات سابقة. فلقد اتبع الطبيب هذا النظام بسبب كريستينه فقد اشارت عليه بالامر. لعرفتها السابقة بأسلوب الحياة في هذه المدينة الصغيرة واكتسابها مهارات تجارية من أسرتها مع رحمة نابعة من داخلها تحف هذه المهارات. كريستينه ابنة رجل أتى من قنا وكانت هي رضية في وقت قدومه ليعمل في المنطقة التابعة للشركة الفوسفات في غرب المدينة على طريق القصير قفط تسمى البيضة. فاحترفت أمها بيع البقوليات والدواجن في المنطقة السكنية الصحراوية. وبعد أن نقلوا إلى القصير في نهاية سنوات أبوها في العمل تم توسعت العمل

التجارى ليضم أشياء كثيرة وكان النظام المتبع هو الدفع بالتقسيط لأن قليلا جدا من يمكنهم استخدام الدفع الفورى. فالكل كان ملتزما في الدفع الشهرى مع ميعاد صرف الرواتب فلا يستطيع أحد تحمل حرج أن يأتي التاجر إلى منزله والسؤال عنه. فكان عندما يروا الناس تاجر في شارع أو حارة يحمل دفترًا فهذا دليل واضح أنه ذاهب لبعض الأشخاص وكان لا يتم ذلك إلا إذا توقف المدان عدة أشهر ولم يأت ليقدّم الأعدار. أما إن كانت له سمعة طيبة سطرت له في الدفتر في أعوام سابقة تجعل احتمالية زيارة التاجر له أقل. وسبب قبول الدكتور سراج هذا العرض هو خيري تماما لم يظهر أمامه أي تفكير في الربح عند شرح كريستينه لمقصدها وقد شاركته كريستينه نفس المشاعر، فكان الأمر بالنسبة لها كيف تجعل الوضع سهلا على الناس فكانت هي من يستلم ثمن الكشف وحدثت أمامها مواقف عديدة مثل أن ترى بعض الكذبات البرئية لبعض الأمهات بأنها فقدت جزء من نقودها أو أنها نسيتها في البيت مع كلمات لكريستينه من نوعية لحظة سوف أرجع وأتى بالنقود. مع عين متوسلة بأن ترفض كريستينه ذلك وتدخلها للطبيب وتجعل ثمن الكشف لاحقًا. وبعد أن تم جعل الأمر في دفتر باسماء الأطفال. ظهرت فعالية ما توقعته كريستينه فقد زاد عدد الكشف لأطفال المرضى ونمت الفه بين الدكتور سراج وأهالى المدينة وخصوصا الأطفال وأمهاتهم وقد أصبحت ذاكرته مفعمة بحيوية مفاجئة قد بهرته هو شخصيا. فأصبح

يحفظ أسماء الأطفال وسكنهم وفي أي سن دراسى وأشياء من هذا القبيل. وبعد أن أنهت كريستينه وجود من أتى لدفع فقط في الوقت ما بين كل كشف واخر. قل عدد المتواجدين فأمكن لحامد ويونس بالظهور في صالة الانتظار متجاورين أمام كريستينه التي ألقت عليهم كلمات الترحيب السريعة الجادة. يونس جالس ممسك مسبحة وهو ينظر إلى الأرض تارة وعندما يمل يحدق إلى السقف تارة غير متوقف نهائيا في المنتصف فقد لمح بعض الأشقياء أصدقاء والده ويحاول ألا ينظر إليهم ولكن لا مفر. نادى عليه أحدهم بصوت مرتفع لا يناسب جلوسهم في صالة انتظار عيادة طبيب قائلا: «كيف حالك يا يونس؟». فالتفت إليه وهو يتصنع استغراب متكلف لا يليق بطفل يتظاهر بأنه فوجئ بالمدرس يطلبه لخروج إلى السبورة بأنه غير متأكد أن السؤال له. فنظر أمامه ليرد على السائل وهو يرفع يده التي به مسبحته محييا قائلا: «الحمد لله والعتب على النظر لم الاحظكم وأنا داخل من كثرة المرضى». فتكلم الآخر وهو ينظر لصديقه ساخرا: «نعم نعم فنحن لا نظهر جيدا وسط الأطفال». وكان يتجاهلها في بادئ الأمر يونس لأنهما سيصرا على إضحاكه فهما يعلمان طبعه جيدا. ولم ينقذه من هذا الموقف إلا كريستينه عندما أدخلتهما فقد أتيا في صحبة طفل لأحدهما. أما حامد لم يهتم كثيرا الحوار الذي دار بين يونس وأصدقاء أبيه فهو يعلم ما يرغبون فيه. فكان يتنقل بعينه بين بعض الأطفال ولولا المعتقدات الراسخة لدى

الجميع لكان باح ببعض كلمات اللطيفة لبعض الأطفال لكنه يعلم أن أمهاتهم وأبائهم لن تكون كلماته مصدر ترحيب بل ستكون مصدر غم وهم. الحسد من الأشياء التي يطوف حول اعتقادها كل أفراد المجتمع لا فرق بين متعلم وجاهل. فكيف لحامد أن يصرح لطفل أمام والديه أنه يملك عينين جميلتين أو هذا الولد يبدو ذكيا. فأى شيء سوف يحدث لطفل بعد هذه الكلمات سيتم إسقاطها على أنه حسد منه. فطبعي قد يتعثر الطفل وهو يمشى أو يصطدم بالمنضدة أو يشرق أثناء الشرب كل هذه الأشياء تحدث بالعشرات يوميا ولكن يمكن استخدامها ضد أي شخص مجامل. حتى أصبح الوضع صلبا بين الناس، جامدا، الكلمات المعيبة وقعها أفضل على متلقيها من كلمة رقيقة مجاملة. لا أحد يستطيع أن يقول لآخر أن هذا القميص مناسب عليك أو أن وجهك مفعم بالحيوية والنشاط اليوم. الكل يتشاءم من الكل. فلو كنت ممن يستخدمون الكلمات المجاملة للآخرين ستصبح على القائمة السوداء ضمن من يجتنبهم الناس حتى لا يحسدوهم. فكم من مرة أصر منصور على أن عدم اصطيادهم السمك في ليلة ما أو انقطاع خيط الصيد بسبب قوة سمكة ضخمة ما هو إلا عين حسد من شخص قد شاهدتهم وهم ذاهبون إلى البحر ويتم اتهام هذا الشخص، ويستمررون بعد ذلك في التشائم منه إذا قابلوه مجددا ولا يتذكرونه إلا في سوء الحظ وينسوه إذا كان الصيد وفيرا. حامد تذكر كل المتهمين في أنهم حسدة في

القصير. وجدهم كلهم متطفلين بسذاجة فقط. لذلك ينفرون منهم الناس. ولكن لم يجد واحدا يلقى الزهور بكلماته. فقائلا لنفسه «أظنهم كلهم خرسوا مثلى لنفس السبب، أن الحياة ستكون أفضل لو أن هذا المعتقد غير موجود الذي خرب عليهم حياتهم ونشر طاقات سلبية بينهم وهم لا يشعرون». وعندما أغلقت العيادة وأصبحت منزلا، جلسوا الثلاثة حول منضدة دائرية صغيرة. أثار حامد الأفكار التي جالت بخاطره أثناء الجلوس في صالة الانتظار على مسامعهم. فأخبره الدكتور سراج أن ابنته كانت من الشخصيات المهوسه بالحسد وهذا الهوس يختفى عندما تذهب إلى أمريكا ويظهر فجأة عند قدومها مصر كأنه شيء تركته في المطار وتسترده عند رجوعها إلى مصر. فكانت ترجع أي وكعة صحية تصيبها أو أحد أبنائها بأنها أعين الناس على الرغم من درجاتها العلمية ولكن هناك أمور لا يقدر المرء أن يتخلص منها بسهولة وتختلف درجة تجذرها من إنسان لآخر. وبعد انتقال الحوار من موضوع لآخر. أختفى الدكتور سراج للحظات داخل المطبخ وأتى وفي يده زجاجة النبيذ الأحمر. ذكرت الزجاجة يونس برمضان لأنها سوف تختفى طوال الشهر. اعتدل في جلسته وهو ينظر لحامد بنظرة طفولية قائلا: «من الغد نستبدل النبيذ بالقرفة». فابتسم الدكتور سراج لعبوس حامد الغير حقيقى ردا على كلام يونس وهو يشيح برأسه. بعد بضعة كاسات ظهر التورد على خدود الدكتور سراج. يعتبر حامد هذا مقياس لتوقف لأنه بعد

ذلك يبدأ يشعر باثر النبيذ المنعش داخله. يمتلك هذا الترمومتر الدكتور سراج فقط بسبب بشرة وجهه شديد البياض. وبعد انتهاء الأمسية من أحاديث مختلفة لا يشارك فيها غالبا يونس لا بالقول أو بالشرب. هو متعلق جدا بحامد منذ أن التقى به في القصير. يونس له نزعة دينية منذ صغره قد يكون من دفعه إليها شخصيته ومرضه. ولكنه ارتاح أكثر عندما اتخذ منهاجا عن طريق الضابط الذي ساعده لينهى خدمته في القوات المسلحة. كان ذلك الضابط متصوف فتلقف يونس بقلب مهيب، لما معه. لأن الطريقة النفعية التجارية لدين المنتشرة بين المعظم كانت لا تروق له عن غير قصد منه. إذا فعلت كذا لك عشرة درجات وإن لم تفعل يخصم من رصيدك. وأصبح الأمر كله تجارة يتباهون به. التزم بما أخذ منه من اوراد يكررها يوميا كما أوضح له حتى يرتقى في الطريق إلى الله ويسمو بروحه ولا يفكر في نار او جنة. وتعلم منه أنه لا بد أن ينشغل بحاله ولا يظن بأي شخص أنه سيء. ويجب الناس جميعا. لم يجد صعوبة في ذلك مع حامد وسراج وكثيرون غيرهم ولكنه كان يعاني من تقبل أشخاص من عينة الشيخ هارون المفروض عليه بسبب العمل. وترجع تلك المشقة إلى تطفل الشيخ هارون في خصوصية الناس فذات مرة منذ وقت قريب لهذه الأمسية وجده في المسجد جالس وهو يستخدم مسبحته في الذكر بصوت لا يسمع. فسأله بتهكم: «ماذا تقول يا يونس؟». فغلب على يونس جينات صفية وعزوز فرد بسخرية قائلا: «بسبس نو هذا ما أقوال».

فاغتاظ منه الشيخ وتركه متوعدا دون أن يفصح عما يضمرة له. بالطبع لم يرتاح داخليا يونس لقسوة رده ولكن لم يزعجه نهائيا ماذا سوف يفعله الشيخ هارون ضده في العمل. ولكنه يعلم مقدار الجدل الذي سوف يقيمه إذا أخبره ماذا يردد على مسبحته فيعرض الشيخ مرافعته بالآيات والأحاديث عن كفر ما يقوم به على المسبحة ويضطر يونس يقدم دفعوه من الكتاب والسنة وكل هذا لا يفضله يونس لأنه يؤمن أن كل إنسان ايمانه بقلبه وليس بعقلانية الأدلة والنصوص. أما حال حامد وسراج معه مختلف تماما. لم يسألاه ماذا يفعل أو ماذا يتبع حتى عندما دخل عليه حامد حجرتة ذات مرة في أول المساء ووجده مغمض عينيه جالسا على الأرض بضوء خافت من لمبة كيروسين وهو يردد كلمة واحدة يخرجها من بطنه لم تتضح بالنسبة لحامد. وبعد أن انتهى سأل يونس حامد: «لماذا لا تستغرب مما افعل؟». فكان رد حامد يومها أنه يهتم بالمردود الذي يراه في يونس. وكان يقصد حامد ما يجده في صاحبه من رقى في الأخلاق وصفاء داخلى حتى أنه صدمه بجديته ليلتها عندما أخبره أنه لولاه ما شعر بوجود الله. لو تعرض صوفى غير يونس لما قاله حامد لكانت بداية تكبر وأنا يقع فيها أغلب السالكين والباحثين عن الحقيقة. أما بالنسبة ليونس فقد تجاوزها بلطف دون معاناة. بسبب الطابع الذي يغلب عليه بأن يجعل نفسه دائما في الخلف لا يتقدم على أحد.

بعد أن ودع حامد يؤنس، مؤكدا على المجيء في موعد الغد في المساء. أخترق مدق ضيق ترابى بين عدة منازل قليلة حتى أصبح أمام شاطئ البحر يستنشق نسماته التي تزيد من إحساسه بالخدر الهادئ الناتج عن النبيذ، يتغدغه ويشعر به في جميع جسده يفرض عليه التبسم وهو متجه إلى بيته جنوبا لو كان هناك كهرياء لظهر البيت من بعيد لأنه البيت الأول على الشاطئ. تأسف داخله على عدم وجودها وأخذ يتابع سيره وهو يريد أن يخط بقدمه على الرمال أبيات شعر تصف حاله الآن ومدى صفاء روحه من أي كدر وينهيها بيتين من المديح في النبيذ. تسأل مع نفسه «كيف يمنعون شرابا كهذا وما الدافع لذلك. بعض منه يزيح الهم. لعل التحريم بسبب الخوف من مشاكل السكر عند الدهماء. فما أنا شربت زجاجة كاملة تقريبا مع الدكتور سراج وإذا مرت امرأة أمامي على الشاطئ لن أتهدم عليها. فعلا خيركم قبل السكر خيركم بعده. إذن علموا الناس الفضيلة واتركوهم أحرار. الأشرار أشرار دون خمر. أه لو تعلموا أنكم مجرد نعاج يسوقها نعاج بعصا». انفلتت منه ضحكة خفيفة مع تجسد مشهد النعاج باوجه ناس أمامه يعرفهم كأنه يسمع أصواتهم. واستمر في محادثة نفسه. مرات بصوت مسموع وأخرى داخله. «الخمر حلل في العصر العباسي على يد الحنفية مع استبعاد نبيذ العنب وصرح بنبيذ التمر على مذهب أهل العراق على ألا يشرب منه حتى السكر. سيأتي يوم لا أحد يستطيع أن يخفى شيء». نظر إلى السماء المظلمة مع

وقفة بسيطة وبعدها استمر في سيره وأخذت علامات الجدية ترتسم على وجهه وهو يكرر «سيأتي يوم لا أحد يستطيع أن يخفى شيء». وبعد أن كررها عدة مرات ارتسم وجهه بسمات من تذكر شيئا ما. فابتسم ابتسامة حزن لم تمح الجدية التي هو عليها والأفكار تتسارع داخله والحوار تتقاذف كلماته كأنها طلقات في حجرة ترتطم بالأرض والحوائط. «آه شهر رمضان بعد غدا سوف أخبرك بشيء قد لا يكون عندك الماما به. الدكتور سراج. آه لا داعي لللقاب، سراج لا يصوم رمضان ولا أمي التي ماتت ولا فضائية.» انفعل عندما وصل إلى اسم فضائية وشعر بدفء في أذنيه «نعم كلهم لا يصومون، اذهبوا إلى الجحيم أنه فعل الصيام حتى تسمو وإن لم تحاولوا أن تسمو فلا بد أن تحرقوا بالنار. فضائية أنت لم تصومي أبدا. آه نعم نعم أعلم تماما أن هذا الشهر حتى يشعر الأغنياء بالفقراء». فضحك عاليا وهو ينظر إلى السماء المعتمة التي تظهر النجوم فيها كقطع فضة صغيرة متناثرة ثم دار بجسده ولم ينزل عينه من السماء وهو مضمئن لوحده التي تحيطه في ظلمة الليل واستطرد يحدث نفسه «لذلك كان من الأفضل أن يصوم فقط الأغنياء ولكن كانوا سوف يثبتوا كلهم أنهم فقراء ويحضروا أوراق من مجلس المدينة بذلك فكان الرأي الأرجح أنما الاثنان تصوما وانتهى الأمر». عندها زاد انفعاله فأكمل حديثه بصوت مسموع به حدة «لا خداع. أحضروا الأم من قبرها وفضائية من عشتها وسراج من عيادته والقوهم في السعير. من هذه التي اتيتم بها، آه أنها كريستينه يا

صاحب العزة. مسيحية وبالطبع لا تعرف السيد رمضان لذلك هي أولهم». صمت رهيب واندفاع باجذاب إلى البيت. لاردة فعل للهواء البارد ولا لصوت الأمواج. سكون. شهب في السماء لمع ضيائه فرجع عينه فاستعاذ من الشيطان. فضحك وهو يضرب كفيه. وتوقف وانحنى وهو يسعل من شدة الضحك على الشاطئ. وبعد أن هدأ سعاله سأل نفسه « لماذا مع كل لحظة تفكير وتدقيق اصطدم بالدين؟ هل هناك غل بينى وبينه؟ » واستمر في السير متأملا سؤاله كأنه أمام عينيه ويعيد قراءته أكثر من مرة. فأجاب بصوت كأنه يهمس لنفسه قائلا « لا يا صديقى. ليس ضجرا متكلفا ولكنه أول قيد أجده في يدي عندما أحاول أن أتحرک». ثم صمت مكملا بقية كلماته داخله «غيرى في أماكن أخرى يصطدمون بالجدار في الغرفة أو بعلو السور في الخارج ليخرجوا للفضاء الفسيح ليلحقوا بمن سبقوهم. أما أنا فمازلت قابع في غرفة ظلماء مقيد اليدين. طالما بدأت تزيل الغبار لن تستطيع أن توقف ذلك أو تعيد الأتربة في مكانها القديم. أنا من اليوم غير مؤمن وغير كافر. أنا متجاهل. ولكنني لن أستطيع من اليوم أن احسب نفسى مع زمرة المتبعين. لست مجنون لامشى وراء المجرمين والمتعصبين، لا تخاف يا فضائية لن أبوح فأنا أعلم أنني أعيش بين قتلة ولكنهم لا يعلمون».

\*\*\*\*

بدأ الناس مع غروب الشمس يتجهون إلى مقام سيدي عبد

القادر الجيلانى وهو مبنى قديم على شاطئ البحر يتوسط شارع الكورنيش يتضح من بنايته أنه بنى من نفس أحجار القلعة العتيقة التي في القصير التي تدعى الطابية. المبنى عبارة عن حجرتين بالداخل واسعتين وعاليتي السقف، واحدة لمن سمي المكان باسمه والثاني لأبي الحسن الشاذلي. الشخصيتان لهما شهرة روحية في العالم الإسلامى وكانت حياتهما في فترات متباعدة. لا يوجد لهما جثمان في القصير ولكن هذا المكان هو الذي قيل إنهم كانوا يجلسان فيه انتظارا لوصول المراكب التي سوف تنقلهم إلى بلاد الحجاز حتى يؤدوا الحج في مكة لذلك شيد هذا المبنى لتخليد ذكراهما. وهذا معلومات متوارثة لا يعرف صدق محتواها. ويوجد أمام الحجرتين فناء واسع فسيح محاط بسور ضخم على نفس ارتفاع سقف الغرف وله باب عتيق ضخم هو الوحيد لبناء. جرت العادة أن يجلس الرجال والأطفال في ركن في الفناء الواسع لشرب القرفة والسمر في ليالى رمضان. مع عادة زيارة النساء واشعال الشموع داخل المقامين. وكانت النساء تشتري الشمع من قبل قدوم شهر رمضان من محال فاروق لأنهم في شهر رمضان لا يجدونه عندهم لأن العمال يدعون أن الشمع قد نفذ وذلك بتوصيه من صاحب المحال فاروق. وعرف أن صديقه الشيخ هارون هو صاحب الفكرة حتى لا يصبح فاروق متعاوناً معهم على فعل بدعة لم تكن موجودة في كتاب الإرشادات للشيخ هارون ولكن لا وجود لسرفى البلدة. ومن أصحاب التنظيم عزوز مع بعض الأشخاص الآخرين. والتنظيم يقتصر على عمل القرفة

على مواقع الكيروسين والحطب وجعل الصببية تجمع الفارغ من الأكواب. فعزوز ذو همة عالية في كل الأعمال الاجتماعية في المدينة يعشق تجمع الناس حوله. فأمثال عزوز مهمين بسبب استطاعتهم على تسير الأمور بين العامة بسبب قوة بطشهم إذا خرج أحدهم عن النص. تستطيع أن تطلق عليه فتوة على الرغم من كبر سنه. فمثلا يتم توزيع الثلج كل عصر قبل الإفطار في المغرب في رمضان مجانى. بسبب شعور الصائمين بالحر أثناء اليوم فلا يذهب أحد لجلبه من مصنع الثلج داخل الشركة. فيكون المسئول عن نقل الألواح الثلجية هو عزوز فكم من شخص حاول قبله أن يدير هذا العمل لم يستطع بسبب تدافع الناس بهمجيه. فأصبح هو من يأتي بالألواح ويكسرها على قطعة خشب كبيرة تستخدم لتنظيف الأسماك قبل شهر رمضان. ولا يجرء أحد على التدافع أو التذمر. فكان يوزع القطع الثلجية عليهم في الأواني المعدنية التي قدموا بها. ومن المواقف التي لا تنسى لعزوز في موضوع الثلج. في شهر رمضان منذ عدة أعوام. انقص عدد الألواح الثلجية التي تذهب إلى قسم الشرطة بسبب قلة الانتاج لمصنع الثلج في هذا اليوم ولعلمه أنهم لا يستخدموا كل الثلج الذي يصل إليهم. فقد رأى أكثر من مرة كيف يترك الفائض على الأرض الترابية للقسم حتى يذوب دون سماح حتى للمجندين باستخدامه. فعندما رآه ضابط القسم يوزع الثلج. توقف بعربة القسم السيارة الجيب الروسى المتهالكة وتقدم نحوه فافسحوا الناس له كأنه سكين يشق نصله في شيء هين. فعادة ضباط الشرطة في

المشى في بلادنا بأنهم يسيروا دون التفات وعلى المارة أن يبتعدوا ليكملوا سيرهم الوطنى المقدس دون توقف. وعندما وصل إليه. سأل عزوز وهو يبتسم في سخرية واضحة وينظر إلى الثلج المهشم عن سبب النقص في الثلج. فاستنكر عزوز عن وجود أي نقص بتضييق حدقة عينه وكأنه يتذكر وأخذ يراجع أمام الضابط والناس فقال بصوت مسموع: «حضرتك لوح والمأمور لوح».

فرد الضابط متسائلا فرحا بأنه اكتشف الخطأ قائلا: «والضابط الجديد؟». فأجاب عزوز وهو يلوح باصبعه بإشارة تأكيد قائلا: «نعم صحيح لوح أيضا». فانتبه الضابط إلى سخرية عزوز منه باستخدامه تورية في كلماته كانت غير مفهومة له في الحديث ولكن بعض الابتسامات من الحاضرين والغمز جعله يفيق وينتبه للفتح الذي اوقعه فيه عزوز. فاحمر وجه الضابط بالغیظ فانسحب إلى سيارته ومن حركة من يديه اتجه بعدها العساكر يقتادون عزوز ليركب معهم السيارة من الخلف. لم تمر الحادثة بسهولة فبات ليلته في القسم. وبسبب تدخل عضو مجلس الشعب الأستاذ تهاى بكل قوته وأخذ في الاعتبار سن عزوز لكان الوضع أصبح سيئا له. فقد تكتل المأمور وضباط القسم في ناحية الفتك بعزوز. فرجال الشرطة في بلادنا كافراد عصابة يذودوا عن بعضهم ولا يتركوا أي أحد منهم يهان. فمثلا لو كنت في مكان عام ولعنت في أحد المدرسين أو في وزير التعليم وكان يوجد مدرس بالصدفة وسمع هذا لن يشعر بالضيق من هذا لأن كل شخص يمثل نفسه وهذا الأمر بالنسبة

إلى كل المهن، أما أن تسيء إلى أحد أفراد الشرطة في القصير فهذا يغضب رجل الشرطة في الاسكندرية شمال مصر ولو سمع ذلك لفتك بك دون الاستفسار عن السبب. فالشرطة تربت في بلادنا على القبليّة. ابن عمى يعمل الذي يخطر على باله. وكل من خارج القبيلة دمه أقل درجة. أو كما قالت الحكمة العربيّة التي تصف هذه القبليّة وتفتخر بها «هذا الذي إذا غضب غضب له مئة ألف لا يدرون فيم غضب».

دخل حامد من الباب العتيق واتجه يسارا ليجلس على الحصير المفروش على الأرض مع المتحلقين حول موقد المياة الساخنة فاقترب ليجلس بالقرب من يونس وملوحا بيده إلى عزوز لأنه لا يستطيع أن يصل إليه من كثرة الجالسين. معطيا صبي صغير كيس سكر ليسلمه لعزوز لسهولة أختراقه. ومع مغادرة من يشرب القرفة أخذ يتقدم حامد ويونس رويدا حتى أصبحوا بالقرب من عزوز. فاشعل عزوز حماس المتواجدين بفائدة القرفة في العمليات الجنسيّة وأنه يفضلها مع الجنزيبيل لأنها تلهب المعشوق. ولم يوقف كلماته وجود يونس ابنه بل كان يذكره في حديثه السآخر بأن سبب وجود يونس الوحيد في هذه الدنيا هذان وهو يرفع يديه كيسين من القرفة والجنزيبيل. ويتجهم وهو ينظر إلى الأرض بطريقة هزليّة كأنه تذكر شيء حزين قائلا: «ولدى اسمه الحقيقي يونس جنزيبيل قرفة». بطبع يونس كان أكثرهم اهتزازا بسبب ضحكاته المكتومة وخجله غير الجارح من أبيه. كانت ليلة سعيدة في اولها بالنسبة إلى حامد أيضا فقد لحقه

أيضا سيات السخرية من عزوز ولكنه يتقبلها بسبب اجادة عزوز لها حتى حدث أمر في نهاية الليلة أصاب حامد وجعله علامة استفهام لكن من حضر.

أتى رجل عبادى كبير السن يعرف عنه حبه للغناء والانشاد الدينى لما يمتلكه من صوت جلى صافى ولغة قوية واضحة. فعندما جلس أصر عزوز على أن يغنى شيئا وبعد إلحاح متواصل من الجالسين. رضخ الرجل لطلبهم. فصمت الجميع وامتلى الجو بالسكون والانتظار وبعد أن أغمض الرجل عينه وأخذ يتنفس بتمهل. لا يعلم هل يحاول أن يستجمع قواه أو أنه ما زال يبحث في ذهنه ماذا ينشد لهم. حتى ثقل الصمت. فأزاحه الرجل بقصيدة مناسبة لشهر رمضان وهي أبيات يحفظها تمدح زوجة النبى الأولى السيدة خديجة التي كانت أكبر منه بكثير لدرجة أن وصفت من إحدى زوجاته الأخريات بالعجوز. استحسنت الجميع الاختيار الموفق لأنهم يعرفون القصيدة.

حدث عن الفضلى فأنت مصدق	والفضل فيها ثابت ومحقق
وأدر حديث خديجة الكبرى أدر	فحديثها بشذى الفضائل يعبق
مهما أفاض الواصفون بمدحها	وتسابقوا بالمدح فيها أخفقوا
من لي بحبات النجوم أصوغها	عقدا لجيد مكارم تتألق
في السابقين إلى الهدى فخديجة	في رأس قائمة الهداة تخلق
اختارها الله العظيم لنصرة الد	ين الحنيف تحيطه وتطوق

كم هونت صعبا وحلت معضلا  
قد صدقته وامنت وترفت  
ما زال يذكرها ويذكر فضلها  
يا أخت اسية ومريم في الهدى  
هذي خديجة لاتقاس غيرها  
إني لأخجل أن ألوذ ببابها  
لولا المحبة ثم إني مؤمن  
لكنها أمي أحن لبيتها  
أمي أتيتك زائرا ومجتي  
لتثبت المختار فيما يقلق  
والناس عنه تباعدوا وتفرقوا  
وإلى صدائرها يحن وينفق  
وبصحة المختار فضلك أسبق  
إلا وكان لها المكان الأشفق  
وصحائفى سود وفعلي موبق  
وهي الرؤوم ومن سواها يشفق  
مهما جنيت فبابها لا يغلق  
لكم تبشرنى بأني معتق

لم يتوقع حامد ما حدث له. نعم هو مرهف الحس يتأثر بسهولة  
ولكنه لم يكن يعلم أنه قد يصل إلى تلك المرحلة. بدأ الرجل  
بصوته العذب الحاد الذي أخذ حدثه من وديان صافية الهواء. الأمر  
كالطر وما يحدثه السيل. تساقطت الكلمات كقطرات مطر  
في يوم مطير وأخذت تتجمع فوق الجبل بين الصخور. حاول حامد  
في البداية أن يسيطر على الأمر ولا يتواجد مع الكلمات ولكن  
القصيدة تمثله وتنشأ أراضيه. حتى وصل شدة المعاناة وعدم  
التحمل إلى مقدار انفجر فيه الوضع عند أخربيت انشده الرجل  
ولم يستطيع أن يكمل لاندفاع سيل البكاء المسموع من حامد  
الذي انفلت على آخره مع اندهاش كل المتواجدين في المكان  
حتى هو نفسه أصابه ما أصابهم وهو يسمع صوت نحيبه الواضح

في السكون. وجهه بين ركبتيه وذراعيه يضمن رجليه. قام عزوز وجلس بجواره وهو يقول إلى المنشد بعتاب أنك ذكرته بأمه. وأخذ يربت على ظهره وحدث عزوز ضجة بعد ذلك مفتعلة بأن تحرك واستمر يوزع أكواب القرفة ويأمر الناس بأن يوسعوا للمقادمين الجدد. وبعد لحظات قليلة ولكنها دهر على حامد. أفاق من غيبوبته وجفف دموعه بأكامه دون حركة تلاحظ لأنه ما زال محتفظا بنفس وضعيته الجلوس ثم قام دون استئذان وتبعه يونس. وما هي إلا خطوات حتى كان على شاطئ البحر. طمئن يونس عليه وأخبره أنه بخير واستغل تفسير أبوه وأكدته. وإن كان متأكدا تماما أن كل من حضر وشاهد ما حدث سيعتقد أنها مشاعر دينية لديه. وهذا الاعتقاد يخفف وطء الضيق الذي لحق به. مشى قليلا على الشاطئ متجها إلى بيته في ظلمة شديدة لعدم وجود قمر في السماء في أول الشهر العربي. تذكر ليلة أمس في نفس الطريق إلى البيت. واحتدت الصراعات الداخلية له على أن ما حدث ما هو إلا عقاب لتطاوله ليلة أمس في التفكير. أنت الآن مكسور بين من شاهدوك. كان طبعك مخفيا لا يعلمه أحد حتى زوجتك السابقة ولا أصدقائك أو زملائك يعلمون شيئا. أخذ يسترجع آخر سنواته القليلة التي قضائها مع أبيه عندما كان مراهقا. وكيف كانت طباع الأب. بأنه إذا ذهب إلى فرح أو حضر عزاء أو شاهد مرور موكب جنازى إلا وانهار في البكاء وأن لم يعرف من الذي توفى. واشتهر بين أهل قريته بذلك حتى تعودت الناس على أحواله في وادي خريط كأنهم لا

يرونها. بل وصل به الحال أنه ذات مرة كان مع أبيه في زيارة إلى أحد الأقارب في مدينة كوم امبو في مساء شتاء قارس. وأثناء مرورهم في شارع ضيق مرت سيدة بجوارهم فالتقت الأعين وبعد لحظة تخطى السيدة لهم، توقف الأب فاجهش ببكاء وهو يحاول السيطرة على نفسه. فسأل حامد أبوه وهو مستاء خوفاً من أن يشاهدهم أحد عن سبب بكائه. فكان رد أبيه مفاجأ له في ذلك العمر بأنه يعرف هذه السيدة الكبيرة في السن ولكنه بكى بسبب أنها فقدت جمالها لأنها كانت خلابة ومشرقة منذ سنوات قليلة مضت. وذهب الأب وكبر حامد ولكنه بدأ يتذكر ذلك كثيراً ويتخوف منه بسبب أنه الابن الوحيد الذي ورث ذلك من الأب ويتشابه معه. بالطبع لم يصل إلى المراحل التي شاهدها في أبيه ولكنه يشعر مع الوقت أنه يقترب منه. الليلة خلط بين المقصوده في الأبيات الشعرية وبين فضائية. ومن أسبوعين كادت العبرات أن تسقط من عينه عند مشاهدته الجمال والبهجة في عيد النصف ولولا النظارة لكنت رضينة شاهدت لمعان الدموع في عينه. لا يمر عليه يوم إلا وعواطفه تهيج. الفرق بينه وبين أبيه أنه فخور بنفسه أكثر أما والده فكان لا يعطى وزناً لآخرين إن رأوا ذلك.

توقف في منتصف الطريق وجلس على الرمال وسيطر على تفكيره للحظات وأخذ يتابع صوت اندفاع الأمواج وارتطامها بالساحل في تعاقب سريع وشعر بأنه سوف يرتاح إذا قام وأخذ يركل تلك الأمواج بقدميه الواحدة بعد الأخرى كأنه يحاربها

ليقتل ذلك المجهول كما تفعل قبائل البشارية في حلايب والشلاتين في الماضي بأن تعلن الحرب على البحر عندما يغرق شخص منهم فياتوا بسيوفهم ويدخلوا الماء ويقاتلوا الأمواج بجدية في حرب حقيقية حتى يجهدوا من التعب ويعلنوا بعد ذلك انهزام البحر وبذلك يفرغوا كل مشاعر الغضب ويرجعوا مسرورين لأخذهم الثأر للغريق. يمكن أن يوصف ذلك بالجنون والخبل ولكنه مريح. لم يفعل ما فكر فيه بخصوص الأمواج ثم أكمل سيره وهو يحدث نفسه «بأن ما حدث قد حدث، لا بد أن اتخطى تلك الليلة». وبالفعل بعد رويته لشمس في الصباح انته الأمر كأنه إنسان آخر غير الذي بات في المساء. أنهى عمله وتوجه إلى فضاية في أول يوم في رمضان حتى يتناول معها أول إفطار.

\*\*\*\*

لم تنقطع زيارات فاروق إلى الغردقة ومبيته بها بعض الليال طوال شهر رمضان. كان مشغولا بقطعة الأرض التي سوف يقيم عليها الفندق السياحي ومراجعة الأوراق والرسومات والتعرف على المقاولين الذين سوف يتم البناء عن طريقهم. كل هذه الأحداث تسعده وجعلته أكثر انشغالا بأمور ذات أهمية حقيقية ليست كما في المحال في القصير والتصنع بالريح. وتخطى في أسابيع قليلة صدمة انفاق المال ورهبة الأرقام الكبيرة في النقود ويرجع ذلك إلى القرب الذي منحه إياه المحافظ فلقد تطورت العلاقة بينهم سريعا وتبناه المحافظ كابن ويرجع ذلك إلى لباقة

فاروق في الحديث إلى شخصية سلطوية مثل اللواء صديق. وسوف يظهر تأثير هذا القرب مستقبلا في تخلصه من بعض لزماته الهمجية وتغير مظهره سريعا إلى رجل أعمال. فاروق يتلقى دائما الإرشادات والتوجيهات من من هم أعلى منه مقاما كأنه ناسك يتلقى تجليات الهيبة. أما الآخرين الذين كانوا معه في اجتماع الشيراتون لم ينالوا الحظوة مثله وقد يرجع ذلك إلى امية معظمهم وأن منهم من كان لعهد قريب يعمل أعمال يدوية ككهربائي أو سباك أو عامل في هيئة حكومية قبل أن يتغير حاله.

انفك الحصار الذي كان يفرضه فاروق على أمواله وانتهت مسرحية كيفية إبعاد العين عنه خوفا من المساءلة. فالיום هو والحكومة يعملان معا. وبدأ ذلك بأن اشترى سيارة فخمة كبيرة ذات ماركة المانية شهيرة من صديق للمحافظ قد تحصل عليها من مزاد جمركى بسعر زهيد وهذا لا يحدث إلا قليلا في مصر. أما الثمن الذي دفعه فاروق كسعر للسيارة كان مرتفعا اكراما إلى المحافظ وفي نفس الوقت مكسب لفاروق بأن يتمتع بالوجاهة. وشعر بالرضا على ما فعله عندما منحه لوحة مرورية للسيارته الجديدة تتكون من رقم واحد. وكان هذا من الأمور المرشدة لفاروق بأنه على الطريق الصحيح. فتلك الهدية تعادل حصانة دبلوماسية لسيارة سفير في دولة افريقية. أصبح كل يوم يمر عليه يضيف له ثقة ومكانة بين عامة الناس وبسطائهم حتى ملامحه أصبحت تبث رهبة في من يلقاه وأن صاحب هذا

الوجه ذو شأن. وأتى عليه شهر رمضان هذا العام مختلفا. فعادته كل عام أن يقيم ثلاث موائد الأولى هي مائدة دائمة كل أيام الشهر للعابرين للمدينة أو العمال المغتربين وكان يتابعها بنفسه مع اشرف كامل للشيخ هارون في العشرين يوم الأولى في شهر رمضان. وإن كان يستاء من أهل مدينته لأن معظمهم فقراء ولكن لا ياتون إلى المائدة التي جعلها لله في هذا الشهر فكان يسرى عليه صديقه ببعض الكلمات عندما يجده عابثا ومتجهما من قلة الحاضرين فيقول له: «فقر وتعال».

أما الآخرا فإنهما أمام بيته في الأوانجى كل واحدة في يوم في رمضان. يدعوا للأولى عضوين مجلس الشعب وعائلتهم ورؤس العائلات في المدينة واليوم الآخر للرجال الشرطة ورئيس المدينة والموظفين الحكوميين. لم يغير شيء من تلك الأمور هذا العام ولكن اختلف الاهتمام. لم يذهب إلى المائدة اليومية للفقراء طوال الشهر. وتغير استمتاعه بمردود استضافته للضيوفه في المائدتين الأخرين فلم يداعب أحد كعادته وينافق بعض رجالات القصير المهمين. ترك الملاطفه لأخيه وصديقه. ولاحظ الجميع هذا التغير الذي طرأ. أهالي المدينة منهم من تملق له وقليلون من تذر داخله وآخرون أقسموا أنهم لن يحضروا له مستقبلا. أما أصحاب الرتب والموظفين كانت لهم حسابات أخرى. هم يفضلون أن يكونوا حوله ولا يهتمهم كثيرا لو بعدوا قليلا عن مركز الدائرة المهم التحليق المبارك.

وما أخذ جل اهتمامه هذا العام المائدة التي سوف يقيمها في نهاية الشهر في الغردقة. أجلها حتى تحضر سيارته الجديدة من القاهرة. على الرغم من الطمأنينة التي تشربت بها جميع أوصاله، إلا أنه شعر بالرهبة والارتباك الداخلى عندما شاهد السيارة أمام المنزل بعد أن أتى بها منصور في عصر إحدى أيام منتصف شهر رمضان. الوحيدة التي شاركته هذه المشاعر الأم الحاجة منيرة. فذبحت في اليوم التالي أربع خرفان حول السيارة ووزعت معظمها على الفقراء ولضخت جميع السيارة بدماء الذبائح بأن تغمس كفيها هي وأحفادها ويطبعوا كف على كل هيكل السيارة والزجاج. وأصرت على تعليق حافر خروف في مكان أسفل مقدمة السيارة تحت اللوحة المرورية يرى بسهولة. على الرغم من كره هذا الفعل لفاروق لأنه لا يتفق مع تدينه إلا أنه رضخ لها دون أن يتفوه بكلمة لمنعها. وعندما أتى الشيخ هارون في المساء ليبارك له على السيارة الجديدة واحضار مصحف هدية له ليضعه داخلها. وفي أثناء شرب الشاي وتواجد الحاجة منيرة قال فاروق أمامها مداعبا: «انظري ما أحضر الشيخ لأضعه في السيارة». فهتمت الأم ما يقصد ابنها فالتفت إلى الشيخ هارون وهي تشعر ببعض الضيق ظهر على وجهها وقالت «اللّه ينور عليك يا مولانا كلام ربنا أحسن حافظ».

- طيب لما أنت عارفه أن الله هو الذي يحفظ. يبقى ما فائدة حافر الخروف، فضحك وهو ينظر إلى صديقه.

- على فكرة أنا مؤمنة أكثر منكم. حافر الخروف هذا فقط لتشتيت الانظار فلا يتمعن الناس فيحسدوك... الأمر كله أن أعيب المنظر أو كمن يغير دفة الحديث.

وتنهدت بأسى وقالت: «يكفينا ما حدث لأبيك فالناس استكثرت عليه البيت الكبير».

أطلت سحابة حزن فوق الجميع. حتى فاروق الذي لا يكن أي مشاعر شوق لأبيه تأثر بذكره في كلمات أمه لأنه خاف ان يلقي مصير مشابه، فكثر حاجز الصمت الشيخ هارون بقوله: «لقد أحسننى يا حاجة». فنظر إليه فاروق مستفهما متعجبا فاستدرك الشيخ هارون بعد بضعة ثوان قائلا: «أليس الحسد كملك ظالم يريد أن يأخذ ما لا يملك. لذلك السيدة الأم تريد أن تعيب السفينة- يقصد السيارة مستحضرا قصة الخضر مع النبي موسى- حتى لا يأخذها الملك الشرير، الأعمال بالنيات يا صديقى العزيز وكلنا نعلم أن الحاجة منيرة دائما في قلبها الإيمان وأن فطرتها دائما تهديها إلى الطريق السليم».

«طريق سليم ولا عوج» قالتها في استياء الحاجة منيرة مظهره غضب ولكن أخفت داخلها أنها استحسنت ما قاله الشيخ هارون وما هي إلا دقائق قليلة بعد ذلك أتت ابنة فاروق الكبرى بأكياس بها بضعة كيلوجرامات من اللحم قد أوصتها الجدة بها حتى توزع للفقراء عن طريق الشيخ هارون. بعد ذلك بقليل وجدها فرصة الشيخ وتململ في جلسته وأبدى مقدمات بأن عليه

أن يذهب حتى يفك رقبتة من الحمل الذي معه بأن يوزع اللحم على المحتاجين. فهضت الحاجة منيرة واقفة بصعوبة مع قيام الشيخ هارون للمغادرة واتجهت إليه وهي تشير لابنها بالجلوس وقالت: «انتظريا فاروق فإنى أريد الشيخ في موضوع ضرورى على انفراد». فأوما فاروق برأسه ولم يصحب صديقه للخارج معتقدا أن أمه سوف تؤكل صديقه في عمل خيرى فهي منذ موت أبيه ظهرت لها طبائع مختلفة عن فترة حياته. توقف في مكانه الشيخ هارون بعد أن لبس حذائه بالقرب من باب المنزل وهو ينظر إلى الحاجة المتقدمة نحوه في إجلال واضح ورأسه تكاد تختفى بين كتفيه كأنه في ليلة شديدة البرودة وممسكا بيده الاثنتين أكياس اللحم.

\*\*\*\*

كان الوقت ما زال بعيدا عن موعد السحور وفاروق يفضل الأينام مبكرا حتى يستمتع بالنوم في نهار اليوم التالى أثناء الصيام. صعد إلى سطح المنزل. القمر في السماء كمصباح كبير شديد الإضاءة والهواء ساكن. استلقى على سرير من ذكريات الوالد في الجيش. وأخذته أفكاره إلى مشروعه الضخم الذي سوف تسرع خطواته بعد هذا الشهر. وأن مخاوفه حول الخمور لم يجد لها مردودا عند أهالي المدينة ولم يذكر أي أحد من قريب أو بعيد ذلك حتى بناته عند بداية العام الدراسى لم يجلبن أي شيء قد سمعوه من أقرانهم من التلاميذ. فعادة الأطفال يرددون ما

يجدونه في بيوتهم. بل العكس قد حدث. بعض المدرسين مازحوا ابنته الكبرى بأن عليها أن تدعوهم إلى زيارة الفندق. ترحم على روح أبيه فقد تذكر بعض كلماته فكان يقول عندما تسرق بيضة فأنت لص أما عندما تسرق جمل فأنت بطل. أن هذا الوضع ينطبق عليه إذا فتحت بار أو دكان قدر صغير لبيع البيرة والبيرندى مثل الدينارى فأنت وضع تكسب حرام أما إذا بنيت فندق به عشرات البارات داخل فهذا مشروع تنموى عظيم. توقف ذهنه عن التفكير بسبب صوت قادم من أعلى الهضبة التي تحد البيت من الخلف. فاعتدل وأخذ يضيق في عينه كقط حتى تبين له أن هناك أعلى المرتفع بعد الجنود يتسللوا من الكتبية خلست لقضاء بعض الوقت في المدينة. فأكمل تفكيره بعد ذلك على نفس النسق مخبراً نفسه أنه عندما يتعارك فردان أو مجموعتان مع بعضهم فإنهم يعاقبوا وأن قتل أحد يصبح القاتل مجرماً أما الدول فتجعل الوضع أكبر مثل الفندق. جيش به آلاف الجنود والقتل يعتبر أسمى الأعمال إذا نفذته في غيرك فإنك مقاتل عظيم وإن تم فيك وأصبحت تحت التراب أصبحت شهيد الواجب. الأحداث تتلاحق بسرعة. من أقل من شهرين تعرف على المحافظ وبعدها على من يحيطون به من مبنى المحافظة أو القادمين من مكاتب الوزارات في القاهرة وأيقن أن هؤلاء الأشخاص مثل الفراشات ملونة وزاهية وتطير بالقرب من أصحاب السلطة في مصر ولكنها دبابير مخيفة هم الأنفع والأبقى فتودد إليهم وغمرهم بالهدايا القادمة من البحر التي تكون مقبولة بسبب

أنهم غرائب عن البحر الأحمر وشعر بأنه سوف تكون له منهم في  
الشهور القادمة مجموعة قوية يعملون معا.

\*\*\*\*

زاد اعتقاد صفية وعزوز أن ابنهم الكبير قد أصابه مس من  
الجن وأنهم تأخروا في علاجه...

في إحدى الليالي الأولى لشهر رمضان كان سالم يجلس على  
كنبة في الصالة الكبرى لمنزل أبيه أمام الباب الرئيسي يسمع  
أحاديث الجالسين مع أمه صفية ويتسلى برؤية بعض المارين أمام  
الباب ويشغل نفسه بأفكاره وأحلامه. فبعد أن اشتد به المرض.  
فضلت أمه أن يقيم هو وعائلته معهم لأن زوجته لا تستطيع  
بمفردها أن تعتنى به وهو لم ينتقل بعيدا فمنازله خلف بيت  
أبيه وما زال مفتوحا يستخدمه عزوز في استضافة الزائرين أحيانا.  
يجلس محشورا بين وسادتين صلبتين على كل جانب حتى لا  
يميل جسده فهو لا يستطيع التحكم في حركته وفقد القدرة  
على السيطرة على تبوله ولكنه يشعر بقرب قدومه. ف دائما  
يكون بجانبه اسطوانة معدنية عبوة لتر ونصف تقريبا فارغة.  
فعندما يشعر برغبة في التبول يحدث صوت عالي ليأتي أحدهم  
لمساعدته ووضع قضيبه داخل العبوة ليتبول. كان في بداية  
مرضه لا يسمح بذلك إلا لزوجته أو ابنه، أما مع الأيام أصبح الأمر  
مباح لأخيه يونس وأمّه وأبوه. قد يكون المرض قد التهم مع الوقت  
الكرامة والاعتزاز بالنفس أو هي حكمة تعلمها بأن الحياة

أبسط بكثير مما كنا نعتقد. وكان عندما يريد أن يعاقب أهله كان لا يحدث ضجة ما قبل التبول ويغرق مكانه تدمرا عن شيء يضايقه أو رغبة في الأذى. في تلك الليلة كان يشعر بالملل لا أحد يجلس بجانبه وعندما يمرون في الصالة قادمين من الداخل إلى خارج أو العكس لا يهتمون بأمره ويردون على كلماته الغير مفهومة الخارجة من فمه دون النظر إليه أو التوقف كأنه سألهم عن أحوالهم فيقولون الحمد لله أو يتأففون بقول «ماذا تريد؟». كانت تجلس ابنته التي لا تتجاوز الثمانى سنوات في ركن في الصالة على الأرض تلعب في عرائس من القماش محشوة قطن وبعض علب العصائر المعدنية الفارغة وصناديق ورقية تجعلها على هيئة بيوت وهي تكلم عرائسها. وبعد أن أنهت لعبها قد يكون بسبب ضجيج أبيها المستمر الذي أبعد عن ذهنها فكرة أن تجعل العرائس تنام كالأطفال. فقامت وهي ممسكة بمجلة اجنبية في يديها، واتجهت إلى أبيها ووضعتها في حجره وذهبت. هذه المجلة هي لأختها الكبرى قد أخذتها من منى التي بدورها قد وجدتها في الشوارع أو على شاطئ البحر أثناء جمعها اليومى للورق من الطرقات الذي لا ينتهى إلا مع غروب الشمس. وأخذ سالم بحركات بسيطة في مظهرها مرهقة له بأن يقلب بعض الصفحات ويشغل نفسه. حتى مرت ابنته صاحبة المجلة وهي تحمل كوب ماء لجدتها في الخارج وتفاجأت بوجودها مع أبيها. فتوقفت منزعجة وبنبرة ليس به احترام تقول: «من إعطاءك هذه المجلة؟». بالطبع هي لن تنتظر أن يجيب بأي إشارات

فهمت أن تأخذ منه المجلة فتمسك سالم بها بين أصابعه بتصلب كمريض صرع ولم تستطع أن تسحبها منه. فغضبه مع احمرار عينيه ذكرها بأنه ما زال أبوها. فتحول وجهها إلى الرقطة وسألته بتهكم بريء: «وهل تعرف اللغة الإنجليزية؟». فأجاب أبوها بعصبية بهزه من رأسه تعنى نعم. وما زالت عينيه متوهجتان من الغضب الحالى الناتج عن تصرف الأبنة الغير لائق وغضب سابق بسبب ساعات الملل الماضية. وبعد أن انتشر الخبر في البيت بأن سالم يعرف الإنجليزية مع أنه عندما كان معافى كان بصعوبة يكتب اسمه لأنه كان يفضل أن يوقع في خانة دفتر المرتبات الشهرية في الشركة عن أن يبصم باصبعه أو يختم. بدأ الأمر في أوله على أنه دعابة ولكن مع إصرار سالم وهو يزوم بجسمه ويصك أسنانه في غضب ويخرج ريم أبيض من فمه أمام أمه وأبيه وزوجته وجميع أخوته وأبنائهم أنه يعرف كل ما هو مكتوب في هذه المجلة وهم يقلبوا الصفحات أمامه وينظرون إلى بعضهم. بالطبع هو لا يستطيع النطق الآن، فكلماته التي تخرج من فمه كشخص أخرس بعد أن أصابه الشلل وجعله طريح الفراش فيتساوى معه الصينى فيما يتفوه.

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» نطقت بها صفيية وهي جالسة بالقرب من ابنها سالم. وربتت على ظهره بحنية أم مع صغيرها وانتهى الصخب الدائر بينهم حول سالم. فكانت كلمات الأم واضحة للجميع وقد حلت هذا اللغز. وفي نظرة قوية

ذات معنى جلي لعزوز من صفة تؤكد إجابة لم تنطقها للسؤال لم يسأله زوجها. حتى سالم قد هدى تماما وأخذ يلتقط أنفاسه المتلاحقة. وانتهى الجدل الذي كان تدور رحاه حول أين تعلم سالم اللغة الأجنبية؟. وقام عزوز بتسنيد ابنه حتى يدخله لينام على غير العادة. هذا العمل كان لزوجة ابنه وحفيده أو أحد غيره. رجع للجمع الصامت في الصالة. وبدأ الكلام بينهم دون تورية ولاموا أنفسهم جميعا كيف لم ينتبهوا لهذا من قبل وأضاعوا وقتا كبيرا في السفر للمسافات طويلة إلى أسيوط لأطباء لانفع فيهم ولكن ما زال هناك أمل ما دام الله قد كشف لهم عن السر في مرض ابنهم في هذه الأيام الطيبة المباركة. وانقلبت الجلسة إلى فرح وبهجة وأخذ عزوز زمام سرد الأسماء التي قد شفيت من المس الجنى. ولم يخل الأمر من قصص فكاهية عن الجن والعفاريت. حتى أصبح الأطفال الأصغر سنا يريدون أن يدفنوا أجسامهم في حجر أمهاتهم من القصص وخبث طفلين أكبر منهم عمرا يقلبان اجفانهما لتصبح أعينهما ذات منظر بشع ليرعا بقية أخواتهما وأقاربهما. وعند خلوا كل شخص لنفسه بعد هذا الحدث بعد السحور. سيطرت عليهم الآمال الجميلة وكانت ليلة حاملة. فصفية سوف يرجع ابنها الأكبر إلى سابق عهده صحيحا معافى يدخل عليها قادما من بيته أو من عمله ليسلم عليها ويعود لعمله ويرعى أبنائه وبناته وتزول خيبة الأمل القادمة ويصبح كماض للسحابة معتمدة مرت واكتفت ببعض التخريب في اسقف المنازل. وبدأت التخطيط في من سوف تحضره لإخراج هذا

اللعين من جسد سالم. وأخذت على نفسها عهد بأن تنذر لله صيام شهر آخر غير شهر رمضان وأن تعمل ليلة لله وتذبح جدى وتأتي بالرفاعية بطبولهم وسيوفهم أمام المنزل ليبتهج الجميع بعودة ابنها وأخذت تتخيله وهو جالس خارج البيت يحيي المهنيين.

وعزوز جالس على نفس الكنبه التي كان يجلس عليها ابنه واضاءة خافته تصل له من مصباح كيروسين في طرفه جانبيه معلق على الحائط. وحيدا يدخن السجائر بكثرة قبل أذان الفجر. ينفس الدخان أمامه وينظر إلى أشكاله التي تتضح أمامه حتى أيقن أن هذه الأشكال حقيقية وذات معنى. وأن الشيطان يتلاعب أمامه. وأخذ يحدث نفسه ويقول «أه يا نجس. استطعت أن تؤذى ابني مع أنه قد أتى مرة واحدة فقط إلى الجبانة بالليل وتركتني أنا الذي أقيم معكم». وشرد بذهنه حتى يتذكر سبب مجيء سالم له ولكن الذاكرة لم تسعفه. وأخذ يحرك رأسه يمينا ويسارا ويسحب الدخان من السيجارة بعنف وكأنه يحسها على مساعدته ولكن لا بس لم يتذكر السبب. وأكمل حديثه لنفسه «أه يا ملعون أيها الكافر سوف نجعلك تنطق العربية من كثرة العذاب الذي سوف نعهده لك». وسمع صوت أذان الفجر فاستفأل خيرا وقال: «نطق الحق» ورمى السيجارة واستلقى على الكنبه لينام. ولكن استمر الفكر يدور في ذهنه وهو مغمض العينين. وأحس بشعور بالذنب بأنه هو من أتى بالشر لابنه فهو من يحفر أبار للمراحيض التي سوف يكون الجن منها عالمه وسوف تكون مساكنه وبعد أن نال منه

التعب للكبر سنه ذهب إلى المقابر لابد أنهم هم الذين طلبوه لذلك لا يمكن أن يسير الأمر صدفه. وقد يكون باحتكاكه الدائم باماكن هذه العوالم السفلية أن يكون قد أغضبهم ذات يوم. فعاقبوه في ابنه الأكبر وقد يكون ما حدث ليونس أيضا منهم. صمتت أفكاره عن الضجيج بذهنه كأنها أشخاص متحلقين حوله فعندما رأوا وجوده احتراموه. فحدث نفسه بعد برهته بأن عليه أن يخبر صفيه مما تفتق به عقله عن يونس. فعاد الضجيج ثانيا كأنه شخص نائم يحلم بأنه نائم، فاستقيظ من نوم الحلم. فرجع فتذكر ذلك الرجل الذي صمم أن يبني جدار بيته متماسا مع أطراف الجبانة فابتلى بأبناء ضعاف لهم ليونة في العظام يموتون عندما يصل بهم السن إلى اوائل عمر المراهقة. فاعتقد الناس أنه أقام جدار بيته من صلابة عظام أبنائه لأنه تعدى. وكانوا يشيرون له دائما بأن يهدم الجدار ليرزقه الله بذرية معافاة. وفتح عينيه أثناء صراع أفكاره فقد ذكره الجدار وهدمه بمتى قد اتاه ابنه في الجبانة بالليل ولماذا. أنها ليلة منذ بضع سنين عندما سمع صوت ابنه يناديه من أول المقابر في ليلة مظلمة وهو يتعثر في قبور وينكب عليها وهو مذعور. فهرع لصوت ابنه دون تلكؤ لما يعلمه عن خوف ابنه وقلته جرأته. ولا بد أنه أتى في شيء جلل. فكان مبعوثا إليه من الأستاذ تهاى حتى يساعد أهالي المدينة في جمع أشلاء خمسة من موظفين شركة الفوسفات؛ اثنان جيولوجيون وعاملان وسائق. قد انفجرت المفرعات بهم خارج المدينة أثناء إعدامهم شحنة كبيرة منها في الصحراء. فقد تأخر

انفجارها فذهبوا ليستطلعوا الوضع. وعلى بعد أمتار قليلة منها انفجرت اطنان المفرقات. كان يوم لن تنساه المدينة لعشرات السنين.

وزوجة سالم أخذت تتقلب فوق السرير بجوار ابناءها لا تستطيع أن تنام. وتشعر بأنهم لم تغمض لهم عين أيضا في الغرفة التي تحويهم لعدم سماعها أنفاسهم عندما يغطون في النوم. مليء قلبها الأمل. وأخذت تحدث نفسها الكابوس أن له أن ينتهي وتستيقظ وتنهى ظلمته وتعود الأيام كسابقتهما. وتسعد بزوجها فقد اشتاقت له كثيرا. ولن تسمح له مجدد أن ينالها في الحمام. فأخر مرة فعلها قد اعتلى سالم طبق غسيل بلاستيك كبير قد قلبه على فوهتها ولكن لم يتحمل وزنه فانفجر محطما. فخر سالم ملقى على أرض الحمام وقد ارتعدت من أثر صوت تحطم الطبق واصطدام سالم بالأرض والذعر الذي وجدته في عين سالم عندما اعتدلت ونظرت خلفها. ما زالت تذكر هذه الحادثة جيدا وقد ارتبك كلاهما بسبب ما تربوا عليه منذ الصغر بأن الوقوع في دورات المياة يؤدي بنسبة كبيرة إلى المس السفلى. وأخذت تؤنب نفسها كيف لم يخطر على بالها هذا الأمر عندما بدأ مرض زوجها.

حتى أبناءه بدءوا يتخيلون اليوم الموعود في رؤية أبيهم معافى ويفرحوا بمجيئه وذهابه أمام أقرانهم.

كانت ليلة سعيدة على الكل حتى سالم نفسه صابه

جانب من السعادة. بالطبع لا بد أن تكون حياتهم هكذا. نعم أنهم غير متعلمون ولكن ليس هذا هو سبب الوهم أو التوهم والوقوع في الغيبيات والاساطير. لا يوجد مستشفيات ولا اطباء ولا دواء ولا طرق علاج حديثة. الفقري نهش في الكل ولا أحد يشعر به كمرض خبيث في جسد ظاهره سليم. عندما تمرض فيخبرك أحدهم بانك لست مريضا وإنما شيئا آخر إذا أبعده سوف ترجع إلى صحتك معافى دون مجهود ومعاناة مع ما أصابك أثناء العلاج. الأمر مثل من لديهم سمرة لا يريدون حرمان من طعام أو بذل مجهود في رياضة. فقط خذ الكبسولة وسوف تقوم بكل شيء. أو زعيم ملهم حتى ولو كان ديكتاتورا قاتلا. اذهب إلى بيتك واجلس مع أبنائك والقائد الهمام سوف يقوم بكل شيء ويجعل الحياة جميلة في القريب العاجل. الأمر لا يختلف كثيرا. لن يفقد أحد وزنه بكبسولة سحرية ولن يفعل الزعيم شيء ويذهب زعيم ويأتي غيره والحياة سيئة. الكل يريد لحظات الوهم السعيدة في الانتظار فإنها أفضل من مواجهة عدو دون سلاح. كالمفقود في جزيرة وسط البحر. عدم معرفته للسباحة تجعله فريسة لانتظار المحتمل لعابريننقذه حتى يستطيع أن يستمر في حياته على الجزيرة. ومع الوقت يسلى نفسه دون ان يشعر بوضع اوصاف لذلك المنقذ انه جميل و شجاع و طيب.

\*\*\*\*

بدء يتوافد المعالجون من أنحاء المدينة ليخرجوا الجن. منهم

من اتبع سبيل الضرب بالعصى على جسد سالم. ومنهم من أخذ يقرص باظافره السبابة والابهام على اذنه حتى أصابوا شحمة اذنه اليسرى بقطع لم يوقفهم صراخ سالم. الوحيد الذي لم يقتنع بهذه الأساليب هو يونس بسبب معرفته بالدين أكثر من بقية أفراد عائلته وتواجده في المسجد بسبب عمله وسماعه الدائم أن الطريقة المثلى للخروج الجن هي المعالجة بالآيات القرآنية. فذهب دون استئذان أبيه للشيخ هارون الشخص الأشهر في هذا العمل. وكان داخله سرور لمقابلة الشيخ هارون في هذا الموضوع. ولا يعلم تماما مصدر هذا الرضا داخله. قد يكون بسبب الرد السخيف الذي أجاب به يونس للشيخ عندما سأله عن مسبحته. فيريد أن يعتذر له بطريقة غير مباشرة، لعلمه التام بأن الشيخ هارون يحب هذه الأعمال التي يؤمن بأنها تقربه إلى الله لأنه يحارب الشرفي هذه الدنيا المتمثل في الجن والشياطين.

قابله الشيخ هارون بمودة لم يستعملها قبل ذلك معه وسمع قصة أخيه سالم بأذن صاغيه مهتمه مغتمه بما حدث. وعاتبه بلطف قائلاً: «هل يصح ما حدث يا شيخ يونس بأن تجلبوا مشعوذين ودجالين للعلاج». كان وقع كلمة الشيخ المقدمة على اسم يونس والتي بها احترام لم يلقها قبل ذلك يونس من الشيخ هارون تأثير سحري على يونس. وأكد عليه في نهاية الحديث أنه سوف يعالج أخوه بنفسه بعد انتهاء شهر رمضان لأنه مشغول بصلاة الترويح والتهدج في المسجد وأنه سوف يعتكف في المسجد في العشر الأيام الأخيرة من رمضان كعادته كل

عام. وعاد يونس إلى أمه وأخبرها بما حدث. فاخبرته بأن ما فعله هو الصواب فلقد أرسلت هي أيضا من يومين سيدة الحلبية للحجة منيرة لنفس الموضوع. لما تعرفه بأن الشيخ هارون لا يستطيع أن يتأخر في طلب من الحاجة منيرة. وعندما سمع يونس ذلك شعر بوخذه داخلته توقظه ليرجع إلى الموضع القديم الذي يرى منه حقيقة الشيخ هارون. ولكنه أصبح يغالب هذه الوخذه بأن المهم هي صحة أخيه سألهم. وأن الحياة أحيانا لا تصلح إلا بالثعابين لأكل الجردان.

\*\*\*\*

رضينة بدأ إحساس الرحيل يتشعب بذرات جسده حتى أصبحت تشعر بالغبطة في أيامها الأخيرة في الصحراء وكان هذا المكان الذي ولدت فيه أضحى غريب عليها. إحساس الطالب الذي أنهى مرحلته الدراسية ويرى الفصول بعد الامتحانات وأنه لا يوجد غدا له في هذا المكان أو العامل الذي انتقل إلى عمل آخر برغبته. إحساس مبهج ولكنه ذورهبته. التغير دائما مقلل لإنسان والركون إلى المعتاد مريح. تغلب عليها أمام أقاربها زهو الفخر والفرح بسبب انتقالها إلى حياة أفضل. وكانت في لياليها الأخيرة يلتف حولها الصبية والفتيات لتقص عليهم ماذا ستفعل في القصير وما شكل الحياة هناك. وكل مخزونها عن هذه المدينة هي زيارتها الأولى لها فقط. ولكنها كانت تنسج القصص والحكايات بسلاسة من خيالها الخصب الذي نم في

سكون الوديان والحاح الأطفال الدائم عليها لسرد الحكايات الخرافية عن الجن والآبار المهجورة والمردة التي تحرس الكهوف. فكانت تخبرهم وعيناها يملأهما الأمل أن هناك في القصير بحر واسع مثل الصحراء من الماء وصافى غير معكر كماء السيول. ويحتفظ بمكانه لا يتحرك باتجاه المدينة. يجعل الهواء منعش في حر الصيف. وقصت عليهم أعداد الناس المهولة في البلد وكيف يعيشون في بيوت من الطوب. وأن ماء الشرب متواجد لا يحمل همه. بالطبع كانت ترى ما لا تجده في مجتمعها وتوفره في القصير كأنه هو غاية المنتهى. فسوء حالة المياه في المدينة أفضل من عدم وجودها. عصر الهضم أفضل من الجوع. استعدت حفافيت كلها لانتقال إلى العرس في القصير من منتصف رمضان. الفرح سوف يتم في الأسبوع الأول بعد رمضان بعد عيد الفطر ولكن لا بد لهم بالتحرك مبكرا والبحث عن وسيلة مواصلات. والتنقل من مكان لآخر حتى يصلوا. أوصى حامد كل زملاء عمله في مجلس المدينة من السائقين على جلب كل من يجده قادم للفرح إكراما لزمالة العمل. فكانت نسبة كبيرة من من حملتهم إلى القصير هي عربات المياه. فكانت بعد أن تفرخ حمولتها من المياه في أماكن البدو في سيدى أبو الحسن الشاذلى وأم غنام والشلاتين وحلايب وراس بناس، يصعد القادمون للقصير من العبادة أهل رضىنة ومعارفها إلى الخزان المحمل على العربة ويستقروا في قاعه الصداً ويتوسدون بعض الأجولة لمتاعهم حتى لا يصطدموا بجدار الخزان الصلب. ويجعلوا غطاء الخزان مفتوحاً لتهوية وإن

كانت غير كافية فكان يطل كل شخص للحظات برأسه ليستنشق الهواء. ويحملون في أيدي بعضهم بعض الأحجار الصلبة الملساء حتى إذا حدث مكروه يتم أحداث صوت بضريرها على جدار الخزان فينتبه السائق ليقف. وكانوا إذا جلد وصبر وخجل من أن يوقفوا السائق إلا في الحالات الصعبة ذات الخطورة. ولم يعلم هؤلاء أنه بعد عشرات السنين سوف يتم استخدام هذه الطريقة لجلب المهاجرين والنازحين من عمق أفريقيا إلى أوروبا عبر الأراضي المصرية. تم قدوم المدعويين إلى العدو واكتمالهم في نهاية شهر رمضان. لا يعلم كيف تم أخبار كل هؤلاء في فترة وجيزة حتى يأتوا، العروس رضىنة وأهلها كلهم كانوا في العدو ما عدا الشيخ فراج. حجبت رضىنة عن الظهور في بيت قريب لامها في العدو فلا تخرج. تجلس فقط مع النساء والفتيات اللواتي يغنين لها كل ليلة داخل البيت. أما الباقين من أهلها رجال أو نساء فتفرقوا على بيوت العدو القليلة وكان النوم ليس بمشكلة لهم فكان الرجال والأطفال يفترشون الأرض الرملية حول البيوت فالعدوة كلها كأنها بيت واحد والبيوت حجرات بها. أما الأكل والشرب فكان هين بسبب الذبائح من الأغنام التي كانت عبارة عن هدايا من كل شخص أو قريب. وطهى الطعام كان مسئولية الرجال. اتجه حامد في اليوم الأخير من شهر رمضان بسيارة الدكتور سراج إلى ميغيح جنوب القصير بـ ٥٠ كيلو مترا ليحضر جلسة محكمة عرفية يحضرها حماه الشيخ فراج لفض بعض المنازعات بين قبائل العباددة. والشيخ فراج واحد

مما يؤكل لهم هذه الأمور عندما يكون المتخاصمون ليسوا من قبيلته. وصل حامد قبل الإفطار بقليل كانت الشمس اختفت خلف التلال واحتوى الظل كل ما هو أمام المرتفعات من سهول حتى ماء البحر وبعد أن تم الإفطار وتجمعوا بعد صلاة العشاء حول موقد نار ليحتسوا الجبنة. تم عرض الخصومات على كبار السن المتفق عليهم من أمثال الشيخ فراج وبعض من هم على مستوى صفاته وخصاله من وقار وحكمة كتبت لصاحبها في الماضي ولا تعيبه صغيرة تنتقص من قدره. حتى الآن لم يظهر على حامد أي مظهر من مظاهر العرس. وإن كانت الوجوه تبتسم عندما تلتقى به بتحية خاصة. التزم حامد الصمت في أثناء فض المنازعات يسمع من كل جانب مثله مثل الحاضرين. بعض المشكلات تدور حول الرعى وعدم سداد الدين إلا أن واحدة من تلك الخصومات شدت انتباهه وأثارت فكره وجعلته يسرح في تساؤلاته. وهي تعدى أحد الشبان على فتاة كانت بمفردها في إحدى الوديان وبالرغم من أنه لم ينال منها ما أراد بسبب قوة باس الفتاة فقد حكم على هذا الفتى بأن يعيش وحيدا لا يقرب أي تجمع لقبيلته أو قبائل أخرى من العبادة. أصبح سجين ولكنه حريذهب أينما شاء ولكن لا اختلاط وانس معه. ينبذ مثل الجمل الأجر. وبعد أن انتهت الجلسات العرفية للحكم. رجع معه الشيخ فراج وبعض أقارب رضىنة وبعد بضعة كيلو مترات تذكر حامد وجه الشاب الذي حكم عليه بالوحدة وكيف حالة الذعر التي تملكته. عينه تنظر إلى الطريق ويده على طارة القيادة يتفادى الحفر

وتشققات الطريق التي يحفظها جيدا. وعقله يسأله «هل لو استقر الشيخ فراج وأقاربه وأتى الآخرون من الوديان في الصحراء إلى القصير سوف يغيروا أحكامهم. أما سيستمسكوا بها ويصروا على أنها هي أصلح العقوبات والزمها للنفس حتى تستقيم. نعم هي جيدة لهم. لا يستطيع حكيم أن ينصحهم بأن يبنوا سجونا لمجرميهم وهم في الأصل لا يمتلكون بيوتا. أما الغباء هو الاعتقاد بأنها الانفع في القصير. ويوم ما سوف يكون السجن ظلما إذا تلطفت النفس البشرية. فكم من شقى تجلده نظرة وكم من آخر لا يوبخه عذاب السوط».

\*\*\*\*

صبغ حامد كفيه وقدميه بالحناء قبل الدخلة بأسبوع في بيت فضائية خلف منزله الجديدة الذي أغلق بابه وجعل أقامته في بيت فضائية من منتصف رمضان حتى لا يعث في بيته أحد وخصوصا صغار السن من الأطفال. وكان بيت فضائية دار يتسع له ولأخواته وأخوته القادمون من وادي خريت وكما أوضحنا أن الاتساع هنا الذي اقصد به ليس عدد الغرف أو الأسرة إنما مساحة من الأرض تحويهم وجدران تلتف حولهم ليشعروا بنوع من الخصوصية. وربط في معصمه الأيسر خيطين قطنين أحدهما أحمر والآخر أخضر كسوار ويتدلى منهما كتلتين من الشراشيب بنفس اللونين كأنهم ضفائر شعر ويتصل الخيط الأحمر بخيط آخر بنفس اللون به بعض ودعات البحر الصغيرة حتى تربط آخره

في الخنصر ويزين بذلك أعلى الكف. ويمسك في يده سوط طوال أيام الفرح حتى يعرف لأي قادم أنه العريس. ويدع الأمير ومن ترتيبات الفرح أن يختار له من أصدقاءه أو أقاربه وزيرا توكل له جميع أعمال ومسئوليات الفرح جميعها من طعام وشراب ومبيت وأمور الغناء وحل مناوشات بعض الصغار من المراهقين إذا حدثت وعليه أيضا أن يختار له أعوانا من أصدقائه ولا يزعج العريس في أي شيء ويقاس بعد ذلك نجاح الفرح أو فشله على هذا الوزير. وكانت هذه المهمة محببه لدى شباب العباددة وكانت دائما تكون من نصيب الأكثر همة وتفانى إذا كان الوزير في مقتبل العمر في أول مراحل الشباب فهذا أفضل. ولا بد أن يكون عليما بالتقاليد والعادات وله القدرة على النهر والهدده وكلا في وقته. ويكون أيضا ذو تحمل للمسئولية. فتم الاختيار من فضائية لأحد أقاربها وهو شاب تربطه بحامد محبه وتقدير من يوم قدومه إلى القصير يدعى كرار. فانبعث نورا من وجهه بعد اختياره فرحا بذلك يملئه الفخر أمام اقاربه. مع أن ذلك سوف يعود عليه فقط بالتقدير المعنوي ولن يربح أي مال على ذلك بل قد يغرم من جيبه بعض الأشياء اللازمة للفرح مثل السجائر. ومن هذه اللحظة تم وضع كل شيء في يد هذا الشاب وعلى الجميع أن يتبع تعليماته. وتفرغ حامد إلى المرور بين المدعويين كل ليلة بعد الغروب في جلبابه الأبيض والسوط في يده. يرحب بذلك ويتسامر مع هذا وعندما يأتي الشباب الصغار السن ويقف منه واحد منهم على بعد مترين وهو رافع ذراعيه لأعلى ويبارك حامد

بصوت مسموع. فعلى حامد أن يقف ويضربه بالسوط في المنطقة الوسطى بين الصدر والبطن في جانبه ويهمل الحاضرين لهذا الفتى على التحية التي تدل على الصبر والجلد والفروسية. كل هذه العادات يعرفها حامد تماما وإن كان في زواجه الأول لم يحتفل بأي صورة من هذه الصور، لأن زوجته الأولى من العبادة الذين اختلطوا بالحضر وتغيرت طبائعهم لتناسب حياتهم الجديدة مع تكون منتج جديد ما زالت له جذور تربطه بالأرض القديمة. فتغير الملبس واللهجة والمأكول والحزن والفرح. وهذا التغير لم يلمسه الأجيال إلا بعد فترات طويلة. هو تغير تدريجي مثل تدرج الألوان أو قدوم نور الصباح بعد الظلمة أو العكس عند الغروب. ولم يخل فرح اليوم من هذا التدرج. فقد تدمر قليلا بعض القادمين من الصحراء بسبب بعض التغيرات التي طرأت على ليالي الفرح التي ورثوها عن آبائهم. ومن الجانب الآخر استهزاء في سكون من عبادة العوينة الذين لهم تماس مع القصيرية على ما راوه من فنون قديمة عفى عليها الزمن وما عادوا يستعذبونها كساكني العدو الأقرب لفنون الجنوب وإن كان أغلبهم يعرف دروب تلك الفنون من غناء ورقص. حتى أضحى حامد نقطة اتصال بين ثلاث تنوعات من العبادة، العدو والجنوب كله من جهة والعوينة من جهة وأضف القصيرية في النهاية بطبائعهم.

وبعد غروب الشمس واختفاء تأثيرها وزحف الظلمة على المكان. تبدأ بضعة لمبات تعمل ببطاريات السيارات التي جلبها

حامد من عمله لتتيح لجميع الحاضرين للعرس من الرؤية الكافية ومن أراد أن يكرع كاس من الخمر أو يدخن سيجارة حشيش فعليه بجلوس على أطراف الإضاءة مع صحبته وعند الانتهاء يدخل دائرة الضوء. جلست النساء على الأرض الرملية البيضاء بملابسهم ذات الألوان الفاقعه يعدلن من وضع ثيابهن. وكما ذكرت في السابق أن معظم النساء تلبس ملابس قريبة الشبه بالزى الهندى مع تغطيت البطن. وإن كان يوجد من يرتدى الملابس السوداء مثل فضائية وكبار السن منهن. وتفوح منهن رائحة الفرحة وتنبعث ثرثرة البهجة والغبطة. ويوجد الرجال والفتيان أمامهم في جانب آخر جالسين بجلايبهم البيضاء الواسعة يعلوها صديرى أسود أو بنى. حتى الأطفال الذكور يلبسون مثل الكبار كأنه زى عسكرى لا يصح فيه الاختلاف. ويزيد عليه بعض العمائم لكبار السن. ويفصل بين الرجال والنساء مسافة ليست بالبعيدة تكون تقريبا ثلاثين مترا. ويتخذ موضع الرأس من هذين الذراعين المغنى وعازف الطنبورة وهي آلة وترية تشبه السمسمية. وعند بدأ التندنات وتجريب الأوتار يتم وضع سيف طويل ودرع ثقيل على الأرض في الوسط أمام المغنى. وعندما يصدح الغناء مع النغمات. يقف مجموعة من الشباب ويتقدموا ليحيوا المغنى والعازف وهم رافعين أذرعهم اليمنى وبعد ذلك يتجهوا إلى الوسط متأخذين صف أمام الدرع والسيف ويبدوون في الرقص متلامسي الأكتاف بقدر المستطاع ويطلق على هذه الرقصة التربلة وهي رقصة مشهورة لكل ساكنى جبال البحر

الأحمر من القصير حتى الجنوب. ولا يعلم هل تنتهى الجبال ولا تنتهى الرقصة أما تخبو التربة قبل رؤية نهاية المرتفعات. يستخدمون الكفين والضرب بالاقدام على الأرض. ويكون هناك انحناء بسيطة من الراقصين ويكون الصف منسجما تماما متناسق كأن شخص واحد هو الذي يتمايل. ولا يتوقف الغناء والعزف طالما بدء. اغنية باخرى دون إحساس بالانتقال. وتزداد أعداد الرجال في الصف وعندما يطول يتقوس حول الدرع والسيف. ومن لحظة لأخرى يدخل أحدهم من الجالسين أو من المصطفين في التربة ليأخذ الدرع والسيف من الأرض ويبدأ بالرقص بهما بأن يجعل عينيه مثبتة إلى السماء بأقصى قدر يسمح به رجوع رأسه إلى الخلف ويلوح بالدرع والسيف إلى أعلى ويشب في مكانه وبعد فترة قصيرة يترك الدرع والسيف على الأرض ويذهب مسرعا إلى مكانه كأنه يخاف من شيء ويستلم بعد ذلك آخر. ومن وقت لآخر لابد على حامد أن يأخذ الدرع والسيف وبسبب رشاقته وقوة بنيانه كان يرقص كأنه محارب افريقى مسه السحرفيشب إلى أعلى فتعلو معه صيحات التحفيز من الجالسين وتزداد الكفوف بالتصفيق المتناغم ومع وقع الدبذبة المنسجمة مع النغم. وبعد خروج حامد تتبرع فتاة من جانب النساء بأن تأتي إلى مكان التربة وهي حافية القدمين ومسدله على وجهها شال شفاف لا يحجبها عن الناظرين كأن مخرج العرض أمرها بالقدوم ليستغل ذروة الحماسة التي أشعلها حامد برقصه. ويتم الكر والفر بينها وبين راقصين التربة من الرجال. فعندما

هي تتقدم، يفرون للخلف ككتلة واحدة ثم يتقدموا عليها فتزحج للخلف بدورها ويستمر هذا الوضع أكثر من مرة وهي ترقص كزرافة برقبتها وهم مستمرون بأكفهم وأقدامهم. مثل مشهد طفل يلعب الموح على شاطئ البحر. يجري وراء الماء عندما ينحسر لداخل ويهرب مسرعا عندما تعاود الأمواج الخروج دونما تلامس.

على طرف إضاءة الفرحة ناحية البحر في بقعة أقل إضاءة وضعت بعض الكنب لجلوس الضيوف الذين نادرا ما يأتوا إلى العداوة. أتوا بسبب حلقة الوصل. من أمثال الدكتور سراج ويونس وزملاء العمل ومنصور وبعض القصيرية الآخرين. جلسوا على بعد يشهدوا الحفل دون تدخل أو سير على أرض المسرح الذي تدور فوقه أحداث العرس. جعل مكانهم هنا حامد حتى يانسوا بلطف الهواء القادم من البحر خلفهم وألا يزعجوا بتواجدهم معظم الحاضرين الذين اعتادوا البداوة وقد لا يستيغسوا بعض هزر أبناء المدينة. أو تعالى غير ملاحظ يضيق به الجنوبيين خاصة. فعابدة الصحراء إذا وجدوا غريب بينهم يصمتوا ويتكلفوا بالحديث مع الشخص الغريب ويتركوا له دفعة الحديث. ولا يتصرفوا على سجيتهم كأن ما عندهم لا يصح أن يعرفه الغريب لحكمهم المسبق أنه لن يقدر ما يتلقى عنهم. فجعل حامد موقد لشاي والقهوة بجانبهم وكان من أن لأخريأتي حامد يسامرهم ويشكرهم على قدومهم. ويخص بالاهتمام الأكبر صديقه الطيب. ويداعبه بقوله: «أه أنك تتحدث اللغة العربية بطلاقة فهل تفهم كلمة واحدة من هذا

المغنى». وأقسم حامد أمام الحاضرين وهو يضحك ويتلفت بينهم قائلاً: «والله لو رأيتم النازحين أيام المجاعة القادمين من كينيا واثيوبيا وكيف يغنون سوف يختلط عليكم ما تسمعون منهم وبين اغانينا مثل الخلط في إذن شخص بين لغتين اجنبيتين لا يعرفهما». وبعد أن رجع حامد إلى التربة تافف معظم الحاضرين بسبب عدم فهمهم ما يقصده حامد واعتقادهم بأنه دائم التحزلق بكلمات لا يستسيغوها. الوحيد الذي فهم المغزى هو الدكتور سراج بسبب إصرار حامد في جلساتهم الخاصة حول مائدة النبيذ أن العبادة ليسوا عرب من الجزيرة العربية كما يدعون. وإنما هو تأثر ديني واضح. فكانت فكرة حامد مبنية على أن العرب عندما دخلوا مصر مع عمرو بن العاص بجيش صغير لغزو مصر واستقروا بها بعد ذلك واكتملت لهم السيطرة. فكانوا يتعالوا على المصريين أبناء البلد الأصليين بأنهم ليسوا عرب. ويستخدمون امثلة في أحاديثهم الحياتية تدل على ما يملأ قلوبهم مثل «ارمى بنتى لتمساح ولا ازوجها لفلاح». الفلاح هو المصرى. ومع توالى القرون الطويلة وتغير اللغة والدين. أصبح الكل يحاول أن يجد له فرعا في الجزيرة العربية معتمدا على قصص وهمية. وهذه أحداث طبيعية لا بد منه حتى يتكيف الإنسان مع حياته وما بها من تغيرات. فيصبح طالح الماضى هو صالح الحاضر وما تفخر به الآن كان في الماضى عار. فمثلا العبيد الذين يأتوا من خارج القطر المصرى في فترة من عدة قرون ويباعوا أطفال في مصر وبعد تعلمهم أمور القتال وفنونه يصبحوا فرسان لامراء. وبعد أن زادت

شوكتهم وأصبحوا هم حكام البلد واسياده. في بادئ قدمهم كان يطلق عليهم أولاد الناس وهذه كانت سبه لهم بسبب عدم وجود أب ينتسبوا إليه أو عائلة فكان يدعوا بذلك ولكن بعد أن أصبحوا قوة تحكم ويد تبطش. نسي الغرض من كلمة العار وأصبح أبناء العائلات وعلية القوم في مصر يطلق عليهم ولاد ناس أي لهم مكانه ونسي المعنى البغيض. وانتهت دولة المماليك ولكن بقى اثرها. وانتهى حكم العرب ولكن بقى أثره على المصريين. ابتسم الطبيب عندما تذكر ما يقوله حامد دائما.

وقرب انتهاء العرس ات منصور ومعه تابعه طاييه. يخطو كطاووس في تيه وفخر. فمناسبات مثل هذه لا وجود للمجاملات أو عمل معروف عند منصور. فحضوره فقط ليعرض ابهته على الآخرين. ضاقت نفسه عندما رأى الدكتور سراج. فوجدوه أطفالاً قليلا بعض من وهجه الذي خرج به من بيته. ارتدى منصور جلباب واسع لونه رمادى بمجرد رويته يخبرك الثوب أنه غالى الثمن وليس متاح لاغلب سكان المدينة. علاقة حامد بمنصور هي صداقة مكان. مثل أصدقاء يرتبطوا معك بمكان فإن قابلتهم في غير أماكنهم فتجد الصداقة ليست في كمالها. مثل أصدقاء المقهى أو البار أو العمل أو مدرس في المدرسة فإن صادفتهم في وسيلة مواصلات أو شارع تستشعر أنهم أشخاص آخرون. سلم على الحاضرين في ركن الضيوف ملوفا بيده لهم مصافحا لدكتور سراج. وجذب بعد ذلك يونس بشدة بيده لينهضه من جلسته.

ويهمس في أذنه بأن يذهب لصاحبه حتى يعلمه بقدومه وفي أثناء همسه يتغامز بعينه مع الجالسين موحين لهم بسذاجة متلقى همساته. وبعد أن ذهب يونس لحامد بمنتهى الطيبة والصفاء. أشاح منصور بيده قائلاً: «حامد لن يأتي اليوم» قاصداً بطئ يونس في السير. صوت الغناء لم يرق لمنصور وأخذ يشتكى من لحظة جلوسه ويتسائل بتهكم ماذا يقولون. وراسه تتلفت يمينا ويسرا دون توقف ولا يعينيه انهم لم يشاركوه الحديث أو يمكن أن تقول لا يلاحظ ذلك. وكان يرسل عينيه من مكانه باتجاه مكان النساء ولكن لا يستطيع تمييزهن. وعندما رجع يونس وأشار إليه بحركة من يده تعنى بأن حامد سوف يأتي وجلس بعيداً عنه. فرفع صوته منصور موجها حديثه باتجاه ليونس الغير مستمع له بسبب صخب الفرحة قائلاً: «والعروسة أين هي؟ اليس المفروض أن ننقطها؟». لم يعره أحد مما سمعه أي ردت فعل لكلامه. فنادى على طابيه وهو منفعلي حضر له شاي. وعندما بدأ يحتسى كوب الشاي مال على الدكتور سراج مقترباً من أذنه رافعاً كوب الشاي قليلاً أمامه قائلاً: «عروس حامد أسود من هذا الشراب». أذعجت روح الدكتور سراج لهذا الشر المتبلد الذي أصبح يتوسع داخل منصور وظهر على وجهه دهشة غضب أوضحتها اتساع حدقتيه وهو يلتفت لمنصور. انتبه منصور لعدم استحسان الدكتور لكلماته فأراد أن يصلح من موقفه. فاستطرد قائلاً: «ولكن كما يقولون قرد يسليني ولا غزال يغمني». أفسد جلوس منصور بجانب الدكتور استمتاعه بما يرى ويسمع.

فانغلق على نفسه وسرح بأفكاره. وسيطرت عليه كلمات منصور التي سمعها. التي افسدت مزاجه. وأخذ يتساءل «هل العيب في مفاهيم الجمال أما ماذا عند امثال منصور؟». أنه رأى رضىنة ومن أول لقاء مع أبيها وحامد في مكتب الصحة لمح جمالها الجذاب في ملامحها الدقيقة وعينيها الصافية وقدما النحيف ولكن قومي إذا رأوا السواد اغتموا. مع غرابة الأمر. فمنصور أسمر البشرة ولكن لا يعد ضمن من تعيبهم البشرة لأنهم أغلبية في مصر. العيب لمن اغمقت بشرتهم وهؤلاء يوجدوا فقط في جنوب مصر الاقصى. ويظهروا كفراد أو أسرقليلة في المدن البعيدة عن نشاتهم بسبب عمل أو زواج مثل عروستنا. وتذكر الدكتور عدة مواقف سيئة في حياته البعيدة وقريبة كأن يد منصور البغيضة تقلب في ذاكرة الطبيب وتخرج ما يناسب تلك اليد التي تبحث عن ما يشبهها. فعندما كان في القاهرة كان يسمع ابنته وهي تلعب من رفائها «جه المفتيش عمال يفتيش لقي واحده سودا رماها من الشباك، لقي واحدة بيضا قلها هوس هوس معادنا اتنين ونص» وبدات الذاكرة تجلب من الماضي بنشاط أشياء مشابهة وأخذ يلوم نفسه كيف سمح بذلك أن يحدث أمامه وكيف لم يشتم رائحته الكريهة. واين تعلم الأطفال العنصرية وكيف تلوث فطرتهم ومن سطر لهم هذه الأغاني لينشدوها جماعى. ولعن منصور داخله. فإنه فعلا كأنه مغناطيس يجذب القذورات. وكيف ينسى ذلك اليوم الذى ليس ببعيد عند خروجه من بوابة المستشفى العام بالقصير بصحبة حامد في ظهيرة وقت خروج

الأطفال من المدرسة الابتدائية في نهاية اليوم الدراسي التي تقع أمام المستشفى فوجدوا طفل صغير يبكي بحرقته شديدة ومعه أخته الأكبر منه سنا تذود عنه الأطفال الذين تجمعوا متحلقين حوله. وكانوا يغنون في نشوة بصوت عالي يغضبون الطفل «يا أسود يا بنى اوعا تاكلنى، كلبتنا السوداء تأكل مصارينك». بعد ما أبعادوا الأطفال عنه وداعبوه حتى يوقف بكاءه. علم من حامد أن هذا الطفل الأسود من احفاد رجل اثيوبى، كان طفلا فى مطلع القرن العشرين عندما هرب من مراكب العبيد التي كانت ترسو في المدينة قبل ذهابهم إلى الجزيرة العربية للبيعهم في الاسواق التي كانت تقام هناك حتى بداية السبعينيات من القرن العشرين علانية وتعرض الفتيات الصغيرات والأطفال عرايا للمتفرجين حتى يتم البيع وكان امراء السعودية وقطرهم الأكثر ظهورا في هذه الاسواق ولولا سعى الأمم المتحدة وجماعات حقوق الإنسان لما انتهت هذه التجارة. واحتضن أهل القصير هذا الصبى بينهم واخفوه عن الأمن الذي أراد أن يرجعه إلى أصحابه. ولكن بعد أن يياسوا في عودته. ابحرت المركب دونه وتجاهل رجال الأمن بعد ذلك ظهوره في المدينة. وتغلب العطف والمحبة على الوازع الدينى الذي يأمرهم بعودة العبد الأبق إلى سيده. الحياة مزيج من شدة ولين. وسوف تكون هذه الحادثة مستقبلا ذات تأثير قوى على حامد وسوف تجعله يتخذ قرارا جريئا لاحقا. نعود إلى فرحا الذي قارب على الانتهاء. انتبه الدكتور سراج إلى تهليل الجالسين بالقرب منه فوجد حامد يحيا منصور رافعا كرياجه إلى

أعلى. يتصنع حامد الترحيب. قرأ هذا من كل حركات حامد. فقبل أن يأتي حامد لهم كان يمازح فضائية ويحاول أن يجبرها على الرقص مجددا ولكنها كانت اجهدت فجلس بجوارها على الرمال متلحفا ببهجة ابن مع امه. حتى ازعجت اضواء سيارة منصور العالية عين فضائية، لأن منصور ترك الضوء العالي لحظات مركزا على تجمع الفرخ غير عاب بهم. فسألت فضائية: «من هذا الغبي؟». فأجاب حامد ضيف قادم. فضنت سيدة الحلبية الجالسة بجانب فضائية بعد أن أنهت لقاءها مع نساء العدو أن حامد لا يعرف أنها سيارة منصور فتتطوعت بالإجابة قائلة بصوت مرتفع: «إنها سيارة منصور ناصر». فكان ذكره مؤلما لفضائية لأنه ذكرها بسنوات بعيدة بأبيه الصول ناصر وكيف ظلمها وظلم ابنها الذي انفجر فيه اللغم. فقد أجبرهم عند حدوث هذه الفاجعة أن يبصم زوجها على محضرا عده بنفسه بأن ابنها شقى واشتهر بأنها يستخدم اللغام والديناميت في صيد الأسماك. واجتمع اكابر القوم من أهلها على أنها لا بد أن تقبل ما حدث والحي أبقى من الميت. وهل سيفرق في فاجعة الفقد كيف مات ابنها. وتفهموا مقاصد الصول ناصر بأنه استحال أن يتم غير ذلك. وأن لم تقبل هي وزوجها ما يقوله الصول فسوف يترك أشلاء ابنها في العراء لتاكلها الكلاب. واعتقدت لاحقا في مقتل الصول ناصر على شاطئ البحر بأنه عقاب الهى. ولكن مع الأيام تخلصت من ذلك وبقي ذكريات الوجه الكريه وإصراره على ما سطر.

انتهت ليلة العرس ولم يبق إلا الأقارب وأبناء القبائل القادمون من خارج المدينة. سلم عليهم حامد وودائعهم واتجه إلى بيته ماشيا في خطوات بطيئة لا توحى بالعجلة. انتهت ليالي الفرح كما اعتادت الأفراح أن تتم وتذكر حامد كيف كانت مخاوفه من تغير طباعه نتيجة لما رسخ في ذهنه في السنوات القليلة الماضية. ولكن كل هذا تلاشى بمجرد رؤيته لأهله وأصدقائه القدامى من وادي خريت. واندمج معهم كأنه لم يتركهم ليلة واحدة. مثل من تعلم القيادة ولم يمارسها لمدة طويلة لسبب ما. وعندما وضع على عجلة القيادة لم يتكلف الأمر إلا ثوان معدودة حتى يسترجع قدرته على القيادة. وجد فضاية عند باب بيته. احتضنته وهي تحاول أن تحبس دمعاتها وتكتم بشالها فمها حتى لا يخرج صوتا. فاندفع بكاء ممزوجا بفرحة. أنزلها عتبة البيت وخط معها بضعة خطوات. وبعدها رجع إلى داره وهو غير مصدق أنه يغلق الباب ليوقف بعض من الصخب والجلبه التي بالخارج التي ملأت أذنيه. واستمتع بهدوء البيت ودفئه وعطر الصندل الذي يفوح من السمرات الرشيقة التي وصلت قبله. لا يستطيع أن يستوعب استيعابا كاملا أنه بعد لحظات قصار سوف يستكشف التضاريس الناعمة والكهوف والوديان البعيدة ذات السحر الأبدى.

\*\*\*\*

مر أسبوعين بسرعة البرق للزواج وهو ينهل من بحر رضى العذب دون ملل وأبهرته بحريتها الغير متوقعة من فتاة آتية من

الصحراء. فكانت جريئة في حبها وعنيفة أحيانا تقاتله. ولكي يسيطر على انفعالها فلا بد له بأن يستخدم قوته العضلية. ومع الأيام علم أنها طبيعية في عالمها. تظن أن كل النساء مثلها. فتركها على سجيتها ولم يحاول أن يوقفها أو يثبط منها. وكان يحدث نفسه وهو ينظر إليها في لحظات صراعها معه. بأنه لو تزوجها أولاً أو من بضعة سنين لظن بها الظنون أو ارجعها إلى أهلها كما يفعل غيره. وعندما بدأ حامد في الخروج من البيت إلى العمل. احتفرت في قلبه نقوش جديدة. وأخذ عقله ينعش روحه بما وجدته في رضينته ويخبر جسده ماذا وجدت في هذه النحافة الجميلة المساء.

أما هي فقد تعلقته به وشعرت بالسكينة معه ولم تشعر بأي غربة معه. كأنها تعرفه منذ الصغر. لم تنزعج لسفر أمها بعد بضعة أيام من زواجها. ومظاهر هذا أنها كانت تدمع عينيها وهي بمفردها أثناء عمل منزلي أو إحضار طعام وتقبل يديها وتنظر إلى السماء بامتنان. شاكره لله على ما حدث لها. وكانت تتلمس دائماً الحجاب الذي وضعت أمها في ذراعها في أول ليلة رحيل لها من حفايت متجه إلى القصير. ولم تنزعج أبداً حتى في لحظات الحميمية. اثبتت رضينته مع الأيام الأولى أنها جديرة بالحياة الجديدة. الإنسان قابل للتغير والتطور إذا أراد وأحب هذا التغير. ولكن لا بد أن تكون هناك قاعدة يبني عليها. برغم من قدومها من مكان بدوي في الصحراء، بدائي في مجمله، سيطرت عليه حياة التقشف جبراً وليس خياراً وطوعاً. كانت رضينته

كزهرة التي تشع نورا من جمال مظهرها غير عابه بالارض التي نبتت فيها. فهي شعلت نشاط لا يهدء. تحاول بكل السبل أن تجعل المكان الذي تعيش فيه جميلا على قدر معرفتها بالجمال. نظيفا أكثر من من حولها من البيوت. كانت مثل عامل أفريقي في مدينة أوروبية يحاول أن يتشدد على نفسه حتى لا يرى أحد فيه تقصير. جعلت الرمال التي حول البيت وأمامه حتى ماء البحر صافيه دون أي شيء يزعج لونها الأبيض من أحجار أو بقايا معلبات معدنية صدئه. وكانت تمشطها أحيانا بجروف معدنى. صنعه حامد مخصوص لها ببقايا حديد تسليح في عمله عندما وجدها تستخدم يديها. حتى القلط كان لها نصيب في نشاطها. فقد جعلت لهم موقدا من الأحجار لتطهو فوقه بعض أنواع الأسماك الصغيرة وبقايا الأسماك الكبيرة وبعض الأصداف في صفيحة معدنية، أخذتها من الصفائح المكدسة وراء البيت التي يصنع منها حامد السيارات للصغار في أوقات فراغه قبل غروب الشمس. وكانت تسعد بجلوس الأطفال حول زوجها وهم في انتظار إنتاج السيارات وتسرح بخيالها باليوم الذي سوف ترى فيه طفلها ينتظر سيارته. وزاد تعلقها بهؤلاء الأطفال يوم عرسها. عندما أتوا منظمين من القصير لفرحها ليشع جو بديع لم تشهده الأفراح قبل فرحها. فقد حضروا بعد الغروب بقليل وما زال نور الشمس يقاوم ظلام الليل بسيارتهم الصفيح ذات الأشكال والألوان المختلفة. وقد صفهم أكبرهم سنا ليشكلوا قافلة من السيارات المتتابعة. ولبسوا على وجوههم ملامح الكبار من الجد وكانت الابتسامات

تتسرب منهم رغم المحاولات لكبتها. وهبطوا من الشارع الأسفلتى على العدوّة كأنها زفة بالسيارات حقيقية وأخذوا يصفرون بأفواههم ويدورون في حلقات بالقرب من العرس. وقبل أن يهم أحد بزجرهم. قام حامد لهم واقترب منهم محيا لهم بسوطه. فزادت نشوة الأطفال وهاجت مشاعرهم وفرحوا بصنيعهم وأطلقت فتاة زغرودة افريقية كانت تشاهدهم بالقرب من رضىنة فتبعها بعد ذلك باقي النساء. وأصر حامد بعدها على أن يقدم لهم طعام على الرغم من عدم تقبل بعض من من كانوا موجودين من كبار السن. وأحضرت الصوانى لهم وتغذت مشاعرهم قبل بطونهم.

اثررت رضىنة على حامد دون قصد. فقد محت بقدميها الصغيرتين أثار الزوجة السابقة. أكانت أثار سعيدة أو سيئة. وجعلت مخاوف حامد من الزواج تتلاشى كأنها لم توجد في ذهنه. لم تعترض على شيء فيه ولم يعترض على شيء بها. حتى أنه أخبرها أنه يجب أن يحتسى أحيانا النبيذ. لم يجد عندها رد فعل كأنه أخبرها أنه يدخن أو أنه يمضغ السعوط.

\*\*\*\*

تأخر علاج سالم من قبل الشيخ هارون بسبب مشكلة له في عمله اتبعها أمر لا يخصها قد شغل أغلب وقته بعد رمضان. المشكلة هي مدير الأوقاف بمحافظة البحر الأحمر. هذا الرجل لا يطيق الشيخ هارون نهائيا. وقد تتطور هذا الكره وتتضاعف مع الأيام خلال السنوات الأخيرة التي قضاها الشيخ هارون في القصير

مع وصول هذا الرجل إلى هذا المنصب. فهو قادم من شمال مصر لشغل الوظيفة ومع مروره الأول في مدن المحافظة لم يستطع الشيخ هارون نهائياً. ويرجع ذلك بسبب هيئة الشيخ هارون التي تدل على مشربه العقائدي. فالشيخ هارون كما هو معروف وجلي أنه يتبع التشدد في تدينه الظاهري مثل الوهابية في الجزيرة العربية. فشاء القدر أن يكون المدير صوفى الهوى. فالأثنان لا يجتمعان في مكان. فالصوفى إذا قدر على الوهابى نغص عليه حياته وبعد عنه واجتنبه، أما الوهابى إذا قدر وأصبح الأمر بيده لقتله وهو سعيد تقرباً إلى الله بدمائه وابتغاء مرضاته. وبالرغم من محاولات الشيخ هارون للتودد من هذا المدير وتقليم شوكته. راحت كلها هباءاً. وظهر هذا العداء جلياً عندما مر شيخ الأزهر بالقصير. ولما يحدث قبل ذلك أن أتى من تولوا مشيخة الأزهر إلى هذه المدينة النائبة. واستراح فيها لمدة يوم وكان في طريقه لزيارة مقام العارف بالله أبو الحسن الشاذلى. فكان في صحبته مدير الأوقاف وعدد من كبار الموظفين في المحافظة. وكان يومها الشيخ هارون كنحلة نشطة تطن حول خليتها. مثل خادم في مطعم يجرى هنا وهناك منزعج أشد الانزعاج داخله خوفاً من تقصير يصيب ضيوف المطعم المهمين. ونسى يومها هيئته الأزهرية وما يلزمها من وقار. وبالرغم من الخدمة الحسنة والهمة في الاستجابة من الشيخ هارون التي اشاد بها كل من حضر يومها. إلا أن المدير لم يترك المناسبة تمر دون تعكير مائها. فنادى المدير عليه وهو جالس بجانب شيخ الأزهر في نهاية المساء بعد أن غادر معظم الذين أتوا ليسلموا على

شيخ الأزهر وأصبح المكان هادئاً. فأتى الشيخ هارون مهرولا من مكانه فقد كان قبل النداء بجانب بعض العمال التابعين للمساجد القصير، يشغل نفسه بحديث ودى معهم كأنه صديق لهم على غير العادة يستمع إليهم ويجيب على بعض التساؤلات الدينية في الشريعة التي تخص الحياة اليومية في لطف وبشاشة، مثله مثل من ينظر إلى السقف عند حضور مناسبة لا يعرف فيها أحد، فينبهر بالديكور العظيم ويود في هذه الليلة لوقابل المهندس المعماري ليصافحه على هذا العمل المبدع. لذلك عندما سمع النداء نسي المعماري والسقف. واقترب في تتضرع ظاهر أمام المدير وشيخ الأزهر الذي كان ينظر في الأرض. فابتسم المدير إليه ابتسامته تنم عن خبث واضح وأن ندائه ليس خيراً. وأخذ يشكر في الشيخ هارون وراسه تتجه تارة إلى شيخ الأزهر وتارة إلى الشيخ هارون. وكل هذا الكلام لا يعنى الشيخ هارون الآن فهو منتظر من أي جانب سوف يلدغه. لأن نعومة الثعبان لا تعطى الطمائينة حتى وصل الثناء عند قول المدير: «أن الشيخ هارون يحفظ القرآن كاملاً والموطأ ولكنه لا يحسن تاويله، أتعلم يا مولانا. قاصدنا شيخ الأزهر. أنه يحرم زيارة الأولياء وللأسف يعلم الناس ذلك». صمت المدير وارتد ببصره بخبث إلى الشيخ هارون الذي ظهرت عليه علامات الغيظ المتحفظة ممزوجة بالارتباك ولا يعرف بماذا يرد. هل ينكرو ويتأخذ التقيه كالعادة حتى ينجى نفسه من هذا الفخ الذي نصبه إليه هذا القبوري أما يقول الصراحة ويدافع عن عقيدته السليمة. لم يجعله شيخ الأزهر

أن يختار أي حل منهما. حتى استئذان شيخ الأزهر منهما متعللا  
بكبر سنه وقام حتى يلتمس حجرته التي سوف يقضى فيها ليلته  
متجاهلا ما سمع من المدير. فبالرغم من إحراج مدير الأوقاف إلا أن  
مظهره البائس بسبب ما فعله شيخ الأزهر. جعل الخوف يملك  
الشيخ هارون من هذا الرجل أكثر. فانكسار مدير الأوقاف أمام  
الشيخ هارون سيزيده غلا وحقدا. فقد ترك هذا الموقف في نفس  
الشيخ هارون أثرا سيئا واقلقه ليالى عديدة ومع الوقت وتسارع  
الأيام نسي تلك الأمسية. ونزف الجرح القديم بضربه جديدة وهي  
تأخير علاوة يستحقها لم يجد اسمه في قائمة من شملتهم، فعرف  
أنه هو وليس غيره وتأكد من ذلك عن طريق عامل بوفيه في  
مديرية الأوقاف من القصيرية يعمل في الغردقة. نحيف له وجه  
عريض ممتلئ التجاعيد وذوقامة طويلة لكن لا تشعر بارتفاع  
القامة بسبب وضاعة صاحبها. صلى وراءه في شهر رمضان وأخبره  
بماذا قال مدير الأوقاف ذات يوم في ممر المديرية بين مكاتب  
الموظفين وأمام بعض المواطنين الذين ياتون في طلبات خاصة  
لهم. استحضر العامل شخصية المدير مقلدا إياه برقبته الزرافية في  
صوت منخفض في هيئة صوت مرتفع بأنه قال: «أقسم بالله أنني  
سوف اجعله قريبا في عمل ادارى أو يرجع إلى قريته التي أتى منه،  
الشيخ هارون. يتهكم العامل كأنه المدير عند نطق الاسم. شيخ  
القصير يا سيدى، يجرى وراء العاهرات». وبعد أن ذهب العامل  
مسرورا بعمله المزدوج لأنه هو من أخبر مدير الأوقاف بما حدث من  
أمريينات في المستعمرة.

فأصبح ليس هناك بد من أخبار صديقه الحج فاروق. وفي أكثر من لقاء لهما أما في المسجد أو بيت الأوانجي أو حول مائدة الإفطار حاول أن يفصح عن همه ولكن التردد كان يمنعه. يحاول أن يجد الوقت المناسب. خوفا من عدم اهتمام الحج وانشغاله عنه في مشروعه الجديد في الغردقة أو عدم مساعدته مثل السابقة القريبة عندما طلب منه أن يوقف عيد النصف من شعبان عن طريق علاقته. وأكثر من مرة رسم الهم على وجهه وأظهرت ملامحه الغم والحزن ولكن هيات للشخص ذو سماكه غليظه تعلق جهاز المشاعر والحس عنده مثل الحج فاروق بأن يشعر بمن حوله أن أصابهم تعب أو مصيبة. فأمثاله يعيشون لأنفسهم فقط ولا تصل إليهم معاناة إلا لو جربوها بأنفسهم.

وعندما اشتد الضيق بالشيخ هارون وأحس أنه لا مفر في القول المباشر. أخبره بعد دعوة الإفطار التي أقامها فاروق لضباط قسم الشرطة وموظفين مجلس المدينة بما يزعجه ويرق ليله. لم يصغى إليه باهتمام في هذه الليلة فاروق وأصاب الشيخ هارون بشيء من الاحباط من سرده للمشكلته وندم أثناء أخباره وود أن يصمت في منتصف حديثه ولم يستطيع أن يبدى أي ملامح من الضيق تجاه عدم الاكتراث الواضح من الحج فاروق ولكنه كان خجلا مثل من يلقي على المستمعين فكاهة فيجد أثناء سردها أنه فقدتها وفقد دعابته والمستمعون يثقلونه بنظراتهم ويتمنى أن يقف ولكنه يتورط باحثا عن مخرج يجلب السرور فلا يجد. ولكن ما حدث بعد ذلك دفع الشيخ بالاعتقاد بأنه

كان على خطأ. وأنه قد رمى صديقه بالظلم. فقد أرسل إليه الحج فاروق أخوه منصور ليخبره بأنه عليه أن يحضر إلى الغردقة في يوم محدد من الايام الاخيرة في شهر رمضان بخصوص قصته مع مدير الأوقاف وأنه سوف يرسل إليه من يحضره من موقف السيارات الأجرة في الغردقة عند وصوله على أن يكون في الظهيرة. قطع اعتكافه الذي لا يفكه موت عزيز وترك المسجد وسافر مخبرا بقية المعتكفين بأن هناك أمر جليل يخص العمل واستحضر معظم مقولات العمل عبادة التي يحفظها من الكتب الدينية. وساء لهم صالح الدعوات ليرجع إليهم وهو متم عمله.

دارت في ذهنه من وقت أخباره منصور بالميعاد جميع الحلول المتوقعة والخيالية. وأن صديقه أصبح ذا شأن في المحافظة كلها ولا بد أنه وجد الطريق المناسب ليزود عنه ما يعانيه من ذلك المتصوف العفن. وكما أخبره منصور وصل الغردقة وانتظر في الزاوية الضيقة البائسة التي في الموقف وبعد أن انتهى من صلاة الظهر. وجد شخص يسأل عليه باسمه بين المصلين. يبدو من هيئته المزرية بأنه عامل بسيط عند فاروق. هذا ما استشفه الشيخ هارون وأيضا بسبب الطريقة التي يتعمد اظهارها هذا الشخص في لقاءه به والتي بها إذلال لنفسه ظنا منه أنه تهذب وقمة الأدب. و كما توقع كان سائق على عربية نقل صغيرة تابعة للمشروع إقامة الفندق. اصطحب الشيخ هارون إلى مكان إقامة الحج فاروق أو فاروق بك كما قال السائق. ولم يجد الشيخ هارون فاروق في

البيت ولكن وجد رجل عجوز منتظره هو الطباخ. استقبله وأخبره أن يستريح ويستطيع أن يستخدم غرفة دله عليها بها حمام خاص حتى يحضر فاروق بك. المنزل أو الاستراحة كما يسميها فاروق هي عبارة عن بيت به خمس حجرات ومطبخين وثلاث حمامات. سقفه خشبي مثل البيوت الأوربية مثلثة ويحيطه حديقة مهمة يحيطها سور خشبي ارتفاعه لا يتعدى المترين. على الرغم من بساطة الاستراحة وافتقادها إلى أي جمال بسبب قذارة من سكنوا بها سابقا وقلّة خبرة من يقوم على النظافة بها حاليا، إلا أن كل هذا لا يلحظه الشيخ هارون بل رآه على أنها غاية المنتهى. وانتاب الشيخ هارون بعض الوجع الخفيف في امعائها بسبب الرهبة التي شعر بها من كلمات الشخصين الذين قابلهما. كأنه أتى للقاء شخص آخر ليس الحج فاروق. ولم ينتظر كثيرا حتى سمع صوت الحج فاروق يدخل البيت. وخرج الشيخ هارون من حجرته عندما وصل إلى إذنيه أنه سأل عليه. قابله فاروق بترحاب كأنه لم يراه منذ وقت طويل واغدقه بالترحاب ثم رافقه إلى الجلوس في بلكونة جانبية ظليلة. ولم يطيل عليه في أخباره بأن الليلة سوف يبعد عن طريقه ذلك المدير إلى الأبد. ولم يستوعب الشيخ هارون ما حدث به إلا عندما أفصح الحج فاروق بأن المحافظ عندما علم بهذا الموضوع وأنه صديق له. أصر على أن يزيل الخلاف بنفسه وأن يفطر معهم المغرب الليلة. فلقد اعد فاروق مائدة فخمة للمحافظ وكل من حوله من موظفين كبار في قطاع الحكومي في موقع بناء الفندق بناء على رغبة المحافظ. انفرجت

اسارير الشيخ هارون بالغبطة وجال في خاطره أكثر من مرة في لحظات متفرقة أثناء استماعه إلى الحج فاروق أن هذا ليس حقيقى وأنه حلم. ويهزرجليه وهو جالس واضعا ذراعيه بينهما قابضا كفيه كشخص يشعر بالبرد وهو ينظر في ذهول. وعندما سأله فاروق عن رأيه فيما قال، رد عليه كمن يهمس مقربا رأسه إليه قائلا: «أمتأكد أن المحافظ بنفسه أخبرك بأن أحضر؟».

- أكذب عليك؟ إنك لا تعرف قدرى؟. وأبدى فاروق بعض الاستياء الكاذب مستطردا: «أنت لا تعلم جيدا ما بيني وبين المحافظ، اترك القصير وراء ظهرك وانظر اليوم حال صديقك هنا».

وعندما هم الشيخ هارون بكلام. أشار عليه فاروق بأن يتوقف لحظة ورفع صوته ينادى على الطباخ العجوز بصوت مرتفع به اهانته تدل عليه بعض الالفاظ النابية. وعندما أتى الطباخ زجره فاروق لعدم ذهابه حتى الآن إلى موقع البناء ليساعد في أعداد المائدة، وبعد أن أختفى الطباخ مهرولا دون أي تعقيب، التف فاروق إلى الشيخ هارون متسائلا عن الحديث الذي قطع كأنه نسيه. فادرك الشيخ هارون أن صديقه مستاء من تسائله السابق فقال: «لا تغضب منى يا حاج فاروق، فالاستغراب أتى من ناحيتى وليس من جانبكم، فأنا رجل بسيط لم يعتاد لقاء عليّة القوم ولكن كان يجب ادراك ذلك عندما عطفت على مثلى بصحبتك». فقاطعه فاروق منكرا حديثه الذي أعجبه. ولم يمهله ليكمل قائلا: «أنت صديق لي وعندما أخبرت المحافظ على

علمك وقراءة القرآن بتجويد لا يضاھيك أحد ولسانك الفصيح في خطب الجمعة وبعدها افصحت عن مشكلتك، فكان رده بأن تصلى بنا صلاة المغرب جماعة». فايقن الشيخ هارون بعد أن تركه فاروق ليسترح أن عهدا جديد له هو أيضا بدء. ولم تغمض عينها وهو بمفرده في الحجرة برغم من اعتياده النوم لساعة أو أكثر في وقت الظهيرة. قضى وقته يفكر في أمور لم تشغل ذهنه في السابق مثل الآيات التي سوف يقرأها في صلاة المغرب وأن تكون سهلة النطق لا يوجد بها أي لبس في احكام تلاوتها وأن عليه ألا يطيل في الصلاة وفي نفس الوقت لا يكون قصرها معيب، وانتبه إلى حذائه بأنه مترب وجار عليه القدم فاخذ يلمعه بقدر المستطاع.

\*\*\*\*

وأتى وقت الذهاب إلى الموقع قبل ميعاد الإفطار بساعة. كان الجو لطيف في هذا اليوم لا هو بالحرار أو بالبارد. وصل فاروق بك والشيخ هارون إلى موقع البناء. كان في جنوب مدينة الغردقة. مساحة كبيرة على شاطئ البحر. تقريبا خالية لا يوجد بها إلا كثير من أكوام الخشب الذي يستخدم في البناء يظهر هنا وهناك وما زالت الأرض على حالتها محتفظة بهيئتها الطبيعية من ارتفاع وانخفاض ويوجد أيضا عدد من الكرفانات ذات اللون الأبيض في أول الموقع بالقرب من الشارع الأسفلتى. وصوان كبير على هيئة خيمة كبيرة بالقرب من الكرفانات. ولا تظهر نتائج العمل

إلا في سور من الطوب الأسمنتي بدأ بناؤه وقد تم تحديد الجانب الشمالي كاملا من أول الشارع الأسفلتي حتى الشاطئ وقد ساعد هذا السور على تصور كبر المساحة وضخامة المشروع، لأن السور في حد ذاته عمل ضخيم. وعندما ارتجل فاروق بك والشيخ هارون من السيارة، هروا باتجاه فاروق بك عدد من الأشخاص يتضح من ملابسهم وملامح التعليم الذي تظهر على وجوههم بأنهم مسئولون عن العمل، بعد تحييتهم رفع فاروق يده ملوحا بالتحية للعمال الذين تجاوزوا الخمسين عاملا على الأقل الجالسين على الأرض عن بعد جماعات متقاربة يستظلوا بالسور مجهدين من العمل الشاق طوال النهار. انتصب معظمهم واقفا وخصوصا كبار السن لرد السلام من أماكنهم، العمال من القصيرية كانوا لا يجيدوا فن المداهنة والتملق لفاروق بك. علم الشيخ هارون أن الخيمة الكبيرة هي مكان الإفطار، فعندما دخلها وجد بها مناظير كثيرة متراصه بشكل منضدة واحدة طويلة تتسع إلى مائة شخص على أقل التقدير. وزال العجب من اتساع المائدة عندما علم من فاروق أن المحافظ أصر على إفطار العمال معه على منضدة واحدة. ولكن كانت هناك فوارق وضعت. فلا المحتوى أو طريقة العرض كانت كلها متشابهة. المائدة كلها على نفس مستوى الارتفاع فقط أما فرش المناظير والمقاعد والطعام وترتيبه كان هناك اختلاف. فطعام العمال تم طهيه في موقع العمل. أما طعام الضيوف تم جلبه من فندق سياحي يفضل المحافظ التواجد فيه أغلب وقته. أما اصرار المحافظ على إفطار العمال معه فهو مشهد متبع رخيص وسهل.

يدل على العطف والرحمة من ناحية المسئول الكبير ويعشقه البسطاء من غالبية ساكنى مصر بأنهم تناولوا الإفطار مع أكبر مسئول فى المحافظة ولا يملون من سردها لأبنائهم وأحفادهم وكيف كان يتبسط معهم الحديث ويعدونها بأنها عين الاهتمام منه. وأيضا وجودهم ضرورى لتسهيل والاصطفاف حوله. أما شيخنا فقد تشابكت الانفعالات المزعجة داخله مكنه ألم يعتصر امعائه. وصراع بين التوقير والاجلال الذى وجده من كل من قابلهم حتى الآن بسبب صديقه وبين مخاوف طفت على السطح بأنه قد يكون هو مدعو مثل هؤلاء العمال ولن يزيد الأمر عن ذلك. وأن أوهامه هي فقط من هيئت له اماله العريضة. انتبه من غفلته عن ما يدور حوله بيد فاروق تجذب ذراعه ليتقدم معه ليستقبل المحافظ وصحبه. توقف موكب السيارات وفتحت أبواب السيارات وخرج منها مستقليها ولكن لم يتركوا أماكنهم بجانب السيارات حتى تقدم المحافظ فى بزة فخمة ونظارة تغطى نصف وجهه وتبدو عليه الهيبة المخيفة التي تناسب دول الشرق الاوسط. تقدم فاروق نحوه تاركا الشيخ هارون فى مكانه الذى تسمرفيه كوتد خيمة. وانحنى فاروق فى إذلال يزيد علو لمن شاهده من الحاضرين ليسلم بيده على المحافظ وبعد ذلك وضع المحافظ يده اليمنى على كتف فاروق تغبطه لذلك الناظرون وأخذ يسأل عن حاله بكلمات مجامله وفاروق يرد بأن كل الأمور فى تمام ما دام رضى سيادته يحفه. الأهمية فى هذا الموقف أن يستمر فاروق فى تحريك شفتيه بالحديث مع المحافظ أمام الجميع. حتى وصل إلى

مكان الشيخ هارون الذي كان ينتفض جسده كله من الموقف. فقدمه فاروق للمحافظ وقبل أن يذكر اسمه عاجله المحافظ بأن قال: «الشيخ هارون اكيد أهلا وسهلا». لم يتذكر الشيخ هارون بأنه فرح قبل ذلك بشيء مثل تلك اللحظة. وعندما نادى المؤذن بصلاة المغرب في المكان الذي اعد للصلاة بفرشه بسجاد على الأرض على يمين الخيمة. تقدم أحد المعدين للمائدة بطبق به بعض التمر. لم يأخذ منه المحافظ إلا بعد أن أشار إلى مصاحبيه بأن يأتوا متعجبا لماذا تأخروا حتى الآن بجانب السيارات. كأنه لا يعلم أنهم لا يستطيعون أن يتحركوا إلا بإذنه. وبعد أن تناول بعض مما في الطبق اتجهوا إلى مكان الصلاة. نسى الشيخ هارون أمر الأمامة أو قد تقول أن غبطة المقابلة وزحمة الحضور دفعته ليفضل السكون في مكانه بالقرب من فاروق بك الذي بدوره بجوار المحافظ. حتى أزال الصمت المحافظ بأن قال: «تفضل يا شيخ هارون». وكل هذا ومدير الأوقاف يلاحظ الموقف عن قرب ولا يصدق ما يرى. ولم يعلم بأن الصلاة قد انتهت إلا بأن وجد يد من بجانبه تمتد لتصافحه بعد الصلاة. فمدى إليه يده دون أن ينهى صلاته بالسلام المفروض. وقام بعد ذلك ليسلم على المحافظ الذي صافح كل الموجودين حتى العمال. وبعد ذلك أخذ يدور برأسه بحثا عن الشيخ هارون. حتى وجده قريبا منه أمامه مباشرة. وقد لمح الشيخ هارون بأن المدير يفتش عنه ولكنه أبدى انشغاله بالجمع. وما هي إلا لحظات لا تتعدى الثوان من التقاط عين المدير الشيخ هارون وإدخال ذراعه تحت إبطه كصديقين وفيين. وعندما هما

الشيخ هارون بأن يعدل نفسه لمصافته لم يتركه المدير ودفعه برفق ليتقدم معه متجاورين للمائدة دون أن يترك ذراعه قائلاً في عتاب جلي لا يصلح إلا بين الأصدقاء المقربين: «هل يصح أن تأتي إلى الغردقة ولا تزور مديرك». وابتسم في خجل مصطنع الشيخ هارون كأنه يقرب بخطئه. وجلسا متجاورين لا تفصلهما عن المحافظ إلا بعض المقاعد القليلة التي خصت لأقرب المقربين منزلة للمحافظ في المحافظة من العسكريين وكبار الموظفين. وكان حديث المحافظ يصل إليهم جليا واضحا حتى حظى الشيخ هارون ببعض من رشفاته واستلذ به. فقد وجه الحديث ناحية مدير الأوقاف وهو يتساءل بإعجاب قائلاً: «هل مستوى مشايخ الغردقة مثل حال الشيخ الذي بجوارك؟». فتوقف المدير عن الطعام وازدرد بسرعة ما كان يملأ فمه فاحمرت عيناه بسبب البلع واعتدل في جلسته موجهها حديثه إلى المحافظ منكرًا أن يوجد مثل الشيخ هارون في كل المحافظة وأن القصير محظوظه به. وأنه جبل في الورع والتقوى وله مستقبل باهر وأن له اليد العليا في دعوة الناس إلى طريق الحق. وأيقن الشيخ هارون أن مديره قد تبدل بشخص آخر تماما. وكانت الضربة القاضية التالية لصرع الشخصية القديمة الكاره للشيخ هارون داخل مديره في نهاية الأمسية عندما علم من بعض النميمة التي وصلت إليه من بعض الحاضرين بأن المحافظ دعى فاروق بك والشيخ هارون لشرب الشاي في منزل المحافظ.

\*\*\*\*

جلس فاروق بك والشيخ هارون على كرسيين مريحين مصنوعين من البامبو من الكراسى التي حول منضدة صغيرة في حديقة منزل المحافظ فوقها أنواع من الفاكهة وبعض المشروبات المثالجة التي أخذ يعبان منها بشغف منتظرين المحافظ ليخرج لهما مجدد بعد إن كان معهم منذ قليل. زالت الرهبة عند الشيخ هارون وإن كانت به غصة داخله من مظهره الذي اكتشف أنه غير مناسب وقد لاحظ قدمه ملبسه. قاما من المقاعد بصعوبة عندما أتى المحافظ. وبدأ الحديث المحافظ قائلاً: «لن أطيل عليكم فإن الليل انتصف، إنى جمعكما لأمر مهم في القصير. تعلمان بالطبع عضوين مجلس الشعب في مدينتكما ولا أخفيكم أنني لا أطيق أي منهما، فعضو العبادة يتفاخر بالقطيع الذي يجمعه في أيام الانتخابات والأخر يتباهى بعلاقاته ببعض الكتاب والمثقفين في القاهرة. وأن كنت لا أعولهما لعضو العبادة ولكن أجد أن تهماي قد يكون عقبة في مسيرة التنمية التي أرغب بها في المحافظة للنهوض بمستوى المعيشة، فأنا أحدثه عن المشاريع والنهضة السياحية وهو في وادٍ آخر يحدثني عن تلوث ماء البحر من شركة الفوسفات». عند هذه الجملة توقف لحظة وهو يرسم الاستغراب في ملامحه الكبيرة الواضحة ويستطرد في الحديث وهو يوجه كلامه إلى مستمعيه الاثنين - الذان كانا في أشد درجات الانتباه كأنهما يصوبان البنادق - متسائلاً: «هل أقفل الشركة بسبب هذا التلوث وأشرد الأسر، وتارة يكلمنى عن الهوية المصرية والصعيدية - إضافة الصعيدية ما هي إلا استهجان

وتندرد- فلا بد أن أنشئ محطة لبث التليفزيون المصرى كأن التليفزيون السعودى أصبح عدوانا، أمثالى يسعون لجعل الناس يعملون وينتجون وهذا يريد المسارح والأفلام». توقف المحافظ عن الكلام توقفا يتضح منه أنه أراد تعقيب منهما عن ما أخبرهم به. فنظر فاروق بك للشيخ هارون ليتحدث. فاستأذن طالبا القول من المحافظ بأن يبدي رأيه فأشار له المحافظ مشجعا وهو يتناول تفاحة من طبق أمامه ويبدأ في تقطيعها بالسكين فقال: «فعلا يا سيادة المحافظ أن العضوين ليس لهما قيمة نهائيا في المدينة وإنما هو هذا ما وجدنا عليه آباءنا، فعضو العبادة هين ولا ينفع ولا يضر أيضا، أما الخطر كما ذكرت هو من تهامى- ذكر اسمه دون اللقب- فإنه صاحب فكر ملوث، منذ قدومى إلى القصير لم أراه يسعى في أمر مهم يبتغى مرضات الله ورسوله، إنما ينشط في أمور مثل الدورات الرمضانية لكرة القدم للصغار السن التي فيها مضيعه للوقت في هذا الشهر الكريم، وأنى لا أحب أن أخوض في الأعراض ولكن له بنت متبرجة في أول العشرينات تتباهى بملابسها القصيرة في المدينة ويقلدها كثيرات فى المدينة».

قاطعها المحافظ وهو يبتسم ابتسامته بها خبث كأنه تذكر شيئا قائلًا: «ماذا تفعل لو كنت رأيتها بالميوه في شاطئ فندق قريب من هنا منذ شهرين مضى».

فنظر فاروق بك والشيخ هارون لبعضهما وهما يرددان: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وأضاف فاروق بك معقبا باستغراب قائلاً: «بالمأيوه». وعينيه حدقتهما اتسعتا على آخرهما والاندھاش الممزوج بالتشفي في الأستاذ تھامى فهو لا يطيقه.

فارتفع صوت المحافظ مجددا فصمتا بانصات فقال: «لو علمتم ماذا طلب منى من عدة أشهر». أخفض صوته واقترب برأسه باتجاههما مستطردا: «لكنتم قتلتموه». وصمت وتركهم ثوان لتتملكهم الحيرة ثم أكمل حديثه قائلاً: «قابلنى في مكتبى ومعه بعض الأوراق وأنه يريد موافقتى على تخصيص قطعة أرض بجوار مقابر المسيحين بالمدينة عندكم لكى تبنى كنيسة عليها، هل رأيتم قذارة أكثر من هذا وأنه يحضر ملف كامل ليأخذ عليه تاشيرة من رئيس الجمهورية».

لم يتفوه أي منهما بأى شىء، فالاثنان ذهبا بخيالهما إلى تلك القطعة التي يقصدها بالقول المحافظ، فالشيخ هارون يعلمها تماما. لأنه دائما يحس الناس على الإسراع بالمرور عند القرب منها. انتصب ظهر فاروق وهو جالس وهو يتلفت في استغراب مما سمع فقال: «لابد أن تكون هذه الأرض هي القطعة الشمالية». فانفعل المحافظ بوجه مختلف عن وقت بدأ الحديث، قد يكون أصابه التعب وأراد أن يعجل في إنهاء اللقاء ويتجه إلى الهدف الذي رسمه في ذهنه مسبقا فقال: «ليس المشكلة في القطعة الشمالية أما الجنوبية، ابعث لي يا شيخ هارون طلب ببناء مسجد في نفس المكان وسوف اضع تاشيرتى على الطلب بالموافقة

ونبطل ترتيباتهم، في النهاية أريد أن أخبركم أن اتخذت قرارا مهما ويجب أن تساعدنى على تنفيذه». ثم نظر إلى فاروق بجديّة لشوان ثم أردف قائلا: «جهز نفسك يا فاروق لعضوية مجلس الشعب بدلا من تهامى، ما دام ذكرك عندي بالسوء في هذا الشهر الكريم فأنت أولى منه بكرسى البرلمان». وكانت هذه الكلمات الأخيرة كافية لمليء فاروق أكثر كرها وبغضا للأستاذ تهامى ولم يجد الخبر السعيد الذي حلم به منذ أعوام عديدة مكانا في صدره في تلك اللحظة. فانقبض قلب فاروق وسرح للحظة «أي سوء هذا الذي يستطيع أن يذكره للمحافظ عنى، كنت أعلم أن هذا الرجل يكرهنى ولا يطيق أن أجتمع به منفردا». بنظره واحده للمحافظ والشيخ هارون الذي انشغل مصطنعا في النظر لردائه استنبط فاروق ماذا أخبر تهامى المحافظ. انتهى اللقاء ومشاعر ممزوجة وصلت إلى أعلى درجاتها برغم تناقضها عند فاروق والشيخ هارون. كلاهما يحملان السعادة والحزن، الفرح والغضب في آن واحد.

\*\*\*\*

شعر اللواء عفت من أول يوم له في المحافظة أن تهامى عقبته في الطريق الذي رسمه لعمله بعد معرفته بتعيينه محافظا للبحر الأحمر. طبيعته العسكرية كانت لا تجعله يتقبل أي انتقاد حتى ولو من عينته «ذقن سيادتك طويّلة قليلا اليوم». ولو كانت حتى من زوجته. يفضل الأمور الصعبة التي تدر الإعجاب. طابور

العرض أهم من التدريب القتالي. أرواح الجنود لا قيمة لها أمام الانتصار والنياشين. واختياره لفاروق للعضوية البرلمان هي من عينة المستحيلات بسبب صغر سن فاروق وأنه لم يتم فوز شخص في مجلس الشعب بالمحافظة من قبل بنفس العمر. فسوف تكون سابقة للمحافظة وشكل من أشكال الديمقراطية التي تجلب الرضى من القيادة السياسية للتباهى بصعود جيل من الشبان إلى المراكز الشعبية في السلطة التشريعية. فعندما عين اللواء عفت رئيس مدينة في أول عمل له بعد إنهائه الخدمة العسكرية في محافظة كبرى في الدلتا شمالا. وجد طلبات كثيرة أمامه من نوعية توصيل الكهرباء ومياه الشرب والرى إلى كثير من القرى التابعة للمدينة التي عين رئيسا لها فتجاهلها كلها وحولها إلى من هم ادنى منه وظيفيا وقرر أن يجمل الميادين بتمثيل ضخمة مثل تمثال لسيدة ريفية بجلبابها الزاهى وشالها الذي يحمل ألوان علم مصر الثلاثة ومن خلفها جندي بسلاحه أطول منها قامت يوحى من منظره أنه يحميها. حتى أنه عندما قدم إلى البحر الأحمر أعطى أوامره إلى نفس الصانع الرديء للتمثيل بأن يجهز تمثال ضخم يمثل المرحلة الجديدة عبارة عن جندي رافعا سلاحه بذراعه الأيسر وذراعه الأيمن بنفس الارتفاع لأعلى ممسكا بيده يد عامل مرتدى زي المصانع واليد الأخرى للعامل بها مفتاح فرنساوى. وبالطبع الجندي أضخم قليلا من العامل كنوع مجاملة من صانع التماثيل وسيوضع هذا التمثال الضخم في أحد الميادين بالمحافظة بعد أن يترك وينسى للعقود في فناء واسع تابع للمحافظة به

السيارات والمعدات المتهالكه حتى يأتي محافظ عسكري آخر فيرى التمثال بالصدفة على الأرض فيأمر بخروجه ليكتب في صحيفة الإنجازات للمسئول الجديد.

لذلك عند قدومه إلى محافظة البحر الأحمر تملكته نشوة المركز الجديد وأنه أصبح كرئيس جمهورية في مكانه فلم يهتم بخطة مسبقة موجودة في المحافظة لابد اتباعها لأنه يعلم تمام أن كل هذا ما هو إلا ملفات لا تساوى قيمة الورق الذي كتب عليها ولن يسأله أحد أن نفذها أو لم ينفذها. منذ متى يسأل أحد من الحكام واتباعهم في السلطة في هذه المنطقة من العالم عن ما فعلوا أو عما لم يفعلوا. فأراد أن يصنع مجد شخصى له بتنمية المحافظة بطريقة جديدة وسريعة تجعله يستمتع بما قام به وكانت تدفعه لذة المنصب الجديد. فقرر في الأيام الأولى له أن يحول بعض المدن إلى مناطق جذب للسياحة مثل المدن التي زارها في أوروبا. فكان أسرع طريق له هو الأموال القذرة لأنه حاول جذب بعض رجال الأعمال المصريين والاجانب ولكنهم رفضوا بسبب عدم وجود شفافية لدى الحكومة وعدم وجود قوانين للاستثمار وأن وجد بعضها ولكنه لا ينفذ إلا تبعاً لهوى الحكومة. وبالطبع كانت هناك مشاكل أخرى لدى رجال الأعمال الجادين منها المغامرة بأموال كثيرة في مكان ناءٍ دون بنية تحية قوية. وأن الفنادق الحالية ما زالت أغلبها يدار من قبل الحكومة فلا يمكن معرفة صدق النتائج عن المكسب أو الخسارة.

و عند مقابلة الأستاذ تهاى للمحافظ في بداية عمله. فأطلعه المحافظ يومها عن رغبته في زيادة عدد القرى السياحية والفنادق بعيدا عن أيدي الحكومة وأن تكون للمستثمرين ولا يتم اهدار أموال الدولة في مشاريع قد تكون خاسرة. فرحب الأستاذ تهاى بحماس أبداه دون تحفظ برغم أن ذلك منافى للطباعة الغير منفعلة واشاد بالمحافظ أمام الحاضرين وأخذ يعدد مزايا هذا الاقتراح لو تم. إلى أن تغيرت وجهة نظر الأستاذ تهاى بعد شهر من هذا الاجتماع لعلمه بأن كل من تم توزيع عليهم الأراضي للعمل مشروعات سياحية من صغيرة إلى منتجعات كبيرة من أبناء المحافظة ولكن توجد علامات استفهام على ثرواتهم. كأنه تم الاختيار على أساس شيء خفى ولكن الكل يعلمه. فأبدى انزعاجه الشديد لدى المحافظ من هذه الخطوة وأنه بهذه الطريقة سوف يخرب مجتمع رجال الأعمال الحقيقيين وسوف ينبت نبات غريب شيطانى يجذب إليه كل الحشرات والزواحف التي تبحث عن مأوى لها بعد إن كانت منبوذه بسبب معرفة من حولها بطبيعتها وسوف تكون البداية براقية ولكن بعد ذلك ستودى بالاقتصاد إلى الهاوية لأن هؤلاء النوعية من أصحاب المال لا يهتمهم التنمية الحقيقية ولا يعينهم السائح من الأساس ولا تطوير العمالة فكل هدفهم أن يخرجوا الأموال وبعد أن يتم الهدف يتركوا الأرض وراءهم خربه. بالطبع اللواء عفت لم يعجبه ما ادلى به الأستاذ تهاى واعتبره عداء شخصى له. وقرر ابعاد هذا الرجل وجعله يقضى بقية أيامه في منزله فهو محب للقراءة كما

يتهكم عليه المحافظ دائما بعد ذلك عندما يذكر اسمه. لذلك عندما أخبره مدير مكتبه أن فاروق طلب منه أن يزيح مدير الأوقاف أو يبعده عن صديقه الشيخ هارون. فاروق لم يطلب ذلك من المحافظ مباشرة كما ادعى فلن يتوجه إلى المحافظ من أجل الشيخ هارون حتى ولو كان صديقه فتلک عصا موسى لا يستخدمه إلا لنفسه ولكنه سأل مدير مكتب المحافظ لما له من ثقل فوظيفته لا يستهان بها وأنه يغدقه بالهدايا. وعند علم اللواء بهذا الأمر. رتب مع مدير مكتبه أن يسأل عن هذا الشيخ ومدى تأثيره في الناس. فأتت الأخبار بأنه خطيب يحسب له حساب وأعطى مثال عنه بشيخ مشهور في مصر كفيف البصر دائم الصراخ في خطبه. محب لنقد المشاهير من الفنانات والمغنيين على منبره يوم الجمعة. فلمعت عين المحافظ عندما تخيل ذلك الشيخ الكفيف. وقال لمدير مكتبه: «هذا ما أريده».

دائما لا يحصل الدين على قوة القانون إلا بمشيئة أصحاب السلطة لذلك تجد رجال الدين دائما بين فعليين أما يحاولوا أن يحصلوا على الحكم أو يدهنوا رجال السلطة.

وعندما أتى فاروق إلى مكتب المحافظ عاتبه بابوية بأن عليه ألا يطلب أي شيء من أحد غيره حتى ولو كان صغيرا. المحافظ يستطيع أن يغير نتيجة الانتخابات لصالح أي شخص وهذا مسلم به إذا أراد ذلك حتى دون أن يطلب تحت دستور مشهور في البلاد «فأحلام سيادتكم أوامريا فندم»، ولكن أراد أن يؤدب

الأستاذ تهاى ولا يجعل له ظهير شعبى يحزن عليه عند هزيمته في الانتخابات القادمة. فموضوع دار المناسبات للمسيحين التي أخبر بها فاروق والشيخ هارون بها مستخدما لفظ كنيسة لأنها وقعها اعنف عليهم. في بادئ الأمر كان سوف يساعده على إتمام تراخيصها الصعبة ولكن عندما حدث الخلاف بينهم في وجهات النظر أو بالأصح عند إظهار عدم رضا من جانب الأستاذ تهاى لتبييض أموال مجهولة المصدر. الغى المحافظ كل ما وعده به من طلبات خاصة قدمها له مع أنها بعيدة كل البعد عما أغضبه.

\*\*\*\*

استطاع الشيخ هارون بعد عدة دقائق في السيارة التي تقلهم إلى القصير عائدين أن يلطف الجو الكئيب الذي يطوف حول صديقه من بعد انتهاء للقائهم مع المحافظ في حديقة منزله. وبدأ يهنئ فاروق بالمنصب القادم وكيف أنه أولى به. وتواعدا على عدم البوح به إلى أي شخص فقد تتغير الظروف والأحوال ولا يتم المراد فلا يحصدوا إلا العداوة من تهاى ومعظم القصيرية الذين يوقرونه. ولم يصلوا إلى نقطة الشرطة التي تعتبر بوابة جنوبية لمدينة الغردقة إلا وكان فاروق مبتهجا استطاع أن يتخلص قليلا مما اغضبه ويطير بأحلامه وتتطلعاته بعيدا. وانحصرت بقعة الحزن بعيدا في أعماقه وبدأ مفعول عضوية مجلس الشعب يزيح الوجد المزمع الذي نبش فيه تهاى أمام المحافظ. وأن ما يحدث معه في الأيام القليلة الماضية ضربات حظ لو أخبر بها سابقا لم

صدقها. انتبه على صوت الشيخ هارون يقول: «الفاتحة». فبدأ الاثنان برفع كفهما بالقرب من وجههما بقراءة سورة الفاتحة من القرآن ولم يمنع قيادة السيارة فاروق من عدم وضع كفيه أمامه فضغط بعضديه ليثبت إطار القيادة أثناء السير، وقراءة هذه السورة أمر متبع منذ بدأ المواصلات في مصر وخصوصا مع العربات، فيعتبر معظم المصريون أن ركوب سيارة لسفر نوع من المخاطرة واحتمالات الموت كبيرة لذلك يقرءون آيات من القرآن حتى يحفظهم الله ويعودوا سالمين إلى بيوتهم ويظهر هذا جليا في أعينهم وكيف تلمع بالصدق والايمان أو حتى تصنع الورع على الإله والرغبة في الحياة وهم يقرءون. وقد يكون ذلك بسبب الحوادث التي تتزايد طرديا مع زيادة السيارات. ويرجعون دائما سبب الحوادث إلى الغضب الإلهي ولا أحد يلحظ إلا قليل أن الحوادث أسبابها العربات المتهالكة والشوارع السيئة، فعندما تتعطل سيارة أجرة لنقل الركاب في الطريق السريع يتم اتهام الركاب بأنهم الأسباب ربما واحد منهم على جنبه ولم يغتسل كما أمر الفقه الإسلامى أو امرأة حائض. والغريب أن الركاب ينظرون إلى بعضهم بنظرة استقصائية باحثين بعين الريبة عن هذا غير الطاهر الذي عطل مصالحهم، ويحاولون أن يهدؤوا السائق ويستسمحوه حتى يلهمه الله بحل المشكلة فيتأفف ويخرج زفيرا عاليا وهو ينظر في ماتور السيارة مستغريا بقول: «إنه المرة الأولى التي تحدث معه» ذلك ليزيد من إحساسهم بالذنب.

وبعد الانتهاء من قراءة الآيات القرآنية قال الشيخ هارون: «اللهم

اجعل كل خطواتنا في رضائك ومرضاتك يا رب العالمين، أليس عجيبا يا حج فاروق أن أكون ذاهب إلى الغردقة لحل مشكلة لي وأنت تساعدني على حلها وتسعى في حاجة لي ورفع الكرب عني فإذا بالله يكافئنا بأن يجعل الأمر في النهاية له كله في سبيل الله عز وجل». ويضرب الشيخ هارون كف على كف وهو مستعجب ومندهش أشد الاندهاش ويتلفت حوله مسرورا قائلا: «لا الله إلا الله».

فقال فاروق معلقا وهو يبتسم وينظر إلى الطريق: «أي نعم ونعمة بالله، فعلا نحن عرائس يحركنا الله كيفما أراد».

- السماء سمائه والأرض أرضه، طهر السماء من الشياطين والمردة بشهب حارقه وجعل المسلمين في الأرض شهب تحرق شياطين الإنس، أليس يكفيهم استيلاءهم على كنيسة الإيطاليين الكاثوليك وتحويلها إلى مذهبهم، لعنة الله عليهم أجمعين.

- أن ذلك الرجل (يقصد المحافظ) ان فيه خير وتدين قد منعه من مساعدة تهاى على هذا الكفر البين على الرغم أنه يعلم أن تهاى سوف يحاول أن يحصل على موافقة من رئيس الجمهورية لتسمح ببناء كنيسة في القصر وبالطبع الرئيس الآن في فترة خلاف مستعرة مع الجماعات الإسلامية بعد أن استعملهم في بداية حكمه ويريد مغازلة الغرب بافعال مثل بناء الكنائس. أثناء الحديث تذكر فاروق الخلاف الذي بين

الرئيس والبابا شنودة ولكنه تجاهله في كلامه ولم يذكره.

- رئيس فاسق.

- لكن أخبرني يا شيخ، عندما يبني شخص مسلم مسجد من بيوت الله فإن الله يبني له قصرًا في الجنة ويعطيه أجر كل من صلى وركع وسجد وسبح في هذا المسجد، فإذا بنى أحدهم أو ساعد مثل تهامى على أقامت كنيسة، ماذا يكون الوضع أمام الله.

- العكس والعياذ بالله يا حج فاروق، خروج من الملة وبيتا في جهنم وخلود أبدى في العذاب يوم الآخرة.

وانفعل أشد الانفعال الشيخ هارون وامسك زمام الحديث كأنها خطبة دينية وأخذ يهتز في مقعده في السيارة بجسده الثقيل المغطى بالجلباب الواسع الأزهرى ولولا حادثة العربية وقدرتها لتمايلت مع الكتل الدهنية. تركه فاروق دون مقاطعه بسبب إرهاق من يوم عمل طويل فلا طاقة له بتبادل الحديث فما زال يمتع التفكير في المستقبل القادم. أخذ الشيخ هارون يحرص الأحكام والآيات والإثباتات بعدم جواز بناء الكنائس في مصر وأن ذلك باجماع الأئمة الأربعة وهذا أثر واضح عن أسلافنا. وحتى وأن أجاز الحاكم لهم وذكر أن شيخ من شيوخ الأزهر السابقين يدعى العلامة الدمهورى له كتاب في حرمة بناء الكنائس في مصر ويجب أن يحكم على الحاكم ولا ينفذ كلامه إذا أمر بذلك. وأوضح في حديثه المتصل أنه إذا لم نستطيع أن نقف في وجه

الحاكم فلا بد علينا أن نعطل امرأ كهذا ونعرقل تنفيذه ولا يحق لأحد أن يقول أنهم أصحاب دين واننا أصحاب دين، دينهم باطل. وقد يظن من يتابع حياة هؤلاء الناس في تلك البقعة من قارة افريقيا أنه قد يوجد بينهم دين آخر يمكن أن تحترم شعائره من أحد مخالف له في الدين. فكلمة الآخر لا أحد يعرفها. حتى الأقليات المسيحية تصارع بعضها البعض تحت السطح. هذا المكان الذي عاشت فيه الشخصيات التي نتابعها هو جزء من منطقة متسعة يعم فيها الجهل والفقر ولا يظهر ايمانهم إلا في معاداة من يختلف عنهم في العقيدة، ويظهر هذا دائما في كل مواقفهم حتى الذين حظوا بالتعليم، طالما نسرد قصة عن مجموعة من البشر في القرن العشرين تتكلم بالعربية فلا بد لدين أن يكون أهم محور يسيطر عليهم ويؤثر عليهم بطرق شتى.

استيقظ فاروق من غفوته على صوت الشيخ هارون يجذبه للحديث مكررا اسمه. فالتفت إليه وما زالت الابتسامة التي تصف مقدار البهجة داخله مرتسمه على وجهه ولولا الظلام لادرك الشيخ هارون أنه لم يسمع كلمة واحدة أثناء الهياج الديني خلال عشرات الكيلومترات التي قطعتها السيارة، وبالطبع لا يعرف فاروق ما السؤال أو المناسبة في الحديث التي جعلت الشيخ هارون يردد اسمه، ولكن لم ينزعج من ذلك فالأعلى لا يبالي بالاسفل حتى ولو كانوا أصدقاء كما يدعو، اتسعت ابتسامته لتقترب من الضحك قليلا وقال في فخر غير مبالي بما لم يسمع مختلقا

خيطة جديد من الحديث: النصارى سوف يزيد كرههم لنا يا شيخ.

- إذ أحبونا فلا بد أن نراجع ديننا يا حاج فاروق.

- أعلم ذلك ولكن أنا وأنت حاضران في أحزانهم.

- بحق هذا الشهر الكريم أن يجعل أيامهم كلها كرب وهم.

قصد فاروق بما قال عن حضورهم الدائم في مصائب المسيحين في القصير. حادثة منذ عدة سنوات سابقة في المدينة، لا تخلو مدينة أوقرية في مصر إلا وتجد قصة مشابهة لهذه الحكاية وتحدث بنفس التفاصيل. أحب فتاة مسيحية- لا يتعدى عمرها السابعة عشر- شاب مسلم يكبرها بسنوات عديدة قد تصل إلى عشر أعوام وكانت أسرة الفتاة في فقر مدقع أشد من حالات أغلب سكان المدينة. فقر في كل شيء مسكن مزر، وملبس يسطر أبيات عن الذل وعدم وجود طعام كافي. وعندما ذهب الشاب إلى الشيخ هارون وأخبره بأنه يهوى فتاة مسيحية وعرض عليها الزواج وهي وافقت. كان قدوم الشاب إليه يسأله عن حكم الشرع في هذا الزواج وكيف يتم؟ لأنه وحيد حتى الآن في تدبير أمره ولا يعلم هل سوف يوافق أهله على هذه الزيجة أم لا وخوفه أيضا من عقبات اختلاف الديانة التي تشاركه الخوف فيها الفتاة. وبعد أن التقى هذا الفتى بالشيخ هارون أكثر من مرة، دفعه دفعا شديدا إلى جعل الفتاة مسلمة وهذا أصلح لها وله. بالطبع الشاب لا يرى في فتاته إلا كل جميل وأنه أحسن من كل فتيات المدينة. فكان عندما يذكرها أمام الشيخ هارون يثنى على أخلاقها

العالية وكيف تتمتع بالحياء والخجل ويقارنها بفتيات مسلمات في مثل سنها وأنها تفوقهن في التربية السليمة وزاد له المديح لأنه يخاف من أي عقبة تحول بينه وبين محبوبته أو نظرة توجس من الشيخ الأشهر في القصير، لذلك كان يدفع الشيخ دفعا قويا في اتجاه مساعدته وحل مشكلته في اتجاه واحد وهو زواجه من هذه الفتاة. وهو لا يفتن أن الشيخ سوف يفعل المستحيل على أن يزوجه هذه الفتاة ولو كانت أقبح فتيات المدينة واقدرهن تربية. فعندما أخبره الشيخ هارون بأن طريق اعتناق الإسلام هو الاتجاه الأقوى وحائط الصد الذي لا يستطيع أحد أن يهدمه من الجانبين. بالطبع الشاب لم يستشعر غرابة في حل الشيخ هارون لأن الشيخ استدعى حل مشهور بين الناس وتهفو قلوبهم إليه بصدق بسبب معتقداتهم. ولكن هناك أشياء لا بد أن تأتي من الآخرين لتأخذ قوتها منهم. ويا حبذا لو أنت من مصدر ديني فلا يستطيع أحد وقف تدفقها من هذا المنبع أو يقف أمامها.

وأكمل الشاب رسم ملامح بلاهة المفاجئة وهو ينظر إلى الشيخ هارون أثناء جلستهما المنفردة في ركن المسجد قائلاً: «اتظن هذا الحل يكفي»؟

- الإسلام خير في الديننا والآخر، وهو الدين الحق الذي تحرسه العناية الالهية، وما دائم هناك شيء يريد الله فلا يستطيع أحد على الإطلاق أن يوقفه. أن هدفا نبيل وهو انقاذ هذه الفتاة من عذاب يوم القيامة. تغير صوت الشيخ هارون في نطق الجملة

الأخيرة لتكون نبرته حزينة وانعكس ذلك على الشاب وتوقف قليلا بعدها ثم أكمل على نفس درجة الصوت قائلاً: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهدى الله بك أحدا خيرا لك من الدنيا وما فيها». ثم ارتفع صوته مبتهجا «يعنى ضمنت الجنة ونعيمها، ومهما فعلت في الدنيا فإن رصيدك لن ينفذ، وهذا في الآخرة أما في حياتنا الآن فخير كثير أيضا، فالفرحة بإسلامها سوف تخرس كل الألسنة وسوف تكون مثل نار عظيمة تأكل كل ما يعترضها فلن يعاتبك أحد على الزواج من أسرة مسيحية بل على العكس سيصبح مفخرة وتاريخ لا ينسى ويصبح الكل في صفك حتى الحكومة سوف تعضد من أمرك وتكون لك حماية، أشقياء المسلمون ستتغلب عليهم البذرة الصالحة داخلهم وسوف ترى كيف تشع أعينهم بالفرحة». توقف الشيخ هارون على الكلام وأمسك كتف الشاب وهزه بعنف محفز واقتراب بوجه منه كأنه سوف يخبره سر وقال: «حتى الطعام والشراب سوف يقفوا بجانبك ويدعوا لك بعد إسلامها، ألا تعلم أن المأكل والمشرب يصرخا أثناء نزولهما جوفها لأنها كافرة ولكن لا نسمع صراخهما أما بعد دخولها الإسلام سوف يكونان فرحين».

ولم تمر ليلة إلا وعاد الشاب بالخبر أن فتاته رحبت بدخولها الإسلام، وطلب الشيخ هارون منه أن يتم لقاء بين الفتاة وبينه في بيت الأوانجى برعاية الحاجة منيرة وأوضح أنه اختار هذا المكان بسبب تقارب سنهما مع سن الكبرى من بنات فاروق وكنتم سبب

أخربأن من سوف يراها داخل البيت سوف يظن أنها تخدم الحاجة منيرة مثلها مثل الآخريات اللاتي يتوافدن على بيتها، وقد وافق الشاب على هذا اللقاء بصعوبة بسبب منصور واشترط في النهاية على ألا يكون منصور في البيت عندما تأتي. وافق الشيخ هارون على ذلك، بالطبع لم يخبر أهل البيت بشرط الشاب واختار موعد اللقاء يوم ذهاب منصور إلى البحر وعلم ذلك من يونس. وكان قدوم الفتاة إلى بيت الأوانجي في وقت الظهيرة، احتضنتها الحاجة منيرة بامومة طاغية والتف حولها بنات فاروق وامهم يحدقن فيها بابتسامات أقل ما توصف بالساذجة كأنهم ينظرون إلى سائحة أوروبية لأول مرة في حياتهم، أجلستها الحاجة منيرة بجوارها على الكنبة المذهبة في الصالة الكبيرة وشعرت الفتاة بصدق مشاعر الحب الذي أحاطوها به وكيف أنها لأول مرة تشاهد نظرات مختلفة عن التي تعودت عليها من صغرها. لم تمر ساعة على قدومها حتى ات فاروق من باب غرفة الضيوف الكبيرة الداخلى ليسلم عليها ويطلب حضور الفتاة مع الحاجة منيرة. لم تنهض الحاجة من مكانها وكأنها لم تسمعه وأخذت تكيل في الثناء عليها موجهه كلماتها إلى فاروق وكيف أنها أحببتها وأصبحت منذ اليوم واحده من بناتها، استعجلها في الأسراع لمقابلة الشيخ هارون لأنهم عليهم أن ينهوا هذا اللقاء لتعود الفتاة قبل أن يلحظ أحد تأخرها.

وعندما أصبحوا جميعا مع الشيخ هارون في غرفة الضيوف

الواسعة، أخذ الشيخ هارون بجمال الفتاة ونضارتها التي زادت بها بداية الشباب وقدما الضئيل الذي لا يخفيه جلباب، وتأسف على حاله وحظه السيء مع زوجته. أخفى انجذابه في خطوات حياء اعتاد عليها بأن وضع وجهه في اتجاه ركبتيه ولم يتعدى وقتهم في الغرفة إلى دقائق قليلة حتى أعلنت الفتاة رغبتها في اعتناق الإسلام ورددت وراء الشيخ هارون الشهادة بالله وبمحمد نبيا ورسولا. ومع أن الاتفاق كان على عودة الفتاة إلى بيتها ولكن دبت بينهم المخاوف من نوعية قد يرتاب أهلها أو أحد المسيحين في المدينة من دخولها بيت الحج فاروق أو قد يفلت خبر إسلامها من بنتين الحج فاروق الصغيرتين لبعض أقرانهما من الأطفال فتصبح كارثة. فاتفق الجمع على أن تبقى الفتاة في البيت على أن تعلن إسلامها في المسجد الكبير بعد يومين بعد صلاة الجمعة، ويومين يكفين لترتيب اللازم. بالطبع كانت موافقه الشاب على بقاء الفتاة في نفس البيت مع منصور بالأمر الجلل له ورفض بقوة واستلزم هذا الرفض جلسة طويلة من الشيخ هارون ليقنع الشاب بأن لا يوجد مكان آمن لها إلا في هذا البيت وعليه أن يترك الصغائر الآن فسوف تقف القصير كلها من هذه الليلة على قدم وساق ولن ينتبه الناس بعد ذلك أين كانت تختبئ. وأخبره أن الحج فاروق سوف يتبناه أمام الناس وسوف يكتبها باسمه وبذلك يصبح منصور عمها رسمى. ولطف الشيخ هارون الأجواء الملتهبة عندما طلب منه اسم إسلامى لزوجته القادمة. وبعد أن اقتنع الشاب، أخبره الشيخ هارون أن سوف يذهب الآن إلى أمور القسم

ليطلعه على الأمر حتى نجعل رجال الشرطة معنا. انزعج الشاب وهذا طبيعى لمعظم المصريين لا يحب الاقتراب من قريب أو بعيد بالشرطة، ولم تنتهى الليلة وإلا وكان جميع قسم الشرطة يعلم أمر الفتاة الهاربة وأنها أصبحت مسلمة وتم إخفاء السر لبضعة ساعات عن شاويش مسيحي في القسم. وتحرك أهل الفتاة المسيحية في أول الليل مع غروب الشمس في البحث عن ابنتهم ومعرفة سبب تأخرها ومع اقتراب منتصف الليل بدأ عدد كبير من المسيحيين في البحث عن الفتاة والكل داخله هاجس واحد ولكن يحاولون إخفاءه ويتمنون أن يكون أصابها مكروه على أن يصح ما ظنوا. ولم تنتهى الليلة إلا وكان الخبر اليقين قد وصل إلى أهلها عن طريق الشاويش الذي علمه بسبب نظرات زملائه له التي توحى بالسخرية وبعد ضغطه على أحد المجندين السذج ليطلعه على ما يدور وراء ظهره علم أن الفتاة المسيحية في حوزة الشيخ هارون. ذهب الأب وبعض المسيحيون معه إلى الجامع الكبير ليقابلوا الشيخ هارون، وعندما وصلوا إلى الجامع وطرق الباب الخلفى لاستراحة الشيخ هارون. خرج عليهم وهو يرسم على وجه سمات النائم المستقيظ حالا وهو يسألهم في دهشة وهو ينظر لهم في استنكار واضح: «ماذا تطلبون منى في هذا الوقت المتأخر؟!»

- نريدك في أمر مهم.

فاتجه برأسه إلى المتحدث وقال: «وهل هذا وقت للحديث؟»

فتحدث آخر لم تعجبه لؤم الشيخ هارون فقال بصوت به غضب يحفه خوف: «أنت تعلم ما نريد منك؟»

- لا أعلم ولا أريد أن أعرف الآن.

وهم أن يقفل الباب فمد أقربهم إليه يده ليمنعه من قفل الباب، فحدق بعينيه الشيخ هارون وبث غضبا واضحا وارتفع بصوته إلى أقصى مدى قائلا: «اتعدون على بيتنا من بيوت الله». فاختلطت الأصوات تنكرا ما حدث من الرجل الذي مد يده وتسحبه إلى الخلف وتحاول أن تهدئ من الشيخ هارون الذي يقف على أطراف أصابعه ما طار رقبته للأعلى لا يريد أن يبعد عينيه عن ذلك المتجريء وكأنه لا يشاهد غيره ويستمر في كلمات الاستنكار وحدثاه تزدات اتساعا وعيناه احمرارا. حتى يعلو صوت بكاء شخص في الستينات يبدو عليه الكبر وجبروت الحياة تتضح جليا على ملامحه فيصمت المسيحيون احتراما لهذا النحيب ويعطوا فرصة للبكاء ليصل إلى مسامع الشيخ فقد يرق قلبه لحال الرجل الذي يقدموه إليه على أنه والد فتاة مفقودة وقد أخبر أن الفتاة عندك. لم يمهلهم الشيخ هارون أن يوضحوا موضوع الفتاة المفقودة ووجد فرصة ليغلق الباب في وجوههم. وقال لهم من وراء الباب: «هذا مسجد وليس قسم شرطة، ابحثوا عن ابنتكم بعيدا عن هنا وأن لم ترحلوا الآن سوف أوقظ جميع المدينة بمكبر الصوت». لم يتأثر الشيخ هارون نهائيا بدموع الأب لأن إيمانه ابتلع كل هذا.

بالطبع انصرفوا ولم يبق إلا الأب البائس وانضمت إليه زوجته أمام المسجد وافترضوا الأرض أمام المسجد يبكون والام كانت تنادى على ابنتها وتستعطفها أن تخرج وتعاتبها في كلمات حزينة بأن هل هانوا عليها هكذا للتهجرهم بسهولة.

وانضموا من كانوا مع الأب أمام المسجد إلى الجمع الذي قدم إلى الكنيسة لتشاور في هذه المصيبة التي حلت عليهم، بالطبع كان أشد من تأثروا ضيقا وحزنا هم شباب الكنيسة وقد اجمعوا كلهم إلى القسيس بأنه لا بد هناك شخص غرر بالفتاة. وبالرغم من مراقبة الفتيان المسيحين لكل الفتيات الصغيرات في المدرسة وخارجها كأمر اعتادوا عليه وأخبار القسيس بأي اقتراب من شاب مسلم بفتاة مسيحية إلا أنهم لم يكتشفوا أن هناك علاقة بين تلك الفتاة وشخص مسلم، قد يرجع ذلك إلى حرص الشاب المسلم بأن لا يعلم أمره أحد وأنه يكبرها فلم يثير شكوك المراقبين. وفي اليوم التالي ذهب القسيس وبعض اكابر المسيحين إلى المأمور في الصباح الباكر وانتظروه ليأتي من استراحته حتى الظهيرة فلا يستطيع أحد أن يعلم متى يأتي المأمور إلى القسم أو متى يغادر عمله فهذه أمور تقارب الأسرار الالهية في عدم معرفتها. وكان غرض الزيارة واضح حتى يتم ارجاع الفتاة إلى أهلها وقد أبلغوه أن المتهم هو الشيخ هارون. وبعد محاولات بائسة منهم حتى يجعلوا المأمور يتحرك لصالحهم. فشلت كل محاولاتهم. وقد كرر لهم كثيرا في بداية حديثه أن الفتاة ليست صغيرة وقد تكون

سافرت. وعندما أصبح الكلام لا يحمل أي تورية وأخبروه أنه قد تكون غيرت دينها بواسطة سيطرة الشيخ هارون عليها. تافف المأمور من طول الحديث قائلا: «وما دليلكم أنها عند الشيخ هارون أو أنه يعرف مكانها؟» وتوقف لحظة دون أدنى درجات قواعد آداب الحديث وهو يتلفت وينظر في كل شيء حول مكتبه حتى وجوه من يقفون أمامه، وفجأة ارتفع صوته غاضبا مناديا على العسكرى الذي يقف خارج مكتبه فاندفع المجدد وهو يترنح كأنه يحاول الدخول إلى المكتب وهناك من يقاومهم حتى يتركوه يلبي نداء المأمور ويقف أمامه ثابتا في زيه الشرطي البالي الحقيير الذي يدل على وضاعة وظيفته فيتلقف كلمات من المأمور ممزوجة بسب الأب والأم له بسبب بعض الأتربة التي لاحظها المأمور حول نافذة المكتب المتهالكة وبعد أن اختفى العسكرى البائس خارج المكتب أكمل حديثه المأمور مجدد بصوت أقل حدة وأكثر رسمية قائلا: «كل إنسان حر، مصر دولة مدنية والدستور كفل حرية الاعتقاد». فعلق أحد شماسى الكنيسة قائلا: «حرية الاعتقاد في اتجاه واحد». فهاج المأمور قائلا: «هذا الكلام يعرضك إلى العقاب تحت طائلة القانون». وعند هذه النقطة تأكدوا جميعا أن الفتاة لن ترجع إلى أهلها.

وما زال الأب والأم يفترشان الأرض على جانب الطريق بجوار المسجد. الأب فقد قوته وغاص بعيدا في أعماقه في أماكن أكثر سكونا كأنه غير موجود أما الأم فلم توقف بكاءها وانهمار

دموعها ونداءها على ابنتها وكانت تطوف حول المسجد منفردة أحيانا وهي تتوسل إلى ابنتها أن ترجع إليه وتقسم لها بأنه سوف تمنع أي غضب أو عقاب قد يلحق بها وعندما يأتي وقت الصلاة كانت تهرول ناحية أي شخص تعرفه وتمسك ذراعه راجية أن يساعدها وتمدح في صفاته وخصاله الحسنة لتستعطفه وتذكره بحبه لأبنائه ليرحم حالها ويمد يد العون لها وبطبع كان يصمت كل من استنجدت بهم وعندما يضيق بها أحدهم بسبب اعتقاده أنه عليه أن يعيد وضوءه بسبب لمسها إلى يده أو تغلب عليه سروره باسلام الفتاة أمام حال أمها فيبعدها عنه دون مراعاة للوعتها بشيء من المهانة فوجد الأم لا تتلفظ بأى لفظ ينم عن ضيق من المسلمين، وهذا لا يرجع إلى حسن الأدب ولكن إلى حياة الخوف التي تربت عليها التي جعلها قادره أن تسيطر على ما تقوله في أشد أوقات الضيق والكرب، فإن فقدت واحدة من بناتها فلا زال لديها اثنتان وزوج وتريد لنفسه أن تستمر في حياتها. ولو وجدت طائفة أقل من المسيحيين في مصر عددا لكانت هي التي سوف تكون المتلقى الأخير لصدمات الاضطهاد.

بدأت بوادر الظلام تحيط المدينة وتزيد ظلمة موحشة تنهش في قلبي الأم والأب دون رحمة. تراب الأرض اصف إلى هيئتهما البأسة بؤسا خاصا يوحى إلى من يشاهدهما ليلتها بحالهما. أطفال القصيرية المجاورون للمسجد يراقبون عن بعد. أغلب الصغار كان تدمع أعينهم بسبب بكاء الأم فينهر وهم الأكبر عمرا

الذين تخطوا العاشرة بسخرية العليم. انتشر خبر إسلام الفتاة في المدينة كافة وعرفوا أن غدا في صلاة الجمعة سوف تعلن الفتاة إسلامها. ومنذ صباح الجمعة ازدحم المسجد وافترش الأرض خارج المسجد من لم يستطيع الدخول وخلت في ذلك اليوم جميع مساجد المدينة من المصلين. أضاف الشيخ هارون مكبر صوت خارج الجامع أحضره مجاناً إكراماً لله شخص يؤجره في الأفراح والمآتم. وقبل بداية خطبة الجمعة أتى القسيس ليأخذ الأم والأب بعيداً عن الجامع وكان ذلك بأمر رجال الشرطة حتى لا يستخدموا القوة في إبعادهم. وبعد أن اختفت الأم والأب من أمام الجامع حضر المأمور ورجاله وتم إيجاد مكان لهم جميعاً في الصفوف الأولى داخل رغم الازدحام. وبعد أن انتهت الصلاة تكلم الشيخ هارون وهو جالس وهو ممسك بميكرفون عن فضل دخول الإسلام وأخذ يعدد أن من فاته الإسلام في الدنيا كيف يكون من الخاسرين وفي أثناء كلامه قام الحج فاروق واتجه إلى الجلوس بجوار باب جانبي صغير للجامع لا يفتح عادة إلا مرات قليلة جداً وجلس بجواره وما هي إلا دقائق معدودة حتى قام مجدداً بعد طرقات بسيطة على الباب آتية من الخارج ففتح الباب لتدخل فتاة تلبس جلباب أسود وتسدل على رأسها شال أبيض ترى من ورائه ويبدى وجهها للناظرين قليلاً ولكن دون ملامح فاخذت مكانها وراء الحج فاروق الذي بدأ في السير بصعوبة في اتجاه الشيخ هارون بسبب الجلوس الغير منتظم لكل من في الجامع فقام أحد المتبرعين بإفساح طريق لهما وضح الجامع بالهمهمات وعلت أصوات الاستفهام والجواب بين الناس

وطلت الجموع التي في الخارج برأسها من الأبواب الكبيرة لتنظر ماذا يحدث في الداخل. فنهروهم الشيخ هارون نهرا شديدا، بأن عليهم الصمت والسكينة وتلى عليهم آيات توضح لهم غضب الإله من الضجة فسكن الحاضرون حتى وصل الحج فاروق والفتاة إلى مكان جلوس الشيخ هارون وعندما جلست الفتاة القرفصاء على يمين الشيخ وهي مرتبكه من وجودها في مكان به أكثر من عدة ألف من الشباب والرجال على أقل تقدير لها وهي وحيدة. لم يطيل الشيخ هارون الوقت. فسأل الفتاة مستخدما الميكرفون: «ما سبب وجودك في الجامع». فأجابت أنها تريد أن تصبح مسلمة. فهاجت مشاعر الناس وارتفع التكبير من أغلب الحاضرين ورجع الشيخ هارون إلى الزجر مجددا وهو يطلب الهدوء. فالتفت إلى الفتاة وسألها: «وهل أجبرك أحد على هذه الخطوة العظيمة؟».

— لا

— من يكون المسئول عنك بعد إسلامك.

— الحج فاروق.

— هل هذا صحيح يا حاج فاروق؟

— نعم فمن اليوم هي ابنتي أمام الناس أجمعين واسمها الجديد

زينب، وأشهد الله أمام الحاضرين بأن أعاملها مثل بناتي بل

أكثر منهن، وسوف اتكفل بتجهيزها يوم زواجها بأحسن

الأثاث وأجعل بيتها أجمل بيت في المدينة.

أثنى الحاضرون على ما قاله الحج فاروق وتحركت نفوس كل الشباب الذين لم يتزوجوا إلى هذه الفتاة. وضاق صدر حبيبها بالحزن والأسى وهو يجد نفسه غريبا بعيدا عن هذا المشهد وهو صاحبه. وبسبب نظرات الفتیان حوله التهبت نار الغيرة به وأحس أنه فقد فتاته.

- حسنا حسنا قولی ورائی أشهد إلا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وعند انتهائها من الشهادة في الميكرفون وسمعتها كل الحاضرين والنساء في أغلب بيوت القصيرية. نهضت الجموع في المسجد وأخذوا يهتئون بعضهم بذلك والوضع في خارج الجامع مماثل لم يحدث داخله وإن كان به بعض من الحرية في الحركة والانفعال وارتفعت الزغاريد من النساء في البلكونات المجاورة لجامع. لو أمكن رؤية المشهد من أعلى لهذه الجموع يومها وكيف كانت في أشد درجات الأبتهاج الجنوني الذي يصل مع بعضهم إلى الصراخ مثل الذي يشاهد من جماهير كرة القدم الوفية والمحبة لناديتها. احضان دون سابق معرفة أو بمعرفة سطحية مثل رؤية سابقة في الطريق أثناء الذهاب والإياب أو التقاء في سوق الجمعة للخضروات. وقد زاد التعارف بين الناس في هذا اليوم.

وأنت مخاوف الشاب كما توقع. لم يمر يومان على ذلك اليوم والإلا وتم إعلان خطبتها على شاب آخر اختاره لها الشيخ هارون وأن الزواج بعد أسبوع وتم ابعاد هذا الشاب تماما من طريقها بسبب أنه

لا يليق بها لعدم التزامه الدينى وأن من تقدم إليه يفوقه تتدينا  
وصلاحا ومالا. ظن الشاب أن الفتاة لا تزال تحبه ولكن أيقن بعد  
ذلك أنه واهم عندما رآها في يوم فرحها كيف كانت تطير من  
البهجة ولم تتوقف عن الرقص مع قريناتها طوال ليلة الزفاف. ولم  
يجد الألم إليها طريقا إلا إذا لمستها بعض رفيقاتها في الفرح في  
معصمها الأيسر المربوط بشاش طبيى ويظهر اللون الأحمر المطهر  
من تحت طبقاته فقد تم إزالة وشم الصليب بقطع الجلد عن طريق  
الطبيب عصام متبرعا بهذا العمل لله.

أتت العربية التي تحمل أثاث بيتها من القاهرة كما وعدها  
فاروق بل زاد عليها أشياء لا توجد في منازل أكابر المدينة. وتم زف  
الأثاث في المدينة بأن أحضر فرقة الزمار من قنا وجعلهم في سيارة  
نقل صغيرة تتقدم سيارة الأثاث وتطوف المدينة عصرًا ليشهد  
الجميع صدق الحج فاروق ومدى حظ هذه الفتاة وأن يكون يوم  
غم آخر على المسيحيين الذين أغلقوا أبوابهم وتكمدوا الغيظ  
مما يحصل في الخارج. وكان كل من يمر أمام محال فاروق  
الكبير أو من أمام منزله يرفع صوته بسلام والتحية حتى ولو لم  
يجد أحدا في الخارج وإن وجدوه يهرولون نحوه ويبتهلوا بالدعاء له  
لان ما يفعله يعادل الجهاد في سبيل الله بالسيف وأنه أصبح في  
مراتب الأولياء والصالحين. كان الناس في ذلك اليوم كالمجانين  
يجوبون الطرقات هائمين. انتشر خبر بعد ذلك بأن المسيحيين قد  
قاموا بذبح كلبه ودفنوها في فناء الكنيسة. ولا يعلم أحد  
من مصدر هذه الشائعة التي صدقها أغلب الناس في المدينة لدرجة

استعذبها بعض المسيحيين وتمنوا أن تكون قد حدثت بالفعل.  
واختيار حيوان مثل الكلب له مدلول ثقافى متجذر في نفوس  
المسلمين بسبب وضاعة هذا الحيوان في نظرهم الدينية.

\*\*\*\*

من ليلة وصول الشيخ هارون إلى القصير عائدا مع فاروق  
من الغردقة لم يهدئ له بال أو تغمض له عين. صلى الفجر في  
الجامع الذي يعمل به وانفرد بالمعتكفين في ركن من أركان  
الجامع بعد خروج بقية المصلين وزاد من تشوقهم بسبب إيجاءاته  
المفتعلة المسبقة بأن معه أمرا جليل. وعندما علموا بأن المحافظ  
أخبره بأن المسيحيين سوف يبنون كنيسة على قطعة الأرض  
الفضاء بجوار المقابر الخاصة بهم. بدأ العنف المقدس يبدو على  
الوجوه وتحمله الكلمات التي تخرج متداخلة في نفس التوقيت  
مكونه عبارات به سب لا يليق بمكان عباده. لا أحد يصغى  
لآخر. وبعد أن تركهم الشيخ هارون هذه اللحظات يعبرون عن  
مدى إيمانهم وثبات عقيدتهم. وعندما هدأت قليلا عواصفهم  
سمع أحدهم يقول لآخرين: «ألم أقل لكم أن الشيخ هارون لا  
يترك الاعتكاف إلا بسبب عظيم في سبيل الله». فهبت عليهم  
كلهم رياح خجل جعلتهم ينظرون إلى أرجلهم وما بينها كأنهم  
يتسترون منها. فعلم الشيخ هارون أنهم اغتابوه في غيبته بسبب  
قطعه الاعتكاف. بالطبع لم يوضح لهم أنه ذهب للغردقة لأمر  
يخصه. بل تركهم يعتقدون أن بناء الكنيسة الجديدة هو

من استدعائه إلى لقاء المحافظ. فابتسم ابتسامته المستاء وهو يهز برأسه في أسف فصب غضبه على نائبيهم الأستاذ تهاى كأنه يعاقبهم على ما قالوه عنه من وراء ظهره قائلاً: «اتدرون من وراء هؤلاء الكفرة ويساعدكم على بناء كنيستهم؟ أنه رجل مسلم من القصير». وأخذ يتفصح وجوههم التي ما زالت خجله واستطرد مكملًا: «أنه نائبيكم تهاى الذي تختاروه كل دورة برلمانية وتهلون وترقصون بنجاحه الساحق إذن أنتم مشاركون في تلك الخطئية التي لا تغتفر، التي تخرجكم من الدين قبله فأنتم من تأتون بمثل هؤلاء».

فرد أحدهم معقبا: «الحمد لله أنا لم اذهب إطلاقا إلى الانتخابات».

- لا يمكن الأستاذ تهاى يعمل هذا أنه رجل لا تخرج من فمه الإساءة.

- «وإذا رأيتهم تُعجِبُكَ أجسامهم وأن يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كأنهم حُشْبٌ مُسَنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ»<sup>(\*)</sup>

- كلامك صحيح، هو فقط يتعال علينا بكلماته اللغوية التي لا نفهمها ولم يجد أي وظيفة لأبنائنا الذين أكلت جلودهم مياه البحر المالحة في مراكب الصيد.

---

(\*) سورة المنافقون آية (٤).

- ليست مشكلتنا تهاى أو ماذا يجب أن يفعل، مع الأيام سوف تتأكدوا من ما أقواله، المهم الآن أن نساعد أنفسنا لمنع هذه الجريمة في ديننا، فأنا من اليوم سوف أبعث إلى المحافظ طلب بتخصيص هذه الأرض لبناء مسجد. وعند وصول الرد بالموافقة الذي وعد به كما ابلغنى سوف نبدأ في جمع التبرعات، أه نسيت أن أخبركم أن الحج فاروق سوف يتبرع بنصف تكاليف بناء المسجد، مع أنه يستطيع أن يتكفل بالمسجد كاملا ولكنه رأى ألا يحرم أهل المدينة من الثواب والأجر العظيم.

فكبر الجالسون حول الشيخ هارون واختلطت كلمات الثناء ببعضها. حتى تكلم فتى من الشباب الملتحى حديثا الذين يلازمون الشيخ هارون كظله قائلا: «كل ما قيل فأنا أؤيده تماما وأنها خطوات مباركة ولكن ماذا يمنعنا أن نبدأ من اليوم هذا العمل دون انتظار الرد من المحافظ، بأن نقطع الاعتكاف ونذهب كلنا جماعة إلى تلك القطعة ونبدأ نحفر حولها حتى نحدد مساحتها ونضع يافطة تحمل اسم البناء الجديد. ولن يستطيع أحد أيأ كان أن يوقف بناء مسجد لله عز وجل، وبذلك نكون قد وضعنا أيدينا على قطعة الأرض مسبقا ونتتظر فقط الأوراق والتراخيص التي سوف تأتي عاجلا أم آجلا».

فملاء الحاضرين الحبور وارتوت ملامحهم بهجة وسرور لهذا الاقتراح ولم يعترض أي شخص أو يعدل فيه، فقد استحسناه

جميعهم وزاد من هذا الاستحسان داخلهم بأن أغلبهم قد أصابه الملل من أيام الاعتكاف التي تورط فيها وشوقهم إلى العودة إلى بيوتهم ومشاركة أهلهم وأصدقائهم هذه الأحداث الهامة التي سوف يكونوا هم مصدرها الأول. وكان أول المصنفين إلى ما قاله الشاب هو الشيخ هارون فكان لا يعلم ماذا يفعل في الأيام المتبقية من رمضان هل يلتزم الجامع مثلهم أو يدخل ويخرج كيفما شاء.

أزاح الضياء ظلمة الفجر الذي تبعته الشمس رسولا قبلها فهي ما زالت غارقة في مياه البحر، فخرجوا جماعة كأنهم كتلة واحدة على وجوههم غضب وهمة واضحتان يجعلان أي أحد يقابلهم في الطريق يصل إليه أن هناك حدث مهم. مظهرهم يشع بأن هناك خطب جلل سوف يصنعه. لولا اختلاف الانساب والاعمار وأن بهم كبار السن لظن من رائهم أنهم ذاهبون إلى مشاجرة كما يحدث بين بعض العائلات. وبالفعل زادت كتلة الثلج الملتهبة حماسه أثناء تتحركها من الجامع حتى وصولها إلى مكان القصد. فلا يلمحهم سفيه أو وضعيع أو إمعة إلا ويهرول نحوهم متسائلا «ماذا حدث؟» فلا يرد عليه أحد ليزيدوا تعلقه بهم عن دون قصد فلا يتركهم ويكمل معهم السير. وعندما وصلوا بدأ الشيخ هارون وبعض من من معه على نفس قدر الاحترام بين الجمع بتحديد مساحة الأرض بإشارة باصابع اليد ثم وضع أحجار على زواياها الأربعة وفي أثناء ذلك الحديث تولى الباكون من صغار السن أو

صغار المقام بأخبار الملتحقين بهذا الجمع وتفسير ماذا يحدث. ولم يترك قرص الشمس الذهبى سطح البحر بقليل إلا واكتملت عدة العمل من أنواع الآلات الحفر البدائية من كريك وطورية وفاس حجارى وحبال لتحديد أضلاع قطعة الأرض لحفر أساساتها. بدءوا العمل وهم يتصببون عرقا بسبب الحر والصيام والتفاخر يتحرك بينهم كهواء يستنشقونه. حتى كبار السن أصروا على حمل بعض الأحجار ورفع قليلا من الرمل ولا يستطيع أن يثنىهم أحد عن ذلك رفقا بهم. وعندما يلح أحد على شيخ هرم بأن يجلس ويترك المهام له، ينهره الشيخ هارون أن سمعه قائلا: «اتركه يعمل فأنت لن ترفع عنه أوزاره يوم القيامة. واجعله يتفاخر مثلك يوم الحشر بهذا العمل».

مع الظهيرة كان قد وصل بهم النصب والتعب أشده ولكن اكملوا حفر الأساسات. وتم رص الطوب اللبن والأسمنتى فى منتصف قطعة الارض الذي كان يتدفق عليهم من أول ما انتشر الخبر من الثلاث المناطق التي تكون المدينة. أختاروا خمس شبان منهم ليكون حراس على قطعة الأرض ولا يتركوها أبدا وتم أيضا انتخاب مجموعة من ذوى الصلاح والاستقامة بأن يتولوا مهمة جمع التبرعات من أهل المدينة. فكانوا يطوفوا المدينة كل يوم من حولها ويدخلوا أزقتها وحواريها ذهابا وايابا وهم يحملون صناديق خشبية خفيفة من ألواح الحبيبي الرقيقة يضعون فيها الأموال التي تجمع. حتى الأطفال كانوا يعطوهم بعض القطع المعدنية ضئيلة القيمة وذكر المشهد أهل القصير بأيام جمع

التبرعات إلى المجهود الحربى في أيام حروب عبد الناصر الكثيرة. وفي الأيام القليلة لانهاء شهر رمضان تستطيع أن تقول أن أغلب أهل المدينة قد زاروا هذا المكان وتوقفوا عنده وتخلوا شكل البناء عندما يكتمل. أما المسيحيين في المدينة لم يصدر عنهم أي رد فعل أو اعتراض أحدهم على ذلك ولو بكلمة من خلال حديث بينه وبين مسلمين معه في العمل. الذين يحاولون أن يدفعوه إلى النطق لتفضح ما في ثناياه. فأصبح الأمر كأنه لا يخصهم وأن ذكر الكنسية ما هو إلا زج غير مبرر.

أصبح الأستاذ تهاى كالواقف في الخلاء وحيدا أمام رياح الخماسين الكئيبة باتربتها التي ترغمك على اغماض عينيك ولكن لن تستطيع أن تغلق أذنيك عما تحدثه حولك ولن يقدر كفك عن حماية وجهك أو بقية جسدك من لسعات سياتها.

لم ينكر ما سمعه الناس من الشيخ هارون وحاول في بادئ الأمر أن يجعل له جبهة من المقربين الذين يرافقه في كل أمسيته في المدينة كأصدقاء أو مرئدين له حتى يطفئوا الغضب الكاذب والطائفية الغير محسوسة ولكنه اكتشف أنهم ما زالوا لا يستطيعون أن يتسلقوا الجدار العازل على الرغم من طول قامات بعضهم بفضلهم في السنوات الطويلة السابقة من رعاية وامسيات كصالونات الثقافية ظاهرها صداقة وباطنة تكسير كتل الصداة التي اعتلت التماثيل وغيرت من منظرها البديع. فضل الصمت والتزم بيته. حتى أصبح من يزوره - من

الذين رفضوا أن يقاطعوه- يحاول معه على أن ينفى الخبر أو يذهب ليهنئ الأهالي على المسجد الجديد، قائلين: «بأن الناس تنسى سريعا». فكان يرد: «إن نسوا فلن أنسى». وكما خطط المحافظ لتكون ضربة موجعة لأستاذ تهامى ولكنه لم يتوقع أنه سوف يستسلم هكذا لذلك وصفه لاحقا مع فاروق بأنه هواء. فكان يحسب حسبته أنه سوف ينكر أو يفاجئه بشيء جديد لذلك كان محتفظا بنسخة من طلبه عليه توقيعه ليوزعها على أهل المدينة ليتحققوا مما كان ينتوى نأبئهم. وبعض الأمور الخاصة السرية لحياته الشخصية وابنته فقد توصل عليها بطرقه الخاصة. ولكنه لم يستخدمها لاحقا.

التزم الرجل البيت أثناء وجوده في القصير وكان يخرج قليلا ليجلس بمقعده الخشبي أمام البحر قبل الغروب حتى سافريوما إلى القاهرة لحضور جلسة برلمانية فمرض هناك ولم يأتي إلى المدينة مرة أخرى إلا يوم مماته بعد سنوات تقارب العشرة. وكان هذا أفضل له بسبب أن أصدقائه الذين هجروه في القصير تواصلوا معه ثانية وعاد الود بينهم ولم يتطرق أحد منهم من قريب أو بعيد لذكر ما حدث قبل مرضه.

\*\*\*\*

بدأت صحبة الدكتور سراج في الاكتمال بعد خروج حامد من فترة الاسترخاء في بيته بعد الزواج ولكن مع تغير بسيط وهو عدم الإطالة في المساء بسبب عدم رغبة حامد ترك رضىينة

بمفردها ليلا وإن كانت زوجته لا تشعر بأي رهبة من التواجد ليلا وحيدة. وأثناء تواجده مع يونس في الصالة لينتظروا مغادرة كريستينه لمح حامد مدى الحزن الذي يكسو ملامحها الرقيقة فجعلها تبدو عبوسة ولكنها تشغل نفسه بالحركة السريعة في العيادة كأنها إنسان ألي أصم مفتقد للروح. وبعد أن ألقوا عليهم التحية لتغادر استوقفها حامد بتردد قائلاً: «إنك حتى الآن لم تهنئى بزواجى وهذه ليست من طبيعتك المجاملة».

فابتسمت ابتسامة بعين حزينه وأظهرت هيئة من يتذكر شيئاً نسيه فقالت: «أه ألف مبروك، اعذرني على ذاكرتي الضعيفة».

- يجب أن تعلمى أنني أخبرت زوجتى عنك كثيراً وهي تتشوق رويتك ونتمنى أن تزورينا في أقرب وقت. وصمت لحظة فنظر إلى يونس الذي بجانبه ورجع بنظره إليها واستطرد قائلاً: «أتعلمى يا كريستينه، لو أراد يونس أن يبنى بيتاً في العدو فلن يسمح له من قبل العباددة وسوف يطرد قبل أن يبدأ وسوف يتحججون بأن عاداته وتقاليده ليست مثلهم وأنه مختلف عنهم وسوف تسمعي أحاديث عن الهوية ومدى أهميتها وكلهم سوف يكونوا سعداء بانتصارهم الذي لا يستشعرون بغضه أو أنهم عنصريون، فأتمنى ألا تحزنى».

فهمت كريستينه مقصده وكان حامد قد أراح عليها حجراً ثقيلاً يؤلمها حمله منذ عدة أسابيع. فهي لا تستطيع أن تستوعب

لماذا بعض من ياتون العيادة يحاولون أن يجرحوها بعد أن انتشر خبر رغبة المسيحيين في بناء دار مناسبات بكلمات مستترة مع أنها تحاول أن تكون دائما لطيفه ومهذبه معهم. كيف لمثل حامد لم يحصل إلا على تعليم بسيط أن يجعلها تضع عينيها على نقطة لماذا يفعلون هكذا. ووصلت بيتها في تلك الليلة وهي أهدي نفسا وأخف روحا.

بالطبع استهلك أغلب الوقت الحديث عن المسجد الذي سوف يبنى بجوار مقابر المسيحيين، وتذكر يونس أثناء صمته وضحكاته المكتومة بأن يخبرهم بأن غدا مساء بعد صلاة العشاء سوف يأتي الشيخ هارون وبعض مرافقيها لعلاج أخوه الأكبر سالم في البيت. لم يعقب حامد على كلام يونس بأي أنكار بسبب تتوق يونس إلى شفاء أخيه الذي يراه كأب أحيانا ولم يريد أن يستخف من هذا العلاج الذي لن يأتي بأي نتيجة في اعتقاده وفضل أن يترك صديقه في لحظات الأمل ووعدته بأن يكون غدا معه ينتظر الضيوف. واتخذ نفس المسلك الدكتور سراج في بث الأمل ليونس ولكن من ناحية مؤمنه بأن الجن مذكور في القرآن وأنه يؤمن بالمس السفلى من الجن والشياطين. وقد لاحظ الدكتور سراج عين حامد تعكس ابتسامته استخفاف فشعر بشيء من المهانه قليلا فكان يرسل الكلام إليه وهو ينظر إلى يونس كأن حامد اعترض عليه بالقول وليس بالنظرات لذلك انخفض قليلا حماس الطبيب في النهاية فقال: «إنه يأمل أن يكون مرض سالم هو من الجن وليس عضوى لأن المس يحدث في

رأيه واحد في المليون وأغلب الحالات تكون نفسية أو عضوية واصاب اليأس أصحابها من العلاج الطبى». انتهت الأمسية وهناك بعض من الكدر وعدم الصفاء بين الدكتور سراج وحامد. وإن كان الدكتور تغلب عليه بمجرد أن غادروا المنزل. إلا أن حامد أثقلت عليه ليله وأخذ يعاتب نفسه «كيف تجرأ على الرجل الذي يعتبره معلم وهو من أخذ بيده في السنوات السابقة لي جعل منه شخص محترم يفكر بالمنطق. لماذا يا حامد تتطرف في رأيك؟ نعم أنى أرى تلك الابتسامة المزيفة ذات المسحة الشيطانية وأن تنظر إلى من تحتقر فكرته، لا يوجد بينك وبين المتعصبون مثل هارون أي فارق. انظر إلى حالك منذ عدة أعوام. أليس أنت من استخدم الشعوذة عندما كان ينغص عليك رئيسك في العمل في بداية قدومك إلى المدينة وجعلته يخشاك عندما علم أنك تسأل عن اسم أمه لتعطي اسمه بالكامل إلى شخص في الجنوب لعمل سحر ليزيحه عن طريقك فأصبح من يومها يخشاك ويبعد عنك ولا يكلفك بما لا تطيق، بل أصبح يعطيك مهام كتابية تغنيك عن العمل الشاق في كثير من أيام الشهر. أليس أنت من استغل الجهل في مكسب لصالحك. ونشرت بين العاملين أنك تبحث عن اسم أم رئيسك في العمل وهذا كان كافيا ليتأكد الجميع أن هذا العبادى سوف يبعث لمن في الصحراء الاسم ليصنعوا سحرا أسود يحول حياة رئيسه إلى نكد وهم ومرض. وبالطبع الكل صدق القصة وأن هناك شرير ينتظر الاسم بالكامل وحتى الآن عندما تحدث وكعة صحية كانفلونزا مثلا له أو أي شيء من

الأمر السيئة اليومية ينظر اليك على أنك كذبت عليه عندما  
أخبرت الجميع أنك لم ترسل الاسم».

\*\*\*\*

وقبل غروب الشمس بساعتين تقريبا كان حامد موجودا  
مع عزوز يحملان صفائح الماء من البحر ويعبران بها الشارع  
الأسفلتي ليفرغاها في برميل وضع أمام البيت ليتم رش الأرض بعد  
ذلك حتى تستقر الأتربة على الأرض ولا يرتفع الغبار عند قدوم  
المعالجين. وكلما وقعت عين صفيّة على حامد وهو بجلبابه  
الرمادي الجديد وحذائه الجلدي الفرعوني الذي حصل عليه من  
أقاربه كهديّة في أيام فرحه تدعوله بصوت مسموع قائلة: «اللّه  
يزيدك يا ولدي من عنده ويعطيك الذرية الصالحة». وكانت  
تتلفت حولها وهي جالسة على المصطبة التي أمام البيت وهي  
تضرب كف بكف في استغراب وهي تشاهد حامد يحمل الماء  
منكر هذا قولاً ولكنها ممتنة فتقول بصوت منخفض لنفسها:  
«يا خسارة رائحة الصندل التي تفوح من ملابسك ولون الحنة التي  
ما زالت تزين أكفك يا ولدي». وعند الانتهاء من كل الترتيبات  
أمام البيت وداخله في الصالّة التي سوف يجلسوا بها، فقد زادوا  
الكنب واحضروا مقاعد خشبية من الجيران، وبعد ذلك أخذوا  
يتسامرون في الخارج ويحتسون أكواب الشاي بالنعاع التي ينهر  
عزوز حامد عن شربها لأنه ما زال عريسا جديدا فترد عليه زوجته  
صفيّة بضيق ونظرة سخرية قائلة: «توقف عن البزئات وسخافة

الاعتقاد، وإن كنت عن غير قصد قد ذكرتنا بشيء مع أنك أصبحت عديم الفائدة». فيبعد عزوز وجهه عنها في تهكم واضح للكل ويقلد بتعبيرات بوجهه طريقتها في الحديث بفكاهة كأنه طفل يسخر من شخص كبير في السن، فتتوقف عن الحديث حتى يلاحظ عزوز أنها تتابعه فيرجع وجهه إليها كأنه لا يفعل شيئاً وما زالت الابتسامات عالقة عليه فيشير إليها في أدب مصطنع بأن تكمل ويحول بصره إلى يونس محاولاً إلقاء التهمة عليه فيدعوه إلى الصمت بإشارة بإصبعه. فتكمل صفية قائلة: «اترك يونس بحريته» قاصدة عزوز ثم تنظر إلى حامد في ابتسامة حانية وتستطرد قائلة: «عليك أن تذهب الآن إلى زوجتك فأنت قد تعبت معنا في بعض الأعمال الشاقة وليس هناك بد لأن تبقى حتى يأتي الشيخ هارون وجماعته». فيرد عليها حامد بود فقد فهم مقصدها قائلاً: «لا تخافى على فإنى قد خرجت إلى العمل منذ أسبوع وزالت عنى صفة عريس جديد». فربتت صفية على كتف يونس الجالس بينها وبين عزوز وترجع عينيها إلى حامد بجوارها قائلة: «أنت مثل يونس عندى في المحبة والله لو كانت عندى بنت ولم تتزوج لكنت حاولت أن تكون من نصيبك ولكن ربنا اختار لك رضينة أجمل من الكل».

لمست كلمات صفية الأولى قلبه وشعر بصدقها، إلا أنه أزعجته كلماتها الأخيرة عن رضينة. كأن شخص يسرد قصة حقيقة وأضاف جزء من خياله ولكن هذا الجزء لم يمتزج مع

الحقيقة فاتضح عدم انسجامه.

تناول حامد العشاء مع يونس وعزوز في وسط الصالة على أرضيتها وهم يتبادلوا الحديث فيما بينهما وتشاركهم أحيانا صفيّة التي بجوار سالم على الكنبّة تلقمه بيدها الطعام فأصبحت هي في أغلب الوقت المسئولة عن ذلك لأنه أصبح يعض بأسنانه أصابع من يناوله اللقيمات إذا شرد أحدهم بذهنه عنه في غير انتباه أو جعلها مهمة يجب أن يفعلها بسرعة بغير اكتراث. في الغالب كان من المفترض أن يتم أعداد مائدة عشاء تليق بالشيخ هارون ومن معه ولكن إصرار الشيخ هارون على عدم تناول أي شيء كان له هدف في نفسه لأنه يريد أن يوضح الفارق بينه وبين الآخرين بأن ما يفعله هو لوجه الله خالصا ولا يريد أجر بأي طريقة وزاد اصراره في هذا الأمر بسبب تصوف يونس فيريد أن يوضح لأهله أنه مختلف عن رفقاء ابنهم وأنه يترفع عن مثل هذه الأشياء لأن المتصوفين يوصفون من قبل أي شخص وهابي بأنهم أهل (الفتة). وبعد انتهاء العشاء دخلت صفيّة إلى البيت لتجلس في غرفة مجاورة لصالة هي وكل بناتها وزوجة سالم وأحفادها جميعا حتى من أصر منهم بأنه أصبح كبيرا ويستطيع أن ينضم إلى الجمع الذي سيكون. أبعد عزوز الأطفال أكثر من مرة الذين يتلصصون حول البيت منذ غروب الشمس منتظرين أن يسمعوا لحظات خروج العفريت من سالم فقد ملأهم الشوق والأثارة مما عرفوه من أقرانهم وذويهم عن تلك العوالم الخفيه.

فضلوا أن ينتظروا قدوم الشيخ هارون وصحبه في الخارج، يصل إليهم ثرثرة من داخل البيت من النساء والأطفال حتى سمع حامد صوت سالم يصدرانين فنبه عزوز، فهرع عزوز ويونس إلى الصالة خوفا من حدوث مكروه لسالم فقد اصيب في رأسه أكثر من مرة عندما تتزحزح أي وسادة من الوسادات القطنية المتحجرة التي يحشربينها فيسقط من الكنبه على الأرض. فوجدوه يريد أن يتبول فقد أوصته أمه بأن يكون حريصا في هذا الأمر والآن يستطيع الشيخ قرات القرآن عليه وهو ملابسه مبتلى بالنجاسة. فهبط عزوز على ركبتها أمام الكنبه القابع عليه سالم متكئا بيده اليسرى على ساق سالم ويبحث بيده اليمنى على الاسطوانة المعدنية الموجوده تحت الكنبه وبعد أن وجدها نظر إلى سالم مستفسرا في تهكم قائلا: «ما هذا بحر الذي لا ينضب؟ يا ليت مكثف المياه في القصير يعمل مثلك». فنهض ورفع قليلا جلباب سالم وادخل يديه الخشنتين بين ساقين سالم وهو يبحث بأحدهما عن قضيبه والأخرى ممسكه الأسطوانة المعدنية وعندما استطاع أن يدخله في فوهة الاسطوانة. التفت إلى سالم وهو يبتسم مفرغا فاهه كسكير ومغمضا عينه اليمنى قائلا: «آه يا ابن المحظوظة كل هذا معك أنه ضخم يالها من خسارة لو كان مربوطا على قلاووظ لكنت أخذته منك». فانفجر سالم ويونس في الضحك حتى سأل اللعاب من فم سالم وأخذ يهتز جسمه وتوقف عدة مرات عن ادرار البول بسبب الضحك، أما يونس فقد انتهت ليلته وعدة أيام أخرى لن يستطيع أن يكبح ضحكاته

المكتومة التي سوف تنهال عليه من وقت لآخر وهو يتخيل كيف يفك أبوه عزوز قضيب سالم كأنه لمبة قلاوز ويبدل تركيبه في مكان آخر.

فوجئوا الثلاثة أثناء انتظارهم في الخارج بجلبة أقدام قوية تأتي من خلف البيت وما هي إلا لحظات حتى قريت ضجة القادمين وظهر الجمع، الشيخ هارون ومرافقيه من زقاق جانبي بجوار البيت فانتشروا أمام البيت كأنهم قطع خرج من وادي ضيق فتخلص من التزامه بالصف عند انتهاء الوادي، كانوا عشرة أفراد بصحبة الشيخ هارون يرتدون جلابيب بيضاء واسعة قصيرة وينتعلون صنادل متشابهة تقريبا وأغلبهم يغطون رؤوسهم بالشيلان ويصنعون منه شكل مذييل فوق رقابهم كأنه ضفيرة أما الشيخ هارون فلم يرتدي الزي الأزهرى بل شاركهم في الجلابب الأبيض واختلف عنهم بأن جعل الشال يغطي رأسه على هيئة أهل الجزيرة العربية ولكن دون عقال فوقه. يظهر أهمية ثلاثه منهم - أعمارهم تتقارب الستين، ليسوا من أهل القصير - من كيفية تقديم الشيخ هارون لهم ومحاولة دفعهم أولا لسلام على صاحب البيت عزوز ولكن رفضوا وهم يرسمون الورع وأنهم يحاولون أن يتخفوا بعتاب للشيخ هارون على تفضيلهم على الآخرين. اما الباكون كانوا صغار السن ينظرون لهم في اعجاب شديد ويمصصون الشفاه على هذا التواضع العظيم. بالطبع حامد شعر بالتقزز كأنه سوف يتقيئ من مسرح العرائس هذا. وحدث نفسه «بأنهم لو كانوا يبغون التواضع لما تكلفوا في

السمت الذي على وجوههم الذي ينادى أي ابله ويقول له ألا تعرفنى  
أننا من الصالحين المقربين إلى الله ولكن ارجوك اجعل هذا سرا». ارتبك  
عزوز دون انزعاج وهو يتلف إليهم متسائلا بنظراته أمد يدي لمن فيكم؟  
فعرف أن الشيخ هارون هو من قدموه فسلم عليه بحرارة زائده وأخذه بالاحضان. ان لعزوز قدرة هائلة لإخفاء  
مشاعره أما يونس وحامد فركنوا إلى اداب المقابلة الرسمية كأنهم يصابحان  
أشخاص مدعوين لمناسبة ولكن لا توجد سابق معرفة بينهم. لا بد أن نتوقف هنا  
وقفة بسيطة لشرح العلاقة بين حامد والشيخ هارون، لم يجتمعا الاثنان في أي لقاء منفرد أو تم  
حوار بينهما في أي موضوع حتى في حضور آخرين. الظاهر أن كلا منهما يعلم أن هذا  
الشخص هو الشيخ هارون وأن الآخر هو حامد فضائية الميكانيكى فقط مثل كثيرا في  
المدينة يعرفون بعضهم أسماء بسبب صغر البلده وفضولية متفق عليها ألا يمر  
أحد أمامك إلا وعلى الأقل تعرف اسمه. ولكن الاثنان يعرفان بعضهما جيدا  
عن طريق منصور الذي يحمل كل ما يسمعه من حامد في ليال الصيد إلى الشيخ هارون.  
عندما يقابله في بيت الأوانجى- وخصوصا غير المؤلف منه والتي تلتقى في تماس مع الدين  
فكان الشيخ هارون ينتصر له على حامد ويقول له: «إن صاحبك ضال ومضلل وأنه يستخدم عقل الإنسان الضعيف في أمور الدين التي نهى الله على الخوض فيها». فكان منصور ينتعش برأى الدين في حامد وتزداد ثقته في نفسه بأنه على حق عندما اعترض عليه وكان يفعل ذلك لرغبة في نفسه لأنه

كان يشعر دائماً أن حامد يسفه ما يقوله أمام الآخرين ويرمى عليه ثوب السطحية، وغيره تمتلكه كثيرا بأن حامد غالباً له رأى مختلف وجديد عنه حتى في المسلمات والثوابت التي تربي عليه وحجة حامد الدائمة التي يبغضها منصور عندما يقول: «بأن المنطق يوضح ذلك وما استشفه من قراءاتي في الكتب يرشح ذلك أو ينفيه». فكان ذلك يجعل منصور يضرر حقدا لحامد نستطيع أن نوصفها بأنه تكبر الجاهل الغير مدرك لفجاعة جهله فكان يثور على حامد بغلظة في مرات كثيرة عندما ينزعج من آراءه ويردد كالمحموم «وأنا أيضاً قرأت، لست وحدك من يقرأ أو من قال لك أن الكتب التي تقرأها تحوى كلاماً صحيحاً». بالطبع كان منصور يعتقد أن الإنسان لا بد أن يحفظ الكتاب كأنه سيمتحن فيه ولا يفهم أن القراءة في ذاتها هي المهمة فهي من تفتح الأفق وتجعل الخيال أبحر وأوسع وتدفع القدرة على الاستنباط والاستنتاج إلى المسار السليم. فكان هذا المسكين أحياناً يقرأ أي صفحة في كتاب تاريخ يجده بالصدفة أمامه ويعيدها على نفسه أكثر من مرة حتى يحفظها وعندما يلتقى مع حامد ورفاق البحر يبحث بشتى الطرق أن يلصق ما حفظه داخل الحديث حتى ولو كان غير مناسب لسير الأمسية على الشاطئ فيصبح كحامل الجمر في يديه، يتلوى ويرفس حتى تحين أي ساحة ليترك ما بين يديه. لذلك انتقل إلى الشيخ هارون فقط كل الجانب المظلم الذي يحويه منصور لحامد دون أي لحظات ود وبهجة بين منصور وحامد تجمعهم في أوقات الصيد.

فنبت داخل الشيخ هارون شيئاً من الكراهية وهذا يحدث دون تعقيد في حياة الشيخ هارون بل بسهولة مذهلة مع علاقته بمن حوله ويسميه هو الكره في الله أو البغض في الله. أي ما دمت معنا تؤدى ما أمرنا به وتلتزم دون تفكير في كل الأوامر الالهية فسوف نغمرك بالمحبة أما إذا حد عن هذا الخط فقد أصبحت منبوذاً واضحى البغض لك حلال شرعاً. أما ما يكنه حامد للشيخ هارون نستطيع أن نقول بأنه احتقار وكان يصفه دائماً أمام الدكتور سراج ويونس بقوله «أنه شيطان لو كان للشيطان وجود وأنه منبع العنصرية والطائفية». وكان حامد يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن هذا الشيخ سوف تكبر شوكته واتباعه في المدينة حتى يجعلها أكثر قبحاً. فلك أن تتخيل مدى التنافر الذي ينبعث من الاثنين كقطبين مغناطيسين متشابهين في الشحنة. وعندما استقروا في أماكنهم في الصالة بعد السلام على سالم. فضل حامد أن يجلس بعيداً بجانب يونس وكان الشيخ هارون يتخطاه بعينيه أثناء الحديث وهو يوزع نظراته على كل الموجودين قاصداً الإهانة كأن حامد غير موجود لم يزعجه ما يفعله الشيخ هارون واعتبرها صبيانوية من الشيخ. استهل الحديث الشيخ هارون بالصلاة على النبي وأخذ يسرد عن فضل التجمع في الله أي أنهم أتوا اليوم وهم مختلفون الانساب والمدن القادمون منها ولكن يجمعنا حب الخير ورفع الأذى عن المسلمين ويوحدنا الكتاب والسنة ولا يبتغوا إلا مرضاة الله عز وجل ولا يطلبون دنيا فانيه وبالطبع كل هذا الإطراء على رفاقه وشيء فشيء اتجه الحديث

إلى الموضوع الأكثر أهمية في القصير ويشغل بال الناس وهو بناء الجامع الجديد الذي علموا ليلتها منه أنه اسمه جامع الإيمان وكيف اكتشف الإيمان الراسخ والمتجذر في أهالي مدينة القصير وكيف هبوا كلهم معه على قلب رجل واحد ليمنعوا بناء الكنيسة، وزفر زفرة عالية وملامحه توحى بالأسف والأسى والكل صامت لا يشاركوه في الحديث حتى استطردا قائلاً: «أتعلمون لماذا انتفضت مرعوبا من أمر بناء الكنيسة والله الذي لا إله غيره، لم يخطر في ذهني وقتها أنه دار للكفر وأنه يعبد فيها غير الله، ولكن ارتعت بسبب أنها مصدر الشرور والأمراض، فالقساوسة عندهم علم سفلى وأقسام قديمة محتفظون بها في كنائسهم واديرتهم فيستخدمون ذلك في تسخير الجن الكافر لأنهم يستطيعون السيطرة عليه على عكس الجن المسلم ليأذوا المسلمين، أما يمسوهم مسا كاملاً أو يضعوا أمامهم العراقيل والعكوسات في عملهم أو امتحاناتهم إن كانوا طلبه ويؤخروا الإنجاب - خرجت منه لفته سريعة إلى حامد - ويكثروا الأمراض فيما بيننا. وهذا يزيد في الأماكن التي بها كنائس». فصمت والتفت إلى من بجانبه وقال أخبرهم أنت يا شيخ عبد الجليل ما يحدث معكم في أسيوط، فتحدث الرجل وهو يمسك بطرف لحيته البيضاء التي وصلت إلى سرته قائلاً: «أي نعم ما يقوله الشيخ هارون فهذا واقع عندنا وما فعله الشيخ وأهل المدينة بمنع ذلك البناء الذي لا أطيق أن أتفوه باسمه وأدعوها بين من يعرفونني بالخرابات». فابتسم أغلب المستمعين مستحسنين هذا الاسم الجديد. واستطرد

الشيخ عبد الجليل قائلاً: «لاحظت أنا ومجموعة من المشايخ في أسيوط التي أخذت على عاتقها العلاج بالقران واخراج الجن من أجساد المسلمين بأن القرى والمدن التي يوجد بها خرابات يكثر المرض والمس السفلى ويقل ذلك في المدن والقرى التي بها مساجد وجوامع فقط وقد استطعنا بفضل الله أن نستنطق كثيراً من الجن فنجدهم أما يهود أو مسيحيين وقد أتوا بأمر من قساوسة ملاعين وكان قليلاً جداً ما نجد جن مسلم ولكنه عاصى وهذا يكون بالطبع علاجه أسهل لأنه لا يعترض ويتوب إلى الله في أول جلسة». الوحيد الذي كان يتململ في جلسته هو حامد أما من سخرية ومحاولة كبح ملامحه على أن تظهر ذلك أو غضب من أثر تلقيه هذا العفن والصدید الذي يتقيحه هؤلاء المشايخ المرضى - من وجهة نظر حامد - وتخيل نفسه أكثر من مرة أنه يقوم واقفاً أمام الشيخ هارون والشيخ الهرم عبد الجليل ويقول لهما أنتم متخلفون ارجعوا لتعيشوا في العصور القديمة. أما الباقون كلهم بلا استثناء فكانوا مشدوهين بالسمع وكان من أن لآخر يعلو صوت عزوز منبهاً وهو يقول: «سلاماً قولاً من رب رحيم».

قام الشيخ هارون من مكانه واتجه إلى الجلوس على يمين سالم ووضع ذراعه الأيسر خلف سالم فوق كتفه في مودة وأخذ يداعبه بلطف. ثم قال له: «سوف تشفى باذن الله». عند ذلك فتح سالم فاهه كفرس نهر على آخره باكياً دون صوت وشهيق دون زفير للحظات قليلة حتى خرج زفيره وأصبح البكاء مسموع

كطفل فقد أمه ولا يستطيع السيطرة على نفسه أو الإجابة لمن وجدوه ليساعده. عند هذه اللحظة ارتعد حامد من هذا الموقف وبدأ شيء يتحرك داخله ليدفعه ليشارك سالم مشاعره فقد تملكته الشفقة ولكن قرر باصرار قوى أنه لن يسمح لهؤلاء المتبلدين أن يروى دموعه ويكفيه ما حدث في مقام سيدي عبد القادر الجيلانى في أول ليلة لشهر رمضان. فمال على يونس وهمس في إذنه بكلمات ثم قاما الاثنان. يونس تحرك إلى داخل البيت أما حامد فاتجه إلى خارج البيت ولم تتعد دقيقتين إلا وأتت سيدة الحلبية قادمه من باب خلفى لبيت وهي تستعد ملابسه لأنها قدمت على عجل. وعندما أصبحت أمامه قالت له: «خير يا حامد». بدت علامات الإحراج على حامد مختلطة بتعاطفه مع سالم فجعلت كلماته مرتبكة مع سيدة فقال: «عندما علمت من يونس أنك موجودة بالداخل مع أم سالم فقلت لنفسي لن يحل مشكلتك إلا أختك الكبيرة سيدة». صمت لحظة حامد كأنه يرتب أفكاره، أحببت منه كلمة أختك ولكن الكبيرة لم تروق لها فتغلب ما راق لها ولم تعقب فاستطرد حامد قائلاً: «أظن أن هذا الجمع لن ينفذ قريباً واعتقد أن الليلة سوف تطول لذلك أرجو منك أن تذهبي إلى رضىنة لتؤنس وحدتها في البيت فهي ما زالت غريبة عن المدينة واخاف أن تقلق من تأخرى، وأنا متأسف جداً على طلبى هذا».

- لا تتأسف.

ثم ابتسمت قائلة: «فأنا أيضا مللت من المكوث في الداخل مع صمت النساء ليسمعن ما يدور في الصالة ولكن لم يكن لدى عذر للمغادرة، خير ما فعلت، وصفيّة لن تمنع».

عاد حامد إلى الصالة فنظر إليه الشيخ هارون ووجهه ممتلئ بالغضب فتحدث موجهًا كلامه إلى كل الموجودين ولكن الكل يعلمون أن المقصود هو حامد قائلاً: «غير مسموح لأي شخص في هذا الجمع أن يغادر المكان بعد أن نبدأ لأي سبب أين كان، فهذا شرط غليظ ومهم لن يتم شفاء سالم إلا به». وحرك رأسه باتجاه الحاضرين وهو ينهى كلامه مكرراً بتحذير «اتفقنا يا سادة اتفقنا يا سادة». فأوماً الكل بالإيجاب. هذا التحذير منبعه عند الشيخ هارون أنه يعتقد أن عزوز به مس سفلى أيضا بسبب ما اشتهر به من قوة غارقة بين أهالي المدينة ولم تضعف على الرغم من عمره المتقدم، لذلك يجد الليلة مناسبة لكشف ما عند عزوز أيضا لأنه سوف يتعرض إلى سماع آيات القرآن الخاصة بإخراج الجن، ويتوقع أيضا أن عزوز سوف يتعلل بأي سبب للخروج من الصالة لذلك وجب التوضيح. بالطبع عزوز لن يتعلل أو يتأثر بأي شيء مما في ذهن الشيخ هارون وخيرا للكل بالألا يعلم عزوز بما يدور في مخيلة الشيخ هارون وإلا لكان عزوز لعب باتقان دور أنه مسكون بقبيلة من الجن.

طلب الشيخ هارون إناء واسع كبير يوضع به ماء لآخره واشترط أن يكون الإناء لم يستعمل في الحمام نهائيا من قبل

لذلك أحضروا له الوعاء الفخارى الكبير الذي يستعمل لعجين الخبز. فوضعه في وسط الصالة على الكليم الذي يغطى أغلب الأرضية وجلس حوله الثلاثة الغرباء كبار السن ووضع كلا منهم سبابته لكفه الأيمن في الإناء ليلا مس الماء وأخذوا يتلوا بسرعة بكلمات غير واضحة بسبب خفضهم لأصواتهم وكان من يسمعهم يشعر بأنهم يقرءون أشياء مختلفة بسبب التداخل. وهذا بسبب اختلاف سرعاتهم في القراءة، ولكن ما يتلون متشابه من آيات من القرآن. وبعد أن انتهوا من القراءة في وقت لا يتعدى الربع ساعة. نظر الشيخ هارون اليهم باعجاب وهم ينهضون بصعوبة إلى أماكنهم على الكنب بسبب سوء الجلوس على الأرض الذي لا يناسب أعمارهم ثم قال: «ما شاء الله عليكم يا مشايخ وجزاكم الله خيرا». واتجه بعينه إلى عزوز ويونس وأكمل قائلا: «هذا الماء طاهر يستحم به سالم في حجرة من حجرات البيت وبعد أن يتم اغتساله بالكامل يتم التخلص من الماء الذي استحم بها بأن توزع على أركان البيت بحيث لا يمشى عليها أحد بنعالة وإياكم أن تتخلصوا منها في الحمام». وضحك الشيخ هارون بشدة مهتزا «والا قد تنهار دورة المياه» شاركه رفاقه في الضحك المتكلف الذي يوحى بالثقة في النفس والترفع عن المواجهة كأنهم أبطال عالم في المصارعة وطلب منهم ألا يستخدموا قوتهم ضد صغار في السن. وبالطبع عزوز ويونس وحامد يفهمون مقصده جيدا حول موضوع الماء فقد نشأوا وتربوا على أن دورات المياه هي أماكن للجن فإذا تم إلقاء الماء المرقى عليها فسوف ينزعج

عالم الجن ويهرب في تخبط فيدمر جدران الحمام وهذا لا يصح لأن هناك عهد قديم بين الجن والإنس بأنى اتركك في حالك ما دمت لا تضر.

وضع الشيخ هارون راحة يده اليمنى على رأس سالم ومازال محتفظا بذراعه اليسرى خلف كتف سالم وبدأ يتلوا الآيات القرآنية المتنوعة المنتقاه لاجراخ الجن من أجساد المسلمين بصوت أغلبه يتصف بالقوة والتهديد والوعيد كأنه يخاطب شخص أمامه ويريد أن يسيطر عليه بالأساليب السحرية. وعم السكون من الجميع حوله كأنهم في صلاة ولا يرفع صوته إلا هو. قرأ سورة الفاتحة كاملة، ثم تبعها دون توقف قائلا: «أن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا. أنه من سليمان أنه من سليمان أنه من سليمان - بصوت مرتفع كأنه رجل مبعوث برسالة إلى أفراد عصابة ويحذرهم أنه قادم من عند زعيمهم أو من طرف من هو أقوى منهم - إنه بسم الله الرحمن الرحيم، لا تعلق علي وأتوني مسلمين، لا تعلق علي وأتوني مسلمين. لنخرجنا منها أذلة وهم صاغرون، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

«يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ

لَا يُبْصِرُونَ (٩)»<sup>(\*)</sup>. أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير. أسالكم باسم الله الأعظم أن تنطقوا على لسانه، أسالكم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا أن تنطقوا على لسانه، أسالكم باسم الله الحى القيوم المنتقم الجبار الجبار الجبار أن تنطقوا على لسانه دون أن تؤذوه إن شاء الله. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير إن الله على كل شيء قدير.

يطبق على رأس سالم بأصابعه ويضغط بقوة مستلهمه من تكرار الآيات والصمت المحيط وبكاء سالم ومحاولته التخلص من قوة قبضة الشيخ هارون التي ظهرت مدى شدتها من تضخم عضلة ذراعه الأيمن التي كادت أن تمزق الجلباب عندما ضاق الكم بسبب رفعه يده اليمنى ليتمكن من سالم. بدأ سالم ينزلق إلى أسفل حتى أصبح شبه مضجع على ظهره. فنظر الشيخ هارون وهو يتلو الآيات إلى أحد الشباب المرافقين له ليأتي ويساعده فلم يفتن إليه احد إلا أحد الكهول فأتى في الجانب الأيسر لسالم فتبعه عزوز واجلسوه مرة أخرى في وضعيته صحيحة وبدأ التعب والاعياء يتضح على الشيخ هارون ويتصبب عرق ويمسح وجهه في ذراعه الأيسر لأنه لا يريد أن يترك رأس سالم من قبضته. وأخذ يحاول أن ينطق الجن عن طريق سالم وتسمى باستنطاق

(\*) سورة يس آية (٩-١).

الجن على لسان الإنس.

«تكلم من أنت؟ من أنت؟ ماذا تريد منه؟ ماذا تريد منه؟ تكلم تكلم. لو إنس قل أنا إنس لو جن قل أنا جن، إن شاء الله من معى». تنبه الشيخ هارون وهو في قمة هياجه العقائدى وذروة انفعاله أنه محال بأن ينطق الجن بسبب أن سالم فاقد النطق تقريبا، فاستلهم حلا، «إن كنت إنس ارفع يدك اليمنى وأن كنت جن ارفع يدك اليسرى. أسالكم باسم الله الأعظم أن توضحوا عن طريق الإشارة دون أن تؤذوه، أشر أشر. من معى أشر».

رفع سالم قليلا يده اليسرى. وعند هذا تنفس الشيخ هارون نفسا عميقا تاركاً رأس سالم حره واعتدل في جلسته ونظر إلى الناظرين حوله مغتبطا مسرورا وتبادلوا جميعهم ابتسامات النصر والأمل ما عدا حامد الذي وصل إلى قمة الاندهاش مما يرى فهذا كله ليس غريبا عنه فهو قد سمعه منذ صغره مئات المرات ولكنه أول مرة يشاهده عن قرب ويحتك به كاملا ولم يجده مختلفا عما توارثه منذ صغره من قصص وحكايات. والحال بالداخل أشد انفعالا وصدقا في المشاعر من صفيته وزوجة سالم واخواته، فالأم تدرف دموعها لتوحدتها مع ما يحدث مع ابنها والزوجة الأمل يداعب ذهنها بأن حالها لم يميل إلى الطريق السيء كما تظن هي والآخرين من أهلها وصدقاتها وأن الأيام السعيدة سوف تأتي مرة أخرى والأطفال يتخيلون شكل الجن الذي تلبس أبوهم أو خالهم سالم وكيف يكون وجهه القبيح المخيف ويجعلوا مواضعهم

بين جمع النساء في الحجرة وليس حولهم لرهبتهم من منفذ الباب أو من الشباك الكبير المغلق الذي يفتح على الشارع. لم يلبث الشيخ هارون ثوان إلا ورجع إلى أمسك رأس سالم قائلاً: «أنى أعلم أنك جن مجرم ملعون، أن الله مكننا من استنطاقك وسوف يمكننا أيضا من أخراجك بسلام، من أنت كافر؟ أشريهودي؟ أما نصرانى؟» فأشار سالم بالإيجاب برأسه كطفل لا يعرف ماذا يختاره ولكن عليه أن يختار. موز برتقال تفاح، فيختار التفاح لأنه ذكر في النهاية وليس لأفضلية عنده. يتابع الشيخ هارون «أه نصرانى، هل أتيت عن طريق الصدفة أما السحر؟» فيشير سالم بالأخيرة. «من فعل هذا السحر؟ من عمل السحر لهذا المسكين؟» أشار الكنيسته، إنى لم استخدم معك العنف حتى الآن، من فعل السحر؟ من فعل السحر؟». انفعل الشيخ هارون أشد الانفعال في هذا السؤال ولكن وجد استياء من الكهل الذي يساعده على يسار سالم بنظرات عتاب. فهذه نقطة خلاف بينه وبين الشيخ هارون. فالشيخ هارون دائما يحاول أن يعرف من فعل السحر أو من سلط الجن على الإنسان، ويعتبر هذا مخالف لهذا الشيخ العجوز الذي يمسك بسالم معه لأنه لم يرد عن رسول الله من وجهة نظره. ففهم الشيخ هارون من نظراته بأن عليه أن يتخطى هذا السؤال وفضل ألا يبين أي موضع خلاف بينهم أمام الغرباء.

«اسمع يا هذا أن ندعوك بدعوة الله، أن الدين عند الله الإسلام ويقول عز وجل من يبتغى غير الإسلام ديننا لن يقبل منه

وهو في الآخرة من الخاسرين، اعرض عليك الإسلام دين الحق»،  
ويهز بقوة رأس سالم ثم يكمل: «تكلم أنت تريد الجنة أم النار  
تكلم انطق قل ورائي أشهد قل اشهد» ويستمر في الزجر وسالم  
يزيد وهو ينظر إليه ويكرر الشيخ هارون: «قل اشهد قل اشهد».  
حتى يبصق سالم على وجهه في ذهول الموجودين وسعادة معظمهم  
من هذا الحاصل. إذن الجن يرفض الإسلام وتخرج ضحكة بلهاء  
من سالم يتبعها ببكاء. فيمسح الشيخ هارون وجهه وهو يبتسم  
قائلاً: «أتبصق على مسلم حافظ كتاب الله يا ملعون، أنا  
لم أستخدم معك القوة حتى الآن، ردد خلفي العهد والآن أحرقتك  
فأنت لست أقوى من الله». ويعيد الشيخ هارون كفه الأيمن على  
رأس سالم ليحكم قبضته عليه باصابعه الغليظة ويستطرد  
بصوت أقرب إلى الارتفاع قليلاً قائلاً: «أعاهد الله أعاهد الله  
أعاهد الله». وعندما لم يستجيب سالم لترديد خلفه. تغير وجه  
الشيخ هارون بلمحة حيوانية شرسة كأنه حيوان مفترس اقترب  
أحدهما من طعامه أو من صغاره. وصعد على الكنبته بقدميه  
وجلس القرفصاء وأخذ يهز رأس سالم بشدة لدرجة يأسف لها لو  
كان الأمر شيء آخر غير العلاج بالقران. ظهرت ملامح الخوف  
والرهبة على سالم وتوقف عن أي ابداء أي اعتراض حتى النفس  
كان بطئياً على الرغم من الانفعال الزائد كأنه يخاف أن يفهم  
سماع تلاحق أنفاسه كأنه معترض على الشيخ في شيء.

«أعاهد الله» فتبعه سالم وهو يحاول أن ينطق بصعوبة

«أعاهد الله» وتختلط ثقل اللسان مع خروج اللعاب من فمه ليصبح الكلام غير مفهوم تماما ولولا كلمات الشيخ هارون السابقة لم فهم السامعون ما يقوله سالم، كأنه شريط كاسيت تالف أو موجة إذاعية غير منضبطة ولولا معرفة المستمعين السابق بالأغنية لما أمكن لهم استشفاف الاغنية. وأكمل الشيخ هارون في قسوة العهد قائلا: «أعاهد الله أن أخرج من هذا الجسد ولا أعود إليه مرة أخرى ولا إلى أحد من المسلمين وأن نكست في عهدي هذا فعلي لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وإن كنت صادقا فسهل على خروج وأن كنت كاذبا فممكن المومنين منى والله على ما أقوال شهيد». ويصمت قليلا الشيخ هارون وهو ما زال ممسكا برأس سالم التائه المنهك من محاولة استخراج الكلمات ليتقبلها الشيخ هارون وهو يردد خلفه ومحاو لا أرضائه حتى لا يضغط على رأسه ويعيد كلمات العهد ويكمل الشيخ هارون مخاطبا الجن في وجه سالم قائلا: «أنتك سوف تخرج الآن من رجله اليسرى وأنت تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أسمع؟» وهو يهز رأس سالم فيجيبه سالم بإيماءة من عينه با يجاب. فقال الشيخ هارون بصوت أكثر ارتفاعا: «أخرج الآن وقل السلام عليكم، أخرج عليك لعنة الله، أخرج». وهو يزجر سالم بكلمات يديه حتى ينهار سالم مجددا إلى وضعيته النائم على ظهره هربا منهم وتهتز رجليه وهو يقول: «السلام عليكم السلام عليكم» بصعوبة وبعد أن توقف جسده عن الاهتزاز نتيجة لتعب. اعادوه ليتمكن من الجلوس صحيحا. اعتدل بعد ذلك الشيخ هارون

على الكنبته كما كان من قبل وأنهى جلسة القرفصاء التي  
وضح كما اتعبته في مفاصله. وأخذ يتلو بصوت هادئ كأنه  
في صلاة

«يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ  
فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧)  
أَنَا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨)  
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا  
يُبْصِرُونَ (٩)»<sup>(\*)</sup>. وعم هدوء على الحجرة ولا يسمع إلى أي همس  
حتى تكلم الشيخ هارون بسكينة زائدة ولطف واضح ناحية  
سالم قائلا: «السلام عليكم السلام عليكم- كأنه يخاطب  
طفل لم يتجاوز الثلاث سنوات- من معى الآن، هل أنت سالم». فأشار  
بالإيجاب فارتفعت صيحات التكبير من قبل بعض الموجودين  
وقام بعد ذلك عزوز متوجها ناحية ابنه ووقف أمامه وهو يبتسم  
بطريقة فكاهية قائلا: «حمد الله على السلامة تعبتنا». انتهت  
الليلة مع وعد صريح من الشيخ هارون بالعودة مرة أخرى وأكد  
أن سالم الآن قد شفى وإن كان شفاؤه أتى متأخرا فعليهم أن  
يصلحوا من قد افسده مكوث الملعون داخله وأن يغذوه جيدا  
بالعسل النحل وحببة البركة ليصلب قامته ويستطيع بعدها أن  
يمشى ويتكلم.

---

(\*) سورة يس آية (١-٩).

كان حامد آخر المودعين ليونس وأهله بعد انصراف الشيخ هارون وجمعه. وأخفى حامد ما يدور في ذهنه وما يضيق به صدره واتخذ في العوده شارع البحر الاسفلتى المقوس على الرغم من طول المسافة بالمقارنة لو أختصرها بدخول بين البيوت في الأزقة الضيقة ولم يكن هذا قرارا بسبب أن الوقت لم يقارب منتصف الليل أو أن الطريق أجمل، بل كان سيره عن غير هدى ينظر إلى الأرض تارة ويرفعها للسلام على من يدعوه إلى الجلوس معهم أمام منازلهم من القصيرية الذين يعرفونه ببتسم ويشكرهم ويستمر في السير. يغرق في ذاته ويرجع إلى السطح على صوت صغار من الصبية يركضون نحوه ليستجعلوه على سياراتهم الصفيح التي طال انتظارها بسبب الزواج فيلاطفهم سريعا دون توقف ويشغل نفسه بعد ذلك بقراءة أسماء بعض المحلات التي لا يعرف أسمائها أحد على الرغم وجودها. يافطات سوداء كتب عليها الحروف بالجير الأبيض، دكان أم النور للملابس ودكان عروسة البحر لأدوات الصيد. المحلات معروفة بأسماء أصحابها. تذكر رضينة يجب أن يخبرها بذلك ولكن ما الفائدة فهي لن تقرا تلك اليفط. واستمر في التدقيق في بعض الكلمات القديمة المكتوبه باللون الأسود للانتخابات البرلمانية لأستاذ تهامى وأخذ يضيق عينيه حتى يقرأ ما كتب وتلفت بعد ذلك إلى اسم منتصر سيد عبد السلام يعلوه الذكرى الخالدة، هذا الاسم الذي قرر صاحبه أن يكتبه على أي جدار أثناء خروجه من المدرسة حتى وصوله إلى البيت ومهما حاولوا أن يمنعوه لم يتخل هذا الصبى الذي لم يتجاوز

العاشرة من عمره عن ذلك ولم يوقفه حتى العقاب من والده الذي كان يستاء من هذه الخصلة. فعبارة الذكرى الخالدة مشهورة ولكن عادة توجد على جدران المدارس أو معسكرات الجيش أو أماكن العمل ولا يعرف هل المصريون ورثوها عن أجدادهم في تخليد ذكراهم فاحتفظوا بالتوقيع فقط دون عمل يسبقه يخلد الموقع. فابتسم حامد عندما تذكر أن هذا الفتى وصل إلى جدار بيته الجديد بالعدوة وقبل أن يسكن هو ورضينه فيه كان اسم منتصر سيد عبد السلام بالحروف الكبيرة على الجانب الأيمن البيت واسمه مرة أخرى بالخط الصغير أسفل خزان المياه خلف البيت. تخطى الفتحة التي في السور وأصبح بعد بضعة خطوات متسارعة بسبب ارتفاع الشارع على شاطئ البحر. ترك الإضاءة الضئيلة وراءه ولم يكن في الميناء أي سفينة عملاقة تحمل بالفوسفات وكان القمر شبه مكتمل بلونه الأزرق الفاتح لا يحجبه إلا بعض السحب القليلة جدا التي تمر مسرعه، وصوت الأمواج الهادى وعدم وجود أي شخص غيره على الشاطئ ليلتها حتى بيته الذي يظهر خياله من بعيد جعل الأفكار المحرمة تغزوه مجددا وبدأ يسترجع ما حدث في بيت عزوز كأنه كابوس تذكره بعد أن افاق، فعندما يسرع في خطواته يسرع صوت الشيخ هارون وهو يرتل التعويذات مع صراخ سالم وعندما يتوقف عن المشى تهدئ الأصوات وصدى داخله ولا يريد أن يتخلص منها حتى وصل بالقرب من بيته فنظر إلى البحر وتملكته وقفة فضائية عندما تتصلب كالشجرة الوحيدة في الوادى، فقد شاهدها

كثيرا في ليالٍ عندما يببت في عشتها فكم من مره يفتح عينه في الليل فيجدها واقفة دون حراك كأنها تمثال على الشاطئ بعيدا، كانت تقول له أنها ترتاح لذلك فكان يحدث نفسه قد تكون تفعل مثل يونس في تاملاته المسائية التي تعلمها عن طريق التصوف بأن يجلس في ضوء خافت ويصمت وهو مغمض العينين. أما هي فقد اكتشفتها بالصدفة من الوحدة في الخلاء. واستمر في تلك الوقفه كأنه نائم حتى لمس سرطان بحرى جانب من قدمه وعن أثره ارتعش جسده كله كأنه مرت فيه كهرباء وشهق وأحس بأن روحه ارتدت إلى جسده مره أخرى بسرعة. فتلفت حوله فارتاح بأنه ما زال وحيدا. ابتعد عن الشاطئ قليلا مقتربا من بيته. فضل أن يجلس على الرمال البيضاء الأقل رطوبة قليلا قبل أن يعود إلى رضىنة فما زال الوقت ليس متأخرا. وصلت إلى مسامعه همسات سمرأتى من بيته فتذكر سيدة الحلبية « أنها من الطيبين مثلها مثل الكثيرين حولى يونس وصفية وفضاية ورفقاء في العمل وجيران في العدو. اترك لهم حياتهم يعيشوها بتفاصيلها التي يحبونها. أحيانا الحقيقة غم ونكد، لا تنبذهم داخلك وإلا فكره حامد نفسه في مراحل حياته السابقة. ما كان جميلا بالامس قد يصبح قبيحا غدا. وما كان حقيقة في الماضى أضحى زيفا اليوم. أنت ميكانيكى في أسفل السلم الاجتماعى كاغلب الناس. كنت محظوظا في التأمل وأخذ بيدك الدكتور سراج. كمن روى أرض طيبة صغيرة في صحراء جرداء لا تمطر السماء فيها إلا كل بضع سنين وبهيئة عشوائية. من الغد لا بد أن

اذهب إلى الدكتور سراج واحاول أن امحو الكدر الذي فعلته لن يستطيع المرء أن يبدل رفقاءها وأصدقائه كالملابس حتى تناسب مقياس جسده كلما تغير. ولكن هل لو كنت مثل الدكتور سراج أو غيره مما يحملون شهادات تعليمية عليا كما يطلقون عليها لكان هذا ذو تأثير على من أحادثهم أو اختلط بيهم. لا اظن. هذه أمور يتساوى فيها المتعلم والأمي بل يكون المتعلم أشد عنفا من الأمي بسبب الحذلقة. فهم كلهم يعتقدون بأن هناك عوالم غيبية بل يتفتق ذهن المتعلمون منهم بأن يربطوا أشياء ملوسه بالأشياء الخفية. فتجد من يحدثك عن أجدادنا القدماء وكيف أنهم بنوا الأهرامات والمعابد واخفوا الكنوز في مقابرهم تحت الأرض بأن كل هذا من عمل الجن وأنهم ما زالوا حراس على المقابر ويمطرك بالأدلة الوهمية ويصل ببعضهم أن يذبح بشر فوق قطعة أرض حتى تخرج الكنوز القديمة لأن ذلك شرط. خلاصة الأمر أي نعم لا تتعب نفسك بالحساب والجبر والهندسة والكيمياء. احفظ الطلاسم واجعل المردة يعملون بدلا منك. وتشيد لك القصور والصروح بل تبني لك الانفاق الزجاجية في البحر لتمر دونما أن تلمس الماء قدمك. وتأتي لك بالطعام والماء وأنت في مكانك، انتهت حضارة العراق ومصر في أذهان الناس وحفر بقوة في العقول تراث بنى إسرائيل المأخوذ بسطحية من تلك الحضارات. أنه من سليمان أنه من سليمان أنه من سليمان» انفجر ضاحكا فقد تذكر وجه الشيخ هارون. «مات سليمان وعاشت طلاسمة. ٩٧٪ من عمر الإنسان على الأرض قضاءه في السحر

وعندما أتى الدين بعده لم ينسحب بل ظهر على استحياء ومكر وتخفى. وجعل الكل سحرة ولكن بقدرات متفاوتة فمنهم الصغير الذي يقرأ بعض الكلمات كى يستطيع أن ينام أو يصد شعاع الحسد ومنهم الكبير الذي يأتي بخوارق وكل ذلك بمجموعة من الكلمات». سكن للحظة كأنه يستريح قليلا لينظم انفاسه امام من يحدثهم ثم عاد مجددا مرة اخرى بنفس الحماس ليخاطب نفسه متسائلا «ولكن لماذا سالم تأثر وكل من كان حاضرا أو يسمع ما يدور في الحجره مع سالم كان مصدقا. من المعتوه الذي غيب عقولهم. بلى هم المعتهون، نعم نعم انه موجود في الكتب السماوية التي نزلت في الثلاثة آلاف سنة الأخيرة من عمر الكرة الأرضية. فإن الجن يتفق مع الإنسان في كل شيء، الخوف الإحساس الضمير الإيمان الشر الخير الذكاء الغباء القوة الضعف، إلا أنه غير مرئي. إذن أن هذا العالم من الجن مختلفون وليسوا كلهم نوع واحد، لذلك نجد منهم اليهودى والمسيحى والمسلم والكافر وهذا يدل عن قناعات أو توارث. لذلك لا بد أن يكون هناك من فقد عقله ولا تفرق معه عهود ومواثيق يا شيخ هارون. انتظروا ولا تضحك يا حامد. أن الزلازل والبراكين من أعمال الجن المجنون، يرى حامد الشيخ هارون كأنه فوق مسرح ينحنى من شدة التصفيق. أمثالك يا شيخ هارون لا ينزعجون. الإنسان اميل إلى تصديق ما تربي عليه وورثه ويميل أيضا إلى نفس الخدعة التي خدع بها كل من سبقوه من أهله دون أن يعمل عقله ولو لمرة واحدة. ويجعل الخديعة هي الحصن الأخير الذي

يرجع إليها عندما يواجه باستفسار. ما دليلك على أن هذا التمثال قد نحتة العبادة؟. دليلي أن هناك فقرة مكتوبة على الحائط المنيع تثبت ذلك. إذن هذا هو الاثبات. الأفكار الغامضة تدكه دكا شديدا».

السكون يتسع وينيره قمر كبير. الكل مطمئن فما يدور في خبايا حامد صامت لا يزعج غيره. وقائع الشاطئ ازدادت حركة تبحث عن بقايا الأسماك الميتة فالمكان آمن لن تختفى في مخبأها أو تقف ثابتة مجددا كجندی حرب أثناء الإحساس بالخطر. فطلقات الرصاص والمدافع وقاذفات اللهب في أرض أخرى. وما كادت المعارك ان تنتهى ويستكين الجسد. أتى صوت من داخل المياه من على السطح. أحد غواصين الليل البرمائين يفرغ جزء من انبوته في الهواء ويغطس مرة أخرى. رفع حامد رأسه بعد إن كان متكئ في اتجاه الصوت القادم من داخل البحر دون أن تتم له رؤية صاحبة الصوت.

«حتى أنت أيتها الطيبة يسكنك الجن وإن كان هذا الاعتقاد فيه نفعاً لك. فحذارى من شر القروش التي ليس عندها إيمان. فكم من مرة يطلق سراحك الصيادون بعد أن تقعى في شباكهم. خوفاً ممن داخلك. وأن هم جاع أو منكر لهذا الأمر بذبحك. وحدثت له نائبة من نواب الحياة التي تلاحق البشر جميعاً. فقد يصل الأمر إلى صداع أو تقلب مزاج. أنه الخبر اليقين. لماذا ذبحت السلحفاة إيها الغبى. فالعالم الغيب معظمه سوء. فلا يأتي

عفريت ذو أخلاق سامية يساعد فكلهم أشرار. حتى الملائكة في مصر تنزل من السماء لتركب سيارات وتسرقها».

وجب على أن أسرد قصة توضح ما يرمى إليه حامد في جملته الأخير وذكره للملائكة. في إحدى الأيام القريبة من عهد تواجد حامد في القصير نشرت جريدة كبيرة في عالم الصحافة في مصر عن قصة لقاء عزرائيل ملاك الموت مع مواطن مصرى. سأقص الحكاية كما تخيلها حامد بعد أن قرأها وليس بالأسلوب الصحفى للجريدة. بأنه في ليلة من ليالى الشتاء شديدة البرودة كان هناك سائق تاكسى يجوب شوارع القاهرة بحث عن رزقه وفي أثناء مروره في شارع فرعى قبل شروق الشمس بوقت لا يتعدى الساعتين أشار له رجل تعدى الستين من عمره ليقف وكان الرجل طويلا ذو مهابه ويلبس جلباب ناصع البياض كأنه يضيء من نظافته وفي يده عصا مهيبه تزيد وقارا على ما يمتلكه من رفعة وصرامة. يستخدمها فقد كوجاهة فلم يتكئ عليها احتياجا من فقد صحة. وعندما استقر في مقعده الخلفى ذكر بصوت رخيم اسم مسجد. فاعتذر السائق متذللا بأنه لا يعرف هذا المسجد مع رسم ابتسامه عريضة على وجهه الذي كاد أن يكسر الرقبة من شدة الالتفاف إلى الوراء ليحدث المسن. وعلى طريقة الملوك رفع الرجل يده اليمنى مستخدما أصابعه وهو يتكلم: «استمر على نفس هذا الاتجاه وعند الضرورة سأخبرك أي الطرق تسلك». وبعد أن ادخله في عدة شوارع فرعية وطرق

ضيقة وزالت الرهبة في قلب السائق مع الوقت، ظهر رجل آخر في نفس عمر من يقبع في الخلف. يطلب تاكسى. قطع السائق في الأجر الاضافى فاستسمح المسن الوقور بأن يأخذ هذا الرجل أيضا على أن يوصله بعده لأنه ليس من المرؤة أن نتركه في هذه الظلمة الباردة. فوافق بإيماءة من رأسه توحى بالموافقة مع الرجاء من الأقلال من الكلام. فنطلق على الرجل المسن الأول بالوقور والذي أتى بعد بالجديد. وبعد أن ارتاح المسن الجديد على المقعد الأمام وأسكت أنفاسه المتلاحقه لكى يكثر الثناء على السائق لأنه قد نجده من هذا البرد القارس وعدم وجود المواصلات. فرد السائق موضحا بأنه ليس صاحب الفضل ولكن يرجع ذلك إلى السيد المحترم في الخلف. فادار المسن الجديد إلى الخلف وهو مبتسم ليشكر من ذكره السائق. فاخفت الابتسامة وهبط الاستفهام.

– أين يا ولدى من تقصده؟.

فضحك السائق مستهزا وهو ينظر إلى الجديد والوقور في الخلف: ألا تراه يا ولدى؟. وعند هذه اللحظة ضج المسن الجديد بصوت جهورى للسائق بأن يتوقف وبدأ يهدد بفتح الباب. فتوقف التاكسى فجأة وخرج المسن الجديد من السيارة وهو منفعل ويسب السائق ويترحم على الأخلاق ويتهمه بأنه مخمور دون شك. وكل هذا والوقور لما تخرج من فاهه كلمة حتى ابتعد الرجل الجديد وتلاشى صوته في الليل. وبعد زوال الوهلة الأولى

من الصدمة على وجه السائق وقبل أن يهتم بالكلام، عاجله الوقور بشيء من الشدة في قسمات وجهه بأنه لن يراه غيره وعليه أن يتجه إلى المسجد الذي أخبره عنه. وأشار الوقور بأصبعه على شفثيه بعلامة موحية للسائق بعدم النطق. الكون هو سيارة السائق مازال يحملق في الوقور والوقور يبادل له النظرات لا يستطيع السائق بعد ما سمع بأن يبعد عينه عن من يجلس خلفه وكأنهما في نظام كوني مرتبطان ببعضهما بجاذبية غامضة. فحدث نفسه السائق «من أنت أيها الوقور بالتأكيد عفريت من الجن سوف تهبط بي إلى سبع أرض. انتهت أيامك في الدنيا وأخذ يتذكر كل حياته بسرعة كأنه حلم». نطق الوقور كأنه سمع ما يدور في صدره قائلاً: «أنا عزرائيل واتييت لأخذ روحك أمام المسجد». حل الغموض بكارثة. وأمره بشيء فيه زجر بأن يكمل القيادة وفي هذه اللحظة بدأت بعض مكبرات الصوت للمساجد بآيات من القرآن تعلن قرب صلاة الفجر. فزادت الوضع سوءاً بالنسبة للسائق ووضعتة كلياً تحت بطش الإيمان. فاستمر في القيادة كأنه مخدر مسلوب الإرادة «هل اترك السيارة واهرب. أين تهرب يا مسكين؟ أنت مثل عجل مصيرك الذبح حتى وأن هربت من الجزائر فكل أهل المدينك قاتليك وأن هربت إلى الصحراء فأنت ميت. استسلم إلى القدر فهذا ارحم لك». والدمع تنهمر في سكون على وجه حتى سمع الوقور يأمره بتوقف. فلم رأى السائق المسجد على يساره يدخله المصلون للصلاة الفجر. «آه لقد وصلت إلى الدار الآخرة وانتهت أيامك في هذه الدنيا لا بد عليك أن ترحل

وتتركها إلى غيرك». وبدأ يشعر باختناق في أنفاسه فاسترق نظرة خاطفة من المرأة ليتأكد من أن الوقور مازال على هيئة الأدمية أم تغيرت. فقال دون أن يلتفت إلى الورا: «هل هناك وقت أم انتهت أنفاسي؟».

- بعد الفجر أمام المسجد.
- هل لي أن أصلي الفجر؟.
- ليس عملي.
- إذن اذهب وارجع.
- قبل شروق الشمس بعد الصلاة.
- اتركنا اذهب لاصلي. قالها وأنفاس محتضر تملئه.
- صلي وعد يا ولدي.

من شدة اندفاع السائق في تركه للسيارة والهرولة ناحية باب المسجد لم يسمع شيئاً بعد كلمة صلي. بعد أن توضأ استعداداً للصلاة وهو ينظر إلى الناس المنتشرين في المسجد وعيناه تزرفان بالدموع ولا يستطيع أن يوقفها. ويشعر كأن الناس بالمسجد يشاركونه حزنه وجلس منتظر وقت الصلاة وتملكته رعشة لا تأتي إلا من شدة برد قارس. وعندما بدأ يقف في الصف مع المصلين ليتبعوا الإمام في الصلاة. ولا تزال حالته كما هي بل ازدادت سوءاً عندما سمع المقولة الدائمة التي يقولها أي أمام قبل بدأ الصلاة وكانها موجه إليه، وهي صلوا صلاة مودع. تلقى نحيبه كل من

في المسجد. انتهت الصلاة واستمر في مكانه جالس. وبدأ رويدا رويدا خروج المصلون وبقي بعض كبار السن من أهل المنطقة الذين يكونون بصفة يومية حتى في أوقات ليست للصلاة. ظنوا أنه يمر بضيق وكرب فاتجه بعضهم إليه ليروح عنه ويستفسر عن همه. وما هي إلا دقائق حتى أصبح كلهم حوله ما بين تصديق وإنكار. فأوقفوه على قدميه بصعوبة واصطحبوه إلى خارج المسجد كمريض أو أنه أكبرهم عمرا وعندما وصلوا إلى الخارج. تلفت يمينا وهو يمسخ بكفه الدموع وما يخرج من أنفه وهو يتساءل: «أين التاكسى؟». فأنفجر كل من معه بالضحك والسخرية أن عزرائيل ما هو إلا لص سيارات. فشاركهم فرحا بأنه ما زال في العمر ببقية. ولم تمر ساعات بعد بلاغ السائق على ما حدث إلا وتم العثور على التاكسى في مكان قريب. ولم يسرق منه شيء وبعد عدة بلاغات مشابهة تم حل اللغز بأن الرجلين الأول والثاني ما هم إلا أصدقاء على المعاش. كانوا موظفين كبار في مديرية الزراعة بالقاهرة واعتادوا تدخين الحشيش معا. وكل ما يفعله ما هو إلا لهو.

كان تعليق حامد على ما قرأ في الجريدة بعدة أسئلة هي «ماذا لو كان السائق لم يلحق من صغره تلك القصص. هل سوف يكون ردة فعله مشابه لم يحدث، بالطبع لا. ماذا لو مات السائق من الهلع والخوف بين الناس بعد ان اخبرهم قصته. بالطبع سوف يصدقوا هم ايضا بانه شاهد عزرائيل».

ابتسامته مضيئة كالقمر الذي في السماء توقظه. أخذ لحظات يسترجع أين هو وماذا جاء به إلى هنا وما هذا البرد الذي يضرب بعنف عظامه. فقام مع رضينة وهو بين اليقظة والمنام. وعندما دخل إلى البيت احتضنه الدفء وجعله يفرد جسده الذي قوسته النوم على الرمال الباردة وبعد أن أوصلته رضينة إلى السرير الوحيد في الغرفة. انتبه إلى وجود سيدة الحلبية هناك عندما قالت وهي جالسة على الأرض بالقرب من موقد الشاي: «كيف سمعت شخيره من بعيد». فردت عليها رضينة وهي متجه إليها: «من عاش في الوديان تكبر أذانه». تذكر حامد أنه كان يحلم بوالده. وكانت الرؤية أنه قد علم مكانه في طنطا وذهب إليه هو واخواته ولكنه هرب منهم عندما شاهدهم.

رغب فيها الليلة ولكن أنها تسمع بأذن صاغية إلى سيدة الحلبية. أخيرا وجدت سيدة من تبهرها بحياته السابقة. فكل ما عند سيدة لا تعلمه رضينة وتخليه كأنه قصص اسطورية. البقر والجاموس والمساحات الشاسعة الخضراء. وجدت نفسه سيدة. فكل إنسان يقويه روحيا إذا ما وجد مستمع يتلقى منه بانبهار عن ما حدث في ماضيه. وأحيانا يكون علاج نفسى للمتحدث. فسوف تبني سيدة ماضى جميل لم يحدث وسوف توصفه بدقة للرضينة. وستبدل طباع الشرلدى أصحابه إلى خير. زوجها أرق الناس وأبناؤه أحسن أخلاقا وبيت في السابق عامر بالخيرات.

\*\*\*\*

الزمن مستمر. تتدافع الأيام. لا يشعر من عاش من ألف سنة، أن ألف سنة قد مرت بعد مماته. ولا يتخيل من يمشى على الأرض الآن أن عدة الألف من السنين سوف تتخطى يوم مولده. الكل يرغب في إنهاء الدنيا بعد انتقاله. كيف تستمر الحفلة دونى. لم يخلو جيل إلا وانتشر بينهم نهاية العالم وأن زمنهم هو الاقرب ليوم القيامة ولا بد من البحث عن الإشارات والعلامات. ومع تتابع الليالى وانقضائها يخرج كل نهار يحمل شكلا جديدا أو مغاير لما بات عليه أو به إضافة توضح سطوة الدهر.

المسجد يعلو في الظهور واكتملت أركانه. والمعظم سكارى بعظمة المقصد والهدف. يتابع أعمال البناء بصفة مستمره فاروق بك كحاكم إقليم في الزمن القديم والشيخ هارون كاهن من كهنة امون فلا بد على الحكام الجدد أن يشيدوا أماكن مقدسة جديدة تكتب باسماءهم ولا عزاء لم انتهت أيام ملوكهم من الأسرات الأقدم فالكل به شراسته أن وجدت السكين في يده.

لا يمر أسبوع أو أكثر بقليل إلا ويأتي فاروق بك إلى القصير من الغردقة لتفقد أعمال البناء في المسجد. فلقد أصبح شبه مقيم في عاصمة المحافظة وترك بيت الأوانجى. هالات الحزن تحيطه وأصبح يبدو في عمر أكبر من سنه. أرجع الناس ذلك لكثرة المشاغل ونهب المال وحب السلطة. وبعد أن ينتهى من متابعة المسجد عليه أن يصدق على دفتر سطر فيه أعداد الراغبين في العمل في الغردقة في موقع الفندق التي يعدها له أسعد طابيه

التابع الوفى كعباد الشمس للمنصور فقد تم تكليفه بمهمة تسجيل أسماء أهالي المدينة الطامعين في العمل. فتقريباً لا يوجد بيت في القصير إلا ومنه واحد أو اثنان في الدفاتر. يذهب أخ ويرجع أخ. أو يبادل ابن واباه العمل مناصفة في الشهر حتى لا يتركوا البيت خاوي دون ذكر. أصبح الحج فاروق المسبب الأول للعمل في المدينة. وهذا ما جعلهم يتحملون سخافات أسعد طابية. فهو في كل قرب نهاية نهار يفتش الأرض في أي حارة من حواري القصيرية ومتقنعا بقناع زائف من الأهمية يستشعر أي صاحب عقل بأنه وضع أمسك زمام اشخاص أعلى منه. فعندما يتدافعون حوله ويحثونه كلهم متوسلون في أصوات متداخله بأسمائهم. لا يخجل من زجرهم بقدميه كأنه في عراق معهم. وبعد ذلك يوحى لهم بأنه قد ينهض مكتفياً مما سجل وهو متلفع بعباءة الضيق. فيلتمس له الاعذار أشدهم عوزاً وحاجة ويصمت من يعرفون وضاعته التي ورثها عن أبوه من الجرى خلف الموائد. كان يظن فاروق فيه أنه ليس له نفع نهائياً وما هو إلا صعلوك من صعاليك أخوه منصور الذين يسرحون خلفه كقمل القرش ليأكلوا من بقاياها. ولكن بعد أن رأى منه ما لا يجده في غيره. تمسك به وجعله تابعه في بعض الأعمال. فأسعد طابيه عندما يلمح قدوم فاروق بك قادم مشي أو في سيارته. كان كأنما لسعته عقرب أو لمسه سلك كهرباء عارى. ينتفض في ثبات ويترك أي شيء أو شخص كان بصحبته ويتقدم في اتجاه فاروق بك. ويشعل ضجة في الترحاب. وهو من ينهى حديث أي مزعج عندما يستشعر

بأن فاروق بك قد مل أو تغيرت ملامحه لضيق. فيهب قائلاً: «لو سمحتوا فاروق بك عنده لقاء في خلال دقائق. تفضل يا فاروق بك».

فأصبح يلزم فاروق بك في العمل ليعطى الواجهة المطلوبة وأوقات الراحة خلف منصور في أي شيء. لذلك عندما قرر فاروق الذهاب إلى قفط كان أسعد طابيه من الفجري يقف منتظراً خارج البيت للسفر. وكان يومها لهذا السفر أسباب عديدة تتزاحم في ذهن فاروق. أولها استرجاع زوجته التي أقسم في لحظة غضب على أن تخرج من بيت الأوانجى. فأرسلها هي وبناتها إلى قفط عند بيت أبيها مع منصور من حوالى أسبوعين. وكانت هذه المرة الأولى التي يطردها من البيت. وكانت أيضاً المرة الأولى لزوجته أن تراه في صورة مفزعة كأنه شيطان يزوم في البيت. وهذا ما جعل كل الأفكار السيئة تنجذب إلى رأس بهية زوجته كفاعى تاوى إلى جحر واحد فينشب بينهم الصراع.

وصل إلى قفط هو وصحبته في سيارتين. السيارة الجديدة يقودها بنفسه ومعه الشيخ هارون، والأخرى يقودها أخوه منصور ومعه أسعد طابيه. وصلوا في أول الصبح واتجهوا إلى مندرة الضيافة التي تتبع عائلة حماه على غير المعتاد. وما هي إلا دقائق حتى فرغ إليهم مهرولين بعض كبار السن الذين منعهم العمر عن الذهاب إلى الأرض الزراعية. وبعد وقت قليل كان حماه وابناه قد أتوا مسرعين من عملهم حتى أنهم لم يغتسلوا من آثار الطين

والزرع. وبعد التحية والترحاب. وغلبت نظرات الرضا والابتسامات التي تعلقو وجه فاروق ومرافقيه على الاندهاش الممزوج بالعتاب المصاحب إلى حماه وابنيه. وبعد أن انتهت السلامة والترحيب. اقترح حماه أن يأتي معه إلى بيته قائلاً: «فأنتم لستم ضيوفاً». وبعد مشادات لطيفة وافق فاروق بك على أن يذهب معه إلى بيته بصحبة الشيخ هارون. ولكنه أصر على تناول الغذاء في المنذرة بحضور اكابر القرية لأنه يريد لهم في أمر مهم واستخدام فاروق لكلمة اكابر كانت لها وقع سحري فقد اسكرت مستمعها لتعطشهم لثناء من مثله فهم يستشعرون فقرهم بمجرد النظر إليه ومصافحة يديه. فتم الترحاب من كبار السن بهذا الغذاء. واستشفوا خيراً منه. فهم يعلموا غنى فاروق بك وطالما كانوا يحسدون عبد الرازق عمران على هذا النسب.

وكما توقع فاروق بك فإن قدوم الشيخ هارون معه. ما هو إلا عصا موسى. فمجرد ظهور الشيخ الملتحي وخروج الكلمات والآيات القرآنية وتطويعها لخدمة سبب الزيارة. كانت نفوس أهل زوجته المشتعلة قد هدات. وبقى فقد السؤال في داخلهم لماذا طرد زوجته من بيته ولم يسأل عليه لمدة أسبوعين. ونسى أبوها أنه همأ أكثر من مرة ليضربها حتى يعرف السبب. شبح العار يرعبهم ويطوف دائماً في أذهانهم. يلهجون دائماً في صلواتهم بأن لا يتعرضوا لأي شيء يمس الشرف النسائي. ولكن قدوم هذا الشيخ الغريب معه يدل على أن الأمر لا يصل إلى السمعة. وتؤكد لهم ذلك بعد أن ألح فاروق بك على فتح الموضوع أمام الشيخ هارون الذي

حاول أن يتملص من هذا بأن يغادر إلى المنذرة ويتركهم. وبعد أن تكلم فاروق ووضح أن ما حدث لا يعدو إلا أشياء تحدث أحيانا بين الأزواج. وأكد الشيخ هارون على ما قاله فاروق واسترسل في الحديث كأنه يعبأ من نهر جارى فكان يقول «أن بنتكم بنت امرأ فهي نعم الزوجة والام ولكن بعض الأحيان هناك عكوسات وأشياء تأتي بالنكد وهذا عمل الشيطان والعياذ بالله» وأخذ يوضح بأن فاروق بك رجل خير ناصر لدينه وأنه مع كل عمل خير هناك من يكيد له ويريد أن يؤذيه في ماله وولده وزوجه وبعد أن قص عليه فاروق بك ما حدث في الفترة الأخيرة فإنه قد تأكد بوجود عمل سفلى وسحر في بيت الأوانجى. فالحجة منيرة سقطت مغشيه عليه أمام البيت والشجار الحاصل بين الزوجين على الرغم من عدم وجود أسباب حقيقية وبناته الذين لا ينامون الليل ودائما في كوابيس ويهبون أحيانا يصرخون وخصوصا البنت الصغيرة التي يزداد بكائها عندما يهمل أبوها بالخروج إلى الصلاة في المسجد. لم يكاد ينتهى الشيخ هارون حتى اندمج حما فاروق في الحديث بهمة لا تعرف الكلل في الحديث الشيق ونسى بنته وأخذ يسرد القصص والحكايات عما حدث له أو لغيره من أهل القرية أو من القرى المجاورة وأخذ يترحم على والده وعلى الأجيال القديمة وكيف تعلم منهم أشياء كانت سندا له في حياته وقارن بين ما يحدث الآن بأن يتركوا الأطفال تلعب في الشوارع أثناء غروب الشمس. واتفق مع الشيخ هارون وأثنى عليه في تحليله الدقيق كما وصفه. بأنه هناك سحر وأن النساء

والأطفال هم أكثر عرضه للحسد وسيطرة الجن. وما أن انتهى دور الشيخ هارون في التمهيد وتعبدت الطريق حتى استأذن للذهاب إلى المندرة لينضم لمنصور ومن معه هناك من الرجال حتى يترك فاروق بك يرى زوجه وبناته. وعندما انفرد فاروق بحماه ظهرت عليه علامات من سيفض بأسرار.

- الآن أستطيع أن أزيد على ما قاله الشيخ هارون، هل يرضيك أن استحلب الافيون مثل التلامذة في الشوارع واخشى أن اذهب إلى بيتي، أن بهية دائمة الاعتراض على ذلك وتتشاجر معي.

فأجابه حماه وعلامات النشوة عليه كطفل وهو يدس في جلبابه ما أعطاه فاروق قائلاً: «بالطبع لا، الرجال لهم بيوت». وعندما هم أن يستطرد في القول وسمة الغضب على وجهه مما فعلته ابنته. أوقفه فاروق عن الكلام بأن قبض على رسغه ونظر في عينيه كأنه سوف يلقي عليه بالسرا الأعظم فقال: «أنى قدمت إلى بيتك للسبب أهم من كل ما ذكرته لك». وتوقف للحظة غامضة واستطرد قبل أن يتلاشى حماه من شدة الانتباه المذعور قائلاً: «سوف أصبح عضو مجلس شعب في الدورة القادمة بأمر محافظ البحر الأحمر. أن الأمر منتهى ولكن المحافظ يريد أن يكون الشكل جماهيري». صمت فاروق عندما وجد حماه كمن فقد روحه وأصبح تمثال. فهزه فاروق برفق قائلاً: «ما رأيك؟».

- وهل لمثلنى رأى. البلد بلدهم. قاصدا المحافظ. يعملون فيها ما يشاؤون.

- أعلم ذلك ولكن كما أخبرتك هؤلاء الناس يقدرّون القواعد. وفي النهاية يجعلونك تختار ما يريدون. أنت تعلم أنني ابني فندق سياحي في الغردقة. فهز رأسه حماه بعلامة الإيجاب متذكرا غيظه هو وابناءه عندما علم من الغرباء بذلك قبل أن تأتي لهم بهية وتوضح لهم ما يجري. وتؤكد لهم أنهم لن تهب عليهم النفحات من رياح قادمة من ناحية فاروق فرياحه دائما عقيمة. فأكمل فاروق: «لذلك احتاج إلى أعداد هائلة من العمال فحصرت جهتين لجلب الأيدي العاملة القصير وقريتك، وسوف نخبرهم في بادئ الأمر بأن عليهم أن يغيروا محل أقامتهم إلى القصير حتى يدخلوا بسهولة المحافظة دون أن تعترضهم شرطة أو جيش ولا نذكر أي شيء عن مجلس الشعب. وبعد بضعة شهور يكون الشباب امتلأت جيوبهم بالنقود عندئذ نخبرهم بأن صاحب العمل وزوج ابنة قريتكم سوف يترشح للمجلس الشعب وبعد ذلك سوف يهبون كلهم لنصرتي».

- ولكن كيف ستتم إجراءات تغيير الإقامة؟.

- الحكومة معي. كل هذه المسائل بسيطة وأنت بنفسك قلت البلد بلدهم، اصغ لي جيدا سوف نتناول الغذاء في المنجرة معهم واحرص اليوم على تجميع أكبر عدد من كبار السن ورؤوس العائلات. وسوف اتولى أنا الباقي معهم. أه ولا بد أن تكون لك أنت شخصا مندرة لوحده لا يشاركك في أحد. وسوف اشترى بعض الأراضي الزراعية في القرية كما

كنت تلح في السابق ولا تغضب منى فأنت واجهتى الآن في قفط. لابد أن تغير هيئتك وتكون لك هيبة بينهم. سوف اترك منصور والولد الذي معه يومين أو أكثر حتى يسجلا أسماء القادمين إلى الغردقة للعمل. لا أريد أن تنتهى شمس اليوم إلا وتشتعل في البيوت هذا المساء وهج البشرى بالخير القادم. سوف يتذكر حما فاروق هذا الصباح طيلة حياته الباقية ويؤكد دائما لنفسه أنه لم يفرح بيوم أشد من هذا اليوم فرحا ولا يضاهيه أي شيء. لا يوم زواجه أو أول مولود له.

اتجه الحما وفاروق بك إلى داخل البيت قادمين من غرفة الضيوف الحقيبة ذات الثلاث كنبات والتي سوف تصبح قريبا من الماضى. وكانت خطوات فاروق بك متأنية خلف حماه على غير المعتاد في مشهد تمثيلى، عدلت بهيه من هيئتها وهي جالسة كأنها تنظر إلى مرآة أمامها فرشقتها أمها بنظرات امتعاض وهي تتمتم بكلمات بذئية في صوت منخفض عن كهن النسوة، لم تحفل بهية بما سمعته من أمها واتجهت بعينها إلى بناتها مفرغة بعض من غضبها الدفين في أعماقها وهي تقول: «كما أوصيتكم يا بنات الكلب». اجادت البنت الصغيره دورها باتقان عندما شاهدت قدوم الأب فاندفعت باتجاهه فرفعها فتعلقت برقبتة أما البنتان الأخريان فقد سلما عليه كغرباء كعادة بيت الأوانجى. جلس فاروق بجوار حماته على سريرها الذي أصبح جزء منها لا تفارقه في الجلوس والنوم فلقد اضعفتها الأمراض من خشونة مفاصل وألم

في الغضروف وازداد وزنها ولم يبق شيء سليم فيها إلا لسانها فلم تستقبل سلامه بالمودة وحدثه بنظرة ذات معنى وهي تقول : «لو كانت لنا قيمة عندك ما كان يجب أن تطرد بنتنا وبناتها من بيتك وتتركهن لأكثر من شهر دون سؤال».

تظاهر فاروق بانشغاله بمداعبة بنته الصغيرة التي على رجليه. ولكن امتلاء وجهه ببقع حمراء متفرقة تظهر وتختفى كأنه أخطبوط غاضب فهو ليس معتادا بأن يقف في مثل هذا المشهد وأن يبرر أفعاله لمن يضعهم أسفل منه. فانتفض حماه قائلا: «جعلتية شهر لا تفتري على الرجل، وطالما السبب بعيد عن الغلط فهو مقبول وبنتنا زوجته وقيمتها كبيرة عنده». واتسعت حدقتيه بغضب لبهية يحثها على الكلام. فنطقت في استكانه حزينه كأنها ستبكي بعدها: «المسامح كريم يا امي». وأكمل حماه مخاطبا الحفيده الكبرى بأن تنهض لتعد الشاي لأبيها وما هي إلا ساعة زمن حتى تلطفت الأجواء وعلت الضحكات من الجميع ورحبوا بكل آراء فاروق بك وزاد الفخر والتهيه داخل بهية عندما قال فاروق بك أنه لا يقوى على الاستمرار في الغردقة دون زوجته. فقرر أنهم لا بد أن يصحبوه إلى بيته الموقت في الغردقة وأنه قد نقل أوراق بناته الخاصة بالدراسة إلى مدرسة هناك. تنفست بهية أنفاس الطمأنينة فقد كادت العواصف أن تقتلع كل ثابت ومستكين داخلها في الفترة السابقة. لذلك لم ترغب في إظهار الضيق عندما علمت أن سيدة الحلبية هي

من جمعت أشياءها في بيت الأوانجى ليرسلها فاروق إلى الغردقة. وأيضا أجلت سؤالها على وجود سيدة الحلبية مع الحاجة منيرة التي كان لا يضيقتها فاروق في الماضي.

امتلات المندرة بوجود كبار السن وارتدى كل شخص فيهم جلباب المناسبات كفرح أو عزاء أو جلسات صلح. وارتسمت على وجوههم الكادحة سمات الترحيب والسعادة بالضيوف وكانوا صادقين النفس في الاستمتاع عندما يصنتون إلى فاروق بك أو الشيخ هارون ويبادلوه الحديث الذي يكون من ناحيتهم كنسمات قليلة في صيف حار. واصرروا هؤلاء الكادحين أن يكون الغذاء من بيوتهم فاصرفوا في الكرم الذي يعشقه فقراء الصعيد في مصر للغرباء. فأخبرهم فاروق بك ما ينتوى على فعله معهم وتخصيص قريتهم فقط بالعمل في انشاء فندقه فلهجت اللسان بالشكر والمديح بعد سماع أجر يومية العامل وأن هذا العمل قد يستغرق سنتين على الأقل وكيف احتقروا اجورهم في أعمال الزراعة أو البناء في القرية أو في خارجها في كل قنا. وخص فاروق حماه بأنه سوف يكون المسئول على إرسال العمال إلى القصير لتغير البطاقة أولا وبعدها إلى الغردقة. لم يغادر أحد بعد الغذاء بل استمروا جميعا جالسين يتسامرون مع بعضهم حتى عندما غاب الضيوف لبضعة ساعات للراحة لم يتركوا المندرة وزادت الأعداد بالقادمين في عجلة من أمرهم بعد أن انتشر الخبر في القرية كأنهم سوف يفقدون شيئا إذا تأخروا. ولم تغرب

الشمس إلا وكل من كان له خلاف مع حما فاروق انتهى تماما كأنه لم يكن. وبعد صلاة المغرب أتى فاروق بك وانضم إلى المتواجدين في المندرة فارتفعت السلامات بصوت عالي أثناء دخوله. انشرح بهذا العدد فاروق بك وانتابته ضخامة في النفس وأنه لم يعد يصبح ذلك الإنسان الذي كان يعرفه وازادت ثقته بنفسه وأنه من بذرة مختلفة نادرة عن هؤلاء الذين أمامه ويحيطون به فهم يرون فيه ما يفتقدونه. الوحيد الذي كان مترقبا مجيء فاروق بك هو أسعد طابيه. واتخذ مكانا لا يمنعه أحد على القيام بواجباته. فافسح الطريق له عندما أتى وكان وجهه كالمذعور وهو يوجه فاروق بك للجلوس في مكان حدده بيده وهو يسير أمامه بخطوات قصيرة سريعة. سعد منصور بتابعه أما الشيخ هارون فكان ينظر إليه وهو مستاء داخله من هذا الذل الذي يتصنعه هذا الصعلوك من أجل بعض الأموال وأنه لم يتدين إلا بسبب التزام منصور في الفترة القليلة السابقة حتى لا يفقد مورد رزقه. أفاق الشيخ هارون من سرحانه في أسعد طابيه لصوت فاروق بك يوجه الحديث له ويستحثه على قراءة بعض الآيات القرآنية بصوته العذب. وبعدها تكلم فاروق بك قليلا وترك المجال لصديقه الشيخ هارون فجعلها درس أو بالادق خطبة دينية كانت تتخللها أحيانا بعض الكلمات من من في المندرة مؤكدا على ما يقوله الشيخ هارون. وبالطبع لم يفوت الفرصة الشيخ هارون أن يشير إلى استقامة وتدين صديقه فاروق بك وسرد القصص عنه وما يفعله في القصير من خدمة في إعلاء كلمة الله فجعل كل

الحاضرين أفواهم فارغه من الانبهار والسرور. فالمصريون عموما يعشقون سماع تدين غنى أو ذي جاه أو أمير أو أوربي حتى. فهو لاء أن أطاعوا الله فكأنهم يتفضلون عليه أما أن يذهب الفقير إلى المسجد يوميا فهذا لا يبهرهم. وجعل الشيخ هارون يسحرهم بحديثه ساعات عن أشياء يسمعه لأول مرة مثل أن الغرب تقدم علميا ببحث في أسرار القرآن الكريم وأن الأمريكان قد وصلوا إلى القمر بذلك وتطرق أيضا إلى الزيتون والتين والعسل واللبن والتمر والسمك وما بهم من فوائد لذلك خصهم الله في كتابه ولكن للأسف نحن المسلمون ضيعنا الدين. انتهت الليلة بفاروق بك والشيخ هارون على الطريق راجعين إلى القصير وبقي أسعد طابيه عدة أيام يسجل في أسماء الراغبين في العمل أما منصور فاخذ بهية وبناتها إلى الغردقة إلى استراحة فاروق.

\*\*\*\*

قبل نهايات الربيع الذي لا يبقى طويلا في هذه البلاد بدأ تدفق أفواج البؤساء من قفط إلى القصير. نصبت لهم خيمة كبيرة من قماش متين كخيم اللاجئين ليستظلوا بها من الشمس التي ما زالت ناعسة وكانت في أول البلدة من ناحية الغرب على جانب الطريق المؤدى إلى قنا تبعد مسافة كافية لعدم الاختلاط بالمنطقة العوينة. وبالرغم من رجاء عضو مجلس الشعب العبادى أكثر من مرة لاستضافت القادمين ولكن فاروق أصر على الرفض ولا يريد من هذا العجوز أن يسرق نجاحه أو قوته. في أول كل

أسبوع تزدهم الخيمة بالعمال الشباب وقلّة من العجايز الأشداء الذين أصبحت أجسادهم كالصخور من عنف الحياة. يجلسون في الخيمة منذ وصولهم مع أول نور ينبثق من بعيد من وراء البحر. وكلما أضاءت السماء كلما اشأبت أعناقهم كزرافات يريدون أن يروا اللون الأزرق للبحر من بعيد. فالخيمة كانت في طريق السيل الجاف فلا يوجد أمامها أي عاق ليمنع رؤية البحر من بعيد. وكلما ابتعد أحدهما عن الخيمة وخصوصا الشباب الأقل عمرا. يرتفع صوت أسعد طابينة حادا بالزجر والسب. يصل الموظفون في تمام الساعة الثامنة لا تأخير. يجلسون على منضدة خشبية متهالكه ويتم استكمال الإجراءات الورقية في همّة وسرعة والتغاضى عن كل المعوقات من نقص أوراق أو شهود. فلا بد التسهيل على المواطنين كما أمرهم السيد العقيد رئيس المدينة. وقبل توسط الشمس يكون أكثر من مائة شخص بدلوا أقاماتهم وأصبحوا من أهالي القصير. تحملهم بعد ذلك العربات التي نقلتهم من قفط متجه إلى الغردقة للعمل. وتصبح الخيمة بعد ذلك مكان للعب الأطفال في ساعات النهار وفي الليال مهجورة حتى يأتي أول الأسبوع القادم ويتكرر الأمر نفسه مع عمال آخرين. وتتم المناظرة الدائمة بين الموظفين هل الأسبوع المنصرم أسهل في العمل أما هذا الأسبوع. ويحتد الجدل وكل واحد متمسك برأيه كأنهم يناقشون شيئا جلالا. ولم يستمر الوضع كثيرا حتى يتأكد أهالي المدينة من المقصد الأساسى لتغيير الإقامة.

في أول الصيف بدأت النساء من فتيات وعجائز يشغلن حيز من الخيمة. بعضهن يحملن أطفالنا رضع. وجوه متسخة صامدة في وجه الحياة. حولهن هالات من الذباب لا يعرف هل تعرف عليهن هنا أما أتى معهن من قراهم. كل واحدة منهن يعطيها حما فاروق مبلغا زهيدا من النقود حتى تأتي مع العربات لكنه ذو قيمة عندها لا تقدر. ولا يكتفين بذلك بل يحاولن محاولات بائسة مذهة مع أسعد طابية ولكن لا يتحصلن منه بشيء إلا بعض النظرات الجائعة منه لاجسدهن ومحاولة لمس الأجساد الطرية لصغار منهن. تغير الإقامات في أيام النساء يتم بشكل أسرع حتى ترجع العربات المحملة بهن قبل غروب الشمس في قفط حتى لا يغضب الذكور هناك. فالليل لا يطوى أنشى خارج دارها.

المحافظ سعيد مما يجرى في مدينة القصير. تصله الخطابات من مجلس المدينة بكل ما يحدث وأن كل شيء يمضى كما أراد. الفنادق والقرى السياحية تبنى على قدم وساق ولكن القصير بالنسبة له هي النشوة التي يطلبها. ما الفائدة من النصر في الحرب دون أن يرجع القائد ويجد المواطنين ينتظرونه على أبواب المدينة يهللون ويلوحون له فرحين بانتصاراته المجيدة التي لم يروها ولن تصل إليهم غنائمها. لذلك أخذت المدينة جل اهتمامه بسبب أنه الأقدم والأكثر عددا بالنسبة لباقي المدن. فأراد أن يشكلها من جديد.

\*\*\*\*

لا عجب في الحياة. بالأمس لا أطيقك فقد تكون اليوم أقرب الناس إليّ وتحمل همى وتزيح معى الظلمه في الليالى الثقيلة. من يستطيع أن يصدق أن سيدة الحلبية في بيت الأوانجى. كانت تحلم بأن تخدم الحاجة منيرة ساعة أو أكثر في الأسبوع أو تجالسه كبقية النسوة دون أن تتلفت حولها خوفاً من أبنائها. حتى يلمسها نعومة من طيب العيش من صاحبة الدار. أصبح لها الآن غرفة داخل البيت وتبيت فيه ولا تفارقه إلا قليلاً. خلى لها البيت هي والحجة ومنى ومنصور. فالحجة أصبحت صحتها معتله بعد سقوطها مغشياً عليه أمام البيت في صباح يوم فات ولا بد من أحد يرهاها بعد ذهاب زوجة فاروق وبناته وأيضا لاهتمام بمنى التي وضعت تحت الإقامة الجبرية في البيت كالمسجونة المطبق عليها حكم بمدى الحياه. فحرم عليها سياحة الشوارع. وكان هذا الحكم صادر من فاروق بك وانقسمت الآراء في المدينة بين مؤيد ومعارض لهذا الحبس للمسكينة. فمنهم من قال «كيف للشخص مثله له مستقبل باهر يتضح كل يوم ملامحه البراقة أن يترك أخته البلهاء في المدينة تتسابق مع الحيوانات وتطارد الأطفال وقد يصادفها أخوها وهو في صحبة المحافظ أو أحد ضيوفه المهمين الذين ياتون معه وهي تهيم على وجهها. أن ذلك لأشد أنواع العار». ومنهم من شعر باليأس للحالها وأنها بالتأكيد لا تفهم سبب السجن. فالعاقل قد يسعفه عقله بمصيبته أما هي من أين تجد من يساعدها على الصبر. وهناك من لم يكن ضمن المؤيدين أو المعارضين ولكنه في صف أخبث واقدر من نوعيته

البشر. تأسف على اختفائها لأنه كان يتلذذ بالتشفى في هذه العائلة بالنظر إلى منى ويقول: «عمر المال الحرام ما ينفع، اللهم نجينا مما ابتليت به كثيرا من خلقك».

أغلقت سيدة الحلبية غرفتها البائسة فوق الهضبة ببعض بقايا الأخشاب وألواح من الصفيح الصدأ غير أسفه عليه. ووضحت أوقاتها بعد ذلك مطمئنة فالخدمة في بيت الأوانجى اهنى لها على الرغم من بعض السخافات أحيانا من الحاجة أو منصور التي لا تزعجها بقسوة فقد أصبحت ذات خبرة اعتادت على سوء البشر فلذغات الحشرات لا تقارن بالدبيب. عدم الجرى وراء الرزق كل يوم من أول شروق الشمس حتى غروبها لا تعلم أين ستأكل وما ستأكل أو أين تشرب واين ستعمل. فتحولت في أيام قليلة كعشبة كف مريم التي تساقطت عليها بعض قطرات الماء في فصل الخريف فظهر عليها الخضار وانفك شكلها المنقبض ليصبح كف مفتوح مبتهج. وقد يكون هذا ما جعل منصور وأمه يضيقوا عليها أحيانا فهم من نوعية الناس التي لا تطيق بأن يتغير حالك سريعا وتظهر عليك الدعوة. ولكن لا يعلموا أن سيدة الحلبية قد صغرت معدتها على مر السنين الطويلة من قلة الطعام مثلها مثل الذين تعرضوا للحروب فذاقوا قلة المورد فهي ليست بالاكولة الشرهه ولكن عندما يستقر الإنسان ولا يمارس قسوة العمل الفاشل دون هدف وبخس ما يأتي به وسوء الصحبة ونهش من يريد نفس اللا شيء. تنضح عليه راحة البال وهدوء النفس. لذلك كانت تخفف من تمرهم عليها عندما يقولون بأن وجهها

قد أضاء بسبب العيش معهم بأن تذكرهم دائما بأنهم أصحاب فضل عليها على الرغم من أنهم هم الذين يحتاجونها أكثر منها. كانت لا تخرج من بيت الأوانجي إلا لشراء ما يطلبه البيت أو زيارة صفيّة قليلا أو رضينة وحامد كثيرا. وكل ذلك بأستاذان من الحاجة فكانت لا تبالى الحاجة منيرة بخروجها للزيارة بعض الناس ولكن كانت تحذرهما من عدم الرجوع إلى الودع نهائيا حتى لا تغضب فاروق. وكان هذا هين على سيدة ولكن الصعب هو كيف تصلى فتقريبا لم تصلى في حياتها وارتبكت أشد الارتباك عندما سألتها فاروق عن أمر الصلاة فكانت أجابتها سريعة كاذبة لم يصدقها منصور وكان كل وجهه يسخر منها وشعرت بأنه يتلصص عليها ويسالها دائما هل العصر أذن أو المغرب، فتتلعثم وقبل أن تجيب يقول بلئم يناسبه: «ربنا يهدى». فكان هذا موضع حرج يزعجها وكانت تتهرب من منصور كأنه صاحب دين عليها. وأثناء جلوسها على المصطبة في عصر يوم راق النسومات كالعادة لمحت يونس قادم من بعيد يمشى بخطواته المتمهلة. انتظرت حتى اقترب وناذت عليه فأتى بوجه باسم. جلس على المصطبة التي غاب عنها فكانت أهم محطاته عندما يكون قادم من قلب المدينة متجها إلى منطقة العبادة أو العكس. أخذ يحرك مسبحة بيده اليمنى بين رجليه وصمت لحظات يفكر فيما سبق. فهزته سيدة باصابعها برفق في كتفه مستفسره عن أمه واخوه سالم المريض فهي تعرفه جيدا إذا لم تسأله لن يدير حوارا أو يفتح مجال للحديث. فكان يجيبها وهو لا ينظر إليها

ولكنه متسم بالرقّة واللطف في الرد التي تبعثه روحه فيمن حوله ولا يعكرها إلا بعض الضحكات المكتومة التي اعتادت عليه سيدة كاغلب من يعرف يونس. وقبل أن يطيل الوقت سألتها بما يزعجها وحف كلامها كثيرا من التلجلج كطفل طالب شيء ويعلم صعوبة طلبه فسألتها في النهاية: «هل أستطيع أن أتعلم الصلاة في هذا السن يا شيخ يونس؟». فصمت يونس فقد ازعجته نبرة صوتها القلقه ولم يرد ونظر إليه باحثا عن إجابة قد يستشفها منها. وعندما لم يعرف كيف يجيب سألها: «ماذا تريدين؟». فكررت سؤالها وهي تصر على ما قصدت وازافت عندما وجدته لا يستوعب قائمة بصوت مضطرب: «أنى لا أعلم ماذا تقولون وأنتم تصلون وأعرف أنه يوجد ركوع وسجود ولكن ما هو الركوع وما هو السجود لا توجد ادنى معرفة وأهل البيت تعلم مدى إيمانهم والتزامهم فلن يقبلونى بينهم إذا لم أصلى». سيدة تشعر كثيرا في حياتها شعور الساحرات في العصور الغابرة في أوروبا عندما كانوا يبحثوا عنهن ليقتلوهن فكنا أشد اعتقادا من قاتليهم بأن هذا هو عين الصوب كما قال الفليسوف رأسيل قد تكون جان دارك نفسها تعتقد أنهم على صواب في حرقها. فسيدة عندما ختنها زوجها كانت تؤمن بأنها مذنبه والآن أيضا ترى أصحاب بيت الأوانجى أقرب إلى الله منها. فهون عليه يونس وأنه سوف يبذل كل جهده ليعلمها. فلما الحت عليه أن يبدأ الآن معها. فاصدم الاثنان في صخرة مرتفعة صلبة جهلها التام بكل شيء عن الصلاة. حتى البدييات لا توجد. كانك تصف طريق

لأحدهما وتقول له خذ الشارع اليمين القادم فيجيبك ما معنى الشارع وما هو اليمين. فعندما وصل يونس إلى هذا الحد من المستحيل قال: «في ميعة الصلاة ادخلى غرفتك».

- أفعل ذلك ولكن أنت تعلم منصور جيدا فإنه يفتش ورائي ولو كان لين القلب لكنت طلبت منه أن يعلمنى ولكنه سوف يسلط على سياط الاستهجان على عمرى الذى مضى. وصمتت لحظة واستطردت: «وأيا أريد أن أعبد الله لعلها تكون توبة في نهاية العمر قد أرادها الله لى».

- نعم أنت ذات قلب طيب ولكن لعنة الله على منصور، زاد قسوة بعد أن نصب نفسه شيخ. دعينى الآن وسوف احل مشكلتك أنك تحتاجين وقت أطول فقط.

وبعد مرور بضعة أيام على هذا اللقاء كانت سيدة في بيت حامد تتسامر مع رضىنة فدخل عليهم حامد قادمًا من عمله فوجدهن جالسات على الأرضية الأسمنتية للحوش. سلم على سيدة وإن كان في نظراته بعض علامات تخلو من ترحاب لها. وبعد أن أبدل ملابسه وجلس معهن. قال لها دون انتظار لسيدة من الانتهاء من حديثها مع رضىنة: «اتريدين أن تصلى؟». فتوقفت عن الكلام بدهشة وارتدت أن تجيب فورًا بنعم ولكن ما زالت غصة مقابله لها الغريبة تؤلمها فاكثفت بالصمت والنظر إليه. فأكمل قائلاً: «يونس أخبرنى بمعضلتك». وما زالت جفوة الحديث تخرج منه مثل أنفاسه فتلتهم الألفه. فشعرت بها رضىنة

فسأله ليس بغرض السؤال ولكن لتجد تبريرا لهذا العبوس الذي لا يستطيع زوجها أن يخفيه فقالت: «يظهر عليك الإرهاق هل هو من العمل أم هناك ما يكدرك؟». فhez حامد رأسه بالنفى وقال بعدها موجهها كلامه لسيدة بحده: «قد حضرت لك طريقة لكي تصلى لمنصور وفاروق، أما إن كنت تريدين أن تصلى لله فإذهبي إلى يونس ليعلمك في شهر». وعند هذا الحد من العنف في الكلمات وضعت سيدة الحلبية عينيها في طرف الشال الأسود الخفيف الذي تغطى به رأسها فاقتربت منها رضىنة فلمحت العبرات تبلل الشال.

- لماذا تبكي؟

سألها حامد واستطرد لأنه لا يريد إجابة قائلاً بصوت منفعلي «أليست هذه الحقيقة، الصلاة لهؤلاء. أنا لا أجد مبررا حتى لتعملي في بيت هؤلاء الاوغاد. ارجوك تكلمي».

- ظروف. نطقها سيدة بتقطع ولم ترفع رأسها من على الشال ورضينة بجانبها تربت على كتفها وهي تنظر إلى حامد بنظرات متوسله بأن يشفق عليها.

- أي ظروف التي تجعلك تندفعين إلى الذل وكنت حرة.

- أنا لم أكن حرة أبدا. كيف السبيل إلى حرية وأنا دائما ذات عوز. أيام كثيرة كنت أتى اليك فتحن على بغداد عندما ترانى أمام بيتك اسير وأنت لم تعلم أنني كنت انتظرك حتى تخرج من البيت فاصطنع الحديث معك. وكم من المرات

الكثيرة لم تكن موجودا فارجع من العدو إلى القصير مجددا  
لبحث كالمقطط على أي بقايا طعام. هم اوغاد حقا ولكن  
جعلوني أزورك وأزور صفيحة دون غرض دون انتظار لأي شيء.  
وعندما همت بأن تقوم لتغادر قفز حامد من مكانة على  
الأرض ليثبتها في مكانه ليجعلها تجلس مجددا. وبكى أمامها  
دون تحرج وكفيه على كتفيها برفق كي لا تتحرك وراسه  
منكسه بينهم فقالت بصوت حزين كأم: «وأنت ماذا يبكيك  
الآن؟». وكعادته الآن يبكي بنحيب مكتوم. فبعد أن حررتة  
رضينة من التحرج وكبح تندفق ما به، بأن جعلته يبكي  
كيفما شاء وفي أي وقت أمامها فلا توقفه أو تسأله أو تستهجنه  
أو تخدش حياءه. تتركه وبعد أن ينتهي كأن لم يحدث شيء  
قبل ذلك. فانطلق حامد على سجيته مع رضينة فعندما يسمع في  
الراديو الذي أهده له الدكتور سراج اغنية تلمس اوتاره أو سمع  
بعض السور القرانية أو رأى أي موقف يهز الروح ينفجر في البكاء  
فكانت تستمر رضينة فيما هي عليه. فإن كانت تكنس تتم  
عملها أو تطبخ كأنها لم تسمع شيئا وهكذا. وبعد لحظات  
انتهى حامد من انفعالاته. فقالت رضينة: «أنه يعزك كثيرا  
يا سيدة وهو حزين أشد الحزن عليك». فظهرت على وجه حامد  
ابتسامة عذبة التي تأتي دائما بعد البكاء كأنه نبتة في أرض  
جافة ارتوت لتوها بالماء. فقام متجها إلى غرفته كمن تذكر شيء.  
وعندما عاد كان يحمل ورقة في يديه وتفرج أساريره بالغبطة

وجلس على الأرض مجددا بين رضيينة وسيدة فاقتربت منه رضيينة أكثر بدلال لتجعل لنفسها خصوصية. فأشار للورقة التي يقبض عليها وهو يقول بفخر: «هذه الورقة سوف تعلمك الصلاة يا سيدة وسوف تصلى أحسن من فاروق ومن ذلك التافه...» يقصد منصور ولكنه تراجع عن ذكر اسمه. فنظرت إليه سيدة والاستغراب وعدم الفهم يسيطر على تعبيراتها فقالت متسائلة: «أنت لا تعلم أنني لا أجيد القراءة والكتابة وأنى أخبرت يونس بذلك أيضا». فضمت شفيتها بأسى وهزت رأسها بعدم رضا. فابتسم حامد ابتسامة عريضة والتفت إلى رضيينة وعينيه تستحثها أن تخبر سيدة بشيء فنطقت رضيينه: «أنه يعلم تماما صدقيني». ومالت بنوع من الدلع المتستر ناحية حامد واتكات برأسها على كتفه الأيمن. فعاد حامد إلى سيدة ينظر إليه وكله ثقة قائلاً: «أن هذه الورقة أخذت منى مجهود ووقت حتى أعدها إليك، وهذه الورقة يستطيع أي شخص قراءة ما بها. أنا لن أعطى دروس في محو الأمية تتطلب سنين. فمنصور لن يسمح بذلك الوقت. اقتربى حتى تتعلمي». فتح الورقة المطوية واقتربت سيدة بجواره ومازال عدم الاقتناع ينبعث من عينيها وبعض التهنيدات التي تتأسف على الوقت الذي سينفذ هباءً. فقال حامد معاتبا برقة: «الإنسان لو يصبر قليلا. أه قبل أن أبدأ». وابتعدت الورقة عن سيدة وسكت ثوان ينظر إليها باستفهام ثم قال: «هل تعرفين الأرقام؟ واحد اثنين ثلاثة وهكذا». فاجبت: «بالطبع أعلم فأنا أبيع أحيانا».

- أه صحيح والآن انظري إلى هذه الورقة واقربي الأرقام التي أشير إليها ١٦١٨٨.

- عظيم جدا، أن ما قرأتى الآن يسمى ركعة كاملة. والصلاة ما هي إلا هذه الأشكال. وقام منتصبا وأخذ يقلد الأرقام، واحد قائم وستة رакع وواحد قائم مرة أخرى وثمانية هي شكل السجود كهرم. وأخذ يكرر كل هذه الحركات. فجلس وجعل سيدة تقف أمامه. وهو ينطق الأرقام، واحد ستة واحد ثمانية ثمانية. وطف جو من المرح في الحوش وعلت الضحكات وانقلب حامد يقلد ضباط الجيش في إطلاق الأوامر ولكن بشكل فكاى وشاركت رضىينة سيدة في عمل الحركات بعد سماع الرقم من حامد. وأظهرت سيدة نباهة عالية. وعندما أيقن حامد أن سيدة تعلمت جيدا أجلسهن وقام هو ليلقى بقية الدرس مركزا بعينيه على سيدة أكثر في جدية معلم قارب عامه الدراسى على الانتهاء قائلا: «الآن يجب أن تتعلمى الوقفات بين كل رقم. رقم واحد الأول يجب أن تستمرى على هذا الشكل لمدة تساوى أن تعدى في ذهنك من واحد إلى عشرين وبعدها تقومى بشكل ستة ونظرك بين قدميكى وتعدى في سرك من واحد إلى ثلاثة وبعدها ترجعى إلى واحد مرة أخرى وبعدها أن تنتصبى تنزلى على الأرض دون انتظار بتمهل ساجدة برقم ثمانية وتعدى أيضا من واحد إلى ثلاثة بتأن وبعدها ترفعى رأسك لتجلسى قليلا مثل وقت الواحد الثانى وتعودى إلى السجود مكرره

هيئة ثمانية وبعد أن تنتهي منه تكونى قد أنهيت ركعة في الصلاة. فصلاة الصبح مثلاً ركعتان أي تكررين هذه الأرقام مرتين.

ولم يتركها حامد تغادر البيت إلا وكانت تحفظ عن ظهر قلب كيفية صلاة الفجر. بطبع قد استفادت من مشاهدتها الكثيرة للمصلين طوال حياتها فهي كانت كمتعلم جديد أمى لكيفية كتابة لغة هو يتحدثها.

لم ينم حامد قليلاً كعادة أهل البلدة بالنوم في وقت الظهيرة فقد انتهى الميعاد المحبب الذي يجعلك هواء البحر فيه تخرج التعب والإرهاق كأنه يمتصه من عظامك وصبر نفسه بالجينة التي بدأت رضىنة في أعدادها فكم قدحا من القهوة كفيل بالصحوة. وبدأ يجلب الصفيح المقطع من خلف البيت ليصنع بعض العريات للصغار أمام البيت مستظلاً بظله، فالشمس قد انكسرت قليلاً إلى خلف البيت وما هي إلا دقائق حتى جلب صوت الدق والتقطيع الصغار ذو البشرة السمراء الغامقة من العدو ليلتفوا حوله يشاهدون ما يصنع. بملا بسهم البالية وبعض قطع الخبز الصغيرة التي توجد في أيدي بعضهم والنظر إلى ما يفعل بأعين مغمضة قليلاً كأنهم في مواجهة الشمس والصمت المحيط بأغلبهم كأنهم ورثوه عن ذويهم وهم ينظرون إليه بطيبة واستعطاف حتى يصنع لهم عريات كأطفال القصيرية ولكن مجاناً. وهم لا يعلمون أنه أسير هواهم وكيف كان

يضيق أحيانا من قول جيرانه وزملائه بأنه يحب الأطفال لأنه لم يرزق بطفل حتى الآن. بل ذهبوا أبعد من ذلك عندما رأوا فيه عطفه على القطط والكلاب والماعز بأنها لنفس السبب. وكان يلاطف الأطفال وخصوصا الصغار منهم ويسرح بخياله في وجوههم ومن منهم أقرب إلى وجه ابنه أو بنته لو كان له طفل. وماذا سوف يعلمه ولن يجعله مهمل كهؤلاء البائسين وسوف يصدق عليه بالمحبة كما كان يستشعرها من أبيه وبالطبع سوف ينبهر ابنه به كما كان هو مع أبوه. فلم ينسى حتى الآن سنواته الأولى بإعجابه الشديد بابيه كبطل اسطوري وكيف أمسك أبوه بالبطيخة برجل واحدة قبل أن تسقط وهو فوق الحمار أو يوم وجده يبكي وحيدا في ظهيرة حارة على فقدته قطعة نقود ورقية وكيف هدأ من روعه وبعدها أمسك بحفنة من التراب ليعرف اتجاه الريح ليجدوه بعد ذلك أسفل حائط طيني. وأخذ يحدث نفسه وسيطرت عليه الأمواج وصوتها القريب فكان داخله كمرأة فعندما تشد يذهب بعيدا إلى ذكريات قديمة وعندما يخف صوت البحر تشده رضىنة بحركتها التي لا تكل من العمل فيوقن كما هو محظوظ بهذه الفتاة. تساعده في أعباء الحياة كأنها مرتبطة بوظيفة. تنشط من الصباح الباكر قبل شروق الشمس في التنظيف ورعاية الغنم الذي بدأ يزيد عدده ولا تترك أي شيء في البيت أو حوله لأفعال القدر والطبيعة. تعبد الأرض الرملية خارج البيت ولا تترك الورق والأكياس البلاستيك حول البيت القادمه مع اتجاه الريح من القصير لتستقر

تحت الحوائط. وأخذ يقارن حاله بما سبق. وكيف أنها جعلته لا يشعر بمرور الأيام بأي ضائقة مالية على غير المعتاد وأصبح بعد زواجه أكثر قراءة للكتب وقل ما ينغص عليه من ابتزازات الحياة اليومية. وبقي فقط همه الأكبر وهو المولود الذي لا يريد أن ياتي. فقد كره سؤال الناس عنه. وزاد قلقه بعد أن علم بزواج زوجته السابقة وأخذ يتتبع أخبارها كمن يسأل عن اعصار ويخاف أن يمر ببلدته فيدمر كل ما بقي فيها ويتمنى ألا ياتي أو تحدث أشياء مضاده له فتجعله يستكين. وهو في غمرة متاهاته الذهنية وعدم توقف يديه عن العمل. توقفت سيارة الدكتور سراج عن بعد وترجل منها قادما باتجاه بيت حامد لأنه لا يريد للسيارة بأن تغرق عجالاتها في الرمال وابتسم حامد عندما لمحها يتوقف بعيدا وهو يستنكر ما فعل بابتسامته. قام الأطفال مبتعدين عندما شاهدوا الطبيب قادم وهم يتها مسون ضاحكين: «الرجل الأحمر». وضعت رضىنة على الأرض أمام البيت بجوار الحائط على مقربة من حامد كلیم صوفى بدوى ليجلس عليه الطبيب صديق زوجها وهي مبتسمة وتشع من عينيها الفخر بهذا الضيف فلم تتخيل أبدا في السابق أن يكون لها زائر مثله. فجلس الدكتور سراج وتأكد من مظهر شعره بلمسه من يده لتثبت الشعرات الباقيات من تغطيه المساحات الخالية وأراح ظهره وتأوه وهو يستمتع بالهواء وأغمض عينيه وقال: «كما أنت محظوظ يا حامد». وبعد أن ارتشفوا القهوة عدة مرات بتمهل وهم ينتقلون بالحديث من هنا وهناك وأحيانا يحتد بينهم النقاش فالدكتور ذو

معلومات غزيرة ولكنه متحفظ أحيانا في تفكيره قد يكون بسبب العمر وحامد ذو نظرة عميقة جديدة عن زمنه قد يكون بسبب التأمل والصمت. يلمس أماكن لم يطأها غيره أو وصل قبله كثيرون ولكن لم يتجرؤا بالإفصاح عنها. أضحى الاثنان يتلذاذا بوجودهما منفردين كى يتناقشا ويتحاورا. فوجود آخر بينهما قد يجعلهما متقيدان واقصد بمعنى الآخر أن يكون شخص غير رضية وفضائية ويونس فهؤلاء كأنهم ملائكة تسمع ولا تعلق بأي تعبير يدل على امتعاض أو رضا. لذلك كانا يعرفا من أين بدأ الحديث ولكن يجهلان إلى أين ينتهى.

أثناء ذلك كانت رضية جالسة بالقرب منهم ولكنه مستتره من هواء البحر بالحائط الجانبى للبيت المواجه للجنوب. جالسة على الأرض تصنع بعض الفطائر البيضاء الطرية البدويه ذات الطابع الجبلى فوق موقد موقت من حجرين فوقهم قطعة معدنية دائرية سوداء صلبة ثقيلة وتحتها بين الحجرين قطع خشبية متوهجة. كانت منهمكة في عملها كالمعتاد تتفاعل معه باهتمام وعندما انتهت وضعت فطيرتين في قطعة قماش ولفته وأخريتين في إناء الأمونيوم. وعندما أحضرتهما بالقرب من حامد. انتبه إلى الوقت فاستأذن الدكتور سراج باكمال الحديث في السيارة كى يذهب إلى فضائية قبل الغروب. قد اعتاد الدكتور سراج على هذا الأمر وسرداخله لأنه يعلم أن ما في الإناء فإنه له. فهذا الفطير لا يجعل قولونه ينزعج وأرجع هذا البساطة صنعه. وقبل أن يصل إلى السيارة كانت رضية تسرع وراء حامد وتوقفه لأنها

نسيت إعطائه شيئاً. فقد كان كيس صغير به خليط قليل من حبوب قمح والأرز والعدس. فابتسم حامد ووضعه في جيب جلبابه. تولى حامد القيادة. يعتبر ذلك الدكتور سراج بأن حامد يريد أن يريجه ولا يعلم أن ذلك نوع من الاحترام الذي يكرمه له هذا العبادى. اتخذنا طريق مرسى علم الضيق الوحيد إلى الجنوب الخالى من كل شيء على جانبيه إلا من نقط حرس الحدود والقوات البحرية التي تكون أغلبها بالقرب من الشاطئ وعلى الجانب الآخر أراضي رملية أو حجرية تبعاً لتأثير مياه السيول عليها وبعض النباتات القليلة ولا يظهر تأثير للإنسان إلا في بعض الأسلاك الشائكة التي تحيط بمناطق الأغنام. وبعد انتهاء العشر كيلومترات وصلوا إلى المدق القصير ذو اللون البنى الصلب- الذي شكلته السيارات القادمة- للعشة فضائية عبر السنين الماضية وما أن انحرقت السيارة يسارا إلى المدق حتى انتهت فضائية التي كانت جالسة القرفصاء بين أغنامها كأنهم أطفال تعدل لهم ملابسهم قبل ادخالهم إلى حجراتهم للنوم. فانتصبت واقفة بملابسها السوداء الباهته التي فقدت لونها منذ سنين والشال الطويل على رأسها المرسل الغير ملفوف حولها الذي يصل إلى ركبتيها وهي ترفع يدها بالترحاب وتهز عصاها كالمعتاد في الهواء في مشهد كأنها نبى من العبرانيين. فلقد حفظت صوت السيارة. وبعد أن سلما عليها واغدقت حامد بعاطفة ام والترحيب الصادق بالدكتور سراج. اتجه حامد مسرعاً لإدخال الأغنام في العشة المخصصة لهم. وحلب لها شاه في وعاء ثقيل المونيوم لا يعرف هل هو من مخلفات الحروب

أو من مفقودات البعثات الاستكشافية سعته لتر أو أكثر بقليل فكان الحليب لا يصل إلى نصفه وبعد أن انتهى أحضر الفطيرتين من السيارة فتذكر أمر الكيس الحبوب وهو يعطى فضاية قطعة القماش الدافئة. فاخرج الكيس ونثر الحبوب على الرمال خلف العشش في مكان بعيد عن دهس الأقدام. فقالت فضاية معلقة على ما يفعله حامد: «أن رضينة لا تنسى فضاية ولا تنسى الطير». فابتسم الدكتور سراج في صمت مهذب فداعبته قائلة: «الطير يحب العباددة أكثر أيها الحكيم». فرد الطبيب وهو ينظر إلى حامد: «ليس الطير وحده فأنا أيضا».

- يبقى قلبك قلب طير. فأنا مثلك. اتولد بعيد وسوف أغادر من هنا(تقصد بالمغادرة انتهاء العمر) وقد وجدت من يحسن إلى في هذه الأرض ويرفق بي. الطير متغرب من بلد إلى أخرى ويحتاج من يسهل عليه غربته. والعباددة يعرفون قسوة الترحال فيشفقون عليه. واتجهت إلى حامد عندما قرب منها بصمت حتى لا يقطع حديثها النادر مستطرده رضينة ما في مثلها صغيرة كبيرة.

فضاية على الرغم من تعلقها في السنوات الأخيرة بحامد وانتعاش غريزة الأمومة لها مجددا. وزاد الوصال بعد قدوم رضينة لما لمستته من صدق مشاعرها لها على عكس الزوجة السابقة وعرض حامد المستمر بأن ترجع إلى بيتها بجواره ليعيشوا سويا، إلا أنها فضلت الاستمرار في عشتها على البحر. فقد احبت حياة

الانعزال. ترحب ممن قدم في اشتياق وتأنس به ولكن بعد أن يرحل تستعذب وحدتها. الصمت الساكن فيها أمام البحر. أحيانا كانت تقف في العتمة تتكا على عصاها كأنها تمثال لساعة أو أكثر كأنها تتلص على شيئاً ما تحت المياه. فكان جنود حرس الحدود الذين يمشون على الساحل بالليل كدرك يفزعون عندما يصطدمون بها. فاعتادوا أن يحدثوا جلبيه عند اقترابهم من عشتها أو رفع الصوت بالسلام من بعيد حتى تصحوا من غفوتها الإرادية. وأصبح الأمر بعد ذلك مزحة سخيفة فلا يخبر الجنود الأقدم المستجدين فيقع سيء الحظ في الفزع الأكبر ليلا عند رؤية الشبح الصامت القابع أمام البحر.

يتركوها عادين إلى القصير في أول زحف العتمة وتفوح في السيارة رائحة الأغنام التي تشبعت بها ملابس حامد والتي لم تصبح مزعجة لدكتور سراج قد تكون بسبب الاعتياد. فهي من العلامات المميزة للمدينة وقد يكون انتشار الماعز بها في كل ركن إلى الجو المناسب أو خبرة أهلها التي توارثوها مع الزمن أو قدرة هذا الحيوان الضئيل على تحمل الحياة القاسية. ولو كانت القصير تابعة لدولة من الدول التي ترعى مصالح مواطنيها لاضحت من أهم المدن التي تصدر الماعز وتم تعليم الأهالي كيفية صناعة اغلى أنواع الجبن العالمى ولكن للأسف الشديد حدث العكس بعد عدة أعوام في زمن هؤلاء الأشخاص للقصتنا بأن اعلنت الحكومة حربها على الماعز بحجة أنها مظهر غير حضارى وقد تم اعتقال كل الماعز من الشوارع ومصادرته من أهاليه ولا يرجع

إلى أصحابه إلا بالرشوة أو المحسوبية. بدأت هذه الحملة المزعورة بعد أن نشرت صحيفة قومية كبيرة خبر عن القصير تحت صورة للماعز في إحدى شوارع المدينة مكتوب تحتها بالخط العريض «بلد المليون عنزة». استغلال للشهرة عبارة كانت تصف معاناة شعب للتحرر وإسقاطها على هذه المدينة البائسة التي لم تعلم من المتسبب في هذا كله.

حاول حامد بأن يجعل الدكتور سراج يتناول العشاء معه ويتسامرا حول موقد الشاي. ولكنه رفض بإصرار، على الرغم من رغبته الشديدة في الموافقة التي تشع من وجه مخالفة للسانه الذي يعتذر. والرفض ينبع بسبب إحساسه بأنه أصبح عبئا على حامد. فقد تجلت أمامه الشيخوخة في الأسابيع القليلة الماضية بعد أن أصبح لا يعمل بصفة مستمرة فالعاصفة التي اقتلعت الأستاذ تهاوى من جذوره أصابته بأضرار بالغة. فبعد أن استقر الأستاذ تهاوى في القاهرة وانتشر خبر عدم رجوعه واعتزاله العمل السياسى. لاحقا في صباح يوم عمل لدكتور سراج في عيادته توقفت سيارتان متهاككتان من الرعيل الأول للعالم السيارات تابعتان للمجلس المدينة أمام منزله، ترجل منهما عدة موظفين في عبوس مهم وتحيط بهم الجدية وعندما صعدوا إلى الدور العلوى، سأل أحدهم على الطبيب المسئول كأنه لا يعرف الدكتور سراج ولم يقابله في حياته وعندما همت كرستينه بالاستفسار عن سبب الزيارة الغريبة. فهي تعرفهم جيدا. وسط ذهول الحاضرين مع أطفالهم في صالة العيادة كان الدكتور

بقامته الفارعة أمامهم وهو ينظر لهم في غضب استقراطى جعلهم يتخلصون كثيرا عما كان يملؤهم من ثقة زائفة قبل ظهوره، كأنهم حيوانات قد هزت أجسادها المبتله بعد خروجها من بحيرة فرجعت إلى وزنها الطبيعي. فعلم أنهم قادمون لاسترداد الشقة التي يسكن بها دون وجه حق لأن ملكيتها تابعة للدولة وأنها موضع نزاع بين عدة هيئات حكومية. والأمر الثانى لأنه يديرها كعيادة ولا يملك الترخيص بهذا العمل لأنه لم يتوجه إلى الادارة الصحية بالمنطقة لأخذ الإذن بذلك. وبعد أن انتهوا من سرد اللوائح والقوانين الخاصة بذلك كانت العيادة خالية إلا منهم والدكتور سراج وكريستينه. فلم يرهق نفسه الطبيب بالجدال معهم لأنه يعلم أن تحرك هؤلاء الموظفين من مكاتبهم لا يتم بدافع إتمام أعمالهم أو البحث عن أموال الدولة المنهوبة كما يتشددون ويقنعون أنفسهم. ولكن كل هذا لا بد أن يكون بسبب أمر خرج من ذو سلطة لهم. وحتى لو كان معه ترخيص للعيادة أو ملكيه لها فسوف يتم اغلاقها أيضا ببحث عن أسباب أخرى. فبعد انتهاء ذلك اليوم كان الدكتور سراج يرتب للخروج وجمع متعلقاته والانتقال إلى شقة الأستاذ تهاى الذي أرسل له مفتاحها حتى يسكن بها بعد أن علم بما حدث وشعوره بنوع من الذنب لأنه لم يستطيع أن يحميه وهو السبب الرئيسى في قدومه إلى القصير. ولكنه شعر بارتياح نفسى عاليج تأثره بما جرى له من تنكيل بسببه عندما أخبره الدكتور سراج أثناء مكالمته تليفونية من تليفون شركة الفوسفات برغبته في البقاء في

المدينة وعدم الرجوع إلى القاهرة حتى وأن أصبح دون عمل وكان هذا الطلب يسيرا على الأستاذ تهاى لأنه أفصح له عن حكمه على نفسه بالنفى.

ظن الدكتور سراج أن السبب وراء ما حدث له هو خلاف المحافظ مع الأستاذ تهاى ولكن هذا الظن تضاعف مع الأيام. فقبل أن يتم غلق العيادة افتتح فاروق عيادة مجمعة ملحقة بالمسجد الكبير وأتى باطباء من عدة مدن كبرى للعلاج أهالي المدينة مجاناً وكان المسئول عن أقامتهم وترتيب مواقيت أعمالهم هو الشيخ هارون بمساعدة المراهقين المتعلقين به فهذا يقطع التذاكر للمرضى وهذا ينظم الدخول وآخر يساعد الاطباء في الداخل. ولم يمر أيام قليلة حتى لاحظ الناس السمات المشتركة بين الأطباء القادمون والشيخ هارون من مفردات الكلمات المستخدمة والغلظة المستترة في ابتسامات مصطنعه. فهم لا يختلفون عنه إلا في الملبس الطبى وأن اللحى أخف غزارة. وأن هدف قدومهم لا يختلف عن البعثات التبشيرية في افريقيا. فمثلاً كانوا يربطون فتح وغلق العيادات تبعاً لتوقيت الصلاة وفي أوقات الراحة يجلسون في حلقات بعد صلاة العشاء ويلقون دروس في الأمور الدينية. فكان لقاؤهم مع الدكتور سراج جافاً عندما أتى إلى العيادات خلف المسجد ليتعرف عليهم فكان هذا الجفاء دليلاً على أن هناك من رسم صورة عنه في أذهانهم من قبل أن يشاهدوه. فتصنعوا الانشغال وقال له أحدهم: «بأنهم يودون لو أتى ليصلى معهم العشاء ويشاركهم في الدعوة التثقيفية في أمور الدين

بعد الصلاة». فابتسم الدكتور سراج يومها ابتسامة تائهة ليست لها معنى أو روح وهمس لنفسه «ما دخل الطبيب في ما يدعون». فايقن أن هؤلاء تابعين للجماعات الإسلامية التي انتشرت في زمن البترول في الدول العربية الآسيوية وقويت شوكتها فانبهر الناس بعزوبة صوت أحدهم في الصلاة أو دقة الأخر في تطبيق بنود الشريعة ولم يفوتهم أيضا أن يذهبوا إلى المسجد الجديد بجوار جبانة المسيحين ليعملوا بأيديهم في مظهر احتفالي أخذ بلب من شاهدتهم من أهل البلدة. فلم يعاود الدكتور سراج إليهم بعد ذلك إلى أن حدث أمر اغلاق العيادة. وانتشر في المدينة الصغيرة أن من أغلق العيادة هو الحج فاروق بايعاز من الشيخ هارون. لم يصدق في أول الأمر ولكن تأكد من طبيب شركة الفوسفات الدكتور عصام عندما كرر ما يقولوه أهل البلدة في تشفى ظاهر بوجه احمق فرح أمام الدكتور سراج الذي يدل عن سوء طباعه وإن حاول أن يضمرها فهناك أشخاص ينتشون بفشل المقربين منهم ويأخذون هذا دليل نجاح لهم في حياتهم. وقدم له النصيحة الزائفة بأن يطلب من منصور أن يتدخل وهو يعلم أن الدكتور سراج لن يفعلها لذلك عرضها عليه. فلو كان صادقا لطلبها هو من قريبه الشيخ هارون. ولكن الاثنين لا ينسيان تهكمه عليهما يوم قراءة سورة يس على السارق وكيف كان ينظر إليهما بتعال.

استدار الدكتور سراج بسيارته يمينا بعد قدومه من العدو ليتأخذ شارع البحر الضيق. فقد عدل وجهته من الذهاب إلى البيت

بزيارة سريعة ليؤنس ليضمئن عليه. فقد تدهورت صحته بشكل ملحوظ في الفترة الحالية وأصبح يشعر بالإرهاق سريعاً من أي عمل حتى وأن ضئلاً. فاخفتت محطاته في المدينة واضحى جليس المنزل أغلب الوقت لا يتعداه إلا أمامه أو يعبر الشارع ليجلس على سور البحر في الأيام التي لا يوجد في الميناء سفينة تنتظر عربات التليفريك المحملة بالفوسفات القادمة من الشركة. وتوقف عن الذهاب إلى المسجد لعمله. كل هذه بأمر من طبيب المتابع للحالة يؤنس في أسيوط. أقل حركة مثل عدة خطوات من المشى تجعله يشعر أنه استفذ كل طاقته وأن أنفاسه المتسارعه لا تسعفه. وتورمت قدماه بشكل ملحوظ. فكانت في السابق تحدث أحيانا ولكن لا تستمر أكثر من يومين أو ثلاثة أيام. أما الآن فأصبحت صفة ملازمة لهما وتكسرت بعض أظافره الزرقاء اللون وكان بعضها يسبب له جروح وانقطعت معظم عاداته عنه إلى غير رجعة. فتوقف عن المشى المحب إليه وصيد الأسماك حتى لو اصطحبوه معهم والأذان للصلاة في المسجد باستخدام مكبر الصوت. وأضحت قراءة الأوراد ومتابعة أخبار نادى الزمالك هي المستمرة معه.

التفت يؤنس إلى الوراء بسبب صخب أبيه وهو يرحب بقدوم الدكتور سراج. فكان عزوز في وسط مجموعة من أصدقائه وبعض صغار السن على مشارف المراهقة الذين يحبون الاستماع إلى قصصه الجنسية وكلامه الفاحش. وبعد أن إنهاء مراسم التحية للطبيب جلس مجددا واعتلت على وجهه سمات الجدية

وزفر بأنفاس مهمومه وقال: «هذا الطبيب في يده كنز ولكن لا يشعر به، ابنته في بلاد الاجانب وتستطيع أن تجلب له مقويات تجعل الواحد منا كالثور في حظيرة عبد الموجود الجزار». فرد أحدهم مكذبا: «أنت دائما تبالغ ومن أين عرفت أن في هذه البلاد دواء كهذا». فابتسم عزوز في غرور واضح وعندما صمت الجميع بعد تهكمهم عليه مؤيدين المكذب، توجه بكلامه إلى المستنكر قائلا: «علمت أيها الجاهل لأنني جربت بعض الأقراص من هذا الطبيب، فذات مرة أعطنى حفنة منها لأنه ليس راغب فيها. وعليك أن تشكر الله أنك لم تقابلنى عندما كنت اتناولها». فانفجر الجميع في الضحك. واسكتهم قدوم يونس ممسكا بذراع الطبيب وفي يده الأخرى عكازة، فالبحر تأتي منه هواء بارد جعل يونس يفضل الدخول إلى البيت. انتفض عزوز بطريقة بهلونية ليسلم على الدكتور سراج ويجعله في الوسط بينه وبين يونس. سالم كما هو في الصالة ولكن أصبح راقدًا واختاروا له كنبه التي بها مساند خشبية للظهر والذراعين للجالسين عليها وجعلوه بالعكس. بحيث تكون كسرير للأطفال حتى لا يسقط على الأرض. اختفت أي كتلة عضلية في جسد سالم فأصبح عظام تغطيها مساحات من الجلد. الجلباب مهلهل عليه، يكفيه أحد الأكمام ليحتويه كله. فقد كثير من أسنانه وامتلأ ظهره بالقرح يستطيع أي شخص بالغ أن يحمله كطفل بين ذراعيه وبالرغم من النظافة التي تبذلها صفيحة وبناتها إلا أن رائحة المرض القذرة تنتشر حوله. لامس رأسه وامسك بيده بطريقة

طبية ومنحه بعض كلمات التشجيع المعتاده من الاطباء في قالب طفولى. تذكر الدكتور سراج حديث حامد معهم عن الجن وعن علاج الشيخ هارون بالقران وهو في طريقة إلى حجرة يونس. وكيف حامد أنكرك ذلك كليا. وهو تمسك بوجود الجن، شعر بأن شيئا ثقيلا يضربه في رأسه من الداخل. وباغتته رهبة وجزع من بعض ما حل به وأخذ يستعيد من الشيطان الرجيم ومن شر نفسه وزاغت عينه في الجدران يمينا ويسارا تنظر دون رؤية. بعد أن جلس في الحجرة الضيقة العتيقة على كرسي خشبي قديم غير متساوى الارجل هو الوحيد في المنزل من نوعيته يجعله يونس دائما بجوار منضدة قديمة لصانع لا يعرف فن النجارة عليه بعض كتب الأوراد الصغيرة ومجلات رياضية محلية قديمة من عدة سنوات ولا يوجد على الأرضية الأسمنتية الملساء أي شيء والتي تكثربها القشور كجلد شخص بعض يوم من التعرض لأشعة الشمس الحارقة دون استخدام كريمات تمنع حرق الجلد. وعلى الجدران توجد صور للمشايخ من مدينة اسوان هم من أسرة واحدة ويعتبروا أصحاب الطريقة الصوفية التي يتبعها يونس. وبعد أن مرت لحظات قليلة على الدكتور سراج وهو جالس استرجع كلام عزوز كأنه صدى صوت يتكرر وانتبه إلى أنه لم يرد على سؤال عزوز عن الصحة والأحوال وكيف استنكر عزوز بسخرية ذلك. أراد أن يطلب من يونس أن ينادى على والده ولكنه صمت وفضل الراحة التي هو عليه على أن يقوم لفعل شيء غير ضرورى. وساعده على ذلك سكينه يونس المتكئ على سريره وانشغال

عزوز في زجر الأطفال في الخارج لابتعاد عن السيارة فصياحهم يتناهى إلى مسامعه عبر النافذة الضخمة الموصدة لغرفة يونس الذي يصلح أن يكون باب في الشقق الصغيرة. ولم تمر ساعة وإلا وكان الدكتور سراج يستأذن في المغادرة بعد أن وصلت إلى أنفه رائحة قلى البطاطس والفلفل الأخضر ومع سماعه صوت الطقطقة في الزيت انفتحت شهيته للأكل متذكرا فطيرتي رضينة فسوف يطليهما بالجبن الأبيض فهم أصلح لسنه وأشهى في نفس الوقت. قاده للخروج من الحجرة طفل يبلغ الثانى عشر من أحفاد عزوز فاصطدم بصفية في معركة كلامية فصوتها عال يكاد أغلب الجيران يسمعونها جيدا كأنها فقدت سمعها فتعودت على علو الصوت حتى ترغمه على البقاء أطول فقد وجدها جالسة على الأرض بجوار كنبه ابنها سالم في الصالة في ثوب ملون قطنى واسع يغطى جسده الضخم وشال رجالى تلفه حول رأسها وعنقها وتظهر قدميها المتشققة بخطوط سوداء غائرة كقطعة أرض زراعية حرمت من الماء وبالرغم من الحزن الذي يستطيع المرء أن يستشفه من عينيها الجاحظتان، إلا أنها تشع سعادة وتجبرك على الضحك حتى في أسوأ الأحوال. وعندما وصل إلى باب البيت ذكره هواء البحر الثارقليلا على اشتياقه للذهاب لصيد في رأس الفل. فرجع إلى يونس ليخبره لو كان البحر غدا هادئا وصالحا للصيد فسوف يأتي ليأخذه بعد الظهر.

\*\*\*\*

فى نهار عمل فى الجراج مجلس المدينة. حامد فى الغرفة الوحيدة ذات الطلاء الجيرى الباهت القديم الذي لا يغطى كامل الجدران والتي يطلق عليها مكتب. يراجع بعض الدفاتر البالية باحثا عن قطع غيار لن يسأل عنها أحد فى الغالب ولكن يريد مواصفاتها حتى يؤلف مثلها من قطع أخرى للماتور معطل، وبالرغم من أنه توقف عن العمل كميكانيك منذ فترة، إلا أنه يهوى حل المعطوب كأنها كلمات متقاطعة ويطلبوه للعمل أحيانا فى المواقف الهامة والطائرة مثل الترتيب للزيارة المحافظ المرتقبة فى شهر مارس. وفى أثناء بحثه يسمع صوت حسان فى الخارج يمازح العمال بكلماته البذئية. أكد أحد السائقين الموجودين فى المكتب أنه حسان ظانا بأن حامد لم يعلم بصاحب الضجة فى الخارج. عندما دخل المكتب بنظرة واحدة علم حامد أن حسان يحمل شيئا فى صدره ولا يطيق كتمانها. جلس حسان على كرسي سيارة قديم يستخدم كمقعد وهو يتأفف من اتساخه ويزم بشفتيه وهو ينظر إلى المتواجدين بأسف على كمية الزيت والشحم التي لم تترك أي مساحة فى المكان دون أن تصل إليه. لم يعقب على كلماته أحد فالسائقين ينظرون إليه باجلال وحسد لأنه صاحب حظوة لقربه من أي رئيس للمدينة يأتي لهذا المنصب. لم يطيل حسان فيما أتى به حتى اقترب من حامد وهو يوحى بأنه يهمس له وإن كان كل من فى الغرفة يستمع بوضوح فقال: «نعجتك القديمة عشار». على الرغم من انزعاج حامد من ابتزال الكلمات، إلا أنه تغلب عليها ولم يظهر عليه أي اهتمام فرد وهو

ينظر إليه بثقة قائلاً: «إن الله يعطى لمن يشاء إناثاً ومن يشاء ذكورا».

«ربنا يكرمك يا حامد ويرزقك بالذرية الصالحة» قالها أحد العمال كبار السن. فالتفت إليه حسان وقد تغير وجه تمام من حالة القنص التي كان قد جاء بها إلى حالة وديعة كأنه صديق حميم قائلاً: «إذن هناك ولي عهد قادم». وهو يتلفت بين الحاضرين والابتسامة تكسو وجهه كأنه اكتشف شيئاً ثميناً. فرد عليه حامد وهو منشغل بالدفتر الذي أمامه قائلاً: «عندما يكون هناك ولي عهد فستكون أول من يعلم». لم ينظر إليه حامد. ولاحظ كل من في المكتب الثقة التي يحاول حامد أن يخفيها التي تؤكد توقع حسان. أنهى عمله في هذا اليوم وهو سعيد بما فعل «لماذا يستخدم الشرف في معارك الغدر». وأخذ يحدث نفسه «طالما هناك ضباع فلا بد أن البس فروهم وأقاتل مثلهم. أكذب وما المانع؟ سوف أوحى لكم بأن زوجتى حامل. وقد لا يأتي المولود أبداً لأن احشائها لا يثبت داخلها الطفل. واكون قد ودعت اعتقاد الجهل في فحولتى. لماذا أترككم تستعذبون مرارتى. كما كنت ساذج عندما استخدمت الحليب مع الروث. آه وسوف استرجع ليالي مع صغيرتى وساكسر كل القيود مجدداً معها كما اعتادنا، فيها ليست كمن سبقها. تدفعنى وادفعها إلى أعماق من الهوى لا أظن أن هناك مثلى. ونكتشف سوياً أنفس ما به. العنف والخيانة والوعد بالزواج. مسرح كل ليلة بقصة جديدة كما أنت رائعة يا حبيبتى. هل لو كنت مع غيرى لانطلقت. وهل لو

كنت حزينا لتجاوبت معها. كما كنت غيبا عندما استسلمت  
للياس. نعم ما المانع من الكذب. فقد كذب من قبلى وجمعوا  
العوام حولهم ووعدوهم بما يفتقدون. نعم الأمل هو المهم لاستمرار  
الحياة».

\*\*\*\*

لم تنصلح الأحوال لذهاب إلى البحر ومربعه الربيع مرورا  
سريعا كمتعجل الذي لا يهوى البقاء ومرت بعد ذلك على المدينة  
عدة أيام لا تظهر الشمس ولكن تشعر بها تأثيرا. فأحاطت المدينة  
قبة غبارية بعيدة احتلت مكان السحاب كأن القصير داخل  
بلورة ذات زجاج ليس بالشفاف فلم تظهر الشمس ولكن ترسل  
أشعتها مركزه وفجأة في مساء تلك الليالى الحارة الخانقة هبت  
رياح شديدة محملة بالأتربة الناعمة كأنها كانت موجودة غرب  
المدينة وتنتظر الإذن بالدخول. دون أي مقدمات حولت القصير إلى  
مدينة أشباح. الكل في جحره ومن حاول الخروج لا يرى متر أمامه  
وتلسعه الرمال في وجهه. يسمع صوت الرياح تطوف حول البيوت  
كحيوان شرس وقع في فخ فاخذ يزمجر ويجرى من هنا وهناك دون  
تفكير أو ترتيب يبحث عن الخروج ولا يعرف من أين. تاره تكون  
الرياح في العوينة وتدخل البلد بعد ذلك وترجع للعوينة مجددا  
وتتجه جنوبا للعدوة وتعيد الكر دون توقع. والكل ساكن في  
البيوت يسترق السمع فقط. انتهت تلك الليلة العنيفة ومع شروق  
الشمس خرجوا ليشاهدوا أثار ما كان يزوم طوال الليل. تراب

ناعم غطى الشوارع والطرقات وتكدس خلف الأبواب والنوافذ. وتبارى كبار السن في تذكر حدث مشابه في أعوام بعيدة. مازال الإرث البشرى القديم من العصور السحيقة للإنسان الأول يوجد في بلادنا لذلك أرجع أهالي المدينة أن هذه الرياح عقاب الهى من الله لسوء أعمالهم وبعدهم عن الدين واسترجعوا قصة قوم عاد الشهيرة في القرآن. وأصبح السؤال الأهم «ماذا نفعل عندما تحل علينا مصيبة مثل تلك الرياح مرة أخرى؟». وخصوصا أنهم مثلا لا يستطيعون الخروج إلى المسجد ليصلوا وراء شيخ فقيه كما يحدث عند خسوف القمر فيخرجوا القرايين على شكل صدقات على الافقر حالا منهم بمال وإن كان الغالب بشيء من الطعام. ويخرج الأطفال في الشوارع بايعاز من الكبار بالدق على الطبول والصفائح ويغنوا بطلب العون من الله وهما يقولون: «يارب اطلع وشوف، شى بطاطا وشى عروق». أي خوفا من النار التي سوف تحرقهم إذا لم ينتهى الخسوف سوف تشوى أجسادهم مثل البطاطا والاشباب من شدة النار. لم يطول الوقت حتى أتت إجابة السؤال من مشايخ الجوامع والمساجد أثناء تنظيفها مما حل بها بمساعدة الأهالي لأن أغلبهم استحى أن يزيل الأتربة من بيته قبل بيوت الله. فأجمع كل المشايخ على صدق إحساس العامة بأن ذلك عقاب الهى وإشارة من الله حتى يرجع عباده إلى حظيرته وأنهم محظوظا أنها فقط إشارة ليوم واحد وليست ثمانية أيام. وتولى مجموعة من الشباب المتحمس الكتابة على الجدران بالفحم عبارات تشرح ماذا نقول إذا أتى العذاب مرة أخرى مثل «اللهم إنى أسألك خيرها

وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها  
وشر ما أرسلت به».

وبعد مرور أسبوع على هبوب تلك الرياح لم يبق لها أثر في  
الشوارع أو النفوس وبدأ الصيف بقوة كأنه بدأ من شهر أغسطس.  
ازدحم سوق الخطرات بجميع أهالي المدينة من أول شروق  
الشمس فقد تخلف السوق في الأسبوع الماضي لعدم مجيء  
العربات من قنا. فهو يوم يلتقى فيه الناس ويسألوا عن الغائب  
بينهم. السوق مكون من دكاكين خشبية لا تتجاوز الخمسة  
عشر دكان وتتشابه كلها في المعروض من خضروات وقليل من  
الفاكهة وتتراص الدكاكين على الجانبين، الطريق الفاصل  
بينهم واسع ولكنه ضاق بسبب كثرة البائعة المفترشين الأرض  
للبيع الجبنة البيضاء القريش والفراخ والبيض والجرجير والخس  
معظمهم نسوة بائسات والأرض رطبة بسبب دهن الطماطم  
المنزلة من ارفف الدكاكين أو الشمام العطب الذي يلقيه  
أصحابه في عرض الطريق ويعلو صوت البائعة ويتقاذفون بعض  
الجزءات المستترة بكلمات يحمل ظاهرها الاحترام. جميعهم  
بملايس متسخة فلم يعطيهم عملهم إلا أن يكون أقل فقرا من  
معظم المشتريين. السوق يوجد أمام الطابية (القلعة) ولكنه في  
منخفض يوجد في الجانب الآخر من الشارع الرئاسى الذي يشق  
المدينة ويتصل السوق بالشارع بسلم حجرى عريض لذلك لا يشعر  
المار على الشارع الأسفلتى بصخب السوق إلا إذا اقترب من السلم.

من أحب الأيام للرضينة يوم السوق ولكن دون حامد لا تذهب للتسوق لأنها لا تشتري من البائعة بنفسها لأنها تخجل من لهجتها المختلفة عن الأكثرية في المدينة حتى وأن حاولت أن تخفيها. وصل الأمر بحامد بأن حقر لها هؤلاء البائعة وغيرهم حتى تثق بنفسها ولكن دائما يصيبها الخرس وكانت تلتصق في ظهره كأنها طفل يخبئ وراء أمه. وفي أثناء التجول في السوق كان حامد يبحث عن يونس ولكن لم يجده وبعد أن انتهوا من شراء الضروري مما يحتاجون خرجوا من السوق باتجاه البحر مخترفين الحارات الضيقة القديمة الخالية من المارة حتى وصلوا إلى شارع البحر فجلسوا على الرصيف للراحة والتقاط الأنفاس مع البحث عن يونس أو أي شخص من أهله حتى مر عليهم سمير قريب منصور بطاقيته الشبيكة وعمامته الصغيرة فوقها على الرغم من قامته المشوقة فأثار الزمان على بشرته المجعده والتي صبغت بلون الشمس ويديه الخشنتين التي تشعر عندما تلمسهما بأن ليست فيهما روح. كان يحمل شنطتان من البلاستيك القوي يحمل داخلهم الخطار، واحده في يديه والاخرى على كتفه، فأخبره بأنهم اليوم سوف يذهبون إلى البحر بسيارة الدكتور سراج فتأفف بانزعاج بسبب علمه متأخروهم أن يعتذر ولكنه انشرح صدره وسر عندما أوكل له حامد بأن يخبر منصور ويونس بالميعاد فهو ليس آخر من يعلم. فانطلق يسرد لحامد ووجه مسرور كيف أنه رتق الشبك القديم جميعه وقد اشترى واحدة جديدة مغزولة في العدو أمامه تصلح لسماك السيجان فإنها أيامه الآن.

وقبل أن يفترقا تذكر سمير شيء فقال: «كيف سيأتي منصور معنا اليوم وهناك حظ في العوينة على مقربة من بيته». بالطبع لم يلتفت حامد إلى ما قاله سمير لأن تعبيراته كلها تقضحه وهو فقط يريد أن يحرك شهيته للسخرية من منصور فرد عليه حامد: «يا عم سمير اذهب لمنصور فإنه سوف يأتي ولاداعي لما تقول». فنظر إليه سمير في شيء من الخجل: «والله أنا قصدي يمكن يفضل السمسامية عن البحر، عموما سوف أخبره وربنا يهدي الجميع».

\*\*\*\*

من بعد أذان الظهر يلتقط مكبر الصوت بعض النغمات التجريبية للسمسمية على يد العازفين ممن حضر من الطور في سيناء والغردقة وكلها مجاملة لأصحاب الفرح. فغدا زفاف حسنون ابن عطية الفائز من أهم بيوت العبادة في منطقة العوينة ودائما تعطى لاحدهم مشيخة البلد. فالיום ستكون ليلة الحظ كما يطلق عليها وهي أن يتجمع الناس جالسين على الأرض في المساء حول السمسامية ويغنوا جماعى أو فردى أشهر الأغاني التي تناسب السمسامية من بلاد الشام أو من الحجاز ومن مصر وتوجد أغاني خاصة بالمدينة له طبع فكا هي توثق أهم أسماء لأهالي المدينة أو مهن مثل اغنية (العنزة فين يا عم حسين). حيث تذكر الاغنية- أثناء البحث عن هذه العنزة المفقودة- أماكن البلدة بسجع مثل الشركة وأسماء بعض كبار الموظفين والمستشفى

وسراج الطبيب ومحل الجزار الأشهر وصاحبه والمدرسة وبعض المدرسين وهكذا وكل عام يتم إدخال أسماء جديدة ومهن أخرى فيعلو الاستحسان في الفرح والتهليل للمغنى عندما يضيف جديد بأسلوب شعري مناسب لقفية الأغنية القديمة. تختلف السمسامية عن الطنبوره بأنها أحدث وأجذب لقطاع أعرض من المستمعين. أصبحت ملازمة لأفراح العباددة المتمدنين حتى وان جمعت أغلب القصيرية لها فلا تنجح حفلة للسمسمية خارج بيوت عباددة العوينة إذا أقامها أحد القصيرية حتى وأن أتى امهر العازفين واعزب المغنين. ارتبطت بالمكان والوجوه التي ترعاها وأحبها الكل على ذلك. كأنها بخور أو عطر إذا سافر من مكانه إلى بلد آخر مع مشتريه لا يفوح كما أبدع في منشة.

جعلت جلسة السمسامية في شارع ترابى جانبى بين منزلين كبيرين لهم بلكونات واسعة في الدور الثانى حتى تستطيع السيدات والفتيات بأن تشاهد الحفلة بسهولة من فوق وأيضا ليكون مدعاة لاستمرار الشباب في البقاء لآخر الحفل وتجدد نشاطهم.

توقف منصور في ظلمة في المنطقة بين الأوانجى والعوينة ليشعل سيجارة حشيش حتى يكون مستعد بمزاج رائق للجلسة الحظ فهو ضيف أساسى للعريس ولا يتم حظ إلا ويكون الشخصية الأهم فيه. من حيث اتساع دائرة من يجالسوه وكثرة الحشيش المتداول في حضرته ومحاولته بعض الفتيات للفت انتباه.

تفوح منه رائحة المسك كأنه غسل جلبابه الأبيض به وهو يتقدم باتجاه الفرح. مشى وحده حتى اقترب ولم يتقدم عليه أحد. شعر بالحرج لأول مرة على الرغم من غلظة طبعه. وارجع ذلك لتأخيره. «آه أسعد طابية هناك في الأمام بجوار السمسمة يرقص بمطواة في يده. يا الهى أنه رانى ولم يتوقف ليأتي الى. أيها الوضع، استمر في الابتسامة يا منصور. لقد أتيت فلا بد أن تتقدم». وأخذ يخطو بين الجالسين وعينيه على طابية ومن يعزفون والعريس في المقدمة أيضا. شعر بأنه قد دهس بقدمه أصابع أحدهما. نظر إليه وهو يستمر في خطواته بنظرات تائه وارجع بصره إلى المقدمة. هناك مكانه يتقدم كأن مغناطيس يسيطر عليه بأن يأتي حتى جذبته يد بقوة من لياقة الجلباب الضيقة حول عنقه إلى الخلف فسقط على ظهره مستقيما كأنه عمود إنارة صدأت قاعدته فهوى على الأرض عكس اتجاه المصباح المعلق في أعلاه. وهو ينهار شاهد وجوه الفتيات في البلكونات والأسطح وهن يحدقن فيه مسرورات بما حدث له وعينهن تقدح بالشماتة التي يرغبن في إظهارها. «آه أنى أعرفهن جميعا. أتى وقت الحساب يا منصور، يا ليتنى أموت الآن فذلك رحمة».

هؤلاء الفتيات من ضحايا منصور ولكنه لا يشعر بأنه أخطأ في حقهن فإنه يلقبهن بالعاهرات عندما يقص أخبارهن. بمنصور منذ أن شب غلبت عليه الخسة والوضاعة التي لا يستشعرها في سلوكه ودائما يندفع إلى موضع الإيذاء دون ادنى تائب إلى

النفس. ولا يوجد ضمير يعاتبه حتى على ما يفعل. فقد جبل على البداوة في الأخلاق. فمن رايناه وهو يسقط. معظمهن فتيات صغيرات ترعرع الحب في قلوبهن إلى فتیان من نفس أعمارهن فلا يجدن مكان يبثوا فيه كلمات الهوى العفيفة إلا في الأماكن الخالية من المارة كشاطئ البحر في أول الليل على أطراف المدينة فيتلصص عليهن منصور وأمثاله. في نهاية مراحل الطفولة كان يكتف بالنظر أما عندما اشتد ساعده وكثرة صحبته وغلث غريزته، فكان يزحف على الرمال كحيوان ضارى خلف فريسته التي تشرب وتأكل وهي لا تشعر بالخطر المحدق بها. وعندما يقترب هو واقرانه من الحبيبين ويحكما عليهما المخارج ينهضون من الزحف الحيوانى إلى القسوة البشرية. فتصرخ الفتاة من الصدمة وفي أغلب الأحيان يطلق الفتى رجليه للريح فيتركوه ويبدوا العبث مع الفتاة من تحرش وتهديد وسط بكاءها وتوسلها. فإن كانت فتاة صغيرة يداعبون أعضاءها ويرغموها على أفعال في حفلة جماعية حتى تبرد شهوتهم وإن كانت ليست عذراء فيتناوبوا عليها وسط كلمات بذيئة وضحكات هستيرية بالفريسة.

لم تتوقف السمسامية عن العزف ولم يأتي أسعد طابية إليه أو أقرانه الكثر الذين يطوفون حوله دائماً كأنه شخص مقدس. «لا أحد يهتم إلى سقوطى ومن هذا الذي أشاهده واقف عند رأسى. أنه من دهسته بقدمى. كيف تجرأ على ذلك». والكل حوله

يحاولون تهدئته ولا أحد يشغل باله بهذا الساقط عند أقدامهم. على الرغم من صوت الموسيقى العالى والضجيج، إلا أن منصور يستطيع أن يقرأ حركات الشفاه لمن صرعه أنه يسبه بامه واخته وبعض الأشخاص يحاولون أن يكتموا فمه باكفهم ولكنه يهز رأسه وجسده بطريقة عنيفة وما زال منصور لا يستطيع أن ينهض وأنفاسه تضيق شيئاً فشيئاً. وبدأ يصارع بأن يصحوا أنه كابوس. لا يستطيع أن ينادى على أحد. عرق يتصبب منه إلى أن هزته سيدة حتى ينهى هذا الفرع. لقد نام في حجرة الضيوف الواسعة بعد أتى صباحا بعد ليلة شاقة في تنظيف المحال مع العمال من اترية الأسبوع الماضى. شعر بالحرج من سيدة لأنها بتأكيد شاهدته ينازع قبل أن يفتح عينيه. فسأها في غضب بعد أن اعتدل جالسا: « ماذا تريدين؟ ألسنت نائما؟ ». فأخبرته أن الحج سمير ينتظره في الخارج. فعبس وجهه أكثر مشيرا إليها برأسه بأن تغرب عنه وأخذ يتمتم ويسخر من كلمة حج التي أطلقتها على سمير وهو متجه إلى الباب الرئاسى ليقابل سمير. فالرغم من كبر سن عم سمير الذي يتعدى منصور بالعشرات السنين، إلا أن منصور لا يشاهد هذا الفرق.

- ماذا تريد في هذا الظهيرة الحارة. اعتقد أنه لا يوجد غيرك في الشارع.
- وأنا متأكد أنني مخطأ بأن أتيت لواحد مثلك لأخبره بأننا سوف نذهب إلى البحر اليوم.

قالها سمير في استياء وغادر دون كلمة أخرى وأشاح منصور بيده نحوه ودخل إلى البيت مرة أخرى وأخذ يبعد بيده التصاق جلبابه به بسبب العرق وينفخ في غيظ وهو ينظر إلى المروحة التي توقفت بسبب انقطاع الكهرباء المعتاد في منتصف النهار. جلس يحملق في السقف ويسأل نفسه مستغربا كيف نام كل هذا الوقت من ليلة أمس ولم يذهب إلى المحال وقبل أن يوبخ نفسه ردت إليه ذاكرته فابتسم وتذكر أنه لم ينام ليلة أمس حتى الصباح وأنه دخل البيت قبل أذان الظهر وحاول أن يقاوم النوم حتى يصلى الظهر فلم يذهب إلى غرفته وبقي في حجرة الضيوف ولكن النعاس تغلب عليه بسبب إجهاده. حمد الله واتجه إلى الحمام ليتوضأ وهو يعبث في لحيته الطويلة وما زال أثر الإرهاق يسيطر على خطواته. تحسس بطنه وتجشأ بصوت عالٍ ونادى على سيدة وعندما لم تجيب توقف في منتصف الصالة الكبيرة وهو يتلفت منتظر خروجها من أي حجرة أو قدومها من أعلى. وعندما ارتفع صوته وهو يلعنها سمع تكبير أتى من غرفتها الصغيرة الوضيعة التي خصصت لها تحت السلم وكانت غير موصده فاقترب من مدخلها منصور بتلصص ثم ضيق عينيه كي يستطيع الرؤية فوجد سيدة تصلى في وسط الحجرة المظلمة. لحقها في الركعة الثانية وكما توقعت سيدة سابقا سكن كقط دون أنفاس تخرج منه يراقب فأرا حتى أتمت صلاتها وعندما لم يجد شيء في صلاتها طلب منها أن تعد الفطور فورا دون تأخير ووصفها بالكسولة واتم حديثه لها قائلا: «العمل عبادة أيضا».

منصور من صغره يجنح بسهولة إلى العنف والمكر بالناس وعدم الرحمة. لذلك هو أقرب للمواريث القديمة من تقاليد باليه وآراء محافظة لا يشغل ذهنه إلا مما تلقى من الماضى. يلهث وراء كل من تبيع جسدها ولا يرى سببا لهذا منها، إلا أنه عاهرة تحب المتعة والبغاء. هو من هؤلاء الأشخاص الذين إذا مرور في شارع ووجد الناس ممسكين بسارق وينهالون عليه بالضرب سوف يشاركهم بكل ما اوتى من جهد حتى تخور قواه. لذلك أمثاله يتجهوا إلى الدين ليغلفوا العنف بغطاء مبارك وكان منصور سوف يركن إلى الدين في مرحلة متقدمة من عمره كاعلم من اتصفوا بسماته ولكن أحيانا الحياة تأتي بصدمات تريك متلقيها. وكان كل شيء مهياً للمنصور حتى يلتزم دينى ويتبع الكتاب المقدس. فآخوه فاروق بك راعى الدين في المدينة وصديق العائلة الشيخ الأكبر في القصير. دون أي مقدمات أو شد وجذب صلى منصور العشاء في المسجد خلف الشيخ هارون في تضرع وخشية شعربها كل من رآه في تلك الليلة من عدة أشهر. وتربعت سريعا فوق جبينه العلامة السوداء الضخمة التي يطلق عليها المصريون زبيبة الصلاة وتظهر لكثرة السجود وعدم تجفيف الوجه من ماء الوضوء قبل كل صلاة. وأخذت لحيته تمدت بغزارة كأنها جذور نباتية. وأصبحت أطول من ذقن الشيخ هارون. واستولى المديح على الشيخ هارون ومريدينه عندما يشاهدون منصور أو تذكر لحيته عندما لا يكون بينهم فتارة يسمونه بالسبع أو بالوحش وتارة يوكدون أنها أعطته هيبة

وجمالا رجوليا وأن المسلم القوى خير وأفضل من المسلم الضعيف. وقد فاق منصور الشيخ هارون في تمشيط لحيته بأصابعه في أغلب أوقاته كعادة أصحاب اللحية الدينية. ويتضح ذلك جليا وقت اجتماعهم في مكان واحد وما أكثر ذلك بسبب ارتباطهم الدائم بعد تغير حال منصور واتضح أن منصور والشيخ هارون اوفق للصدقة الفعلية من فاروق بك والشيخ هارون. ولم يحتفظ بماضيه القريب إلا بأسعد طابية وبصحبة البحر أيضا التي لم يفكر بالتخلي عنها. وابتعد في غير رجعة عن الحظ حول السمسامية ولعب الدومنيو على المقهى وتدخين السجائر والعلاقات النسائية في الخفاء واكتفى بالعادة السرية كي يفرغ شهوته وأن غير من طريقتها فكان في السابق يستخدم قبضة يده في الاستمناء أما الآن فينام على بطنه ويحك قضيبه في المرتبة القطنية اللينة حتى ينتهي. واتخذ هذه الطريقة حتى يبتعد عن عقوبة اليد الحبلية في يوم القيامة لأنه قد تربى على أن من يستمنى بيده فإنها سوف تأتي حبلية يوم الآخرة عند الحساب وتفضحه على الملأ.

فرحت أمه وأخوه أشد الفرح بهذا التغير وأصبح يلتزم بالعمل في المحال الكبير بعد أن تركه فاروق بك ليتفرغ إلى الفندق في الغردقة. وقد وسع المحال بركن كبير في الجانب الأيمن وجعله خاص للعطارة وكتب على يافطة ورقية ( الطب النبوي ) وعلقها في السقف فوق العطارة. والحق يقال أنه بلغ نجاحا

كبيراً في حفظ كتب التراث في العلاج بالأعشاب التي اشتراها من قنا وأصبح الناس تذهب إليه لتسأله عن دواء للنمل والحسد وتساقط الشعر والنحافة والقدرة الجنسية. لا يوجد مرض عرفه الناس إلا ويوجد في الكراسية التي جمعها منصور من العطارين والكتب الدينية. وظهرت قدرته على الحفظ أيضاً في آيات القرآن من كثرة سماعه في البيت أو المحال. فالرايو دائماً يبث القنوات الدينية السعودية التي تصل إلى القصير أفضل من الاذاعة المصرية. لا تنقطع تلاوة القرآن حتى وإن أغلق المحال. ينبغي عليك أن ترفع صوتك لكي تسأل عن شيء في المحال. ونبغ في شيء آخر كانوا يحسدونه عليه كل من كان على شأكلته فكان يستطيع أن يربط أي حدث أو موقف أو شيء بأيات من القرآن. فمثلاً إذا مر حمار أمام المحال ونهق فيقرأ آية «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ج»<sup>(\*)</sup> وإذا أتى مسيحي لشراء شيء يقول بعد أن يغادر للذين بجواره «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»<sup>(\*\*)</sup> وإن حدثت مشكلة بين عبادي وعامل في المحال يقول للعامل بعد أن يذهب العبادي «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا»<sup>(\*\*\*)</sup> وهكذا. وجعل من عمال المحال الذي زاد في عددهم تلاميذ يسمعون كل يوم دروسه الدينية التي أصبح يلقيها عليهم ويستمتع بأنهم لا يملون من سماعه، لأنه يقص بأسلوب

(\*) سورة لقمان آية ١٧.

(\*\*) سورة المائدة آية ٧٢.

(\*\*\*) سورة التوبة آية ٩٧.

يصلح للعامّة لا يتصنعه لأنه واحد منهم. فكانت أغلبها عن قصص المسلمون الأوائل الذين اشتهر عنهم القوة او العنف في الحروب مثل عمر بن الخطاب والقعقاع بن عمرو التميمي وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع وموسى بن نصير. حتى أن الشيخ هارون علم حبه لتلك القصص وكان يمدحه قائلاً: «إنك تحب عزة الإسلام وكبرياءه».

ما زال السكون يزداد في المدينة من بعد منتصف النهار. لا أحد يمر في الطرقات. حرارة الشمس تستعرض قوتها وتمنع الخروج بسطوة لهيبتها. إذا مررت أسفل النوافذ في الحارات الضيقة لا تسمع إلا صوت الأمهات وهي تصرخ في أبنائها الصغار بأن يكفوا عن الحركة ولا يخرجوا من البيوت مستخدمات كلمة واحده وهي «قِيلُوا». كلمة دارجة في القصير مستخرجة من كلمة القيلولة. أما الأشقياء من صغار السن الذين هربوا من أمهاتهم ولا يشكل العقاب لهم أهمية عند رجوعهم فقد تجمعوا على الشاطئ الرملي الوحيد للمدينة أمام الملاحية بين العدو وقلب المدينة. يشاهدهم المرء من بعيد في أعداد كبيرة يلهون في المياه ولا يصل اليك صخبهم إلا إذا اقتربت من الشاطئ فبالبحر يبتلع أصواتهم كأنهم موجودن في حجرة مبطنه بجدار عازلة للصوت. قاد حامد سيارة الدكتور سراج السوداء قادمًا من العدو بعد أن وضع أدوات الصيد واجوالة الشبك أو الشوارات كما يطلق عليها في المدينة في حقيبة السيارة وفوقها، متجهًا إلى منزل يونس وبعدها إلى عم سمير ليأخذهم أولاً قبل منصور وإن كان

منصور الأقرب ولكن حامد لا يشعر بارتياح بأن يقف أمام بيت الأوانج وينادى على منصور ويترك هذه المهمة للغيره. وجد عم سمير جالسا أمام بيت يونس في الظل مسندا رأسه على الحائط غلبه النعاس يرتدى جلباب قديم يستطيع المرء أن يطلق عليه أسمال باليه خصصه للصيد. وما أن سمع صوت محرك السيارة العالى حتى هب واقفا مسرورا وهرول بالخطوات القليلة الفاصلة بينه وبين السيارة وجلس على المقعد الأمامى تبعا لإشارة حامد بمكانه. وضع المخلاه بين قدميه. وأخذ ينادى على يونس بصوت مرتفع فنهزه حامد قائلا: «يكفى يا عم سمير اكيد سمع».

– أخاف أن يؤخرنا وأنا لا أعلم لماذا يأتي معنا البحر. لم يجد حامد مصغى له فأكمل «أرزاق».

أتى يونس على مهل وفي يده اليسرى كيس قماش صغير يحتوى على شاي وسكر وكوب بلاستيك قديم صلب ورغيف من الخبزيكفى لاربع أفراد وقطعة جبن. وفي يده اليمنى عكازه الخشبى. وملابسه كما هي في جميع أحواله قميص بسيط وبنطلون قماش يلف دائما نهايته نفا غير منتظم وشبشه الخفيف. انطلق حامد بعد ذلك مسرعا ليحضر منصور وسط اعتراض من عم سمير بأن الأفضل أن نمر على الدكتور سراج وبعدها على منصور حتى لا نهدر وقتا في الذهاب جنوبا والعودة مرة أخرى للطبيب. فانفعل قليلا حامد وعبر عن هذا بأن قال: «لو سمحت يا عم سمير أنا أعرف ما أفعل». فلم يتوقف عم سمير

عن الاستعجاب وأخذ يكرر «أيهم أقرب واذنك من أين يا جحا». وهو يمسك أذنه اليسرى بيده اليمنى. وعندما وصلوا أمام بيت منصور نظر إليه حامد بعين غاضبة كانت كفيلة بأن تجعله يصمت فنزل بعدها لينادي على منصور. وقبل أن يخرج منصور من باب البيت أسرع عم سمير بالعودة والجلوس في السيارة صامتا وعينه زاغته وارتسمت على وجهه ملامح الجد الأقرب إلى العبوس. ظن حامد أنها بسببه. وما أن قدم منصور وجلس في الخلف وسلم عليهم بالقول حتى بدأ يداعب عم سمير بأن يلكزه بيده في كتفه قائلا: «الحج معنا ولا سوف ينزل في الطريق، من هذا الحاج الوجيه يا يونس؟ من القصير ولا من غارب؟». لم تصل السيارة إلى منزل الدكتور سراج حتى كانت ضحكات عم سمير ومنصور تعلو وسط صمت حامد وعدوى الضحكات التي تجعل يونس يشاركهم على استحياء وهو ينظر بعيدا عنهم من نافذة السيارة. منصور لا يستطيع الاستغناء عن عم سمير في البحر. فعلى الرغم من عمره إلا أنه الأكثر خدمة للجميع. يتحول إلى كائن آخر في البحر. كأنه تحت تأثير مخدر يجعله ينتشى. فمجرد وصوله الشاطئ يصبح اقل حديثا وأكثر نشاطا يتحامل على نفسه ليؤدي العمل الأصعب ويحاول بشد الطرق جعل من معه في أعلى حالات الرضا. فمثلا يتولى عمل أكواب الشاي حتى وأن لم يطلب منه. إذا نسى أحدهم شيء على الشاطئ أثناء وجودهم على أطراف الباحة مثل صنارة أو بكرة خيط صيد يجعل من نسيها في مكانه ويتكفل هو بالرجوع حتى وإن كانت

المسافة بعيدة لا يعنيه أنه تعطل عن الصيد ويفعل كل ذلك عن طيب خاطر. لذلك منصور لا يريد أن يفقد خدماته فعالج جرح مقابله له في الظهيرة. بمجرد أن توقفت السيارة أمام منزل الدكتور سراج الجديد حتى دلف خارجا من باب المبنى المكون من طابقين وهو يحمل متعلقاته في حقيبة قماشية بيضاء تشبه ما يستخدمه الجنود ويرتدي شورت أخضر داكن واسع طويل يصل إلى ما تحت ركبتيه وقميص فضفاض رمادي، به جيبان ناحية الصدر يذكر مظهره بالصيادين الإنجليز في ادغال افريقيا الباحثون عن أي حيوان لاقتناصه ويحمل في يده قبعة ضخمة خفيفة تشبه القبعات المكسيكية جعلها في يده حتى يستطيع أن يجلس داخل السيارة. تقدم عليه حامد وعم سمير ليأخذوا منه ما يحمل ويضعوه في الخلف ويترك له عم سمير المقعد الأمامي. عندها لمس منصور ركبة يونس برجليه ليجذب انتباهه إلى ما يفعله حامد وسمير، وبعدها أشار إليه لينظر أسفل إلى كفيه فقد شكلهما بطريقة ذات مغزى يفهمها يونس تحقرا ما يفعله حامد وعم سمير لكنه أشاح بوجهه الناحية الأخرى معترضا عليه. وكرر الحركة مرة أخرى لعم سمير عندما جلس بجانبه فكان رد عم سمير مغاير فقد أخذها على محمل الهزل والفكاهة.

وصلوا إلى رأس الفل على بعد خمسة كيلومترات جنوب القصير المكان الذي يفضلوه وقد اشتهروا بالمدينة بأنه مكانهما.

سميت بهذا الاسم بسبب وجود تبة صغيرة مرتفعة على الشاطئ تشبه تماما عشب عيش الغراب كأنه نبت وحيدا على الشاطئ. لا يزيد ارتفاعها العشرة أمتار ويتسع السطح كأنه مساحة بيت الأوانجي، ولكن لا يصعد إلى سطح التبة أحد بسبب الصعوبة. تركوا السيارة وترجلوا متجهين إلى التبة. ما زالت الشمس ترسل حرارته وتعبر عنها الرمال البيضاء الساخنة. وما أن وصلوا إلى المكان أمام رأس الفل شعروا بالهواء العليل وأخذت ألسنتهم تفيض بالثناء على البحر وأوقاته. وضعوا قطعة قماش سميكة على الأرض من بقايا أشرعة المراكب وفرشوا فوقها حصيرة بلاستيكية ليرصوا أشياءهم عليها من طعام وشراب، وأجلوا شرب الشاي فقد رأوا أن ينشروا الشورات (الشبك) في البحر لأنه ممتلئ. فبدوا يغيروا ملابسهم. حامد ومنصور يرتدوا المحزم وهو عبارة عن قطعة من القماش الخفيف الملون الذي يجف بسهولة وتتشابه مع شكل الجونلات للسيدات أو الجزء السفلي للجلباب دون الاكمام واللياقة. فهو واسع جدا يلبسه الشخص من أسفل وبعدها يمسك بيديه اعلاه من عند الجانبين ويلفهما ليجعلهم طرفين ويربطهما مع بعض حتى يضيق المحزم على الجسم ولا يلبس تحته أي ملابس داخلية. ويُعتقد أن هذا اللباس قد أتى من اختلاط أهل البلدة باهل الجنوب في القارة الافريقية وأهل اليمن عندما كانت مياه الشرب لوقت قريب تأتي من عدن. أما عم سмир فقد تخلص فقد من جلبابه وبقى بسرواله القصير الواسع من القماش والطبيب احتفظ بملبسه واكتفى بتغيير حذائه فقط

بجذاء ضخمة ذورقبة حتى الركبة يشبه أهدية عمال المذابح وقد جعل به فتحات صغيرة لتخرج الماء إذا دخل فيه على الرغم من صعوبة الحركة به في المياه فإنهم كانوا يحسدونه عليه بسبب الشقات (المورأى الأسود ذات الفك البلعومى الإضافى) التي تهجم بالليل خوفا من اقتراب الصيادين بالخطا من مكانه أو بحث عن الطعام فتجذبها رائحة الدم من السمك الذي يصطادونه فتأتى إلى أماكنهم بسبب حاسة الشم الفائقة عندها على الرغم من ضعف الرؤية. وكان أهل المدينة دائما لهم معها ذكريات سيئة فقد أصابت كثيرا منهم بالهلع وقليلاً بأن تركت لهم عاهات مستديمة تظهر في خطوات سيرهم في المدينة فهي دائما تصيب الكاحل أو السمانة. كان النصب الاثقل لحمل الشورات لحامد وعم سمير أما منصور فكان أقل منهم بكثير لأنه تلكأ في لبس صندل البحر الأسود فقد صدأت قطعة المعدن الصغيرة التي تحكمه في القدم فاستعوض عنها بربطه بخيط الصيد. ويفضل دائما حامد بأن يترك القليل لمنصور حتى لا يتدمر ويخرج الطبيب لأنه لا يساعدهم في حمل الشورات بسبب ثقلها وعدم تعوده على ذلك. اتجهوا مسرعين إلى الأماكن التي سوف يجعلوا فيها الشورات فهم يحفظون كل شبر وحجر في هذه المياه. فكانوا ينصبوا الشبك في المناطق المنخفضة التي لا تنضب عنها المياه في أوقات الجزر والتي تتصل بالمياه العميقة لأن الأسماك عندما تشعر بانحصار المياه سوف تتجه مسرعة نحو هذه المناطق التي تشبه الوديان في الجبال لترجع مجددا إلى المياه المفتوحة فتجد الشبك أمامها. وبعد أن تم

الانتهاء من وضع الشورات كله في عدة أماكن في المياه. رجع الدكتور سراج وعم سمير إلى الشاطئ وبقي منصور وحامد ليصرا مرة أخرى على كل الشورات حتى يتأكدوا من عدم وجود حجر صغير أو شعاب مرجانية ترفع الجبل السفلى للشبك وتجعله غير ملائم للأرض تماما فيكون ممر للسماك فتفشل عملية الصيد وهذا الجبل مثقل بالرصاص الملفوف عليه ليحمله يستقر في القاع. وأيضا يطمننوا على الجبل العلوي للشبك الذي يطفو على سطح الماء ولا يجذبه أي شيء للأسفل وهو حبل به قطع دائرية أو مربعة من الفلين لا تزيد مساحتها عن قاعدة كوب من الشاي وهي من بقايا الشبشب الخفيفة القديمة التي يجمعونها كلما وجدوها أمامه.

انسحبت الشمس وبقي بعض من ضيائها وظهر القمر غير مكتمل ولكنه كبير. الكل متكأ على الحصيرة في الأرض ماعدا عم سمير ينفخ في الحطب ليزداد اشتعالا ويرفع رأسه بعيدا عن الموقد كلما هبت عليه بعض من الدخان ويردد كلمات ملازمة له في البحر مثل «ارزق يا كريم» عندما يرى بعض الأسماك تتحرك جماعات ويدل عليها شكل سطح الماء الذي يكون أمواج خفيفة مثل الأمواج التي تتكون من سير مركب. وينظر تارة إلى القمر ويقول: «قمر خير إن شاء الله». ينشغل حامد في تجهيز مخللة الصيد في صمت ويحاول جاهدا أن يجعل نفسه بعيدا عن منصور الذي فتح حديثا جانبيا مع الطبيب يسمعه بانتباه كامل ولكن يظهر عكس ذلك

ويعلم تماما أن منصور سوف يسوق الحديث في النهاية إلى خطبة دينية. يونس كما هو دائما يمدد قدميه المتورمتين أمامه ويحرك مسبحته تبعا لما يردد من أذكار بلسانه الذي لو وضعت إذنك على شفتيه لن تسمع شيئا.

انحصرت المياه تماما في أول الليل كأن البحر مشتاقا لأيام الصيد بعد أيام طويلة مع الشتاء وغزارة المياه وقوة الأمواج. الفرحة تكسو الوجوه وبشار الخير تطف القلوب والتفائل يزيد القمر إضاءة في السماء. اتجه حامد والطبيب ناحية الشمال قليلا أما منصور وعم سمير فانطلقوا أمامهم مباشرة. وبقي يونس في مكانه. ما زالت حشائش البحر رطبة في أول أيام الصيف ولم تلفحها الشمس بنارها وتلهبها المياه الساخنة. فكانوا يمشون بحرص فوق الريف المرجاني حتى لا ينزلق أحدهم. فما هي إلا أيام قليلة وكل هذه الرخويات والحشائش سوف تجف من كثرة تعرضها إلى الشمس ويظهر الريف صلابته المعهودة بلونه المائل إلى الاصفر الداكن الذي يرتاح الصيادون بمجرد النظر إليه مثلهم مثل سرور الفلاحين باللون الأخضر. نور القمر يجعل الرؤية أسهل إذا نظرت إلى من بجوارك ولكن عليهم أن يدققوا النظر عندما تخطو أقدامهم في المياه الضحلة. وصل حامد والدكتور سراج عند طرف الحيد المرجاني أمام المياه العميقة كأنهم يقفون على سطح عمارة من عدة طوابق. ارتفاع المياه بالنسبة إلى مكان تواجدهم على صخرة مرجانية صلبة لا يتعدى الثلاثون سنتيمر وأحيانا الخمسون سنتيمتر على حسب حركة الموج

الهادى في هذه الليلة. نظر حامد جيدا في المكان وبعدها ثبت الحربة الصلب بغيرها في فتحة صغيرة بجواره على الصخرة. وبدأ يصطادا سويا. كأن السمك منتظرهم في هذه الليلة. استمتعا من الصيد الوفير من أسماك متوسطة الحجم. الثلاثة منها أو الأربعة يصلوا إلى كيلو جرام. كانا أسعد حظا لتمكنهما من إيقاف سرب من أسماك أبو شرارة الذي يظهر في الليل فقط. بخبرة حامد جعل هذا السرب يتوقف تحتها لئتمكنا من صيده، بأن يمزغ قطع من لحم الأسماك الصغيرة ويرميها بعد ذلك في المياه ويسمى هذا بالسمر بين الصيادين. على الرغم من صيد أبو شرارة يجعل الصيادين ينشغلوا عن سواه لأنه يأكل الطعام بشراها وسرعة لكن لم يغفل حامد من النظر تحتها ويخرج الحربة أكثر من مرة من مكانها على الصخرة لئتأكد من شيء بجوارهما. ويزداد الحرص لحامد بسبب الطيب. لأنه ما زال عنده غريب يخاف عليه مهما طالت أقامته وصديق يقدره. لذلك حامد يلتزم بجواره ولا يغير مكانه حتى وأن قلت وفرة الصيد في ليلة ليست كليتهما هذه. ويرجع هذا بسبب ضعف حركة الطيب وبطئها في الليل وخوف حامد من أن يصاب الطيب بأذى. وأيضا ليجعل الصيد له أسهل. فكثيرا الصنارة تمسك بالشعاب في الأسفل ولا يصلح معها هز الخيط أو الانتظار لتحررها حركة الأمواج فلا بد من قطع الخيط عن طريق الشد وهذا يتطلب قوة لا تناسب الدكتور سراج وأيضا لا بد من ربط صنارة جديدة في الظلام له وكل هذا لا يستقيم للطيب دون حامد.

منصور لا يستمر في مكان واحد. على الرغم من أفضلية أن يكون معك رفيق في البحر وخصوصا في الليل إلا منصور لا يطيق أن يمكث طويلا. دائما يقول: «اصطاد الغفلان من السمك وبعدها لا بد أن أرحل». يرافقه عم سمير في أول الأمر ولكن بعدها لا يلحق به. منصور نشيط جدا في حركته على الرغم من ضخامة جسده. ولا يهاب البحر وظلمته. تفكيره فقط في الصيد الوفير. غاب منصور في اتجاه الجنوب وبقي عم سمير خلفه يصطاد أحيانا وعندما يتوقف السمك عن أكل الطعم لا يستمر عم سمير في مكانه فيخرج ليستريح على أي صخرة صغيرة تصلح كمقعد فوق الحديد المرجاني وبعد أن تستريح قدمه يرجع مجددا. يأتي إليه أحيانا صوت أقدام منصور المتسارعه وهي تزيح المياه القليلة أثناء تنقله البعيد. أو صوت تكسيره لصدفة ليخرج ما داخلها ويستخدمها كطعم. وعندما توسط القمر في السماء وأصبحت أضائته أشد، رجعوا تباعا إلى الشاطئ لمكانهم. وصل حامد والدكتور سراج أولا. وجدوا يونس كما تركوه في نفس مكانه فوق الحصيرة. اعتدل قليلا في جلسته عندما راءهم قادمون وصوت كلماتهم يحمل السرور. فالصمت بعد الصيد لا ينبئ بالخير. خلعوا احذيتهم وافرغوا مغاليتهم من الأسماك ليفصلوها عن بكرات خيوط الصيد ويضعوا الأسماك بعد ذلك في لفات من الخيش المبلل حتى لا تفسد حتى الصباح. ولم يطيل الوقت حتى قدم عليهم عم سمير وفعل مثلهم إلا أنه لم يخبرهم بما اصطاد إلا بعد أن جعلهم يفصحوا أولا خوفا

من الحسد. وسألوه عن منصور فقال: « أنه غاب بعيدا ولكن لا خوف عليه». لم يكمل عم سمير كلماته حتى ظهر خيال منصور يقترب قادم يمشى نشطا متعرجا تبعا لمناطق الجافة فوق الريف. تخلص من ثقل ما يحمله وارتطم جسده الضخم بالرمال أمامهم وهو يأخذ أنفاسه في مشهد مبالغ فيه لتعب. علموا أنه وراءه شيء طالما أظهر التعب بهذا الشكل ولم يفسدوا مقصده فسأله الدكتور سراج: « ما بك يا منصور؟». فقام وفتح مخلاته وأخرج منها سمكتين متشابهتين تقارب كل واحد الاثنتين كيلوجرام. تجمعوا كلهم حول السمكتين وهم يرددون عبارات الإعجاب ويصلون على النبي ويكررون ما شاء الله. انفرجت أسارير منصور وانفجر في قص كيفية اصطيادهما وأنهما ليس من مكان واحد على الرغم من انهما يحملان نفس الاسم. سمكة المحسنية. وكيف كانت الكبيرة على وشك أن تفلت منه لأنها دخلت الشعاب المرجانية وأنه ارخى لها الخيط لوقت طويل حتى تطمئن وتخرج فشدّها بسرعة بكل ما اوتى من قوة. واختتم منصور كلامه بالثناء على عمله بأن على الإنسان أن يسعى ويجتهد فاستعان بكلمات مأثورة ليثبت حسن صنيعه فقال: «اسع يا عبد وأنا أجرى وراك». فانفجر كلهم من الضحك لخطئه الواضح، لأنه قصد مقولته «اسع يا عبد وأنا أسعى معك». لم يضجر منصور منهم على غير عادته في مواقف مشابهة. أسعدهم منصور بما اصطاد على الرغم أن هذا السمك سوف يكون من نصيبه هو فقط، لأن صيد الصنارة لا يقسم واستغرب

حامد كيف يهذب البحر والسمك روح منصور ويجعله أقل سوءا  
واطيب عشره. وبعد أن ارتاحوا قليلا قاموا ليذهبوا إلى المناطق  
التي تركوا فيها الشبك حتى ينظروا ما رزقوا فيها. اتجهوا جماعة  
واحدة. عم سمير يحمل جوال فارغ والدكتور هو فقد من في يده  
الحربة الصلب المسنونه. وحامد ومنصور دون أي شيء معهم. الشبك  
الآن بعد أن انحصرت المياه يوجد في المناطق المنخفضة التي بها  
المياه وتشكل كأنها خلجان صغيرة فينزلوا فيها ويشكلوا  
صف ويحدثوا نوع من الضجة إما بالأرجل أو تحريك الماء من أعلى  
بالأيدي أو دك الأرض بالحربة. فيتجه السمك المتبقى إلى اتجاه  
الشبك هربا منهم. وبعدها يبدأ حامد ومنصور في تخليص السمك  
من الشبك وأعطاه لعم سمير. وتكون هذه هي أصعب مهمه لأنها  
تحتاج إلى خبرة في إخراج السمك الذي التفت عليه خيوط الشبك.  
وأيضا عليهم الحذر الشديد من تواجد الشقات الضخمة السوداء  
الجائعة فكثيرا يجدوها تلتهم السمك من الشباك. فكانوا  
عندما يرون أي خط أسود بجوار حبل الرصاص السفلى للشبك  
يأخذوا الحربة ليتأكدوا من وجود شاقة أما لا قبل أن يضعوا  
أيديهم في الماء. وبعد أن يفرغوا الشبك من السمك. يخرجها حامد  
من الماء ملمومة على ذراعه ويتركها على الحديد الجاف حتى يعود  
إليها في النهاية بعد أن ينتهي من الشبك الآخر.

افرغ عم سمير الجوال على قطعة ضخمية ملساء على الشاطئ  
كأنها قطعة أسمنتية جيدة الصنع. أخذ عم سمير يجنب السمك

الصغير والرخيص وبعد ذلك قسم السمك المتبقى إلى ثلاثة أكوام. كوم للشوارت (الشبك) والآخران المتبقيان للصيادين. وإن كان المعتاد في القصير. أن يكوم كوم للشوارت وكوم للصيادين وكوم للسيارة ولكن الطبيب يرفض هذا ويجعل السيارة كأنها غير موجوده وذلك يشعره بنوع من العدل بسبب عدم قدرته على بذل الجهد مثلهم. لذلك يقسم الكومين المتبقين عليهم بالتساوى. فيتحصل كل واحد منهما من الشبك بحوالى خمسة كيلوجرامات. شوى بعض الأسماك للعشاء. امتلأت بطونهم بالسمك الطازج في سرور وخلي البال من الهموم. بدأ الماء يغمر الحيد المرجانى مع ميول القمر ناحية الغرب، ويسمعون صوت الماء كأنه مياه تدخل ببطء من جميع النواحي لتغرق السفينة. قام حامد إلى كوم السمك الصغير الذي ما زال في مكانه بعد أن غطى كل واحد نصيبه بالخيش المبلل. وأخذ يقلب فيه حتى استقر على سمكة صغيرة وعندما لم يتبعه أحد قال: «ها انهضوا حتى تتركوا خيوطكم في المياه». استجاب الطبيب وعم سمير أما منصور فبقى في مكانه راقداً على الحصيرة وهو يتثاب يقول في كسل: «أنا مستغنى هذه الليلة اسعوا انتم». ضحكوا منه فوضع فوق رأسه شال واغمض عينيه من التعب. أخرجوا الخيوط السمكية القوية التي لها القدرة على شد سيارة وبها الصنارات الضخمة. ثبتوا في كل صنارة سمكة صغيرة كاملة. ودخلوا المياه حتى وصلوا قرب المياه العميقة وتركوا الصنارات في مناطق لا تتحرك بها الأمواج حتى وأن أشدت الرياح

وأخذوا ويرتدون إلى الخلف ببطء وهم يفكون الخيوط ويجعلوها غير مشدودة حتى يصلوا إلى الساحل بالقرب من مكان نومهم. فاحضر كل واحد منهم زجاجة بلاستيكية ولف حولها خيطه ثم يمدن الزجاجة في الرمال إلى أعلى من منتصفها ويتركوها إلى الصباح. لم تمر ساعة وإلا وكانوا كلهم يغضون في نوم عميق حتى الدكتور سراج ذو النوم المتقطع ذاب معهم. وابتعدت الأحلام المزعجة عن منصور. تشكلت الرمال تحتهم على حسب أجسادهم. ومع اقتراب بزوغ الخيط الأبيض من الشرق الذي سوف يمزق القبة المظلمة التي تغطي البحر. والأرض تبدأ تخرج برودة الليلة السابقة استعدادا لتتفرغ لاستقبال الشمس فيتبعها تقلبهم وانكماشهم بحثا عن الدفء. يسمع يونس صوت صرير كأنها للفار تحت حشائش جافة. يعتدل جالسا بحثا عن هذا الفأر المزعوم. وأثناء تلفته متتبعا لآثر الصوت. تنطلق إحدى الزجاجات الفارغة في الهواء كأنها صاروخ خرج من قاعدته الأرضية. صاح يونس فانتفض حامد وعم سمير من مكانهم دون أي تساؤلات فالأمر معروف ولا يحتاج لاستفسار. وجدوا زجاجة عم سمير هي من تركت مكانها فأخذ حامد وعم سمير في شد الخيط قبل أن تبعد السمكة الضخمة وتنزل في الأعماق ويلتف الخيط حول الشعاب. قدم الطبيب ليساعدهما وأخذ كل واحد يبدل مع الآخر في المقدمة كأنها مسابقة شد الحبل. استجابة السمكة لهم وأنهارت قواها وكفت عن الحركة السريعة في اتجاه اليمين واليسار وأصبحت مقاومتها في خط مستقيم. ورويدا رويدا أخذ

يونس يلف بكرة الخيط المسحوب وراءهم على الشاطئ، ظهرت السمكة منهكه قبل أن تستلقى على الشاطئ في حركات وديعة متقبلة مصيرها. كانت قرم يصل وزنه اثنا عشر كيلو جرام. كبر وهلل عم سمير وهو يقبل حامد ويهز يونس بذراعيه قائلاً: «يا بركة يا أبو القلب الطيب». ويجلس بجوار سمكته ويربت عليه. فاتي صوت منصور وهو تحت الغطاء مخرج رأسه متسائلاً: «ما هذه الضجة؟». فرد عليه عم سمير: «اسع يا عبد وأنا أجرى وراءك». فعلت قهقهاتهم حتى زرفت أعينهم دموع وارتموا كالأطفال على الرمال من الضحك وهم ينظرون إلى منصور الذي غط رأسه وعاد إلى النوم.

\*\*\*\*

في عصر إحدى الأيام ليس بشديد الحرارة يأتي منصور ومعه سمير إلى بيت حامد على غير العادة. تقدم حامد عليه في استغراب ظاهر لقدومه ولكنه ليس قبيح. علامات الفزع على وجه منصور كأنه محموم لم يسأله حامد عما يبديه مظهره. حاول منصور أن يجعل حامد يأتي معهم البحر ولكنه رفض لأن الجو غير ملائم على الرغم من توصلات منصور التي لم يعهد لها حامد منه. فانطلق منصور بسيارته غاضباً من رفض حامد. سرح حامد في حالة منصور فتملكته هو أيضاً بعض من القلق فسيطر الصمت عليه وعاد إلى مكانه أمام البيت يكمل بعض العربات الصفيح للأطفال حتى غابت الشمس. لمست كتفه سيدة الحلبية فانتبه إلى ما

حواله وبدأ يسمع ضجيج الأطفال الذين يلعبون على مقربة منه ونباح بعض الكلاب الذين يستلقون على رمال الشاطئ في ناحية الجنوب ينتظرون بعض من الأسماك المسلقوه التي يعدها هو أو رضىنته. فقد استولوا بقوتهم على موقع الطعام من القطط التي رضيت مرغمه بالقليل فوق الأسطح. كل هذا أتى عليه بمجرد لمسة اليد من سيده كأنها فتحت نافذته المغلقة. اكتفت بنظرة ذات دلالة وبعدها اتجهت إلى رضىنته. استلقى على ظهره فوق الرمال حتى اكتست السماء بالظلمة فنهض متحمسا إلى البيت عازما على شرب النبيذ الذي استطاع في غفلة من الناس وغطاء حظ بأن يشتري زجاجتين من دينارى. جلس في الحوش على الأرض متكأ بظهره على الجذع الذي في الوسط. وبعد أن شرب قد حين ترحم على الأوقات السعيدة في منزل الدكتور سراج القديم. كما كان النبيذ أمتع هناك. الصحبة والمنضدة والكاسات الزجاجية بهذا يعطيك النبيذ كل أسرارهِ. ولكن من بعد أن انتقل الطبيب إلى منزله الجديد لم يزره إلا قليلا ولم يطل في الزيارة. فلم يشعر حامد أو يونس بأنه منزل الطبيب. فما زالت روح الأستاذ تهامى تسيطر على كل جزء فيه. وزاد هذا الإحساس بأقاربه الذين يسكنون الدور الأرضى. فنظراتهم لحامد ويونس كانت بها نوع من الاستغراب أو عدم الترحيب. فقد كانت السلالم الموديه إلى الطابق العلوى تحمل دائما أصحاب النفوذ أو الطالبين للعون فلم يروق لهم بأنها أصبحت لميكانيكا ومأذن. وإن كانت ليست بالفجاجة الصريحة ولكن كانت

نوع من الاسى والحزن على الماضى القريب. أخبر حامد رضينة بعد أن تناول العشاء معها بأنه سوف يذهب إلى البحر هذه الليلة. سألته رضينة وهي تعيد صنية العشاء إلى المطبخ: «لماذا إذن لم تذهب مع منصور؟». فصمت للحظة وبعدها قال: «لأنهم لم يصغوا لما أقوال. الليلة الريح كما تسمى بها بعض الشدة ما زال البحر يحتفظ ببقايا الشتاء ولا يصلح معها الصيد بالخيط. فقلت لهم بأن يأتوا معى لنضع الشبك في المنطقة التي أمام الملاحه لأنني سمعت بأن سمك القاصه ظهر». قام للعمل الشاى فشعر بالنبيد عند نهوضه. كأنها مياه راكدة تحركت. اتجه إلى الموقد فأتى به من الركن إلى مكان جلستهم. عبارة عن وعاء حديدي مثل الذي يستخدمه عمال البناء في حمل الأسمنت وبه رمل تغير لونه إلى اللون الأسود من بقايا الأخشاب والفحم المشتعل. وضع به قطع الأخشاب المقطعة المعده سابقا في المنتصف وأشعل النار فزادت الظلمة عتمة حول الموقد. جلست بجانبه رضينة وهو يعد الشاى. أخذ يحسها على الكلام ببعض الأسئلة العذبة عن طفولتها ونشأتها حتى انطلقت في سعادة تحكى بعض النوادر التي حدثت معها وهي وكلها فخر بما تقص عليه. ومع احتساء أكواب الشاى المتتالية انتقل السمر من قصة لآخره حتى سكن لبعضهما في وداعة. احتوته وامتلكها.

\*\*\*\*

وضع جوال الشبك فوقه. أنه خفيف ولكن إن كنت تنقله

من مكان لآخر قريب. أما أن تمشى به فوق الرمال البيضاء للمسافة فيظهر ثقله. وصل حامد للمكان الذي قصده مجهدا. جلس أمام مياه البحر وخلفه الملاحه بمياها الساكنة الملاحه الثقيلة ذات الرائحة الغير مستحبه والتي تكثر فوقها دوائر الناموس الغير متناهية. لم يوقد أي نار حامد. اضجع على الجوال وتخلص من صندله ليجعل قدميه حره. لم يمر به أحد طوال تواجده على الساحل. وبعد ساعة تقريبا من منتصف الليل انتبه حامد إلى شبح يتحرك على جانب الملاحه من ناحية المدينة. فسكن وأخذ يضيق في عينيه حتى يتيقن من حركة هذا الشبح. تجمدت عروقه وشعر بأن قلبه قد توقف وأخذ يتنفس هواء حادا كسيوف بتارة تدخل إلى رائيته. وأيقن أن هذه الليلة سوف يحدث شيء يقلب حياته كلها. لبس صندله في هلع وانتفض قائما واتجه إلى ناحية الشبح. لما تمضى دقائق إلا وكان حامد عادا إلى بيته وهو يحمل جوال الشبك فوق كتفه الأيمن وفي يده اليسرى يحمل لفه صغيرة يضمها برفق. يكاد يغشى عليه وهو يهرول ناحية بيته من شدة الانزعاج من أن يراه أحد. وأصبح لا يشعر بتصلب عضلات رجله بسبب الحمل والأسراع فوق الرمال كعداء في آخر جزء في السباق. رم الجوال عند وصوله أمام بيته وطرق على الباب طرقات خفيفة. دخل بعد أن فتحت رضينة الباب له واتجه مسرعا وجلس في نفس مكان موقد الشاي في أول ليلته. مازالت رضينة غير منتبها لما يحمل وعليها بعض أثار النوم. وقبل أن تستفسر عن ما معه واين جوال الشبك. انبعث في الهواء صوت جعلها تترك

نعاسها التي كانت تحافظ عليه كي تعود مرة أخرى إلى فراشها. تملك حامد الفزع من أن يسرى هذا الصوت في الظلام فيسمعه الجيران وإن كانوا غير متجاورين الحوائط وحركة الرياح في الخارج كفيله بتشتيته. فاستفسرت رضينة عن هذا الصوت الذي تعرف صاحبه وهي في حيرة من أمره فقالت: «ما هذا الذي تحمله؟».

فاجابها: «رضيع وجدته عند الملاحه، تركه شخص في الظلام وهرب ومن حسن حظ الرضيع أنى كنت هناك والا لكنت الكلاب مزقته». جلست رضينة مفزوعة ولم تقرب من حامد الذي يهز الرضيع برفق حتى يهدئ وسيطرت عليها حالة من الخوف وتوحدت مع الرضيع كيف يترك في الظلام وهو لا يقدر أن يبعد عن نفسه الأذى. ففاجاه حامد بأن أعطاها اللفة فدبت فيها رعشة وعندما تأخرت في فتح ذراعيها لاستلام اللفة قال حامد: «احمليه حتى أحضر له لبناً». إذن أنه طفل ذكر. فوضعتة فوق حجرها. لم يغيب حامد في حلب الماعز. ووضع ما أتى به في كيس رقيق وثقب به بابرة وأقمه للطفل وهو يحكم بيده الكيس ورضينة ترفع رأسه قليلا ليرضع. وبعد أن استأنست به وسكن الطفل. قالت لحامد: «من تظن أن يكون أهله؟». فأجاب حامد باستنكار: «لو كان له أهله ما رموه في ظلمة الليل وقد يكون ذلك الشبح قاتله ولكن عندما رآنى تركه للمجهول».

- أتظن أنه طفل سفاح؟. قالتها بصوت حزين.

- المذنبون هم من جلبوه إلى الدنيا. أما هو ليس من أمره شيء.  
من أختار منا أهله.

- سوف تسلمه إلى شيخ البلد في الصباح؟! متسائله.

- لن أعطيه لاحد. ما دام أنني وجدته فهذا لي. قالها بشدة  
واستطرد بعد أن صمت وهدأت نبرة صوته كأنها من أحد  
غيره: «سوف أجعله ابني أمام الناس ولن يعلم بأمره أحد».

- أريد أن يكون لي طفل منك وليس من الشارع.

- وهذا لن يكون. لنا أكثر من ستة أشهر معنا ولم تتحرك  
روح داخلك. طليقتي حامل بعد زواجها من رجل في عمر أبيها.

قال هذه الكلمات وهو منفعل ومملوء بالأسى ثم استطرد  
قائلاً: «إذن أنا الوادى العطشان الذي لا ليس له شجر. اتريدين أن  
تعيشى طول عمرك معى دون أولاد لنا وكل يوم تسمعى  
كلمات تؤذيك من دعوات مزيفة أو تتركينى لترجعى لأهلك  
وتتنتظرى عجوز آخر ليستغل موقفك». شعر حامد بنوع من  
الابتزاز في كلماته فانحدر إلى منعطف آخر بسرعة قائلاً:  
«اعذرينى على قسوة كلماتى فهذه هي الحقيقة يا رضيعتى.  
لذلك لن ارفض هذه الفرصة التي ساقتها الحياة لي ولهذا الطفل  
قد أكون الانسب له. من يعلم هل لو كان معى أطفال لزهد  
فيه، وأن كنت اشك في ذلك، أنا أبوه وأنت امه. نربيه بيننا  
وسوف تشاهدين كيف سوف يصبح ولدك كأنه من صلبك.  
يتشبع بكل ما تعطينه وينصبغ بلونك. ويتفاخر بقبيلته بين

القبائل كأنه اختارها منذ الأزل». توقف عن الحديث وبه شيء من الانفعال. الحيرة والخوف أحاطتا برضينته، تهزرجليها لتهدد الطفل في حجرها بمزيج منهما. وعندما لم تعلق على ما سمعته. أكمل الحديث مجددا بنبرة هادئة فقال: «أنا أعلم ما يسبب لك الارتباك لا تقلقى طالما بقينا سويا سوف نجتاز كل العقبات. يا صغيرتى ألم نجلس سويا على الشاطئ ونتمنى أن نجد شيئا ذا قيمة يجعل حياتنا أسهل مثلنا مثل الكل في هذه البلاد التي لن تتغير حياتهم إلى الأفضل إلا بلقمة قادمه من المجهول».

فردت رضينته وهى مرتبكة: «وكنت أقول لك أرجو من الله ألا تكون حراما. وكنت تجيب لو كانت تضر الناس نرميها مجددا في البحر». ابتسم حامد فلم تشاهده في الظلمة ولكن شعرت بابتسامته وأكملت قائلة: «أما ما وجدته فهذا طفل أتى من حرام». عند هذه الكلمة استلم منها حامد الحديث وهو يتهمك قليلا قائلا: «ولو وجدنا أموالنا ضخمة على الساحل فهل تظنين أنها أموال مسجد أو صندوق مقام سيدى سالم. أنه سوف تكون بالطبع للتجار مخدرات أو من هم أشرم منهم.»

- كن سوف ناخذها ونفعل بها الطيب للناس ونحول مسارها من الشر إلى الخير.

- وهذا ما أريد أن نفعله سويا. هذا الطفل أتى من الشر وسوف نحوله إلى الخير. قد يكون من الصالحين إذا أحسنا تربيته. أما إذا تركناه وأعطيناه للحكومة فسوف يبقى طفل السفاح

بقية حياته ولو عطفنا عليه بعد ذلك وتبينناه سوف يمدح كل البلدة فعلتنا ولكن بعد ذلك هم نفس الأشخاص الذين سوف يقفلون في وجهه أبوابهم ولن يرضوا بنسبه أو صحبته. يا محبوبتي الحياة قاسية وأحيانا لا تنفع معها الصراحة إن كانت ملوثة. هل تحبينني وتريدين أن نكمل حياتنا سويا. وافقي على ما أقول. نجعله ابننا». غلب السكون على ثلاثتهم في هذه الليلة الظلماء. بدا حامد أن رضينة سوف تتبعه فيما يقول. استلقى حامد على الأرض في الحوش في نفس مكانه بالقرب منهما فتبعته هي فوضعت الطفل بجانبها. أتأخذوا شكل النائمين، حتى الطفل لم يحرك ساكنا ينتظر مصيره. ما زالت هناك غصة في قلبها تعترضها ألما من حديث حامد عن عدم انجابها. فاخذت تتوافد عليها الخواطر وتحدث نفسها «لابد أن أخذ حامد إلى التمثال في الجنوب ولكن هل سوف يوافق. أه يا حامد لم أعرف شخص مثلك، أيام أكون سعيدة لاختلافك عنهم وأحيانا استغرب منك لعدم معرفتي بما في ذهنك. واخاف عليك من الكتب التي لا تكل عن قراءتها. أما أن نغيب بالساعات صامتين بين الصفحات فهذا الغريب. ولكن أنت زوجي وأراك أفضل من الكل. ولن أضيع حياتي الجميلة المستقرة كي أعود إلى الصحراء القاحلة. فأنا سعيدة معك وفي بيتك. لم تقسو على كالأزواج، بل أظن أن ما يحدث بيني وبينك لا يشابه ما بين الآخرين. أتعلم أن أريدك الآن فأنا لا اشبع منك، ولكن أظن أن

الوقت غير ملائم فقد أصبح لدينا طفل».

بدأ الفجر في البزوغ وتلاشت النجوم في السماء. ارتفع صوت الرضيع فنهض الاثنان كأنهما يعلمان ما يجب أن يفعلاه. أسرع حامد ناحية مكان الماعز بجوار البيت وقامت رضينة بخطوات هادئة والطفل على ذراعيها تتحرك في الحوش حتى أحضر حامد رشفات اللبن. وبعد أن أرضعت الطفل وهما واقفان. قالت رضينة: «أنا معك يا حامد في أي شيء. مصيرنا واحد. فضمها إليه». فبكى الرضيع فابتسم حامد قائلاً: «إذن ارتدى الحبرة لابد أن نذهب الآن إلى خالة فضائية، لابد أن نتركه هناك. أما هنا فسوف يشعروا به في العدو». وأخذ منها في عجلة. ولم تمض برهة قصيرة من الوقت إلا وكانا على الساحل متجهين جنوباً ولا تلاحقهم أي عيون. كانت تتبعه في جدية كأنهما يخططان لشيء عظيم. اشتد الرباط بينهما ومن هذه اللحظة ايقنت رضينة انهما سوف يكونان معا للأبد لن يفرقهما إلا الموت. كانت خطواتهما متسارعه يريدان أن يصلا إلى عشة فضائية قبل خروج قرص الشمس من الماء. تتسارع خطوات حامد لتقترب من الهرولة وليس المشى وكلما ابتعد عن رضينة عدة أمتار تجرى لتصبح بمحازاته. لا يتكلما كعادة السائرين في الصحراء. الجد فيما قرر والاصرار على تنفيذهما المتحكمان في ذهن حامد أثناء طريقه إلى فضائية. يرتب الأفكار وماذا سوف يقول ويتلفت من حين لآخر عسى أن تكون هناك عين تتبعه. فيلف الرضيع باحكام حتى يخبه من الأعين والهواء الذي يحمل برودة الليل.

شعر فجأة كأنه ضرب فوق رأسه بقطعة من الصلب. سرت الكهرياء فيه من أثر الصدمة كيف لم يتذكره؟ أخذ حامد يلوم نفسه بشدة وهو يبتعد قليلا بخوف وحرص عن الشاطئ عندما وجد على بعد عشرات الأمتار أمامه سيارة منصور تقف بين الشارع الأسفلتي ورأس الفل. وبعد أن ابتعد أكمل سيره بمحاذاة البحر حتى أن تخطى منصور ورفيقه الراقدان على الرمل، عاد إلى الشاطئ مرة أخرى. سمع صوتهما مع اتجاه الريح عندما أصبح في الجنوب منهما وكانا يتسامران دون أن يلاحظا حامد ورضينة.

ظهرت العشة لهم بعد أن اجتازا بعض التبات المنخفضة التي على الساحل التي تمنع رؤية شجر المانجروف القريب من عشة فضائية. بدأ ضياء الصباح يضيء بأنواره البحر والشط والجبال البعيدة وما زال قرص الشمس الذهبي في بطن البحر. كانت فضائية حول موقد النار أمام عشتها وظهرها لقادم من القصير حتى تقلل من هبات الهواء على الحطب المشتعل ولا يزعجها الدخان والرماد المتطاير المتجه إلى الجنوب. شعرت بأن هناك أحدا يقرب. بدأت تتلفت ناحيتهم متتبعه صوت الأقدام ببطء وطمأنينة وعندما اقتربا، سلم حامد بصوت مرتفع لتعرفه قائلا: «أصبحتي بخير يا خالتي؟». نهضت متكأه على عصاه بقوة عندئذ كان حامد أمامها تماما، فازدادت حيرتها عندما شاهدت معه رضينة. ضم حامد الطفل بذراعه الأيسر ووضع يده اليمنة فوق كتف فضائية الأيسر واحتضنها مسندا رأسه على كتفها

الأيمن وفضاية مستسلمة إلى السلام في قلق. تحدث نفسها هل هما بخير وماذا أتى بهما في هذا الوقت من الصباح الباكر؟ وبعد وصلة من السلام والسؤال عن الأحوال من حامد لفضاية وكل كلماته مشبعة بابتسامة دائمة منذ أن وصل. جلسوا على الرمال حول الموقد الذي غيرت مكانه رضينة بإشارة من حامد لتجعله في مكان بين العشش ساكن محمى من الهواء. ابتدأت فضاية الحديث مستفسرة بحيرة قائلة: «طيبين؟».

«الحمد لله بخير، ما تقلقى علينا، اتيناكى حتى تساعدينى في أمر عظيم، وأنا ورضينة ما لينا حد غيرك». لم يرد حامد الإسهاب في المقدمات والشرح فقدم إليه الرضيع الهادئ في لفتة ووضعها في حجرها وعندما استلمته بايدي مرتعشه، أصدر الوليد صوت خافت رقيق فقالت: «بسم الله، ما هذا؟».

«هذا ما أتيت اليك بسببه، اسمعى حديثى للنهاية يا خالته». صمت قليلا وهو يأخذ الرضيع منها ويعطيه للرضينة واستغل هذه اللحظات القليلة لترتيب حديثه المضطرب داخله ثم تحدث قائلاً: «لقد وجدت هذا الرضيع على طرف الملاحظة ليلة أمس، تركه شخص في ظلمة الليل وهرب عندما اقتربت منه، فاستبشرت به خيرا واتخذته ابن لى، اربيه في بيتى، فأنت تعلمين أنه لاحظ لي في أن يكون لي طفل من صلبى، هذه الأقدار رضية بها ولكن شاءت أيضا الأقدار أن تضع هذا الطفل أمامى لذلك لن أرفض هذه العطية، معظم الناس تحب أن تربي شيئاً كانت زراعة أو حيوان

أو طفل ويكبر كل يوم أمامهم. سوف أخبركم بشيء قد لا تصدقونى فيه، لو كنت وجدت هذا الرضيع وعندى من الأولاد كثيرين لاتخذته ابنا لي ولن اتركه حتى تنهش فيه الوحوش، أعلم أن هذا صعب التصديق وقد أكون واهما، ولكن هذا ما أتأكد منه في هذه اللحظة كما أتأكد من وجودى بينكم، نعم أن الدافع الأقوى الذي يوجد الآن في المقدمة هو أن استمتع بأن يكون لي ولد وأخرس الشياطين التي تسأل عن حالى كل يوم، ما المانع يا خالة في ذلك، أنا أتيت إلى القصير كالغريب وأصبحتى بعدها أمى التي أشعر تماما بانك أمى الحقيقية، وفرحت يوم أن صار أسمى مقرونا باسمك، ما احلاه اسم حامد فضائية، لذلك لا أعلم طريق اسلكه غير طريقك، هذا الرضيع وجد ابا واما ولكنه يحتاج إلى جده، هل تساعدنى؟». تأثرت فضائية أشد التأثر بما قاله حامد. فهي أعلم الناس بما يدور في صدره من احزان فكم من مرة أتى إليها وبث أوجاعه. ولم تنسى يوم علم حامد بحمل زوجته السابقة بعد زواجها وتأكد أن العيب من جانبه. فقالت في نفسها «نعم وما المانع من تبنى الطفل». ثم قالت لحامد: «أنت ولدى وأنا ظهرك في أي شيء ولكن لا أعلم كيف أساعدك أو ماذا تريد منى بالضبط؟». فابتهج حامد ونفض الحزن الذي عليه كغبار ولمس ذراع فضائية في ود قائلا: «كل ما أريده أن تجعلى هذا الطفل عندك لمدة شهرين أو أكثر بقليل حتى نوهم الناس بميعاد مولده واننا قد خباننا أن رضينة حامل خوفا من أعين الحسد، لأن هذا أول مولود لى. والناس سوف تتقبل ذلك، لأن ما

أتيت به هو من طبائعهم وتقاليدهم».

- كما تشاء اتركه معى ولا تخف على كتمان السر، هنا لا أحد يقترب دون علمى وأغلب الوقت وحيدى ولكن ما يقلقنى هو حياة الرضيع. هل هذا المكان مناسب له؟.

- كلنا تربينا في الوديان يا خالته وظروف أصعب، طول ما ربنا انقذه من الموت عند الملاحاة وجعله في طريق حامد يبقى التوفيق حليفه وسوف يقاوم الظروف.

نظرت رضينة بعد أن أنهت كلامها لفضائية فوجدت مدى رضا حامد مما قالت.

- لن نتركك وحيدة، كل يوم أو يومين سوف أكون عندك حتى أساعدك، كل ما أريده الآن أن ترضعيه لبن ما عز كلما بكى وأن لا تذهبى بعيدا عنه، وسوف أترك لك أكياس رقيقة نظيفة تضعين فيها قليل من اللبن ثم تثقبى طرف الكيس بإبرة حتى يرضع منها.

- هذا أمر سهل ولا تحمل الهم في التفكير فيه، سوف اثبت لكم أنني ما زالت أستطيع أن اتولى أمر طفل.

دارت بعض المناقشات البسيطة بعد ذلك بينهم مثل أنه لا بد من إحضار ملابس للرضيع، ووعد حامد بالبحث عن رضاعة للطفل. وأكد على فضائية على أن تحلب الماعز بنفسها ولا تنتظر مجيء ذكر لذلك. فعادة العباودة في هذا التوقيت أن من يحلب الماشية

لابد أن يكون ذكرا وأن النساء لا تحلب وأن اكتشف رجل أن اللبن قد حلبته أنثى يسكبه على الأرض. فكان رد فضائية لحامد أنها تقدر الحياة أكثر من التقاليد وتأسفت على أنها اكتشفت ذلك في نهاية العمر. استأذن حامد في الرجوع إلى القصير حتى يلحق بعمله.

وهو في طريق العودة أخذت تراوده الأفكار «دائماً الأنثى تحمل التفاؤل في نفسها وتستتهين بالصعاب أما طبع الرجال فاقرب إلى التشاؤم. هل بسبب إدراك الحقائق وتوقع النتائج أو البحث في التفاصيل، أما بسبب الفخر الذي يولد مع الذكور فلا يجب أن يقال عليه أنه غبي كيف لم يتوقع هذه النهاية لذلك دائماً وهو يسير في حياته يكرر أمام نفسه والمحيطين به أن هناك خطأ بسبب هذا وتلك. وأنه لا يستشعر ببشارة مرضية، فإن أت النتيجة سيئة لا يلومه أحد وإن جاءت بالنجاح فخير وبركة. أما النساء فإنهن أكثر تقبلاً للفشل والهزيمة لذلك تكون الأنثى متفائلة ومستبشرة خيراً وتستمتع بلحظات انتظار فرحة النجاح فإن أت الرياح بما لا تشتهي السفن فهذا مسار قد تعودت عليه ولها فوق صخور الدنيا أخشاب مهشمة. هذه رضىينة تسير بجانبى وكلها ثقة أن الأمر بالنسبة لها انتهى فالولد كبير وأصبح يلعب حولها وينادى عليها بكلمة أمى. والآخرى التي تركتها خلفى على الرغم من الرعشة التي أصابت يديها والنظر الذي كاد ينطفئ نوره فكلها إصرار أنها سوف تنجح، تعلم منهن يا حامد»،

ثم تخيل أبوه في هيئة قانطة فأكمل قائلاً لنفسه: «يا أبي لقد اظلمت في وجهك الدنيا يوم ماتت أمي. كانت تهون عليك كل صعب عن فهم أو عن غير».

أفاق أمام بيته في العدوة. لا يشعر بالإرهاق. فالأحداث تبث فيه النشاط وتجعله أشد انتباهاً. غير جلبابه بملابس العمل وودع رضىينة في مودة وأخبرها أنه يحبها. ما أسهل هذه الكلمة على الرجل ولكن وقعها كبير على النساء.

بالرغم من تأخره عن العمل، اتجه حامد صوب الملاحه ومشى بجوار المكان الذي وجد فيه الرضيع. من قال أن الجانى لا بد أن يرجع إلى مسرح جريمته أنه لصادق. أخذ يدقق، وجدته هنا أم هنا. الفرق أمتار بسيطة. ولكنه تأكد بمكان الرضيع أين كان بالأمس، عندما وقف شعر رأسه وجسده كأبر منتصبه مغروسة في جسمه فقال لنفسه «ما هذا الذي أراه؟ هل أقف أم أستمر في المشى؟». فتلفت حوله ولكنه لم يرى أحد وقرب بخطوات جانبية وهو منتصب القامة حتى توقف ونظر أسفل عند قدميه. فاندابه فزع. أنه خلاص الطفل (الحبل السرى) يغطى معظمه الذباب فتذكر أن شعر بشيء يسقط من اللفة عندما حمل الرضيع بالأمس ولكن الارتباك جعله لا يبحث عما سقط. فسأل نفسه «ماذا على أن أفعل الان؟». العرق رشح من كل أنحاء جسمه. فانكب على الأرض كمجنون وحفر بيديه بقوة حتى امتلأت أظافره بالتربة المتماسكة الرطبة التي كانت تقاوم أصابعه وهو

ينبشها فتخيل نفسه كلب يحفر بلا هدف. وضع قطعة اللحم دون اكتراث لمظهرها المقزز وأهال عليها التراب ومشى وهو يتسأل داخله «هل ما فعلت صوب أم خطأ؟. ماذا أن لمحنى أحد الأشخاص وأتى ليعرف ماذا دفنت؟». فأنفعل لهذا الخاطر ثم أشاح برأسه لنفسه وهو يسير كأنه يلوم شخص آخر بسبب تضخيم شيء ضئيل «لن يعرف شيئاً؟ حتى أن عرف أنه خلاص طفل مولود. فكل يوم المواليد تأتي وهناك مهملون كثيرون في المدينة لا يدفنون الخلاص وأنا تتطوعت لهذا العمل دون انتظار شكر من أحد». ثم تخيل أنه واقف بين أهالي القصير وهم يحيطون به صامتين ينظرون إليه وهو يتحدث مع الشخص الذي رآه وهو يقول له: «وأنت أيها المتطفل هل كنت ستفعل هذا لو كنت مكاني؟ بالتأكيد لا. ولكنى سعيد بانك قد لوثت يديك مثلى ولكن هناك فرق بينى وبينك. فمن ستر ليس كمن نبش».

مر على بيت الأوانجى وهو ينظر إلى بابه ونوافذه المغلقة، ويسلم دون اهتمام على من يصادفهم في طريقة فقد تأخر عن العمل. أكمل السير ليدخل العوينة ثم يسلك الطريق القديم الذي كان يمر فيه في الماضى عندما يكون ذاهب إلى عمله وقد انقطع عن السير فيه منذ أن سكن في العدو وطلق زوجته الأولى. قرأ الاستغراب في عيون من قابلوه في شارع القديم. لم يهتم كثيراً بنظراتهم وتمنى أن تراه زوجته السابقة وهو يمر. وبعد أن ابتعد عن بيتها قال لنفسه «كم أنت ضعيف يا حامد،

تزوجت قبلها ولم تفكر فيها إطلاقا بعد أن تركتها. نعم كنت تكرهها ولم تسأل نفسك مرة هل تتعذب يوم إن كانت الطنبورة تصدح في جنوب المدينة بنغماتها الصحراوية حتى تصل إلى بيتها في العوينة. ولكن أنتم لا تريدون أحد يلحق ما تبصقون على الأرض، لذلك أصبحت كالمحموم يوم زواجها ويوم حملها». ثم همس بصوت مسموع في جدية كأنه ينهر نفسه قائلا: «الأيام كفيلة بالنسيان وأنا من يصنع قدرى واعترافى بالضعف هذا أهم علاج». وأسرع في خطواته في هيئة شخص غاضب.

بعد انقضاء العمل، اتجه صوب المستشفى، لم يدخلها ولكنه أكمل سيره حولها حتى السور الجانبى لمستشفى باتجاه الجنوب فدائما يرى مخلفات الطبية تلقى بجانبه. اقترب من حافة كوم وبحث بعينيه حتى وجد ما يريد. التقط ثلاث عبوات زجاجية صغيرة فارغة لدواء شرب وبعد أن وزعهم على جيوبه. اتجه ناحية منتصف المدينة صوب محال صغير للخردوات يستعذب لقاء صاحبه فهو رجل عجوز من القصيرية يهوى الحكايات القديمة عن نوادر أهالي البلدة فساله عندما وصل عن رضاعة من المطاط لأطفال حديثى الولادة. فأجابه الرجل بعد تندرأولا على معرفة عبادى قادم من الصحراء يجرش الذرة بأمر الرضاعة، بأن لا يبحث عنها كثيرا فهذا أما عند محال فاروق أو يسأل عليها صديقه الدكتور سراجو أو ينتظر شيخ البلد عندما يوزعها بالمجان للناس بعد أن يستلم المعونات القادمة من بلاد الإيطاليين (يقصد

أوربا). لم يتبع النصيحة حامد واستمر يبحث عنها بعيدا وعندما خاب رجاؤه، ذهب بخطوات ثقيلة إلى المحال الكبير وهو يتمنى ألا يرى منصور أو فاروق. وعندما وجد ما يريده خطفهم في تعجل من يد البائع.

وصل العدو أمام بيته متعب ولكنه ذهب خلف بيته واحضر علبة صفيح من التي يصنع بها عربات للصغار وملئها بماء البحر، ثم وضع فيها الثلاث زجاجات الصغيرة بغرض تطهيرهم. قابلته رضينة بابتسامة عريضة كطفلة تنتظر اللحظة المناسبة لتخبر والدها بمغامراتها في المدرسة. أظهر بعض الضيق من طول اليوم في العمل وكأنه يمهد بأن لا تطيل عليه عندما تتكلم. وأثناء إحصارها الطعام لاحظ عليه أنها متغيره في حركتها. فعندما سألها السبب انفجرت ضاحكه وقالت: «الآن لاحظت». ثم سحبت يده ليلمس بطنها. ثم أردفت قائله: «لقد ربطت حول وسطى عدة أمتار من القماش الخفيف تحت ملابسى. وزرت بعض البيوت في العدو، وأنا على يقين من أنهم ايقنوا أنني حامل، ولكن اكتفوا بنظرات، والله شعرت أنني أحمله بين ضلوعى». أثنى حامد على ما قالت وتلاشى الإرهاق الذي دخل به البيت كأنه ثلج ذاب من دف كلمات رضينة وأخذ يتسامر مع زوجته ويخبرها أين وجد الرضعات وعليه أن يغلى العبوات الزجاجية عدة مرات فى الماء الساخن قبل أن يرضع بها الطفل.

اتفقوا نهائيا عن تسميته بكرار على اسم الشاب الذي

كان وزيراً لفرحهم.

\*\*\*\*

منذ عدة شهور مضت في شهر سبتمبر في العام السابق بعد انتهاء عيد النصف من شعبان ببضعة أيام. كانت منى على موعد مع الألم والقسوة. كانت تجوب الشوارع كعادتها تجمع في جيوب ثيابها قليلاً من الورق حتى تنتفخ الجيوب كأنها وسائد صغيرة. أوصلتها قدميها على غير هدى كالبهايم إلى السور الشائك المحاط حول منطقة الارصاد الجوية. والشمس تعلقو في المنتصف تبث حرارتها فاستمرت في المشى بجوار السور وقد تكون حددت وجهتها إلى بيت صفيّة حتى تأكل بعض أقراص الخبز المذهب للعيد النصف الذي ما زالت تراه في أيدي الصغار. وأثناء سيرها اوقفها شاب طويل من العمال الذين يسكنون الخيام داخل منطقة اللاسلكى أمام قطع في السلك الشائك يستخدم كمرمر. فقدم إليها مجلة ملونة فاخذتها منه وهي تبتسم فهي تعرفه فهو الذي يهديها المجلات ولا يسبها أو يلاحقها بالاذى كما يفعل رفاقه. فتلفتت للبحث عن الساخرين فلم تجدهم فارتاحت وأخذت تقلب في المجلة وترتسم على وجهها ابتسامة بلهاء. وفي لحظة خاطفة سريعة كانت مقيدة بأذرع ضخمة قوية أتت من خلفها. لم تستطيع أن تصرخ فقد كمم فمها بكف تفوح منه رائحة الوقود وحملتها الأذرع بسرعة إلى داخل منطقة اللاسلكى إلى المبنى الضخم الوحيد ذو الجدران العريضة وعندما أقفل

الشاب الذي تعرفه الباب، تركوها الآخرون على الأرض. فقامت تصرخ وتلعنهم بكلمات طفولية وهم يضحكون بملامح وحشية ويتلفتون للبعضهم. كانوا خمسة عمال. أخذ أصغرهم سنا وحجما يقلد منى ويصرخ مثلها ويأتي بافعال بذيئة أمامها بعد أن اتاخذت لنفسها ركن في أقصى الحجرة الواسعة الخاوية ذات السقف المرتفع جدا كأنها مسرح. اتجهوا إليها ليمسكوها وتمكنوا منها بعد محاولات بائسة منها في الهرب. لم تفتن إلى ماذا يريدون ولكنها تستشعر الخطر كحيوان ضعيف التفت حوله الوحوش فتملكه الخوف ولكنه لا يعرف ماذا سوف يفعلوا به أو ما هي النتائج التي سوف يترتب عليها بأنه وقع في الفخ. فالموت لا يجرب من قبل لتكون به خبير ولكن تستشعر روائحته.

تناوبوا عليها للعدة ساعات. وبالرغم من محاولتهم بأن لا يمزقوا ثيابها حتى لا يكتشف أحد في المدينة ما بها عندما يطلقوا سراحتها. إلا أن ثوبها أصابه الفتق الخفيف في بعض أنحاء. وعندما غطست المدينة في ظلام الليل. حملوها بنفس الكيفية الأولى وتركوها خارج السور. هرعت تجرى على غير هدى بعيدة عنهم. جفت عيونها من الدموع وأثار خطوطه الجافة البيضاء على وجنتيها يفسر بشاعة ما حدث معها. أخذت تترنح بين جدران البيوت في الطرقات الضيقة حتى هدتها فطرتها إلى بيت الأوانجى. فوجدت أمها واقفة أمام الباب. كانت في أعلى درجات الفرع على تأخير بنتها على غير المعتاد. فعندما رأتها تقرب من بعيد شعرت

بالراحة ولكن دب الرعب مجددا عندما رأت وجه ابنتها المرتعد  
فصبت غضبها على الأطفال الذين لا يرحمون ابنتها وأخذت تربت  
على كتف منى في حنان حتى تهدأ من روعها. فابتعدت منى  
عدة خطوات إلى الخلف ورفعت ثوبها لتكشف عن ساقها حتى  
سرتها. فاندفعت الحاجة في خطوة سريعة إلى الأمام لا تناسب سنها  
فجذبت منى إلى الداخل. لم تفهم بالتحديد ماذا تريد منى أن تقول  
أو بالادق تحاول أن تبعد ما استشفت من عدم وجود لباس داخلي  
تحت جلبابها. ادخلت منى إلى الحمام التي ما زالت تهتم بكلمات  
مرتبكة غير مفهومة تناسب رعشة جسدها الذي لم يتوقف  
كأنها أصابتها حمة وحاولت الحاجة منيرة أن تسكت منى ولم  
تفلح. خلعت منى كل ثيابها بمساعدة امها. تأكد للحجة منيرة  
أن بنتها قد تم الاعتداء عليها. فأخذت تلمم على وجهها وتضرب  
منى بكلتا يديها دون وعى فابتعدت منى عنها. فإنهارت الأم.  
بركت على أرض الحمام تعوى في صوت مكتوم كأنها كلبتة  
مسمومة. ما هي إلا دقائق حتى تغلبت مشاعر الأمومة لدى الحاجة  
منيرة فقامت في صعوبة على قدميها واتجهت إلى ابنتها وجلست  
بجوارها واحتضنتها فإنهالت عينيها تذرف بدموع أم حزينة وليست  
أمى تخاف من العار. أخذت تغسل جسد منى بالماء وهي ترى آثار  
أظافر الاوغاد على ساقها والسحجات في أغلب جسدها. البستها  
وأخذتها لتنام في حجرتها تلك الليلة. لم تهناً منى بليلة هادئة  
فكانت تفرغ من نومها كل نصف ساعة وتغمض عينيها مرة  
أخرى عندما تشعر بامها بجانبه كأنها تحت تأثير مخدر قوى.

علمت الحاجة منيرة في هذه الليلة أن من فعل هذه الفعلته هم عمال اللاسلكى الأغرأب بسبب هلوسته منى أثناء نومها فكانت تقول الخيام والسكى كى (اللاسلكى).

بالطبع النوم لم يزور الحاجة منيرة في تلك الليلة. في بادئ الأمر كانت نار الحقد والكره للهؤلاء الأشرار يكاد يذيبها وهاجت حولها أفكار مثل لابد من قتلهم جميعا وأن تشرب من دمائهم فمن الغد عليها أن تبعث إلى أقاربها في المدينة بإضافة إلى ابنيها ليتم لهم الانتقام. ولكن كل هذا تلاشى كالسراب عندما اقترب نور الصبح. وتبدلت أفكارها باخرى بأن منى لن تتزوج فما الفارق بين أنها عذراء أو فقدت عذريتها. المهم أن تلقن منى جيدا بأن لا تخبر أحد مما حدث وخصوصا أخويها، فقد ورثوا طباع أبيهم في الغلظة. وفي آخر النهار عندما غادر منصور البيت كعادته يوميا. دخلت على ابنتها الحجره فوجدتها استعادت بعض من عافيتها فاخذت تردد على مسامع منى بأنها تنسى ما حدث بالأمس لها وأن تكون أكثر حذرا ولا تقترب من أي مكان به ذكور. كانت الكلمات بين اللين والزجر على حسب استيعاب منى. وتفتق ذهن الحاجة منيرة في النهاية على فعل بشع بسبب توترها وقلته حيلتها وجهلها في توجيه ابنتها بأن أحضرت سكينه من المطبخ قد سخنت طرفها على النار ولسعت أعلى فرج منى التي كاد أن يغمى عليها من الألم وعدم استرجاع أنفاسها بسبب الصراخ. فقالت الأم: «لو لمسك أحد تذكرى هذه السكينه حتى لا تتركه يعبث بك».

مرت الأيام واختفت المخاوف وعادت الحياة الهادئة إلى الأم في بيت الأوانجى واستمرت منى في المشى في الطرقات وجمع الأوراق وإن كان ما حدث لها قد ترك أثره على سلوكها من حيث التخوف والحذر وعدم الاقتراب من منطقة اللاسلكى. حتى أتى صباح كانت الحاجة منيرة على المصطبة أمام البيت جالسة كعادتها حتى رأت منى خارجه فنادت عليها فلم اقتربت منى من الأم. تحسست الحاجة منيرة بطن بنتها وفقدت الوعى وسقطت مغشيا عليها. نقلوها إلى الداخل ولا أحد يعلم ماذا حدث. كشف عليها الدكتور سراج فقد أحضره منصور للقرب منزله من بيت الأوانجى. فطمئنهم وأخبرهم أنها وعكة صحية عابرة قد تكون ارهاق. بعد ساعات فتحت عينيها فوجدت نفسها على السرير وحوّلها أحفادها وفاروق وزوجته بهية. فقالت بهية: «لقد أصابنا الفزع من القلق عليك يا أمى». على الرغم من محاولاتها أن تكون كلماتها ناعمة ولكنها باءت بالفشل فانشغلت باستبدال فرش السرير الذي لامس الأرض من ناحيتها. تلفتت الحاجة منيرة برأسها بصعوبة بسبب الدوار الذي ما زال يسيطر عليها وبعد مرور بعض الوقت من الصمت ساءلت عن منى. فأجابت بهية بقدر من الغباء قائلته: «لقد خرجت من الصباح وهل مثلها يدري بما حوله». فادركت بهية مدى امتعاض الحاجة منيرة منها فاستدركت قائلته: «كما أنتى محظوظه يا منى، يا ليتنى لى أمى مثل الحاجة منيرة». عند هذا الحد تدخل فاروق بضيق وهو يخبرهم بأن يتركوا أمه لتستريح وعندما هما بالخروج معهم.

نادت عليه ليبقى بمفرده. فاعادت عليه نفس السؤال بالاستفسار عن مكان منى. فأجاب بشيء من اللامبالاة: «لا اعلم. بالتأكيد تجوب شوارع المدينة مثل الكلاب، ماذا تريد مني؟».

- سوف أخبرك بأمر قد كتمته عنكم ولكن الظاهر ربنا لا يريد أن ينهيه.

- خيرا امى.

قالها فاروق بصوت منخفض متوجس وهو يجلس على الكنبه بجوار سرير امه.

- ليس خيرا، أختك حامل.

جحظت عيناه واندفعت من انفه مقدار هائل من رائحة الأدرنالين كأنه أنفاس محمله برائحة البصل التي كان يشعر بها في الماضى عندما يقتادوه العمال في المدرسة حتى يتم ضربه على قدميه الحافيتين كعقاب من مدرسه. ارتبأكه جعله لا يستطيع أن يتحكم في ردة فعله. ضغط بشدة بكلتا يديه على المرتبة التي يجلس عليها وانفجر قائلاً: «ماذا تقولين؟ أختى من؟ حامل؟ ما هذه التخاريف؟ هل فقدت عقلك عندما وقعت على رأسك؟». صمتت الأم دون أي تعليق وهو يبث غضبه كأنه يظن أن بهذه الكلمات القاسية قد يجعلها تعود إلى صوابها وتخبره أنها لم تقصد أخته منى. وعندما طال صمت الأم. زجرها قائلاً: «لماذا خرستي؟». عند هذا الحد اعتدلت الأم فسحبت جسدها في حزم ظاهر لتنهض قليلاً لتأخذ وضع جالس على السرير وقالت:

«لابد أن تكون هادئاً وتمالك أعصابك حتى نحل المصيبة. نعم أختك حامل ولا نريد فضائح بين الناس». ضحك فاروق باستهزاء وهو ينظر إليها مكرراً كلمة «فضائح». فاستدركت الأم تقول: «لابد أن تسمع بهدوء، تمالك اعصابك أنت شخص مسئول ولك مستقبل».

- أنا ضاع مستقبلي للأبد. عندما قلت أن الدنيا ابتسمت لي وكل الأبواب تفتحت أمامي، ولكن بسبب ابنتك العاهرة رجعت اسير في الوحل وحدي مرة أخرى لأنها لم تستطيع أن تقفل ساقها، أخبريني من ابن الزانية الذي كان يمتعها، لا لا لا تخبرين سوف أعرف، لابد أن القصير كلها تعرفه وأنا فقط المغفل الوحيد الذي لا يعلم من الذي تخلع له سروالها. سوف انتقم، انسى أن لك بنت، جلسنا نضحك على زينات ونحن لا نعلم أن لنا زينات في بيت الأوانجى.

الشرر يتطاير من عينيه التي احمرت موضحة مدى ضغط الدماء التي تتدفق في عروقه الملتهبة ورزاز لعابه يلمس وجه أمه عندما يتحرك ناحيتها. لا يستطيع أن يتوقف عن الحركة في الحجرة. لم يصل في حياته إلى هذا الانفعال أبداً. لمعت عينيه كأنه تذكر شيء فنظر إلى أمه قائلاً: «كيف علمت أنها حامل؟». وقبل أن تجيب الأم أكمل: «آه أكيد كنت تعلمين بما تفعل هذه القدرة وتتستريين عليها».

- اسمع يا فاروق لابد أن تنصت جيداً الى.

قالتها بنبرة عنيفة وأكملت بعد ذلك قائلة: «أشعر بمدى الألم ولكن كل ما تقوله الآن لن يفيدك بشيء ويزيد الأمور تعقيدا».

- تعقيدا أم تبسيطا سوف أقتلها، الدين والشرع والعرف يقران بذلك، كيف أرفع رأسي مرة أخرى بين الناس؟.

- ثم تدخل السجن وتترك كل العز والمستقبل خلفك. يا ولدي بلادنا صعبة لو أنت عايش فيها حردون مال فما بالك إذا سكنت سجونها.

هذه الكلمات كانت مثل ماء مثلج تساقط على رأسه فجعلته يهدئ قليلا

- كيف أحافظ على صورتى وأنا قدرى أصبح مربوطا بكم، أخ صايح واخت عاهرة واب الله يججمه.

- يا فاروق لا بد أن تحافظ على مالك الذي ورثته عن أبوك. ما زالت الحاجة منيرة تصب الماء ليسكن وعندما رأت عينه بدأت تروق بعض الشيء كماء بعد عكار، أكملت قائلة: «اجلس يا ولدي واسمع القصة كامله وأنا واثقه أن هناك حلا سوف يرضيك». جلس فاروق مستسلم فقد أصابت الحاجة بتذكيره بالأموال. وبدأت تقص عليه كيف عرفت أن منى حامل بأنها أنت تبكى ومزقت الثياب وكيف اعتقدت في البدء أن هناك من ضربها وبعد ذلك اكتشفت أن أكثر من شخص تعدوا عليها لأنها شاهدت آثار أظافرهم على جسدها

وهم عمال اللاسلكى الاغراب الذين غادروا من شهرين، لأنها كانت تهلوس بهم في تلك الليلة. وفي النهاية قالت له: «يا ولدى عارنا لا يعلمه أحد، من اغتصب أختك هم الاغراب وفعلوا ذلك قبل مغادرتهم بيوم وأنا تأكدت من ذلك بسؤالى عنهم بعد يوم من الحادثة. لذلك وجب علينا التروى والتفكير السليم».

«يا ليتهم كانوا قتلوها لكان ذلك اشرف لنا» قالها ثم ترك الحجرة وهو يتمتم بالسباب ويسرع في خطواته. فوجد أخوه منصور أمامه في الصالة مظهره يدل على قدومه الآن من الخارج. فتوقف أمامه وقال بسخرية: «أهل وسهلا بالاخ المبجل لماذا أتيت مبكرا ما زال هناك وقت لتجلس قليلا في الخارج مع أصدقائك المهمين». كادت تنفجر من منصور ضحكة عالية بسبب سخرية فاروق مع مفعول الحشيش الذي تناوله في الخارج ولكنه تمالك نفسه واكتفى بابتسامة أخفاها بالنظر إلى أسفل. تركه فاروق واتجه إلى شقته إلى أعلى. لم يحس بأنه لمح أحد من بناته فى شقته العلوية أو شعر بوجود بهية في غرفته عندما اتجه صوب الدولاب ليخرج منه علبة ألومنيوم صغيرة، في حجم علبة الكبريت ثم فتحها لتفوح منها رائحة الأفيون النفاذة ويغمس بها دبوس ابرة ليكور به قطعة كحبة الأرز فيضعها في فهمه بين شفته السفلى واللثة. فوصل إلى أذنيه تأفف بهية وهو يرجع العلبة المعدنية في مكانها. فيلتفت إليها في غضب ولكن زوجته البلهاء لم تنتبه إلى ما يوحى به وجهه. فاقترب منها

وهي جالسة على مقعد خشبي في احد اركان الحجره، مشغولة بتخييط قطعة قماش قصيرة تبدو أنها سروال لبنتها الصغرى قائلاً: «ما بك يا امرأة؟».

فانطلقت معلقه: «متى ربنا يتوب عليك من هذا القرف الذي تضعه في فمك». لم تكمل نطق كلمة من جملة أرادت أن تضيفها إلا وكانت لطمة قوية على خدها الأيسر تجعلها تصرخ وتطرح على الأرض، فيهرع بناته الثلاث إلى باب الغرفة المفتوح فيروا أنهم وهي على الأرض فيبكون ولكن دون أن يدخلوا فيلتفت إليهم أبوهم في غضب ويتجه صوب الباب ليغلقه بشدة حتى كاد أن ينخلع وهو يحدث نفسه بصوت عالى «أنا أخبرتها ألف مرة هذه المجنونة ألا تتدخل في ما لا يعينها. هل تدفع لي من جيب أبيها صاحب الاطيان». قالها بتهكم كأنسان فقد عقله من أثر مصيبة حلت عليه فانفك عقل عقال عقله. ورجع إلى زوجته التي قامت واقفة لتستعد إلى الرد المعتاد وتطلق لسانها إلى السب واللعنات لترد اعتبارها ولكن فاروق أشار بأصبعه بعلامة السكوت مهددا ثم قال بانفعال واضح: «ألا تشعرين؟ أم مريضة ومعى مشاكل كثيرة وفي نفس الوقت تريدين أن ترفعى الآن صوتك على زوجك الذي لو كان هناك عدل لكنت تصلين إلى الله كل يوم على النعمة التي جعلك فيها بفضل هذا الرجل المغفل- هو يشير إلى نفسه- أنا لا أعلم كيف تزوجت مثلك؟. أنا لا أريد أن تقع عينى عليك في هذه الأيام، اجمع ملابسك واذهب إلى بيت أبوك». وعلا صوته مناديا منصور وهو يغادر

الغرفة فقابله أخوه مسرعا على السلالم ليلبى نداء أخوه الكبير فسمعته بهيئة يقول لمنصور «حضر السيارة وخذ المرأة التي فوق إلى قفط». لم يفهم منصور ماذا يريد فاروق ولكن أجاب بنعم. وجعل الأمر على أنه خلاف بين الأزواج سريعا ما ينتهى. تركها في حيرة قاتلة لا تعلم لماذا كل هذا. زال ألم ضربة الوجه وبقيت صدمة الطرد من البيت بطعم الذل. «ماذا فعلت أليس هو نفس الرجل الذي كان ينظر إليها عندما تكيل له السباب واللعنات ولا يتكلم أو حتى يرد عليه بأي كلمة. لماذا يبعدها عن بيتها؟ ما هذه المصيبة التي حلت عليها. ترجع إلى بيت أبيها، إلى الفقر وتتبدل نظرات زوجات أخواتها من الحسد إلى الشماتة. هل يريد أن يطلقها؟ لماذا؟ حتى يتزوج من أخرى وما الذي يمنعه إذا أراد. فبعد أن ظنت أنه كخاتم في اصبعها وأنه لا يهوى النساء واكتفى بحب المال والجاه. أنها المدينة الملعونة الغردقة التي فتحت عينيه على أشياء أخرى. لال لن استسلم. أنا هنا ولن اترك مكانى».

فقامت مفزوعة من ضغط ما يدور داخلها واتجهت إلى أسفل نحو غرفة الحاجة منيرة وهي تذرِف الدموع وألقت بنفسها على طرف السرير التي ترقد عليه الحاجة منيرة واجهشت بالبكاء وهي تقول: «أرايت يا أمى فاروق يطردنا أنا وبناتى من البيت؟!».

أيقنت الحاجة منيرة أن فاروق بدأ يتفهم الوضع وأنه في الطريق الصحيح لحل المشكلة. نعم أن وجود بهيئة في البيت غير أمن. فهي غير مؤتمنة ولم ترتاح لها الحاجة منيرة من يوم زواجها

من فاروق ولكن حب السلام المتجذر عندها جعلها تعاملها كأنها ابنتها. فلمست رأس بهية التي ما زالت تبكى وتخبي وجهها في فرش السرير وهي تقول: «هل يصح أن تصدقني أي شيء يقوله فاروق في لحظة غضب. اهدئي، ما دمت أنا موجوده على ظهر الدنيا لا يستطيع أحد أن يهينك». ارتاحت بهية من وقع كلمات الحاجة منيرة فهي تعلم مدى قدرتها على تسير الأمور في هذا البيت ولم تعقب على كلماتها إلا بالصمت كطفل تعب من البكاء. فمسحت دموعها وانفها الذي ساب تماما بكم جلبابها فأكملت الحاجة منيرة قائلة: «وأنت ماذا فعلتي لتجعليه ينفعل لهذه الدرجة؟». وقبل أن تنطق بهية بالنفى كان فاروق في الغرفة فبالغ في درجة انفعاله من مشاهدته لبهية على طرف السرير فعلا صوته وهو ينادى على منصور للمرة الثانية حتى أتى فأشار على بهية قائلاً: «ألم أقل لك أن تأخذها إلى قفط». فانفجرت زوجته في النحيب فقالت الحاجة منيرة: «هذا لا يليق يا فاروق». فأسرع فاروق قائلاً: «عليّ الطلاق من بيتي لا تغرب عليك الشمس وأنت في القصير يا بهية». وخرج مندفعاً ومنصور لا يعلم ماذا حدث والام تردد قائلة: «أنها عين وصابتنا». وبعد دقائق مما حدث. قالت الحاجة منيرة موجهها كلامها إلى بهية التي لم تتوقف عن البكاء: «لا بد أن ننفذ كلامه لأنه أقسم بالطلاق وأنت عارفه لا يصح أن نخالف قسمه. أنت تذهب الآن إلى بيت أبيك معزز مكرمه كأنك تزورهم وما هي إلا أيام وأكون قد أرجعت لفاروق عقله ولا تقلقى فأنا أمانك يا ابنتي والبيوت كلها بها عكوسات

ولكن لا أعلم هل اغضبتيه؟». لم تترك الحاجة منيرة بهية للإجابة وأكملت قائلة: «والله العظيم مهما حدث فلن يستطيع أحد أن يجعلك تتركين بيتك، وهذا قسم أحاسب عليه للأبد أمام الله». ضمتها بهية بقوة بين اذرعها لإحساسها بصدق كلماتها وأردفت الحاجة منيرة: «أسرعى يا بهية. حضرى نفسك وبناتك للسفر واحملى معك كل ما تستطيع من أرز وسكر ودقيق حتى يعلموا أهلك أنك سيدة أمرك في بيتك ولا تشتكى لهم، كلها أيام وسوف يأتي ليرجعك بنفسه».

ما هي إلا ساعات وكانت بهية والبنات في الطريق إلى قفط مودعين القصير في حزن طغى عليهم إلا منصور الجالس على عجلة القيادة تملكته الحيرة ولكنه سرى ما تخلص من شغل ذهنه بهذه الخلافات، التي لا يريد أن تأخذ حيزا من تفكيره وتحسس قطعة الحشيش التي في جيبه بجوار محفظة النقود الممتلئ. وأخذ يسرح بخياله ماذا سوف يفعل بعد أن يترك زوجته أخيه في قفط. فلديه في قنا أصدقاء كثير سيفرحون بقدمه ويسهر معهم وعن طريقهم سوف ينام في حضن جميلة من ساقطات المدينة الكبيرة.

\*\*\*\*

سمعت من حجرتها صوت أقدام في الصالة فعلمت أنه فاروق لا أحد في البيت غيره بعد أن غادروا الباقون إلى قفط. تحاملت على نفسها وقامت متجه صوب الصالة. فوجدته يذرع الصالة الكبيرة

سيرا مضطربا أشد الاضطراب. جلست على أقرب كنبه ووجدتها بعد خروجها من الغرفة وما زالت تسلط عليه انظارها كأنها تراقبه. أخذت تتاوه قليلا من أثر المرض بصوت مسموع كأنها تستعطفه. وعندما استمر في صمته. قالت: «أنه من الصواب أنك أبعد زوجتك وبناتك عن البيت هذه الفترة». لما يعرھا انتباھا كأنه لم يسمعھا واستمر في تجهمه وخطواته الحثيثة حتى تذكر كوب الشاي المذاب به قطعة الأفيون الذي وضعه على المنضدة فجلس ليرتشف منه، إلى أن قالت أمه لا بد عليك أن تخبر منصور عندما يأتي. انتفض فاروق من مكانه واقترب من أمه وعينيه تتطاير منها الشرر وانحنى لكي يكون وجهه مقابل لأمه الجالسة قائلا: «أنا لا أعلم إلى أين سوف يرسلنا هذا- مشيرا إلى رأس الحاجة منيرة- لا بد أن تعلمي جيدا أن بنتك مصيرها هو القتل، أنا معى بنات، من سوف يتزوجهم». وعندها أجهد بالبكاء وعندما أرادت أن تلمس كتفه، أشاح عنها واتجه بعيدا يغالب البكاء حتى يسيطر عليه. فهذه ليست من عاداته ولكن الألم نحره، وعندما تمالك نفسه رجع ليكمل حديثه بالقرب منها والدموع تدرف بغزارة ولكن لا يهتم أو بالأدق لا يشعر بها قائلا: «أنا انتھينا وليس لنا عيش في هذه البلدة بعد الآن، كيف أرفع رأسى بين الناس؟».

كان صادقا في كل ما يقول. فقد توحدت أمه معه في مخاوفه، وتعلم أشد العلم ما يقصد من العار الذي قد يلحق بهم إذا

علم الناس وعندما همت بالرد عليه، رفض الاستماع قبل أن تنطق بكلمة كأنه يعرف ماذا سوف تخبره فقال: «أنتم القصيرية أهل لين ونعومه ولا تعرفون النخوة مثلكم مثل الفلاحين». ارتاح شيء داخله بأنه أساء إليها وإلى القصيرية. وعندما ردت عليه الحاجة منيرة قائلة: «لن اتوقف أمام ما تقول، فأنا أعلم جيدا مدى الهم الذي أصابنا. لذلك وجب علينا أن نحافظ على هذا البيت والا سوف نغرق كلنا ولن ينجو أحد، اترك طيش الشباب وتعلقك بفكرة القتل التي سوف تجلب علينا الخراب، ولا تنسى أن منى هي ابنتى ولو حدث لها مكروه فهذا يؤذيني قبلها حتى ترتاح وتعيش طول عمرك مفقودا في السجون أو هربانا، وبناتك سوف يشردن ولن يرحمهن أحد، فالعقل ينصحننا أن نكون أشداء بالحكمة». ارتفع صوت أذان المغرب فأكملت الحاجة: «والله ربنا معانا يا ولدى وعمره ما تركنا وأنت رجل خير ودائما تسعى في طريق الله فهذا ابتلاء من عنده للصالحين». عاد ليرتشف مرة أخرى من كوب الشاي الذي برد ولكن الأفيون لا يعنيه درجات حرارة المشروب فهو قوى في ذاته. وما هي إلا دقائق بعد انتهاء الأذان حتى سمعا طرقات على الباب فقامت الحاجة منيرة مسرعة لتفتح الباب فهي تعلم من الطارق. أحاطت بيدها وسط ابنتها ودفعتها برفق لتجتاز الصالة بسرعة، ولكن منى انسلت من أمها حتى تجعلها تشاهد ما أحضرت من خبز وبعض الأوراق الملونة. لم تنتبه إلى فاروق الذي أتى مندفا كأنه تمساح أخذ قراره بالهجوم على شاه صغيره تشرب غير منتبها على ضفة النهر فهمت الأم بأن تبعده

ولكن كان أسرع منها إلى منى فجذبها من ذراعها إليه، وكال لها الضربات على وجهها وهي من شدة المفاجأة تأخرت في حماية الوجه وهي تصرخ في هلع. ضاع صوت الأم المطالب بالتوقف بين علو الصراخ وصوت الاكف، وعندما تكومت منى على الأرض منهاره أخذ يدفعها بقدمه ويركلها في بطنها وصعد على جسدها بكل حمله حتى انزلقت إحدى قدميه فهوى على ظهره مرتطما بشدة على الأرض، فزحفت منى إلى تحت الكنبه وعندما قام ليسحبها مرة أخرى ولكن التعب قد أنهكه تماما وشعر بخفقان قلبه الذي لم يتدفق منه الدم بمثل هذا القوة منذ سنين طويلة، وأخذ يبلع ريقه بصعوبة فاستند على الكنبه التي اختبأت تحتها منى ونهض ليجلس بعيدا عنها وهو يجرح جسده البدين. أخرجت الأم ابنتها بعد توسلات كثيرة حتى تطمئن منى إليها. كانت تنزف من انفها وفمها وقد كسر لها ناب الذي جرح اصبع الخنصر لفاروق قبل أن يترك مكانه في فم أخته. كان يشعر بأن رأسه تغلى من شدة الاضطراب فمسكها بكفيه حتى تهدئ ليفكر ليحل مشكلاته التي يعتقد أنها هزمته ولن يجد لها حل. فأخذت تتنازع داخله حلولة وأفكاره السيئة. فتارة يصبر نفسه أن المهم هو ألا يعلم أحد بهذه المصيبة، هنا الناس لو كانوا يعلمون بها لاستعذبوا إذلاله والتلميح له مثل ما اعتادوا على الهمس أمامه أو من خلفه على ماله الذي ورثه عن أبيه. فحدث نفسه بصوت خافت عندما استحسّن ما هداه إليه تفكيره قائلا: «نعم نعم هم لا يعرفون أمر حملها، وهذا ما سوف تأكده الأيام القليلة القادمة،

المهم هو المال والسلطة وأنا معى الأول وعلى اعتبار الثانية لن أحطم ما بنيته ومن الآن سوف أصبح أنا سيد المال، حتى أمى سوف تقنع مما ارميه لها منه وسوف تكتفى بأني طاوعتها في أمر ابنتها المخبولة».

صمت قليلا. فنطقه لكلمة ابنتها جعلته يحول دفعة تفكيره إلى تذكره كيف استمتع هؤلاء الأعراب بأخته وكيف نهش كل واحد فيها ليتلذذ ثم يتركها للآخر. «أه أه آه يا رأسى» قالها وهو يصرخ بصوت مكلوم منخفض وأكمل في صمت حديثه كأنه من شخص آخر يحدثه قائلا: «ومن يدريك أن أختك لم تفعل ذلك وهي مستعذبه وكانت تتأوه من فرط النشوة أمامهم، ولماذا صدقت أيها المغفل أنهم اعتدوا عليها، من الممكن، بل الأكيد أنها كانت مشهورة بين العمال والمشردين ليطفئوا لهيبهم ويعطوا ثمن ذلك من خبز ومجلات، اقتلها يا جبان حتى تستريح. هل انت صادق بأنك تريد أن تقتلها؟، كيف تستطيع أن تنفذ هذا؟. بالسكين أم بالسلاح النارى، لا لالن أستطيع ذلك، بل استأجر من يقوم بذلك بدلا عنى، وبعدها أصبح طول عمرى اصبعى تحت ضرسه كما يقولون، وماذا سوف استفيد من قتلها، فالعار هو العار، لا تصدق يا فاروق من قالوا أنهم غسلوا عارهم بعد القتل، فاهل زينات قتلوها لأن أمرها كشف ولا طريقة لارجاعه إلى الستر مرة أخرى، مثل السهم الذي ترك قوسه، أما العار فقد لطخوا به للأبد حتى بعد ما اختفت زينات تحت الأرض في الصحراء، والشرطة اغمضت عينيها بسبب أن القاتل غير معروف

ولن يبلغ عن اختفاء زينات أحد من أهلها، أما أنا فأهلى في سوهاج لا أعلم عنهم شيئاً منذ أن ولدت وجفاهم أبي، فكان لا يريد أحداً منهم حتى نسيناهم ونسوناً. وعندما أذهب إليهم الآن للشملى، أتى لهم بالعار، فبتأكيد سوف يغلقوا في وجهى أبوابهم ويطلبون أن أغادرهم للأبد. إذن أرجع إلى البداية مرة أخرى. على أن أتأكد من عدم معرفة أحد بهذه المصيبة، فقد تكون أمى صادقة فيما قالت أنهم عمال اللاسلكى الاغراب». أفاق على صوت أمه التي تجر قدميها بجهد قادمة نحوه وهي تقول: «استرح الآن بعد أن شوهدت وجهها الحمد لله أنك لم تكسر ساق أو ذراع، يا ولدى أختك مثل البهيمة لا تفهم شيء لابد أن نسايسها، أكنت تسر لو هربت وأنت تضربها وبعدها تسقط الطفل في الشارع وينفضح أمرك».

صعق فاروق من تلك الكلمات وسال نفسه لماذا لم يفكر في هذا من قبل، الغضب أعماه وشل تفكيره. واستطردت الأم وهي تريح جسدها المتعب قائلة: «إنى حبستها في الغرفة الخلفية بجوار الحوش حتى وأن فعلت ضجيج لن يسمعها أحد ومن اليوم لن تخرج إلى الشارع حتى نتخلص مما في بطنها».

أخذ ينظر إلى أمه وهو تائه مما يسمع واعتلت نبرة صوته هدوء خافت وهو يقول: «كيف يمكننا أن نجعلها تسقط مما في احشائها؟».

هذا سؤال مهم بالطبع. لن نستقدم الداية تركية لهذا العمل

وأنا لم أفعل ذلك من قبل وليست عندي أدنى فكرة لكيفية عمل، لذلك ألهمنى الله حلا وأنا أساعد منى على الاستحمام.

توقفت عن الكلام وهي تنظر إليه وتتشاءب تتأوبا كاذبا مثل الذي يكذب أو سوف يلقى كلمات صعبة على المتلقى ويستحى منها وعندما وجدت نفسها قد اطالت قالت: «الحل هو سيدة، سيدة الحلبية». نظر إليها فاروق بغضب وكان يستمع إلى ضخ الدماء في عروقه كأنها ماء في خراطيم تلف جميع جسمه ولم يرد عليها ولكن تعبير وجهه ابلغ من الكلمات وقال محدثا نفسه «وجدت الحل في الحمام ونعم الوحي، الآن أيقنت أن الشياطين والمردة تحاربني» فقالت الأم: «أعلم مدى كرهك لهذه المرأة وكيف أنك تبغضها ولكنها امرأة طيبة القلب وأنا أعرفها جيدا منذ أن أتت إلى القصير، دخلت كل البيوت ولم نسمع منها أن اغتابت أحد، حتى وإن كان يستحق ذلك فهي أمينة على أسرار البيوت، وما تأخذه عليها هو أنها تضرب الودع وهذا تفعله فقط على سبيل التسلية حتى تترزق بقرشين أو تجد من يطعمها.

- سوف تتسلى في نار جهنم يوم القيامة. قالها باستهزاء واضح.
- كلامك صحيح، ولكن أليس لها توبة. نأخذها ونجعلها تطلع عن هذا الفعل نهائيا وتصبح تحت نظرنا، نجعلها تسكن في الغرفة الصغيرة في البيت وتأكل وتشرب وتشعر بالشبع وتتوقف عن اللف بين البيوت، وتخدم وترعى أختك حتى تستطيع أن تخلصنا من عار الذي لحق بنا، وسوف

تصبح مدينة بذلك لنا طول عمرها ولن تستطيع أن تتكلم بأي شيء حتى لا تفقد ما سوف تحصل عليه وأن حاولت الغدر بنا مستقبلا تستطيع أن تتخلص منها بسهولة ونطردها خارج المدينة، من يصدق حليبة ويتهم أبناء الأصول.

وعندما شعرت بمردود حديثها عليه أكملت قائلة: «وسوف يسعد صديقك الشيخ هارون من أنك استطعت أن تخلص البلد من شر عظيم، وهو الدجل، وهذه عادتك يا ولدى في فعل الخير، ف دائما يذكر اسمك مع أي عمل فيه صلاح للناس».

سرح فاروق بذهنه قليلا وتخيل الشيخ هارون يثنى عليه بهذا العمل فلقد انتشل سيدة الحليبة من قاع النار. وعندما اطال في الصمت قالت الأم: «ما رايك فيما اقترحتة؟».

- وهل تظنين أنها سوف توافق؟

قالها بصوت منكسر وهو مستسلم تماما.

- بطبع وهل لمثلها أن ترفض. اصبر عليّ وسوف ترى بنفسك كيف ستقبل يديك على النعمة التي سوف تحل عليها.

- لا أريد تقبيلا من أحد، المهم أن تتوب عن الرجس الذي اعتادت عليه. ولكن عندي طلب، ألا تخبرينها بأي شيء حتى أقابلها بنفسى، ارجوك يا حجة، قد سمعت للنصيحتك فلا تخذلني في هذا الأمر، كل ما عليك أن تبعثي إليها أن تكون من باكرفي الصباح هنا، أقوم الآن أتوضأ وأصلى المغرب الذي

فاتنى في المسجد وأخرج لصلاة العشاء.

- ربنا يهديك يا ولدى ويريح قلبك ويبعد عنك أولاد الحرام.

قام فاروق بمشقة على الرغم من إحساسه بالأفيون وبعد أن أنهى صلاة العشاء في المسجد خرج مسرعا إلى المحال ونفث عن جميع ما ثار في قلبه من غضب في العمال بالمحال حتى شعر بقليل من الراحة وأنه لا بد أن يستمر قويا مهاجا لا يخاف ما يدور في سرائر النفوس، أرسل في طلب أسعد طابية فاتى يهرول كأنه سمع أن عزيز له قد مات أمام المحال. كان معه الدفاتر المقيد بها أسماء العمال الذين ذهبوا إلى الغردقة للعمل في بناء الفندق. فقابله الحج فاروق بابتسامة حانية وقال له: «لا أريد أي دفاتر ولكن طلبتك للسمر لتحكى لي عن أحوال العمال». لا يعلم أحد بمقدار السعادة التي غرق فيها أسعد طابية، وما هذا الحظ الذي منحه له الأقدار، فاروق بك يبعث إليه ليسامره. فجلس أمامه على الكرسي الخشبي يحكى له بعض النوادر والحكايات عن بعض طرائف العمال حتى خفت حركة البيع فأمر الحاج فاروق عمال المحال أن ينهى عملهم ويغادروا ويتركوا أمر الغلق لاسعد. وعندما انفرد فاروق باسعد سأله بطريقة غير مباشرة عن ماكينات اللحم الكهربائية التي كان يستعملها العمال في الساري الضخم التابع للاسلكى لأنه يحتاج مثلها في الغردقة ويريد منه أن يسألهم هل ممكن أن يشتري هذه الماكينات منهم بعد الانتهاء. وكاد قلب فاروق أن يخرج من صدره من شدة

الانفعال والأنفاس التي تذبجه أثناء خروجها الصعب. فتأسف أسعد طابية أشد الأسف وظهر عليه الصدق فيما يقول بأن الوقت قد فات وأن هؤلاء العمال قد غادروا وأنهم عمال مؤقتون وليسوا تابعين إلى شركة أو قطاع حكومي وأنه يعرفهم كلهم وأخذ يشكر فيهم بأنهم كانوا نعمة الأصدقاء وأن أغلبهم من الصعيد. كان يتمعن فيه فاروق جيدا بنظرات فاحصة فلم يجد في قوله أي ارتباك أو خبث يوضح معرفته بما حدث لمنى والا لكان ظهر عليه أي بادره من ارتباك أو لمعة عين زائغة. حلت نسيمات السرور على فاروق بعد انتهاء حديثه المطول مع أسعد. فطالما أن طابية لا يعرف شيئا، فإذن المدينة كلها لا تعلم فأمثال أسعد كالضباع تقتاد من أكل الجيف. نام ليلته وهو يسبح في أحلام مزعجة تحبس عنه الهواء أحيانا وبالرغم من النوم المتقطع لم يستقيظ مبكرا وقام وجسده يؤلمه بشدة في ذراعيه وظهره بعد أن زال مفعول الايفون. وجد سيدة الحلبية تفترش الأرض وأمه على الكنب في صحن المنزل في الأسفل عندما نزل من الطابق الأعلى. سلم عليهم وجلس وأمه تعلوها ابتسامت رضا وسيدة تنظر في حجرها صامته وفاروق يتفحص أمه بنظرات ذات مخزى فقالت الأم: «أنا لم أقل لسيدة بما نريد منها ولكن أخبرتها أنك تريدها في أمر خير لها، أليس كذلك يا سيدة؟». فأومت سيدة برأسها بالإيجاب. دعك فاروق عينه اليمنة بظهر كفه ويحاول أن يجد مدخل للحديث ولكنه شعر بضيق ينتابه وكأنه في حضرة من هو ارفع منه وليس أمام هذه المرأة البائسة فقال: «إن شاء

الله كل خير». وقام مكتفيا بتلك الكلمات واتجه إلى الخارج وظل بضعة دقائق ثم عاد إليهن ليجلس مجددا. أحس أنه قد امتلك زمام نفسه وبدأ الحديث موجهًا كلماته إلى سيدة قائلا: «أنت تعلمين جيدا مكانتي في القصير فهذا أمر لا يخفى على أحد حتى ولو كان ليست له علاقة بي، وقد شاء القدر أن نمر بمحنة ويمتحننا الله ليرى كيف سوف نرضى بقضائه، قد ابتلينا بأخت فقدت عقلها وقد اعتبرنا هذا هبة من الله لنا ورضينا بقسمته. ولكن الشياطين أرادوا لنا الشر، فتما الاعتداء على أختي من قبل أشرار واستغلوا سذاجتها وخلوروحها من الخبث». توقف فاروق برهة ليرتب أفكاره ولينظر إلى سيدة التي ظهر جليا الانزعاج على وجهها وهي تنصت باهتمام بالغ له ولم تقاطعه بأي تعليق فاستطرد قائلا: «وقد ظهرت الثمرة الخبيثة في احشاء أختي المسكينة ليلة أمسى وقد اتفقت أنا وأمي أن تشاركينا أحزاننا فقد وصدفتك أُمى بأعذب الصفات، فمن اليوم سوف تمكثين معنا وترافقي أُمى فقد أثرت فيها الصدمة وتقومى باعمال البيت بدلا منها، والباقي سوف تخبرك به الحجة».

و حين هم بالمغادرة تذكر شيء فاستدرك قائلا: «وموضوع الودع ليس فيه نقاش ويجب أن يعلم القاصى والدانى أنك تركت فيه بغير رجعه او أسف». تركهن فانفجرت الحاجة منيرة في البكاء وشاركتها بصدق سيدة لإحساسها بفجاعة المصيبة وبعد أن تركا للمشاعرهن العنان واستحضرت كلا منهن ذكريات الماضى السيء. أوقفهن طرقات الباب فتولت سيدة مهام

عملها بأن ذهبت لترى من القادم، لتتوافد النساء لزيارة الحاجة منيرة بعد أن انتشر خبر وقوعها أمام البيت مغشى عليها. شاهدت سيدة نظرات الاستغراب والحسد من بعض النساء عندما أخبرتتهن الحاجة منيرة أن سيدة سوف تخدم في البيت وتقيم فيه لأن زوجة فاروق غادرت إلى الغردقة فزوجها يريد ما معه. لم يثر حافظة سيدة استخدام مفردات مثل خادمة في البيت بل على العكس. ولكن ما قد أزعجها هو إشارة بعض الخبيثات من العجائز إلى الحاجة بأن كان الأصح أن تجد صغيرة في السن حتى تستطيع الخدمة في هذا البيت الواسع.

الجميع يناقش أمر من أمور سيدة إلهي ليس من أمرها شيء. لم يأخذ رأى سيدة الحلبيّة في الاعتبار ولم يستفهم هل وافقت أم لا. حتى النسبة الضئيلة من الحيرة التي كانت داخل فاروق لتقبلها العمل من عدمه قد زالت مع بداية حديثه معها حتى أنه لأول مرة يشعر بأن أخته أعلى شأنًا منها. فأمثال سيدة كثر في هذه البلاد فمجرد النظر إلى سطوة وجبروت الزمان عليهم يجعلك تشعر أنهم نمل صغير ضعيف احتوى تحت بقعة طفل دائرية تكونت بعد أن جفت الأرض، ويعلموا تمامًا أنها لن تحميهم لوقت طويل فحياتهم في أي لحظة قد تنتهي.

\*\*\*\*

ذهب فاروق للصلاة الظهر في الجامع الكبير ولازال العبوس والقمامة تعلو وجه معظم الوقت كريح سموم تطوف حوله هو

فقط في أول الشتاء. وشعر أن الناس كلهم سعداء إلا هو. وأحيانا لا يقوى على النظر في أعين من حوله ظانا أنهم يعلمون بفاجعته ويؤول أي كلمة تخرج من فم مشترى في المحال أنه يقصده هو. ضاقت به الدنيا وانخلع عنه رداء الغرور وغلظة المشاعر لكل من امعن النظر فيه في هذا الصباح. ارتاح قليلا عندما لمس الماء جسده وهو يتوضأ للصلاة. صلى خلف صديقه الشيخ هارون حتى انتهت الصلاة ولا يتذكر أي شيء من حركة أو قول قام به. اتجه إلى الورا قليلا على قدميه ولكنه يشعر أنه يزحف حتى جلس بجوار عمود من اعمدة الجامع ومد رجليه وهو ينظر إلى جمال وصفاء لباسه كأنه سوف يحرم من هذا النعيم قريبا واسند ظهره على عمود واغمض عينيه مستسلما للهواء البارد لعله يلطف لهيبه وطاف ذهنه في القديم والحديث حتى سمع من يقول بجواره «إذكر الله» وهو ينغزه في ركبته، ففتح عينه وهو يعلم من صاحب الصوت وابتسم بمشقة قائلا: «ونعم بالله يا مولانا». وتنفس بعمق فشعر الشيخ هارون بالضيق الذي يملأ صدر صاحبه وأنه أول مرة يراه بهذا الغم والكم من الحزن فقال: «ما بك يا حج فاروق؟ لم أرك من قبل وأنت على هذه الحال؟».

- ضيق وهم مثل الجبال فوق ظهري ولا أستطيع النوم وأشعر أن الدنيا قد ضاقت بي وليس لي معين.
- وهل يصح ذلك يا حج فاروق. ماذا تركت للناس البعيدة عن ربنا، ربنا موجود وهو نعمة المعين. أنا وأنت تحاببنا في الله،

اثنان يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله، اثنان تحابا في الله. يبقى لازم تبوح للصديقك، وتخبرني بهمك حتى احمله معك. نظر إليه فاروق نظرة حائر وحدثته نفسه قائلاً: «كيف أخبرك بما حدث، الموت عندي أهون واطيب للنفس على أن أقوال ماذا حل بي، نعم أريدك معي ولكن دون أن تعرف».

فنطق قائلاً:

- ادع لي يا شيخ هارون.
- يعلم الله أنى دائما ادعوك واذكرك بالخير بينى وبين ربي.
- فلمح الشيخ هارون عين فاروق التي ما زالت على حيرتها تخبره أن الأمر صعب على البوح فاردف قائلاً: «ألا تعتبرني صديقك».
- أنت أكثر من أخی. والله العظيم أنت عندي اغلى من منصور أخی. ولكن الموضوع صعب الشرح، هو عبارة عن نكد واحساس بالضيق وأصبحت أخاف الناس. لدرجة أنني فكرت أن أترك المدينة وأهاجر.
- كل هذا فجأة، منذ متى حدث ذلك؟
- واكتست كلمات الشيخ هارون بالجديّة كأنه توصل إلى شيء ما.
- من صباح أمس، حتى أنني أقسمت يمين الطلاق على زوجتي بأن تترك البيت وارسلتها هي والبنات إلى أهلها في قفط.

- لا إله إلا الله.

قالها الشيخ هارون بصوت مرتفع قليلا وهو منزعج بشدة ولملم رداءه وأعاد هيئة جلوسه واقترب أكثر من فاروق كأنه قد أتى الآن. وبعد برهة أكمل حديثه بصوت خافت ببطء وهو يضغط على كل كلمة أثناء نطقها كمن يعلم ببواطن الأمور قائلا: «كل ما قد أخبرتني به يا حاج فاروق لم يحدث من ليلة أمس مثل ما تقول ولكنه وصل إليك أمس، الموضوع أقدم من ذلك». صمت الشيخ هارون للبرهة وهو محمل بالأسى.

اتسعت حدقتي فاروق في فزع وهو ينظر إلى الشيخ هارون، وأحس بالضياح كأنه مقيد وتم اللقاء في بئر سحيق وما عليه إلا انتظار لحظة الاصطدام حتى يموت، وبالرغم من بشاعة النهاية المحتومة إلا أنها أخف قسوة من طول المسافة في الهبوط إلى الهاوية، لحظات انتظار القتل أشد وطأة من لحظة الموت. دارت في نفسه الهواجس. «هل يعلم الشيخ هارون بالفضيحة. أه لقد انتهيت. كل القصير تلوك في سيرتك وسيرة أختك المومس». تبلبل جبينه بالعرق ولم يؤثر فيه الهواء البارد الذي يملأ الجامع الكبير. وتذكر أنه لم يكن ينام الليالي بسبب مال أبيه وكيف يعلم الجميع مصدره حتى أتى الصديق المفوه وأثر فيهم بكلمات الله. أنه لا ذنب له وكيف أصبح قويا مع الوقت ليستطيع أن يضع أصبعه في أعين الناس. «ولكن ماذا أنت فاعل يا شيخ هارون في هذه المصيبة الجديدة، هل لها وصفة في الكتاب والسنة، وطالما

المحت أنها قديمة إذن قد تكون بدأت الحل، ولكنك أخفيت معرفتك حتى لا يمسنى الحرج». وتسارعت الكلمات في نفسه كأنه أصابه الصرع. «لابد أن أتذكر جميع كلماتك في خطب الجمعة التي حضرتها معك. أه كنت تساعدني وأنا غفلان عن مصيبتى». فانتفض فاروق مفرزوعا على أثر اصطدام ضلفتين شباك خشبي كبير مكسور المقبض بفعل الهواء. فثبته الشيخ هارون بيده على ساقه الممدوده قائلا: «لا تنزعج، المؤمن ثابت، يا حج فاروق سوف اسالك بعض الاسئلة وارجو أن تجيب على بدقة». فتفحصه فاروق في شيء من الضيق ولكن لا مجال للرفض، فهز برأسه هزة خفيفة تعنى اسأل.

- أنت طبعاً تصلى معنا وقت بوقت وربنا محببك في صلاة الجماعة ولكن ارجو منك أن تخبرني عن كيفية الوضوء والاعتسال من الجنابة.

استغرب فاروق من هذا السؤال أشد الاستغراب وما مدى علاقته بما هو فيه، وعندما أطال النظر إليه. ابتسم الشيخ هارون قائلاً: «فيما الاندهاش، ألسنت شيخك ولا بد أن أراجع معك بعض الأمور الدينية، صدقنا وثق بي وسوف تستريح إن شاء الله». أجابه فاروق بمنتهى التركيز فهو يستحي أن يخطئ في أشياء مثل تلك. وانقشع الضباب عن فاروق عندما وصل الشيخ هارون إلى استفسارات من عينة هل وقعت في الحمام أو في مياه راكدة في الشارع أو مكان مهجور حتى ولو من أعوام بعيدة مضت.

فقد فهم المغزى، الشيخ هارون يبحث عن الجن فانتابته قشعريرة سرت كأنها تيار كهربى في جسده ولكن الشيخ هارون لحقه قائلاً: «اطمئن فأنت مؤمن صلب ذو جدار سميك لا يستطيع أحد من الجن أن يقترب منك طالما بقيت كما أنت الآن، فلقد وجدتك محصن تماماً ولكن سوف أعطيك بعد الرقى الشريعة التي يجب عليك اتباعها فلا بد من الحيطة. فلقد سحر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من هو، يا صديقى العزيز أنى أخاف عليك منذ زمن، أتذكر يوم أن ساعدت أختنا زينب فاروق، من يومها وأنا تساورنى الشكوك وزادت بعد موضوع المسجد الجديد».

– ماذا تقصد بانك خائف عليّ؟.

– أنت رجل محبوب بين الناس وزادت محبتك لرسوخ قدمك في الكرم وإعمار مساجد الله تقربنا إلى الله ورسول ولكن هناك آخرون يبغضون ذلك، ناس كفره والعياذ بالله.

وصمت لبرهته وهو يتلفت حوله قبل أن يكمل قائلاً: «النصارى يا حج فاروق». كأنه يتوجس أن يسمعه مسيحي في الجامع وعندما لمح فاروق كتائه في الصحراء أردف بنبرة مؤكدة من شخص قد أتته الأخبار والخفايا قائلاً: «نعم الكنيسة لن تنسى ما فعلت وأنت كنت محق يوم ذكرت لي بصورة عابرة في السيارة ونحن قادمون من الغردقة في رمضان بعد مقابلة المحافظ أننا دائماً حاضرون في أحزان المسيحيين، ولم تسعفنى بصيرتى وقتها لتقف أمام ما قلته بصور عرضية فقد غمرتني الفرحة في

تلك الليلة عن الانتباه للخطر العظيم، لذلك أنا واثق تماما الآن أنهم يقرءون عليك حتى تكون عبرة لكل الناس وخصوصا أبناء الكنيسة حتى تزيد عقيدتهم ولا يتكرر هروب فتاة مرة أخرى».

- وكيف يجعلونى عبرة؟.

- هؤلاء القوم جبناء. لا يقدرّون على المواجهة لذلك يسلطون عليك الأعمال السفلية وهم أهل ذلك ليصيبك النكد والمرض وتعاكسك الأقدار وتصاب في مالك وعملك.

وأخفض صوته واقترب من أذن فاروق مستطردا: «يا مؤمن قد جاءتنى أخبار من أحد أخواننا الأطباء الثقات في المستوصف الجديد أنهم يقرءون على السادات نفسه لأنه يبغض كبيرهم».

اصاب حديث الشيخ هارون قلب فاروق بالفزع وزاد تأكده من كل ما قاله بعد أن استرجع معه أشياء حدثت له ولأسرته وكيف مرضت إحدى بناته بالحمى وبغضه لزوجته وأسر شيئا في نفسه لم يطلع الشيخ عليه وهو أنه أصبح في الشهور الأخيرة لا يشتهي زوجته أو غيرها. ترك فاروق الجامع واتجه إلى البيت مباشرة وهو في دوامات لا تنتهى لم يشعر بسيدة التي فتحت له ولم يسأل عن امه. صعد إلى شقته كأنه تحت التنويم المغناطيسى وارتقى على السرير ولا زال صوت الشيخ هارون يرن في إذنيه كأنه يعيد سماعه أكثر من مرة. «أنت ما شاء الله عليك لن يقدر عليك ولكن يجب أن تحصن أهل بيتك لابد أن يلتزموا بالصلاة وقراءة

القرآن فقد يصيبونك فيهم، هذه حرب يا حاج فاروق وليست هزل». ظهرت أمامه أخته كأنه يراه حقيقة وليس خيال. وحدث نفسه قائلاً: «آه. أنهم نجحوا في اصبتى عن طريقك أيتها المجنونة، أنت نقطة ضعف». وبدأ في تصديق كل شيء دار بينه وبين الشيخ هارون كأنها حقائق مادية لا قبل لنفيها. مثل أن أخته منى تحيض كل شهر ولا تغتسل. وحتى وأن رفع عنها القلم وليس لها حساب أو عقاب في الآخرة ولكنها أصبحت مرتع للجن والأعمال السفلية فلا حافظ لها من الملائكة فكيف تحيطها الملائكة وهي برائحتها الشنيعة بالإضافة إلى النجاسة واعتمد في تفكيره على حديث نبوى يقول (إن الملائكة تتأذى مما يتأذى به بنو آدم) وأنه عندما يقرأ القرآن في البيت عن طريق الشيخ هارون أو يدير شرائط الكاسيت بالقرآن تكون في الخارج كأنها مأمورة بالهرب. وأصبحت ثقته قوية بعد الاستنتاجات التي شكلها من واقع بيئة التي ترب عليها وشرب كل ما أنتجته من قيح وأخبر نفسه أن الكنيسة سيطرت على أخته حتى تكون جميلة وجذابة في أعين العمال. أليس الطبيعي أن الشيطان يتربح على مؤخرة النساء حتى تثير الشباب في الطرقات فما بالك بشياطين موجهة بأمر ولا تستطيع أن تخالفه. «أه يا ولاد الكلاب يا كفرة، تريدون أن تكسرونى مثلما ذللتمكم. ولكن أنا أريد نصره الله ورسوله لذلك أن الله معى ولن تنالوا مرادكم». ارتاح بعض الشيء لهذا التفسير ولكن بقت الرهبة

بسبب إحساسه بأن هناك من يتعقبه. قام من مرقدته واتجه صوب الحمام ليستحم ولكنه توقف لحظة عند باب الحمام وأخذ يردد دعاء دخول الحمام. من اليوم لا بد ألا اترك أي صغيرة، ولا بد أن اتبع كل تعليمات الشيخ هارون في التحصين. وجد مشقة في استحمامه فقد أصابه الرعب من أن يغمض عينيه. وكان يقاوم عدم اغلاقهما أثناء تساقط المياه عليه وأن اغمضهما يعود في فزع عند فتحهما كأنه سوف يجد من يقف أمامه. ارتدى ملابس في عجلة ونزل ليتابع ما استقرت عليه أمه مع سيدة الحليبة.

يجب الانتباه جيدا أن فاروق ليس شخص مختلف في هذه المعتقدات فمعظم من ينطق بالعربية يشاركه تلك المسلمات ولكنها تتفاوت بنسب التصديق من شخص لآخر. فقد شب الجميع على الغيبات. أكان عظيمًا أو كان وضيعًا. دورات المياه والمباني المظلمة الخاوية والوديان والجبال والبحار كلها أماكن لمالك الجن والعفاريت. وساعد في رسوخ هذا كله الرهبة من علو الجبال أو الجهل بانزلاق صخرة فيأتي صوتها من بعيد كصدى متكرر في الوديان أو سكون تام تحت مياه البحر وتفأجك سمكة بجوارك أو سرب سمك قادم فيتهيء لك أنه الظلام قادم سوف يبتلعك أو تربية تجذرت فيك منذ نعومة أظفرك ألا تنادى على أحد وأنت في الحمام. فطالما تعلمت جيدا هذه الخطوة فلا بد أن تتدرج إلى ما بعدها وهي أن هذه العوالم الخفية تؤذى الإنسان لذلك وجب معرفة من يأتي بالمرض ويسلطه عليك ومن يعالجه وما هو الدواء. لذلك كان من السهل

على فاروق أن يجنح إلى هذا التفكير، لأنه حقيقى في هذه المجتمعات ومقصدى بحقيقى هي وجود العداوة التي نشأت بسبب بحر الجهل الذي يسبح ويغوص فيه الجميع بلا استثناء وحتى المثقفون من هذه المجتمعات قد يكونوا من زمرة السابحين فوق السطح وارتاحوا للمس الجهل لهم في بعض الأماكن وليس فى الكل. فيتشددون بأن التحضر هو السطح وعلينا أن نحافظ على تفردنا باننا مختلفون على من بالشاطئ هناك. فهذه ثقافتنا الجميلة التي تربينا عليها فنحن ثديات ولكن نحب ماء البحر. ويجعلوا جل غضبهم على الغاطسين تحتهم وينشغلوا بهم عن نور الشمس فوقهم.

وجد فاروق سيدة الحلبيّة في الصالة جالسة على الأرض بنفس ملابسها التي قدمت بها في الصباح الباكر وما زالت تحتفظ بهيئة الغريب عن البيت الذي سوف يغادر بعد قليل. خرجت أمه قادمة من غرفتها عندما سمعت وقع أقدامه على السلم الخشبي. اكتفى بالسلام ثم صمت وانتظر أمه لتجلس.

- سيدة شاهدت أختك واطمئنت ولكن لا بد أن تعاود النظر بالليل عندما تنام منى، لأنها أرهقتنا ولا تعلم سبب حبسها، وتعتقد أن موضوع إنزال ما في بطن منى سهل وسوف ينتهى في خلال أسبوع من الآن.

ابتهج فاروق لكلماته أمه حتى أنه انتبه لذلك وشعر بالخرج وعاد إلى رسم سمات الوقار مرة أخرى قبل أن يقول: «هل أنت

متأكده من ذلك؟». موجهاً حديثه لسيدة الحلبيّة.

- يا حاج فاروق ربنا بيلطف الحاصل ويمنع الشر المكتوب  
القادم من فوق.

انزعج فاروق من هذه المرادفات الشهيرة لضاربي الودع.  
فاكفهر وجهه ورفع ملوفا بيده بإشارة ذات مخزى وهو يقول:  
«عندما اتفقت معك الصبح على أن تتركى الشرك فلا بد أن  
تتركيه بكل معانيه وألوانه، من اليوم أصبحت في حمى هذا  
البيت فلا بد ألا تجلبى علينا غضب الله وسخطه».

فأسرعت أمه بالكلام قائلة: «ماذا هذا يا فاروق؟. سيدة  
رحبت بكل طلباتك ولم تعترض على شيء. فما الداعي لمثل  
تلك الكلمات القاسية». واتجهت بنظرة صوب سيدة الحلبيّة  
ثم قالت: «لا تغضبى من فاروق فإنه مهموم ويعلم الله مدى الحزن  
الذي أصابه».

«الحاج فاروق مثل أخى وأنا لست غاضبه منه ولكن لا بد  
أن تعلم يا حج فاروق أنني عندما كنت أخط الودع كان بسبب  
لقمة العيش لأنى وحيدة وليس عندى زوج أو ابن يساعدنى ولا  
معاش أصرف منه على نفسى، فلم حضرت هذه البلدة كان هناك  
طرق أخرى متاحه لي وسهلة ولكن المشى البطال لا يستهوينى».

وقع الجملة الأخيرة كانت قوية على فاروق ولم تروقه.  
فقالت الأم: «خلاص يا سيدة. والله أنا عارفك من ساعة ما أتيت  
القصير وأنت ست كاملة ولو لم تكونى كذلك، هل كنت

فتحت بيتى إليك أو أئتمنتك على سرى، انظريا فاروق هذه الحجرة أسفل السلم سوف اجعلها لسيدة لتكون غرفة خاصة بها ولا يدخلها أحد من اليوم حتى تظل بيننا حتى تنتهى هذه الغمة. وبعدها كما تشاء، يوم هنا ويوم في بيتها». نظرت الحاجة منيرة إلى فاروق نظرة فهم على أثرها ماذا تريد أمه وأيضا قد لمحتها سيدة بطرفة عين. فقال فاروق وهو يقاوم العبوس ويتصنع الابتسامة الكاذبة: «اتمنى أن تعجبها الغرفة ولماذا ترجع إلى عشتها فوق الهضبة، أنت أصبحت واحدة من البيت». وسكت لحظة ثم قال: «آه على فكرة هل تصلى يا سيدة؟». فاجبت بسرعة متكلفه: «نعم أصلى ولكن اقصر أحيانا». فهز فاروق رأسه غير مصدق ووجه حديثه لهن قائلا: «من اليوم لا بد للصلاة في وقتها وسوف أنزل من شقتى جهازا مسجلا وصندوق شرائط كاسيت عليها المصحف كاملا. فعليك يا سيدة أن تجعليه طوال النهار والليل يصدح بآيات الذكر الحكيم ولا يتوقف نهائيا في البيت وقبل النوم تجعلى الصوت منخفض قليلا وهذه أول مسئولياتك في البيت».

استشعرت أمه بمخزى مقصده فقالت: «عندك حق يا فاروق يا ولدى، هذه عين قد أصابتنى جميعا». فقام فاروق من مكانه ليحضر ما أخبرهن به قائلا: «نتمنى من الله أن تكون عين حاسد». وبدأ سماع تلاوة القرآن في بيت الأوانجى التي سوف تصبح عادة مثل وجود السلالم والابواب والجدران ولا يشعر أحد بصوته إلا عندما يتوقف الشريط أما لانتهاه أو انقطاع الكهرباء.

انفرد فاروق بامه في حجرتها بعد أن انصرفت سيدة إلى تفقد البيت الكبير لتعلم من أين تبدأ عملها الثانوى. كان وجهه مرتبك كمريض ينتظر نتيجة التشخيص. فاخبرته أمه أنها واثقه من قدرت سيدة الحلبية على اجهاض منى بمنتهى الأمان. استنكر فاروق فرحة أمه وهي تقول بمنتهى الأمان. وأثناء حديثهم الهامس في الغرفة سألته أمه: «هل أخبرت الشيخ هارون بموضوع توبة سيدة». فأجابها ساهما بالنفى وتذكر ما دار بينه وبين الشيخ هارون فقال لأمه: «لم يتح لي الوقت أن أخبره بذلك. لكن قد علمت ما هو أهم من الشيخ هارون عن موضوع منى». فضربت الأم بكفها على صدرها في فزع فأدركها فاروق قائلاً: «لا تخافى. أنه لا يعلم شيء ولكن قد ساقه الله لي لكى افهم سبب ما نحن فيه الآن، يا أمى هناك عمل سفلى قد صنعته الكنيسة لي وقد أصاب منى وابنتى الصغيرة، ألا تذكرى كيف كانت تقوم مفزوعه من النوم والبكاء المستمر دون سبب وكانت لا تحب أن يقرأ عليها الشيخ هارون عندما يحضر إلى البيت».

- ولماذا الكنيسة تقصدنا بالشر؟.
- وهل تنسى لنا الكنيسة ما فعلناه يوم زينب وكيف خبأناها في بيتنا. وبعد ذلك أمر المسجد. الذي كان سوف يبنى مكانه كنيسة لهم.
- لو كنت أعلم بذلك لما كنت تركتك لفعل هذا.
- لا تقولى هذا، واستغفرى الله والله لو عادت الأيام سوف أفعل

ما فعلت ولو ألف مرة. انفعل فاروق بطريقة تمثيلية لا تناسب الموقف الذي هم فيه.

- الشيخ الذي يملأ بطنه عندنا أليس له فائدة في الحماية. تقصد الشيخ هارون. بالطبع لم يعجب فاروق تهكم أمه عليه.

- يا أمى الذي يبني أصعب من الذي يهدم، الشيخ هارون يحارب بالملائكة، أما هؤلاء الملاحين يتحكموا بالمردة والعفراريت والعياذ بالله.

- ربنا يسلم يا ولدى. يعنى تقصد أن الشر أصاب أختك بسببهم، طول عمرك يا بنتى تحملين البلاء عنا وأنا من ضربتك بيدي أيتها الطاهرة.

شعرت بالأسى وضافت حدقة عينيها كمن تذكر شيئاً ثم قالت: «أتعلم يا فاروق أنني أخذتك وأنت صغير إلى الكنيسة حتى يقرأ عليك القسيس لأنك رقد مريض بعد أن أفزعتك الكلاب عندما ركضت خلفك، أتذكر ذلك اليوم؟. فعلا لم تشف إلا عنده، ساعات السم يحتاج سم أقوى منه».

- نعم نعم أتذكره بالطبع وقد نلت جزاءك من الصول ناصر عندما علم بعدها ببضعة أيام، وكيف توقف عن الأكل معنا لفترة.

- كنت أريد مصلحتكم، فبعدها أصبحت تنام دون أحلام مزعجة فأبوك كان لا يسهر الليالى معك وأنت تتصب عرق

من الحمى مثل أمك.

صمت قليلا ثم أردفت قائلة:

- من اليوم يا ولدى مالنا ومالهم. تقصد المسيحين. ولا تيجى ناحيتهم. وتحاول ان تجعلهم ينسوك، ويكفى ما حدث لأختك، والله لو كنت أعلم أنهم يضمرون لك الشر لكنت زرتهم واحدا واحدا وطيببت خاطرهم، المهم الآن أن تخبر أخوك عندما يعود بما حدث حتى نصبح يد واحدة.

بعد أن ترك فاروق أمه تذكر ذلك اليوم البعيد الذي ذهب معها وهو طفل لم يتعد الخامسة عشر من عمره إلى باب الكنيسة في ظهيرة صيف وانتظر القسيس حتى يخرج لهم في ثيابه السوداء وفي يده كتاب عتيق وكيف وضع يده على رأسه وأخذ يتمتم بكلمات لم يسمعها حتى سأله ما اسمك فرد قائلا: «فاروق» فقال القسيس: «هذا عبدك فاروق... وأكمل في همس بقية كلماته غير المسموعة وأعطاهم بعدها رغيف خبز مقطع إلى عدة أجزاء ليتناوله فاروق كل يوم حتى تنتهي الأرواح الشريرة التي لحقته بعد أن وقع على الأرض والكلاب تركض خلفه.

للعلم أن هذه الحادثة التي يصدقها صاحبها وهو الحج فاروق لم تتم بالتفاصيل التي حفرت في ذهنه. فالقصة الحقيقية أن فاروق عندما كان في الخامسة عشر من عمره، أرسلته أمه حتى يشتري لها قطعة خميرة من إحدى السيدات التي تبيعها في المنزل وهو في الطريق وجد بعض أقرانه يلعبون في قطعة أرض فضاء

سويا فمكث معهم للعب طول النهار. وصرف النقود التي كان مفترض أن يبتاع لأمه بها الخميرة. وعندما شارف النهار على الانتهاء بدأ يدرك سوء فعلته فتقلب مزاجه وانقلب الحال بينه وبين أقرانه. فأراد أن يتنمر على أحد منهم فاجتمعوا على الفتك به بسبب ما يجدوا فيه من ثقل ظل، فمزقوا جزءا من ملابسه وملئ الغبار شعره ووجهه واختلط التراب بدماء من نزييف شفته السفلى. فبعد أن تركهم غاضبا ليعود إلى بيته اختلق قصة الكلاب لأمه وقص عليها أنها كادت أن تفتك به ولم يرجع من الصباح لأنه خاف من العقاب بعد أن فقد نقود الخميرة عندما سقط على الأرض. وصادف بعد ذلك أن درجة حرارته ارتفعت بالليل فتم لصق الجريمة بالجبن الذي أصابه بعد أن وقع. ونسى فاروق القصة الحقيقية وتعلق بالقصة الخيالية وزاد ثبوتها في عقله مع السنين حتى أصبحت حقيقة وعندما يقصها تستحضر أمام عينيه كأنها حدثت بالفعل.

فكر فاروق بأن يخفى عن منصور بما حدث ولكنه عدل عن هذا الرأي لأنه لن يستطيع تبرير تواجد سيدة الحلبية في البيت وأنه لن يستطيع البقاء طويلا في القصير فلا بد أن يعود إلى عمله في الغردقة والبعد عن المحافظ يعد خسارة في حد ذاته. لذلك وجب على منصور المعرفة لكي يساعد أمه وسيدة لو حدث شيء. شعر فاروق بالضيق من كم التفاصيل التي يجب أن يحرص على متابعتها بكل دقة. شهرته وسمعته ومستقبله

كل ذلك على المحك. كأنه يسير على حبل بين جبلين لو أتت ريشة وحطت فوق رأسه ولم يكن يعمل لها حساب سوف تجعل توازنه يختل ويسقط وتضيع كل أحلامه.

\*\*\*\*

فتح عينيه بصعوبة على من يهزه برفق وينادى عليه باسمه فضيق عينيه كرجل بلغ به العمر عتيا وهو يحاول أن يتفحص هذا الوجه الذي أمامه، أنه منصور فاعتدل وما زالت آثار النوم تسيطر عليه مع أنها غفوة من دقائق مضت. كل شيء مشوش في رأسه حتى قال منصور: «ماذا تريد؟. أمك أخبرتني أنك طلبت أن أقابلك قبل أن أستريح من السفر وما قصة سيدة الحلبية فقد وجدتتها في المطبخ». رجع الاكتئاب والقلق إلى وضعه السابق عند فاروق فقد تذكر كل شيء. فقام دون أن ينبس بكلمة صوب حوض الماء الخاص بالوضوء الذي يوجد أمام الحمام ليغسل وجهه. ثم جلس أمامه على مقعد خشبي سحبه من ركن الغرفة. تارك له السرير فأصبح منصور منخفضا قليلا عن مقعد فاروق. فسأله فاروق عن السفر وبهية وأهل زوجته. فارتاح منصور لتلك الاسئلة فلقد كان مشدودا ومتحفزا إلى السؤال المعتاد لماذا تأخرت ليومين في قفط. ولكن فاجأه فاروق بعدم الاهتمام فاخذ يندب حظه لماذا لم يبق ليلة أخرى هناك ما دامت الأمور بهذه السلاسة. وجالت أمامه ماذا فعل في الليلتين السابقتين ولا بد أن يطيل في المرة القادمة عندما يذهب ليحضر زوجة أخيه وبناته. وأنه معه الآن

كمية أعدار لم يستخدمها حتى الآن فسوف تصبح جديدة في المرة القادمة، فارتسمت على وجهه الممتلئ ابتسامة عريضة. فانتبه على صوت فاروق يقول: «أنت لست معي، يا منصور أنت مسطول؟». فرد منصور مرتبكا: «ما هذا الكلام يا حج فاروق». واستحضر وجه رجل وقور لا تناسبه كأنه ما زال مراهق. «توجد مصيبة يا منصور ولا بد أن نكون معا» قالها فاروق وبعدها أمسك بمعصم منصور بقوة وأخذ يحكى له ما حدث لأخته والعمال في اللاسلكى وسبب وجود سيدة الحلبية. ومنصور ساهم عينه تزوغ شمالا وجنوبا وأحيانا ينظر إلى فاروق بعين شريرة كأن فاروق هو السبب أو أنه شخص غريب عنه يستخف به. وبعد أن انتهى فاروق من الحديث، نفض منصور يده من قبضة أخيه بشدة وقام من مكانه واقفا فالحقه فاروق في نفس اللحظة وأراد أن يعيده إلى الجلوس فصرخ منصور في وجه فاروق قائلا: «ألم تقل كل ما عندك؟ إذن اتركنى وحالى». فأزاح فاروق بشيء من الغلظة واندفع خارجا من الغرفة وعندما ركض وراءه فاروق كان منصور في الأسفل بعد أن اجتاز السلم في خطوتين. كانت هئيته في الصالة مثل السارق الذي وجد نفسه في بيت لا يعرف أين يهرب وأهل البيت يحيطون به. كانت أمه وسيدة الحلبية في الأسفل منتظرا نتيجة معرفته. لذلك عندما تواجد في الصالة وعينيه تتطاير منهما الشرر وتبعثان تهديد واضح أن من سوف يقترب منه سوف ينال أذى أو صواعق كفيله بأن تقتل من يقف في طريقه. الأم وسيدة حائرتان وفاروق ينزل بصعوبة

على السلم. فما زال جسده متعب من انزلاقه السابق وهو ينادى عليه بغلظة مذكّره بأنه هو المسيطر والحاكم لهذا البيت. حتى حدد منصور وجهته فجري صوب الحجرة التي أخبره فاروق أنهم حبسوا بها منى وحاول فتحها. ولكن كانت الأم على حيطة من أمرها هذه المرة فقد أغلقت الباب بالمفتاح وإضافة قفل ضخم مثل الذي يستخدمهم فاروق في غلق المخزن الخلفى في الحوش. فحاول منصور كسر الباب حتى وصل إليه فاروق وسط عويل أمه وعلو صوت المسجل بالقرآن الذي رفعته سيدة الحلبيّة ليغطى على أصواتهم. وأخذ فاروق يحاول منع منصور من الاستمرار في دفع الباب مكررا كلما اقترب فمه من أذن منصور أثناء تلاحمه لسحبه إلى الخلف قائلا: «الفضائح أيها المعتوه». وعندما تعب فاروق من شد منصور تدخلت سيدة فاندesh الجميع حتى منصور لقوتها حتى أنه صفعها على وجهها لأنها جعلته يسقط أرضا فشعر بالخزي ولكنها لم تهتم. وبعد ذلك أخذ يرفس كحمار انزلقت رجليه في طريق صاعد ومالت عليه العربية التي يجرها فثبته في مكانه ولا حيلة له في النهوض. وعندما ابتعدوا عن طريقه قام مسرعا وانطلق وهو يتخبط في أثاث المنزل كأنه سكران، حتى سمعوا زمجرة مأتور السيارة ولف إطاراتها على الأسفلت تنجر من شدة الاندفاع المفاجأ في بدأ القيادة. ما زالت الحاجة منيرة تنتحب وتنظر إليهم كالمفجوعه التي تنتظر المساعدة قائلة: «ابنى سوف يضيع هو الآخر». فتنظر إلى فاروق الذي ما زالت أنفاسه تتلاحق وتوجه له الكلام قائلة: «اذهب وراءه يا فاروق حتى لا يفعل في

نفسه شيء». لم يهتم فاروق بما تقول وصعد مجددا إلى الأعلى. أما سيدة ففتحت الباب بحرص لتهدئ من روع منى التي كانت تبكى من شدة الخوف بسبب ما حدث حول باب الغرفة. فوجدتها في الركن البعيد متكورة كأنها مستسلمة ومستعدة في هذا الوضع للكدمات والركل.

مرت السيارة بأقصى سرعة وهي تجتاز كل البيوت جنوبا وسط وفترة من الشتائم من كل من رآه بسبب رعونته الدائمة في القيادة. توقف منصور عند رأس الفل وترك السيارة وهو يعدو وجلس في الظل يبكى بكاء مريرا، ومن حسن الحظ أنه لم يمر عليه أحد وإلا كانت العواقب وخيمة. وأخذ يقول بصوت بكائي مسموع: «أه اه. جعلتينا عرر- يقصد منى- وشرفنا داست عليه الأقدام باحدثيتها». ثم صمت في خوف وتذكر الفيلم السينمائي «شيء من الخوف» الذي شاهده ليلة أمس في سينما قنا. كادت جملة «من ليس له ثأر عندك يا عتريس» التي قيلت على لسان أحد أبطال الفيلم أن تفتك به مع أنها كانت الجملة الأكثر بهجة في مرحه مع أصدقائه بعد انتهاء الفيلم بالامس وهم يترنحون من أثر الحشيش، فيسقطها الآن على نفسه ويتذكر الناس الذين يكرهونه في القصير. مع أنه لم يفكر فيهم قبل اليوم نهائيا حتى ولو أصبحوا كل المدينة. أما الآن فالأمر مختلف. يتخيلهم الآن أمامه خلف قطرات الدموع المتعلقة برموشه وكأنه مختبئ داخل كهف والمطر يتساقط على مدخله وهم يضحكون ويتهامسون ويرسلون الأطفال خلفه لينادوا عليه باسم أخته. يغمس أصابعه

المتشجعة في الرمال ويقول لنفسه «من اليوم لا وجود لك في الأفراح ولا الجلوس في المقدمة، هذا يخدمك وهذا يلوح بذراعه بالتحية لك وهذا يريد أن يقترب منك وهذا يغبطك فأنت ابن الهجان واخو أهم شخصية في المدينة». فهز رأسه في أسف وهو يضرب كفا بكف مثل فلاح فقير بائس وجد محصوله الذي ينتظره طول الموسم قد فسد بسبب البرودة القارسة قائلاً: «كل هذا انتهى لا سسمية ولا نسوان». فتذكر ليلة أمس مع إحدى بنات الليل فقال بصوت مسموع منفعلًا: «أنا كنت أعلم أن الزانى للزانية. لذلك لم اتزوج ولن اتزوج ولن اضع شرفى وسمعتى بين ساقين امرأة، فأنا لا أستطيع مقاومة أي امرأة أرادت أن تعطينى نفسها، كانت كبيرة أو صغيرة، جميلة أم قبيحة». فاخفض صوته وهو ينظر إلى السماء «ولكن أراد الله أن يعاقبنى فأنزل الذل على في أختى، في موضع لم اعمل حسابه، سامحنى يا رب وارحنى أنا كنت عارف أن لازم يكون في عقاب لي في الدنيا ولكن غفلت عن ذلك، استره معى يا رب وسوف أكون نعم العبد ولن أقرب مما يغضبك». واستمر في البكاء حتى أنهك تمامًا كأنه ضاع في صحراء شاسعة واستسلم لمصيره المحتوم.

\*\*\*\*

فاروق والحجة منيرة في حوار احتد منذ الصباح الباكر، بسبب رغبة فاروق أن يسافر إلى الغردقة متعللاً ببناء القرية السياحية، وأنه لا يستطيع أن يغيب عن المحافظ عدة أيام

متتالية حتى لا يأخذ أحد مكانه في صحبة الرجل بعد أن أصبح من المقربين إليه. وإصراره حقيقى ينبع عن فهم دقيق للوضع العام حوله فالجنرالات الذين يحكمون البلد في تلك الفترة إذا غبت عن أعينهم ينسوك. فالقصة تحكمها بعض الأحيان خفة الظل أو خنوع تام أو تلبية رغبات لا يستطيع غيرك أن ينفذها. وأمه تلح عليه أن يستمر بضعة أيام أخرى حتى تستطيع سيدة الحلبية في إجهاض منى كما أخبرتهم فقد بدأت تعطى لمنى بعض الأعشاب التي تساعد على عدم تثبيت الجنين باحشائها مثل القرفة وجوز الطيب والميرمية والزعفران. وبعد شد وجذب وافقت الأم على تركه يذهب بشرط أن يعود كل ليلة للمبيت في القصير. وافق فاروق على ما تقول وأن أسرداخله أن يترك أمر الرجوع كل ليلة للظروف إذا سافر إلى الغردقة. أخذت تنادى الأم من مكانها على منصور ليأتي إليها فأصبحت أرق قلبا له، بعد أن شاهدت كيف تغيرت ملامحه إلى الحزن بعد أن علم بأمر أخته وصار إنسان مختلف تماما عن ما سبق. فأصبح لا يخرج كثيرا ويفضل البقاء داخل غرفته ولا يتكلم كثيرا وإن كان كل يوم يأتي يكون أسهل عليه من اليوم الذي سبقه. وعندما لما يستجيب إلى نداء أمه. اتجهت سيدة صوب غرفته فنظرت من الباب الغير موصد فرجعت تقول للحجة أنه يصلى. وبعد برهة من الوقت خرج عليهم منصور ووجهه متعب كأنه كان مريضا منذ عدة ليال وقد بدأ التعافى. ليجلس بجوار أمه. فقال له فاروق وهو يبتسم: «خير ما عملت يا منصور، فالصلاة حصن المؤمن فلا بد أن

نؤدى حق الله حتى يقف الله بجوارنا، ولكن الأفضل لو صليت في الجامع، فسوف يكون الأجر أعظم».

- أخاف أن أتوقف. فكم من مرة بدأت ثم أصابنى الكسل.

- اترك هذا على الله وابتعد عنك وسوسة الشيطان.

استقرت الأحوال على السطح أمام الناس. فاروق سافر إلى الغردقة وكنتم ما يغلى في صدره ولم يظهر منه إلا بعض الهالات السوداء التي أحاطت بعينيه والمتمعن المدقق يستشف أنه مهموم وفقد شهيته التي كانت كالقطار الذي لا يتوقف في المحطات فيتفاخر بها أمام من يعرفه. أما منصور انطلق إلى المسجد في عزيمته لا تكل أو يصيبها الفتور. وأصبح صمته وتجهمه يعطى من يراه أن هذا سمات الورع لا أكثر. اعتقد الشيخ هارون عندما شاهد منصور لأول مرة في الصف الأول في الجامع أن هذا نتيجة نصيحته لفاروق وشعر بالنشوة لأنه هدى إنسان عاصى اشتهر بسوء سلوكه في المدينة واقترب منه ليزيد من عزيمته ولم يتصور أن تدب مشاعر الصداقة والأنس بينهما إلى المدى الذي سوف يكون بعد ذلك.

\*\*\*\*

وبعد عدة ليالٍ من الواقعة كان منصور في حجرة الضيوف الواسعة يصنت باهتمام بالغ للشرائط القرآن في البيت ويفتح المصحف لتتابع عينه ما يلتقطه بإذنه يريد أن يحفظ بعض

الآيات الجديدة ويسترجع ما كان يحفظه سابقا. يريد أن يكون متفردا في طريقه الجديد. فقد شعر بأنه وجد نفسه. سمع صوت أمه يعلو بالنداء عليه، فخرج إليه فوجدها في الصالة مع سيدة الحلبية التي يتحاشى النظر إليه منذ أن دفعته أمام الباب. من نظرة واحدة استشعر بأن هناك مشكلة وتمنى من الله قبل أن تتكلم أمه أن يخبروه بأن منى مريضة أو أنه تحتضر داخل. فقالت أمه وهي تتنفس بصعوبة: «أين أخوك الكبير؟». فرد عليه منصور بصوت في طيبة مزيفة تناسب المرحلة التعسة التي يعيشوا فيها جميعا قائلا: «ماذا حدث؟». وعندما لم تجيبه أمه كرر السؤال بحدة الخائف المتوتر. فاجبته أمه بسرعة فصورته يوم علمه بالمصيبة ما زالت عالقه أمامها قائلة: «لا شيء ولكن منى مريضة قليلا وأنت تعلم مدى قلقى عليكم جميعا». لم يقتنع منصور بما قالته أمه واعتقد أن هناك شيء أكبر تخفيه ومال بتفكيره أن مرض منى خطير فارتاح لذلك واكتفى دون إصرار في استنطاق أمه حتى يأتي فاروق هذه الليلة أو ليلة الغد. لم ينتصف الليل حتى أتى فاروق فانتفضوا جميعا من أماكنتهم عند سماع فتح وغلق الباب الرئيسى للبيت. ولم تظهر على أي أحد منهم ملامح المستيقظ حالا. اتخذ كل واحد فيهم مكانه في الصالة في صمت كأنهم متفقون على ذلك. ما زال فاروق يحمل هيئة الوجاهة التي يأتي بها عند قدومه من الغردقة والتي تشع من ملابسه الجديدة فقد اعتاد عليها كأنه جلده الطبيعي الآن الذي يكسى عظامه ولحمه.

- حمد الله على السلامة يا فاروق.

قالتة الأم. شعر فاروق بأن هناك أمر جلل فنظر بطفرة عينه في اتجاه باب الغرفة التي بها منى وأخذ يصنت لعله يستمع إلى أي حركة في هذه الغرفة. فقال في نفسه «لعلها ماتت فاستراحت وأراحت، تغسلها سيدة الحلبية وأمي وبذلك لن يرى أحد أي انتفاخ في بطنها، اصرخى يا أمى بالعويل حتى تصدق ظنوني، انطقى أيتها الملعونة التي لا أشعر بالراحة لصمتك ونظراتك التي تخبى وراءها الكثير مثل الغراب في ملابسك السوداء». وعندما اطالوا الصمت حوله قال فاروق في غيظ واضح: « تنتظرون في منتصف الليل حتى تقولوا لي حمد الله على السلامة، أي أحد يتكلم ما بكم، ماذا هناك يا منصور».

- أنا مثلك لا أعلم شيئاً ولكن أمك قالت أن منى مريضة.

أنهت الأم الجدل قائلة: «سيدة أخبرتنى أن أختك لن تستطيع أن تتخلص مما في بطنها لأنه قد ثبت تماما وأن منى لا تستطيع أن تساعد فهذا الأمر يتطلب إرادة قوية منها وهذا لا يمكن أن تتفهمه منى».

- ولكنها تتفهم جيدا كيف لا تحافظ على ساقها مضمومتين.

قالها منصور بشدة كأنه يقصد أن يجرح أمه بقوله. لم يمهلهما فاروق حتى تتداخل في الحوار، متحد مع منصور في مشاعره قائلا: «ماذا يعنى هذا الكلام، نحن لن نقف مكتوفى الأيدي حتى

تساعد أم لا ( يقصد منى)». وأشار إلى سيدة بإصبعه وهو في قمة غضبه قائلاً: «وما فائدتك في هذا كله؟ أنت هنا حتى تجهضيها بأي طريقة، اضربيها على بطنه، اجعليها تحمل أي شيء ثقيل». كان يتلفت وهو حائر يبحث عن الحلول فنظر إلى السلم الخشبي فأردف قائلاً: «اجعليها تصعد السلم وتسقط من أعلاه حتى آخر درج في الأسفل».

- لو فعلت أي حل من تلك الحلول الآن فسوف تكون حياة أختك في خطر فقد تنزف بشدة حتى...

لم تكمل سيدة الحلبية جملتها رفقا بالحجة منيرة التي تذرف الدموع فكانت كلماتها قاطعة تأتي من خير لا يشوبها أي شائبة تقلل من صدق ما أخبرتهم به.

- إذن ما الحل؟

قالها منصور وهو يتمنى أن يقوم من على المقعد ويتجه صوب سيدة الحلبية الجالسة على الأرض ويضربها بقبضة يده التي كورها فيفتت رأسها وتنتشر الدماء على حوائط البيت.

- لابد من الانتظار حتى يأتي الفرج من عنده.

قالتها الحاجة منيرة في استسلام أم فجعت بما يعز عليها.

- أي انتظار تقصدون؟ هل من العقل أن نستمر في هذه المهزلة حتى تلد الهانم.

ثم أشار على فاروق قائلاً: «وهذا ما ذنب أن يحرم من زوجته

وبناته وهل يصح من الأساس أن نتركهم هناك في قفط لعدة شهور».

شعر فاروق بدماؤه تغلى، وجمحت عينيه وود أن ينهار على الأرض ويبكى، فاخذ يحدث نفسه كالمحموم بسرعة قائلاً: «نعم نعم قد أصاب منصور، كيف اترك بهيئة بعيدة عن البيت كل هذا الوقت، رحماك يا رب، كلما سدت ثغرة أجد أخرى يتسرب منها الماء».

- خذ زوجتك معك إلى الغردقة واجعل بناتك يكملنا تعليمهن هناك إذا اردت أن يستمرن، فقد أصبح عملك هناك ولا بد لك من الاستقرار.

قالتها الأم كطوق نجاة لفاروق الذي سرح ذهنه عندما تلقفت أذناه كلمات أمه فعقبة زوجته قد زالت. فقال لنفسه وهو يهز ساقيه باضطراب «لا بد أن اتماسك فالايام القادمة تحتاج إلى شدة ومكر فلا مجال للهزيمة، أما أن تفوز في كل شيء أو تخسر كل شيء وتصبح كالمشردين في الشوارع وعندها لن يرحمك أحد». تذكر المحافظ وهو يلقنه ما يجب أن يفعله حتى يصبح عضواً في المجلس التشريعي للدولة ممثلاً دائرته. فالأمر دخل حيز التنفيذ عند اللواء صديق. كما وعده بذلك في ليلة رمضان. شعر بالندم لأنه لم تظهر ملامح السرور على وجهها عندما كان مع المحافظ الذي نظر إليه بعين منتظرة مشاهدة ردة فعل المنح. ودعا الله من قلبه ألا يظن السيد اللواء أنه تكبر

أو عدم اكتراث. من الغد الباكر لا بد أن أكون في مكتبه بالگردقة لأخبره كيف جفانى النوم من شدة الكرم الذي أغدقته على وشملتني بعطفك. أما منصور فقد شعر بخيبة أمل بعد أن استعد لخبر تخلصه من المشكلة كلها وها هم الآن عاجزين أمام ثعبان يتلاعب بهم وهم لا يستطيعون قتله أو الصراخ حتى يأتي من ينقذهم من شره. فأصبحوا يحاولون التحكم في اتجاه سيره فقط فيغلقون جميع المنافذ ويتركون باب واحد حتى يخرج منه دون أن يلدغ أحدا منهم. إذن كتب علينا الصبر في صمت.

- وبعد أن تلد السيدة المصونه. ماذا سوف نفعل بالمولود؟ هل فكرتم في اسم مناسب له؟ أو نرسله للعيش في الغردقة بين بنات فاروق؟

- الزم أدبك يا منصور. أظن أنك قد نسيت نفسك في الأيام السابقة، فقد استغلّيت عطفى وصبرى عليك للتعطاول على في الحديث.

قال فاروق ذلك في غضب واضح وتحذير مباشر. فقد كان يحتاج فاروق لحظة من سوء الأدب من منصور حتى يرجع مكانته في هذا البيت لأنه لم ينسى ماذا فعل منصور منذ عدة أيام وكيف كان يقاومه جسدياً دون أن يعطى أي قدرا من الاحترام الذي حافظ عليه فاروق بعد موت أبيه وأصبح هو من يغدق على منصور بما يطلبه كمانح يجب أن تقبل يديه. فصمت منصور في أدب ورسم على وجه علمات الاعتذار.

تم الاتفاق في تلك الليلة إلى أن تستمر منى محبوسه في غرفتها ويتم الاعتناء بها بصورة كاملة تحت إشراف سيدة الحليبة حتى تلد. وبعد ذلك تسافر سيدة مع منصور إلى قنا ويتم إلقاء الطفل أمام أي مسجد ويكون كل هذا في الظلام.

\*\*\*\*

زادت الطمأنينة في قلوب أصحاب بيت الأوانجى مع الأيام واتضح بالفعل أن ما حدث لا يعلمه أحد وتركوا الأمر كله لسيدة التي تلقفتوه كأنه عطية من الله في نهاية حياته التعيسة القاسية. وأصرت في نفسها على أن تحافظ عليه بشتى الطرق. فعملت في البيت بمنتهى الجد حتى غلظة قلوب فاروق ومنصور رقت لسيدة لأنهم شعروا أنها مفيدة لهم أكثر مما تأخذ. كأنها بقرة استباحوا حليبها. وثبتت سيدة هذا الاعتقاد فيهم. أما الحاجة منيرة اعتزلت الجلوس أمام البيت واكتفت بالأنس مع سيدة. وكان الدافع لذلك تخوفها من استفهات النساء عن عدم خروج منى إلى الشارع. فكانت لا تمتلك القدرة على المواجهة وأي سؤال يستطيع أن يهزها ويجعل من سأل يظن أن هناك أمرا. إن كان الكل لا يعنيه أمر المحبوسة في الغرفة الخلفية فمن الواجب علي أن أحاول أن أصف على قدر استطاعتي مدى الظلم الذي وقع على هذه الفتاة وأن كنت متأكد تمام أنني لن أجد الكلمات التي تحمل ما يدور في نفسها. كانت في بداية الحبس تقاوم بعنف وشدة بأن ترفض الطعام وتقذف به على

الأرض وتستمر في الصراخ وحاولت أكثر من مرة بأن تهرب منهم في البداية عندما تصطحبها أمها إلى الحمام إلى ان تفتق ذهن منصور على ربطها الدائم بحبل غليظ لهلب مركب. وكان الحبل لا يتعدى متر، يربط الساقين من فوق القدم كالمساجين أو الأغنام والإبل حتى لا تستطيع الجرى والهرب. خارت قواها واستسلمت وأصبح جسدها الفطرى يأمرها بالاستكانة كأنه يتلقى أوامر من داخلها.

\*\*\*\*

وتيرة العمل في الغردقة تتزايد بطريقة سريعة. اللواء عفت كان يتعجل الكل في العمل فلا يهتم إن كان معيبا بعض الشيء في سبيل إنهائه. يتابع كل صاحب قطعة أرض قد استلمها من المحافظة للبناء منشئة سياحية عليها. فقد جلب من القاهرة متخصصين في الأعمال الفندقية واغرائهم بالامتيازات التي سوف يحصلون عليه حتى يديروا تلك المشاريع من فنادق وقرى سياحية أثناء البناء وايضا بعد ذلك. لأن أصحاب المال لا يجيدون أي شيء إلا ضخ المال والولاء والثقة للمحافظ. وبالطبع كانت روايتهم ومصاريف إقاماتهم ليست بصفة مباشرة من ميزانية المحافظة ولكن كانت بأوامر شخصية من المحافظ إلى أمثال فاروق ليدفعوا لهم ما حدده السيد اللواء. بالإضافة إلى بعض المميزات الأخرى للهؤلاء المديرين بتوزيع بعض الأراضي المميزة لهم بأسعار زهيدة حتى يبيعوها لاحقا للمستثمرين الحقيقيين.

وكان هذا باب واسع ادخل المحافظ منه بعض الأقارب ومن يرجو خدمته من القاهريين أو بعض الهبات فمثلا تم تخصيص قطعة أرض للموظفة في جامعة القاهرة لأنها كانت مسئولة عن المدينة الجامعية التي تسكن بها بنت السيد اللواء وكانت بنته تستلطف هذه السيدة.

اللواء عفت بدأ كأي إنسان في عمل جديد يود أن يكون له بصمة في مكان عمله. البدايات دائما نياتها بريئة. ولكن الأمر سار في منعطف مشهور عند أهل الشرق. فقد تكونت عنده في شهور قليلة شخصية الإله الذي يستطيع أن يفعل ما يشاء ولن يحاسبه أحد. أو كما يقولون سلطة مطلقة مفسدة مطلقة. فكانت هناك قرارات متسرعة فعلى سبيل المثال لا الحصر، رصف طرق قبل الأعداد لها أو التخطيط فيتم التوقف أثناء العمل بسبب عدم جدوى الطريق أو يتم التغير فيهجر الطريق قبل انهاءه. فلا يستعجب المرء هنا أن يجد طريق مدفون تحت الرمال. بالطبع شيء مثل هذا سوف يرهق المستكشفين بعد مائات السنين عن تفسير أشياء مثل تلك.

لا أحد يسأل عن إهدار المال العام. فهو السيد المبجل ولم نسمع يوما أن تم اتهام أحد منهم في قضايا فساد أو سوء إدارة.

تطورت مع الوقت شخصية اللواء حتى أضحى يسر لبعض خاصته في اللقاءات المغلقة أنه أحق بأن يكون نائبا لرئيس الجمهورية من تلك البقرة الحلوب. يقصد بذلك الرجل العسكري

الذي أختاره الرئيس السادات- بسبب وجهه العريض- ولكن قد أتته لاحقا نصيحة من أحد أقاربه يعمل في جهاز سيادى في الدولة أن حديثه الخاص قد وصل القاهرة فعليه الحذر. فاقنع بنصيحة قريبة وطمأنه بالحماية، فبدلاً من الطموح الزاد، عليه أن ينغمس في المحافظة النائبة التي تركوها له يفعل بها ما يشاء.

أبلغ المحافظ فاروق أنه سوف يزور القصير في شهر مارس القادم حتى يفتتح الجامع الجديد. على الرغم من الفرح الطاغية على فاروق، إلا أنه صعق من التفكير بعد اللحظة الأولى من نشوة البهجة بقرب الميعاد. ولكنه استشعر بالنظر في قسّمات الرجل الصارمة أنه لا يستطيع أن يطلب منه التعديل. مهما أصبحت مقرباً من أشخاص مثل اللواء عفت فعليك الانتباه حتى لا تكون ضحية في أي وقت. فخرج ساهما يكلم نفسه كيف الجامع ينتهى في شهر مارس القادم. لو كان العمال من الجن وسليمان يقف أمامهم لن ينتهوا. أسرع خلفه سكرتير المحافظ ووقفه. كان رجل قصير القامة، ناعم في كلماته وله يد ملساء متعرقّة دائماً كأنه يعمل في زيوت الشعر أو ترطيب البشرة. فقال له: «هل هذا وجه شخص سوف يكون المحافظ في زيارته قريباً؟».

- أنت تعلم ما جعلنى أغتم، كيف للجامع أن يكتمل قبل زيارة السيد المحافظ؟.

- أين المشكلة. لا توجد من الأساس. لا تتعجب من حديثى يا فاروق بك. أنت تعلم كما أعزك فأنت شخص كريم

ويشرفنى أن أكون أخوك الأكبر سنا. فأنا قد تعلمت طوال خدمتى كيف أزيل العقبات واجمل الاخفاقات. المحافظ يريد أن يفتتح الجامع الكبير في القصير. ما المانع.

كان يتحدث للفاروق وهو يسحبه برفق من ذراعه موجهها إياه صوب قاعة الاجتماعات. وأخذ يردد أن كل مشكلة لها حل. وعندما وصلا إلى القاعة الكبيرة ذات السقف العالى جلسا على إحدى المقاعد الخشبية الكثيرة المتناثرة بغير ترتيب التي تملأ القاعة. وخفض السكرتير صوته حتى لا يتردد مرة أخرى بسبب صدى الصوت. يبدو أنه جلس كثيرا في هذه القاعة مع آخرين. فقال: «مشكلة الجامع تعتبر أقل مشكلة لك يا فاروق بك». صمت لحظة ثم أردف قائلاً: «المهم في الجامع الواجهة الأمامية للباب الرئيسى، اجعل كل شيء في الواجهة منته من بناء وطلاء وباب فخم كبير للجامع فيأتي المحافظ ويبارك البناء وتأخذ صورة تذكارية للجميع». فابتسم فاروق ابتسامة ثعلب ابتهج بحكمة صديقه. وقال ضاحكا: «لقد تخيلت أنه لا بد أن يصلى اللواء داخل الجامع. لا تعلم يا صديقى مدى عرفانى لكل ما تفعله معى فمنذ أن تعارفنا فأنت عندى خلال العقد. ولن انسى لك دعمك الدائم لي عند المحافظ وبشائك التي لا تنتهى».

فقال السكرتير: «ارجو ألا تنتهى خدماتى بوصولك إلى البرلمان». فضغط فاروق على كتف السكرتير بصدق وإن كان قد بالغ في التعبير عنه قائلاً: «لا يمكن يا صديقى،

فهناك سوف احتاج من ينير الطريق أمامي وأنت خير دليل». وبعد وصلة مديح متبادلة بينهم. انتبه السكرتير بأنه لابد أن يعود إلى مكتبه فأسرع في أخبار فاروق بماذا يجب أن يفعل ليرتب للزيارة القادمة للمحافظ إلى مدينة القصير التي تعتبر الأولى له. انتقل فاروق إلى القصير بعد لقائه مع سكرتير المحافظ وهو يردد داخله ما نصحه به ذلك الماكر. رتب أفكاره جيدا وعند وصوله في المساء اتجه أولا إلى المحال وطلب من منصور أن يرسل في طلب أسعد طابية وبعد أن أتى أخذه فاروق معه صوب المقهى الوحيد في المدينة على ساحل البحر أمام بيوت القصيرية التي اعتاد الموظفون وأصحاب الأعمال أن يتسامروا فيه. وكلهم من القصيرية فالعبادة ما زالوا منغلقيين على أنفسهم ويفضلون السمر في مناطقهم حول الجبنة بين بيوتهم أو داخلها ونادرا ما يكون منهم موظفون في الحكومة.

بسبب بساطة المدينة وفقر المجتمع كان يعتبر هذا المقهى هو المقر الرئيسي لتسيير المدينة وملتقى الأخبار عن كل صغيرة أو كبيرة تحدث. لذلك كان يروق لرواده أن يطلقوا عليه مقهى الساسة. استعجب كل من كان في المقهى ليلتها عند دخول فاروق عليهم. لأنهم لم يعتادوا أن يروه هنا. وخيم الصمت لشوان عليهم، فأتاح لصوت المعالق أن تظهر وهي تقلب السكر في المشروبات الساخنة لتشعرهم بالدفء في ليلة شتوية. وبعد أن ابتلع الدخان الكثيف الذي يملأ المقهى كالضباب هبات الصقيع

الذي أتى به فاروق واسعد من فتحهما باب المقهى العتيق. بادرهم فاروق وهو يتوسط المقهى وينظر إليهم قائلاً: «الأيوجد من يعرض على شيء أشربه؟». فهاج كل الحاضرين وارتفعت أصواتهم بالترحيب به وعليه أن يختار من يجالسه. وبعد ابتسامات وشد وجذب لطيف قال فاروق: «أنني أتيت هنا كي أحدثكم جميعاً في أمر مهم، فأرجوكم اسمعوني جيداً». جلس بعدها فاروق في ركن من المقهى يستطيع أن يراه الجميع وعدلوا جميعاً من وضع مقاعدهم حتى يكونوا في اتجاهه. توقف البوفيه عن العمل والتزم الكل بالإنصات كأن على رؤسهم الطير حتى قال فاروق: «أنتم تعلمون مدى حبي للمدينة وأهلها ويعلم الله ذلك قبلكم فهو علام الغيوب». فتعالت أصوات الحاضرين تقول: «ونعم بالله». فأكمل فاروق حديثه وجعله بمسحة مهموم يريد الخير قائلاً: «لقد أخبرني المحافظ أنه يود أن يزور القصير، وهذا أتى بعد إلحاح مني في هذا الطلب، فقد صورت له أنها مدينة أجمل ما فيها أهلها». فهلل بعضهم متفاخراً بما سمع كأن فاروق ذكر اسمه وامتدحه أمام المحافظ. استطرد فاروق قائلاً: «تم الاتفاق بيني وبينه على أن تكون الزيارة في شهر مارس القادم، لذلك يجب علينا أن نجعل المدينة في أهبى حلتها حتى تستقبل الضيف الكريم، فهذه شيمتة القصيرية، لذلك أتيت اليكم لأنني أعلم أن أفاضل المدينة واكابرها دائماً موجودون هنا حتى تشيروا بما يجب أن نفعله قبل أن يأتي السيد اللواء عفت». فائسنى أغلب الحاضرون على ما قاله فاروق ولكن بعدها قد تداخلت الأصوات وزادت الحوارات

الجانبية وحدثت مشادات كلامية حادة بين شابين جامعين حديثي التخرج من جهة وبين أغلب الحاضرين بسبب أنهما سفها الزيارة قائلين «أنه مسؤل وليس ضيف، أخبروه أين الماء الذي لا تجده المدينة؟» ذكروه أن هذا عمله الذي يتقاضى عليه أجر؟». عندها أشار موظف كبير السن - حاصل على الابتدائية وهو مدير مكتب العمل - على فاروق هامسا بأن يجعل اللقاء في بيته غدا وأنه سوف يحضر الأشخاص الفعالين فقط، وسوف يبعد هؤلاء الرعاع غير المحترمين. أرضا هذا الرأي فاروق بسبب الثقة في صاحبه فهو من الأضلاع الأساسية التي كانت تساند الأستاذ تهاى قبل الأزمة الأخيرة.

\*\*\*\*

أتى الجمع المنتظر في اليوم التالي عصرا إلى بيت الأوانجى. كان يقف فاروق أمام باب البيت مرحبا بقدمهم ببشاشة واضحة داعبت مشاعر كل الحاضرين حتى من كانت عنده بعض الغضاظة من القدوم إلى بيت هذا الشاب الغير محبوب في المدينة. كانوا عشرين شخصا على الأقل بالنظرة السريعة لهم بالإضافة إلى الشيخ هارون ومنصور وكان الأخير مرتبكا وليس على سجيته فكان يتركهم كثيرا ليغيب في داخل البيت ويأتي لبضعة دقائق، ويعاود مرة أخرى لدرجة أن بعض الحاضرين ظن أن هناك عشاء يحضر لهم بالداخل ومنصور يتابع ذلك، فتدفقت إنزيمات المعدة كأنهم كلاب استخدمهم بافلوف في نظريته

الشرطية. ولا يعلمون أن منى تصرخ في محبسها وكأنها تريد أن تفضح أهلها عن عمد، فكان منصور في أشد أنواع الارتباك خوفاً من أن يسمع صراخها أحدهم، فكان يجرى كالمجنون بعد أن يغلق باب حجرة الضيوف خلفه ويتجه صوب غرفة منى ويقف عند الباب ينتفض يريد أن يدخل ويخنقها ليرتاح مثل رجل يريد أن يضرب زوجته ولكنه يخاف سوء العواقب فبعد أن يرفع يده ملوحاً بالضرب، ينزلها مجدداً وهو منهار لا يعلم ماذا يفعل. فيسمع أمه تقول: «يا ولدى. لا ينتبه إليها أحد، لا تخف، وإن سمعوها فالكل يعلم أن أختكم ليس عليها حرج». فيرجع إليهم ولكنه يعود بنفس الغضب. انشغل أغلب الوقت بأخته.

امتلات نفوس الزائرين بالرضا عن عددهم. وبعد وصلات الترحاب وورص أطباق الفاكهة أمام كل ثلاثه على منضدة دائرية صغيرة ثم أحضر أسعد طابية أكواب الشاي الغارق بها السكر لدرجة التشبع الذي كان يأخذها من سيده الحلبية التي كانت خلف الباب ولا يراها الجالسون في الحجرة الواسعة للضيوف.

يعرفهم جيداً فاروق بأسمائهم ويعلم من منهم الخبيث ومن الأبله. والأبله الذي يعنيه فاروق هي الطيب. معظمهم أعضاء من المجلس الشعبى وكانوا مثل الظل للأستاذ تهاى. لذلك كانوا لا يجدون حرجاً في أن يجلسوا كل يوم من العصر حتى منتصف الليل أمام منزله على الرصيف المقابل لانتظاره في الخروج من

شقته أو رجوعه من سفر خارج المدينة حتى يقدموا إليه بعض الطلبات أو الشكاوى أو إظهار الولاء والشوق إلى صحبته. فبعد أن رحل الرجل شعروا أنهم دون سند وقد حاول بعضهم التقرب إلى عضو العبادة ولكن لم يجدوا أبوابا مفتوحة مرحبه لهم. فانفك جمعهم وانشغل كل شخص منهم بأموره الخاصة. لذلك عندما سطع نجم فاروق في المدينة بسرعة البرق تعلقت قلوبهم بتتبع أثره وشاركوا في تضخيم القصص حوله وعن مدى علاقته النافذة في الأشهر القليلة الماضية ونصبوه بأن يعتلى منصب الشخصية الأولى في المدينة التي يعمل لها حساب من كل مسئول. وذلك لم يروه في الأستاذ تهامى الذي إن أراد شيئاً من الشرطة كان يستخدم الأساليب المهذبة من رجاء وتودد مثل مشكلة عزوز الشهيرة مع ضابط الشرطة.

شربوا الشاي في تلذذ بالسكر وأخذوا يمدحون الكرم الزائد للحج فاروق وتذكروا والده الصول ناصر وطلب أحدهم بقراءة الفاتحة على روحه. فعم الصمت أثناء ذلك وهز بعضهم رأسه في أسف على تذكره الفقيد وكأنه كان نعم الصديق وأخذ بعضهم يسرد القصص والحكايات التي تمجد في الأب. وعندما عم الانس في المجلس وارتاح كل شخص في مكانه وزال الشد والتحفظ قال فاروق: «أغلبكم كان موجود بالأمس عندما أخبرتكم عن الزيارة المرتقبة للواء عفت في شهر مارس. ولكن تعلمون كيف انتهى الأمر بالأمس». فتنهد بعضهم بزفرات

حزينة واضحة وقال أحدهم في نبرة حادة: «قلته أدب. لو كان التعليم يمنع الاحترام فاهلا بالجهل رفيق». فأثنى الحاضرون على كلامه لأنهم يعلمون ما يقصد. فأكمل فاروق قائلاً: «إن المحافظ حتى وإن كان مسئولاً ولكنه قبل كل شيء أنه ضيف على المحافظة، مهما طال به الزمن فسوف يغادر إلى بلاده لذلك وجب علينا واجب الضيافة، أليس كذلك؟». ثم استطرد بعد أن ضجت الحجرة بكلمات طبعاً ونعم من المستمعين قائلاً: «فأنا مثلاً سوف ادهن واجهة بيتي قبل أن يزورنا السيد المحافظ ولكن من باب أولى، أن أجمل القصير مدينتي التي ولدت فيها وأشعر بالفخر أنى من أهلها». توقف عن الكلام وهو ينظر إلى الوجوه. فقال أحدهم: «أنى معك». وقال الآخر: «فاروق ابن القصير البار ونعم الشباب». فأكمل حديثه قائلاً: «لا أستطيع أن أفعل كل شيء بمفردي، ما فكرت فيه أن يفتح المحافظ جامع الإيمان الذي يبني في شمال المدينة». وعندما شاهد فاروق نظرات التعجب والاستغراب. ابتسم وخرجت منه بعض الضحكات الخافته التي توضح أنه يعلم بواطن الأمور فقال: «بالطبع لن ينتهي البناء للجامع في هذه الشهور القليلة ولكن نجهز فقد واجهة المبنى ونجعل الحجر التذكارى باسم المحافظ أمام الجامع، لأنه قد ينتهي البناء في هذا الجامع بعد سنة أو أكثر وقد يتغير المحافظ ويأتي آخر ليفتتحه وأعتقد أن هذا ظلم لأن صاحب الفضل الأول لهذا العمل هو اللواء عفت، أليس كذلك يا شيخ هارون؟». فاندفع الشيخ هارون كأنه مجرى ماء محجوز خلف سد وقد رفع الحاجز.

فليس من طبيعته السكوت فى اى تجمع قائلاً: «أى نعم، وهذا حق وواجب علينا، فقبل أن نشكر الله يجب أن علينا أن نشكر من أجرى الله على يده النعمة، والله الذي لا إله إلا هو، لقد خاطر هذا الرجل بمنصبه وأنتم تعلمون جيداً مدى علاقة من أراد بناء بيت الكفر بالمسئولين فى القاهرة». كان التلميح واضحاً لهم بأنه يقصد الأستاذ تهامى. فتأسف البعض عما ألت إليه الأمور فى ذلك الرجل الذي كانوا يحبونه وسعد آخرون لهذه الغيبة وأرادوا أن يزيدوا. لولا أن فاروق كان يستعجل فى تنفيذ ما خططه مسبقاً مع سكرتير المحافظه لكان تركهم يخوضوا فى سيرته. فسحب فاروق دفعة الحديث مرة أخرى قائلاً: «ولكن أرى أنه لا بد من وجود مشاريع أخرى حتى يفتتحها المحافظ، ولكنى قد مررت عدة مرات بسيارتى من المستعمرة شمالاً حتى العوينة والعدوة جنوباً لم أجد أى شيء يدعو إلى الأهمية حتى نصحب المحافظ ليراه». فارتفع صوت الأستاذ مدير مكتب العمل قائلاً: «بل يوجد يا حاج فاروق ولكن الأمر يحتاج بعض الخبرة». فضيق عينيه التي دفتتها التجاعيد حولها كى يرى رد فعل الحاضرين فهو ضعيف النظر وأخر نظارة استخدمها قد سقطت منه فى ماء البحر منذ زمن أثناء الصيد ولم يذهب إلى القاهرة حتى يحصل على آخره جديدة. فابتسم بعضهم لثقتهم فى هذا اللئيم الذي يعد خبير بيروقراطى ويتشددق بفهمه للقانون أكثر من أى شخص فى المدينة. واشتهر بين الناس أنه إذا كتب طلب أو شكوى لا ترد، فهو ذوباع طويل فى تملق المسئولين ويحفظ أبيات كثيرة

من الشعر في المدح تجعل المسئول يذرف الدموع بسبب المكانة الرفيعة التي حصل عليها من صاحب الشكوى فيلبى الطلب وهو مخدر. وبالرغم من كل ذلك فهو فقير وظاهر اليد. لم يسرق أبدا عن طريق عمله أو يتلقى رشاً أو ولكنه فاسد دون أن يعلم. لأنه تربي على أن الحكومة شيء والمواطنين شيء أدنى، فلم ينصف موظف أو عامل طوال عمله الوظيفي ضد الهيئة التابع لها ولكن لو استشعر الغبن البين. فكان يحاول المساعدة بالطرق الودية واستعطاف المسئولين لرفع الظلم عن المظلوم.

أكمل حديثه عندما وجدهم جميعاً يتشوقون للمعرفة ما أثاره قائلاً: «كما جعلت المحافظ يفتتح الجامع قبل مواعده، نجعل ما يحدث في شهر مايو يأتي في شهر مارس». زادت علامات الاستفهام ترتسم على الجميع فاستطرد بعد لحظات قائلاً: «مراكب الفسيخ الثلاثة يا حضرات ما أقصد، فهي تترك القصير مغادرة كل عام في شهر مايو وسط توديع الأهالي في منظر بديع يفيض بالعبرات والمشاعر الفياضة، فالمراكب الثلاث لأكثر ثلاث عائلات في المدينة وأنا واحد من إحداهما، فرأيت أنه عندما يأتي المحافظ تكون المراكب مستعدة للإبحار ويودعهم المحافظ من الميناء ويكون معه بقية الضيوف. ويتكفل شخص مثلي بشرح أين تذهب المراكب ومتى تأتي وما الفائدة. وسوف أخدم البحارة بطلب بعض التسهيلات من المحافظ، حتى أزيل العقبات المتكررة كل عام في التصاريح التابعة لحرس الحدود».

فسأل ابن أحد أصحاب المراكب مستنكرا «كيف نساfer إلى السودان وارتدتيا من شهر مارس؟ هل يعقل هذا؟». فهمهم أغلب الحاضرين بتأييده. فسارع مدير مكتب العمل قائلا: «من قال هذا! المراكب تبحر حتى العدو وترجع تانى، والزوادة على الحج فاروق». فتعالت الضحكات عندما اتضح ما يقصد. واثنوا على هذه الفكرة. وبدأت تتفتق الأفكار على نفس المنوال. وكان أحد الحاضرين مشغول بالكتابة على قصاصة ورقة صغيرة اقتطعها من أطراف صفحات الجريدة التي فرشت بها الطاومات التي أمامهم، هذا الشخص يدعى الأستاذ جمال غزالتة وهو مدرس علوم ولكنه شديد الاهتمام بالجانب الرياضى في المدينة ودائما يلتف حوله الصغار. الشباب الصغير مبهورون به ومقلدون له، كان طويل القامة وذو بنية رياضية قوية لذلك كان يتفاخر أنه المدرس الوحيد في المدرسة الأعدادية الذي لم يتعدى عليه طالب، حتى أنه كان يتولى المسئولية في المدرسة إذا تناول أحد التلاميذ على مدرس آخر، وكان يأتي ببعض الأشياء التي تعجب صغار السن أنه كان يرتدى دائما الملابس الصيفية طوال السنة لا يردعه البرد في الشتاء وأيضا كان يتعمد أن يذكر رقم الصفحة في الكتاب المدرسى بعد أن يجيب عن سؤال لأحد الطلبة في مادة العلوم. أما الجانب الرياضى فكان هو من يرتب الدورات الرمضانية لكرة القدم الخماسية داخل القلعة، ومشارك نشط في مركز الشبان المسلمين الذي افتتح في المدينة من عشر سنوات مضت. ليس ك بعض الأعضاء الذين يختارون من عليّة

القوم في المدينة ولا يحضرون إلا في المناسبات. لذلك كان لا يهتم بقدم المحافظ أو ما يطمع إليه فاروق. وكان أصدق الموجودين نية للخدمة أبناء المدينة في الجانب الذي يعشقه وهو الرياضة ويحمل داخله أفكار ثورية اشتراكية اكتسبها أيام الجامعة عندما كان طالبا في أسيوط. ولكنه جعلها في سرداب عميق داخله لا يطلع أحد عليها. لذلك أشار على فاروق بالجانب الذي يحب تنميته فقال: «لابد أن نجعل يوم قدوم المحافظ مثل الأيام المفتوحة في المدرسة. فنجعله يوم احتفالي، تزين المدينة ببعض الاقمشة الملونة. وكما اشترت يا حج فاروق إلى طلاء بيتك، فإنى أطعم منك أن تضم مبنى نادى الشبان المسلمين كذلك وهو ليس بالمبنى الضخم فنجعله يرتدى ثوبا جديدا في هذا اليوم». فتلقف فاروق منه الحديث مبتهجا قائلا: «ما المانع من ذلك. هذا بيتى أيضا وقد لعبت مثلكم بين جدرانها ولنا ذكريات جميلة فيه».

- نعم نعم، ولكن الآن لا يوجد به أي نشاط، وأصبح خاويا مهجورا أغلب الوقت، لا توجد أي أدوات رياضية، فقد استهلكت على مدار السنين، حتى الدورة الرمضانية تلعب بالكرة الشراب في ساحة القلعة.

فتأسف الحاضرون وأكدوا بالهمهمات ما يقوله الأستاذ جمال. كان هذا التأكيد نابغ من أغلبهم بسبب خوفهم من بطش هذا المدرس الذي لا يعلم مهارة إلا استخدام يديه مع من يخالفه، لأنه لا يجيد فن مسك العصا من الوسط. فقال فاروق: «عندى فكرة لا

أعلم هل هي جيدة أم لا، لماذا لا نرتب دورة في كرة القدم ونطلق عليها دورة اللواء عفت. ونشترى كاس رمزي يقدمه المحافظ للفريق الفائز». هب الأستاذ جمال فرحا كأنه شعلته نار هبت من فوهة قائلا: «ونعم الرأي يا حاج فاروق وأنا سوف ارتب لك كل شيء ولكن يجب أن تكون هناك جوائز قيمة للفريق الأول والثاني على الأقل».

التهم الجمع كل أطباق الفاكهة التي على الطاولات. واستمتعوا بمزيد من أكواب الشاي وأنهى الاجتماع أذان المغرب، فانفضوا على اتفاق أن يتم التواصل المستمر بينهم حتى ينفذوا ما اتفقوا عليه. خرجوا من بيت الأوانجي ولا يوجد على لسانهم إلا شكر في هذا الشاب الذي اكتشفه اليوم وتأكدوا مدى قوته وأنه نعم المعين للقصير وأن المدينة فعلا ولادة ودائما يخرج منها من يعلى من شأنها. وأنه قد أتى اليوم الذي يكون ترتيب زيارة شخصية مهمة من أبناء المدينة، وليس من المصالح الحكومية. وأخذوا يستنكرون فراده وجماعات ما كانوا يظنونهم في هذا الشاب ابن الصول وأن الخطأ عليهم لأنهم لم يتعرفوا جيدا عليه قبل ذلك. وفاروق أيضا بادلهم مشاعر حسنة حتى أنه قال لأمه في تلك الليلة: «أنه لم يعلم أن القصيرية طيبين». فانشرح قلب الحاجة منيرة لما سمعته من ابنها ونصحته بأن يجعل منهم مقربين إليه كما كان يفعل الأستاذ تهاى. فوافقها الرأي ولكنه امتعض قليلا لاحترام الذي لم يزل موجودا الأستاذ تهاى عند

الحاجة منيرة في لحظة نطقها لاسمه.

\*\*\*\*

تواصل فاروق بعد أول أسبوع من لقاء الأوانجى مع مدير مكتب العمل وأصحاب المراكب الثلاثة. وبعد شد وجذب بسبب بعض الأمور مثل أن المراكب على الشاطئ خارج المياه. ولم يتم الانتهاء من تنظيفها من الصدف العالق في أسفلها وأنهم عليهم أن يبدأوا العمل في بعض أعمال الصيانة التي يفضلون أن يقوموا بها في أول الصيف وليس في هذه الأيام شديدة البرودة، لأنهم لو ادخلوا المراكب الماء في شهر مارس لن يخرجوها مجددا فهذا أمر شاق، يكتفوا بفعله مرة واحدة في السنة. ولكن استطاع فاروق أن يجعلهم يوافقوا على رأيه بمساعدة المكير مدير مكتب العمل، لأنه سوف يجعلهم يجلسون مع رتبة كبيرة في قوات حرس الحدود حتى يتغاضى عن بعض الإجراءات الصارمة مع الصيادين. مدى السعادة التي أحاطت بفاروق بعد انتهاء جلسته مع الصيادين لا توصف. ولكن ما أخبره به أستاذ العلوم جمال غزالي في صباح اليوم التالي في متجره قد فاق ما أنجزه في الليلة البارحة. فقد أتى الأستاذ بكراسة قديمة، كتب في وسطها عدة نقاط. وكانت هذه النقاط عبارة عن اقتراحات. أنه من الأفضل بعد أن يتم طلاء مبنى شبان المسلمين أن يتم وضع طاولة أو اثنتين للعب تنس الطاولة وتوضع في الصالة. فعندما يأتي المحافظ يفتح المبنى يجد في الداخل فتیان يلعبون تنس

طاولة، ويجد بعض الكرات المختلفة للكرة الطائرة والسلة والقدم وكل هذا ليس بالكثير كما وصفه الأستاذ غزالتة. فلم يمتعض فاروق، فكرمه يزيد في مثل هذه الأشياء. ووعده بأنه سوف يجلب كل هذه الأشياء من القاهرة في أقرب فرصة. واقترح أيضا الأستاذ جمال أن تكون الدورة في شبان المسلمين وليس في القلعة حتى يتم حبس كل الماعز الذي يسرح في الطرقات بها وبذلك تخلوا الشوارع منها. فحياه فاروق بحدة زائدة تشجيعا لفطنته الثاقبة لأن أمر كهذا كان سوف يفوت عليهم. وأخذ يتخيل مظهر الماعز البائس وهي تمشى في جماعات وتوقف موكب المحافظ، يالابشاعة المشهد. فابتسم الأستاذ جمال قائلا: «اسمع الاقتراح الأخير الذي سوف يبهج المحافظ ويجعل شكل المدينة راقى، كان في العام الماضى طابور عرض قد دربنا عليه تلاميذ المدرسة الأعدادية حتى يقدموه في الغردقة في العيد القومى للمحافظة. ولكن بعد كل ذلك المجهود والتعب قد تم إلغاء مشاركة القصير بسبب تكلفة المواصلات. وكان شيء محبط لنا تماما وخصوصا للتلاميذ، فقلت ما المانع أن اجمع هؤلاء التلاميذ مرة أخرى ونجعل العرض أمام المحافظ عندما يأتي ونفرح قلب هؤلاء الأطفال ببعض الجوائز المتواضعة». لم ينتظر الأستاذ غزالتة رد فاروق خوفا من الرفض فأردف قائلا: «والله أن هذا العمل سوف يجعل لك محبة أكبر وشان عظيم في قلوب الصغار قبل الكبار، وأن احببت أن تكثر من الجوائز، أستطيع أن أرتب لك أختراق للضاحية، وسباق للسباحة من السقالة حتى الشاطئ

المقابل للشبان المسلمين». راح فاروق يتخيل كل ما قاله أستاذ العلوم حتى أنه لم يجب عليه مباشرة بعد أن توقف عن الحديث. فانتبه فاروق للغضبة التي بدأت تظهر على الأستاذ غزالة فافاق من أحلامه قائلاً: «أنت عبقرى يا أستاذ الأجيال، لا تشغل بالك بالجوائز فهذه أشياء ضئيلة أمام الحدث، أفعل كل ما تريد وأنا معك في أي شيء، وكل نهاية أسبوع أنا في المدينة، نتقابل لنتابع سوياً ما انجزت». تنفس فاروق بعمق كأنه يستنشق الهواء لأول مرة وشعر ببهجة تسرى داخله كأن الروح ترقص، وقال لنفسه «كل شيء له حل» مردداً مقولة السكرتير. ولملم عباءته الثقيلة وأحكمها حوله قبل الخروج من المحال فالجوبه برودة واتجه صوب المسجد ليشكر الله على نفحاته. فبعد أن ظنها أنها ضاقت عليه وأيقن أنه انتهى، فإذا بالفرج يأتي من كل صوب. فتمتم أثناء سيره قائلاً: «أحمدك وأشكر فضلك». وبعد أن صلى، انتظر الشيخ هارون ليصحبه إلى بيته. فمشياً متشابكي الأذرع حتى بيت الأوانجى. فتذكر الشيخ هارون شيء عندما جلس في حجرة الضيوف فقال: «قبل أن تتركنى يا حج فاروق، أريد أن أخبرك بشيء ودائماً أنساه». فصنت إليه فاروق وجلس ساهماً. فدائماً يكون فاروق متحفز لسماع أخبار غير سارة. فاردف الشيخ هارون قائلاً: «اقترحوا عليك القصيرية عدة أشياء جيدة بمناسبة قدوم المحافظ، ولكن قد نسينا شيء طيب، أنت صاحب الفضل فيه، وهو المستوصف الملحق بالمسجد، به ثلاثة أطباء الآن ولكن أستطيع أن أكثر عددهم في أثناء زيارة اللواء وإن كان تهاى

أحضر دكتور الصغار الذي لم أشاهده مرة واحدة يصلى جماعة - يقصد الطبيب سراج، طبيب الأطفال ولكنه يستهزء به فالحج فاروق قد خدم المدينة بمستشفى كامل، أخبرنى من يا حج فاروق استطاع أن يجاريك في عمل الخير والعطاء؟». فرد فاروق قائلاً: «فعلا يا شيخ هارون، أنه المكان الأجدر بالزيارة، ومثل المثل القائل (ابنى في حجرى وأبحث عنه)».

بعد أن أبدل فاروق ملابسه وأتت صنية الغذاء محمله بما يلذ للشيخ هارون. ووضعتها سيدة الحلبية فوق طبلية. ألتقت السلام على الشيخ هارون ولكنه لم يرد ورفع عينيه إليها كأنه لم يسمع جيدا ما قالت، ورجع ببصره إلى المصحف الذي في يده وأظهر انشغاله بالبحث عن آية. فظنت أنه لم يسمع وبعد أن خرجت من الحجرة، انشرح صدره وانفرجت اساريه وانكب على الأرض يزحف بموخرته حتى وصل إلى طرف الصنية. وقال لفاروق وهو يمصمص شفتاه ويلوك لسانه: «طعام الأتقياء شفاء يا حج فاروق». وبعد أن التهم كل ما كان أمامه وامتلأ تمام، إلا أنه كان يريد أن تمد يده إلى قطعة لحم تركها فاروق بعد أن تناول منها القليل. وأخذ يتصبب عرقا كأنه في الصيف وكادت عينه تغلق. استجمع قوته بعد شربه للشاي واستطاع أن ينهض مجددا إلى الكنبه فلا بد عليه أن يقرأ في الصالة بمنتصف البيت بعض الآيات القرآنية الخاصة بالتحصينات من الجن والعفاريت التي كان يتلوها كل فترة منذ أن أخبر فاروق أن هناك عمل سحرى

معمول ضده وضد أهل بيته. وأصبح ذلك عرفاً أو طقساً يفعله الشيخ هارون كلما دعى إلى بيت الأوانجى وأحياناً كان يضع يده على رأس فاروق ويقرا عليه بعض الآيات القصيرة. زادت عقيدة كل أصحاب بيت الأوانجى فيما أخبرهم الشيخ هارون وتثبتوا بأن السحر أصبح ينفك كل يوم رويداً رويداً بسبب ما يرونه من انفراجة. فمنصور هداه الله وأقلع عن صحبة السوء. وتوبة سيدة الحلبيّة عن ما يغضب الإله لأنها تشاركه في عمله. وعودة الهدوء والصفاء بين فاروق وزوجته. لذلك كانوا حريصين دائماً بأن تكون القراءة في منتصف البيت حتى يتحصن البيت كله. أما الموضوع بالنسبة للشيخ هارون فكان شخصي. بينه وبين القسيس في المدينة. حتى أنه كان يفسر بعض النظرات الخاطفة من القسيس في المقابلات الشحيحة بينهما بأنها نظرات تحدى واضح وتبجح. كأنها تقول له سوف أجعل النكد والمرض ملازمين لك أيها الشيخ وسوف تعلم مدى قوتي قريباً. لذلك كان ينفعل أثناء القراءة في الصالة عندما يسمع صرخات المسجونة في آخر البيت فيزداد إيقاعه في الترتيل وهز جسده كالساحر في العصور القديمة. وهذا النوع من الحرب الخفية لا توجد فقط عند أمثال الشيخ هارون من السلفين. ولكنه عند الأكثرية حتى المتصوفين، على الرغم من رقة مشاعرهم بسبب اتجاههم إلى المحبة، وأنهم بالفعل لا يضمرون داخلهم أي شيء سيء لأي عقيدة أو دين مختلف عنهم، إلا أنهم يعتقدون أن الأوراد التي يقرأونها أثناء الليل والنهار هي لانزال الملائكة حتى يعم الخير والمحبة بين

الناس وتقل الحروب بين الدول. وأن ما يقرأه القسيس أو الراهب يصعب نزول الملائكة فيبتلى الناس بالضجر والكآبة. ولكن المتصوفين لا يعتقدون أن القسيس يفعل ذلك عن عمد ولكنه بسبب وجود أقسام وتراتيل قديمة توجد في الكتب القديمة غير مأذون بقراءتها الآن في هذا الزمن لأن عهدا قد انتهى، لذلك تجلب الشر وليس الخير. فتجد عندما يقتل شخص في قرية أو مدينة يحضروا القسيس حتى يخرج العفريت من المكان الذي قتل فيه. فالمسيحيين يتفاخرون بذلك والمسلمون يقولون القدر للأعمال القذرة.

\*\*\*\*

حاولت سيدة الحلبية كثيرا التودد للشيخ هارون. لكنه كان دائما يتجاهلها. كأنه لا يراها. فاعتقدت في أول الأمر أنه ذو طبيعة تستحي من النساء ولكن مع الوقت وحضوره المتكرر إلى بيت الأوانجى، استشعرت بغصة في قلبه منها. حتى أنها حاولت إزالتها بأن سألته ذات مرة وهي تقدم له طبق فاكهة بتملق وتودد عن ذبح الدجاج، هل تكفى بذكر الله في سرها أم تجهر بها قبل الذبح. أجابها وهو متأفف. فايقنت ساعتها أن هذا الشيخ لا يستريح لها وأنه لا يزال يضعها في منطقة حقيرة. وهذا بالفعل ما يكنه داخله الشيخ هارون للسيدة الحلبية. فهي واسعد طابية بالنسبة له طلاب دنيا وليس آخره. وإن إصلاح أحوالهم ما هو إلا ستار ليرتزقوا من بيت الأوانجى. وهذا ما يحير في شخصية هذا

الرجل. فمثلا كان شديد الغضب والتجهم عندما يرى الأطفال والشباب يلعبون الكرة أيام الأستاذ تهاى ويعتقد بأن ذلك لهو عن ذكر الله. وبعد ذلك كان وجهه يكاد يتمزق من ابتساماته العريضة لما سوف يفعله الأستاذ غزالتة من دورة للكرة القدم بين عدة فرق في المدينة وامتدح ذلك قائلاً: «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل». مستغلا مقولة قديمة نسبت إلى شخصية مشهورة من الرعييل الأول لأصحاب النبى. ويرى أن هناك علامات انحصار للعمل السفلى وأن الآيات القرآنية قد أتت مفعولها ويتفاخر بتوبة سيدة الحلبية أمام أتباعه. وفي نفس الوقت تحدثه نفسه أنها توبة مزيفة. داء الشيخ هارون هو المرض الاوسع انتشارا في المتدينين والمحبين على اختلاف أنواعهم. لا يرون سوءة المحبوب. «أما الأبل فهى لى، وأما البيت فله رب يحميه». لو كان القائل أحد آخر غير صاحب المقولة، هل كان التفسير لها بنفس الرأى الذي يقول بأنه اعتقاد لصاحبها قوى في قدرة الله وأنه سوف يحمى بيته، أما كان سيوصف بأنه فضل مصلحته المادية عن حماية بيت الله. ولن يفرق عن من قال «أذهب أنت وربك فقاتلا». لذلك المحبة لا تضرب بين شخصين ولكنها الشركه إذا كانت محبة قطيع فإنها تغيب العقل.

فأضحت سيدة الحلبية تتفوه ببعض الكلمات السيئة أمام الحاجة منيرة عن الشيخ هارون. فعندما تقوم لتحضر له الطعام أو تحضر له مشروبا كانت تقول للحاجة: «أعتقد أن هذا العجل سوف يأكلنا في النهاية إذا لم يجد ما يملأ بطنه». فتبتسم الحاجة

منيرة وأحيانا تضحك. وارتدت سيدة إلى عهدها السابق بعد فترة قليلة إلى ضرب الودع. فعلت هذا برغبة طفل يتعمد فعل الخطأ. فأحضرت بعض الودعات الصغيرة من الشاطئ وكانت تستمتع بفعل ذلك في بيت الأوانجى مع الحاجة منيرة في الليالى التي يكون منصور فيها في البحر. مع تعليمات صارمة من الحاجة منيرة بأن لا تفعل ذلك خارج البيت أبدا مع أي شخص. ومع الأيام زادت الألفة بينهن حتى وصل الأمر بسيدة أن أشارت على الحاجة منيرة ذات يوم بأنه يجب عليها أن تبخر ابنتها في المكان الذي انقض عليها الاشرار. ووجدت أن الأم قد فكرت في هذا الأمر قبل ذلك. ولكن لا يوجد حل لأخذ منى إلى منطقة اللاسلكى. ولكن مع الحديث عن هذه المشكلة. خلصت المشورة أن تحضر سيدة الحلبية طبق واسع معدنى وتملؤه بتراب من منطقة اللاسلكى. فعلت سيدة ذلك في يوم كان البيت خاوى من الذكور. وجهزت عجينة البخور من شحم ماعز وحنة وكسبرة وملح وعين العفريت الأحمر ذو النقطة السوداء. وضعت يومها بعض الجمرات من فحم مشتعل فوق الرمل ودخلن غرفة منى وتركن الطبق على الأرض وأوقض منى بالقرب من الطبق وبدأت الأم بنثر البخور فوق الفحم المشتغل. فامتلتت الغرفة بالدخان الكثيف بسبب عين العفريت وأخذن يوجهن منى حتى تخطو فوق الطبق ثلاث مرات. وبعد ذلك أخذت سيدة الحلبية الطبق وألقته في اللاسلكى. فرحت أشد الفرح ليلتها لأنها فعلت شيء لا يحبه الشيخ هارون. ومن سرورها اتجهت إلى العدو ليلًا لتتسامر مع رضينة لأنها تعلم أن حامد في البحر

مع منصور. ولكن انطفئت فرحتها عندما قابلت رضينة فقد وجدتها مهمومة وليست الفتاة الصغيرة النشيطة التي كانت ترى كل السرور في أي شيء في القصير. كيف ينطفئ النور بهذه السهولة. فسألتها: «هل اغضبك حامد؟». وعندما لم تجب رضينة، أكملت سيدة حديثها مداعبه رضينة «ان الرجال عندما يعتادوا المرأة يرغبوا عنها بعد ذلك». فلم تجد رد لها إلا ابتسامة خافتة، أظهرتها خطوط النور الصفراء المتارجحة من لمبة الكيروسين على الجدران. عندها توحدت معها سيدة في حزنها قبل أن تخبرها رضينة وأخذت تواسيها حتى علمت أن حامد مكتئب بسبب تأخر الحمل. وأتى زواج طليقته كأنه جبل وضع فوق ظهره. وقالت رضينة والدموع تدرف «إني لا أبغى من الدنيا إلا أن أسعده كما أسعدنى، وأنت تعلمين مدى رقة قلبه. ولكن الناس لا ترحم، لا يمر علينا يوم إلا والكل يسأل هل هناك مولود قادم، لماذا لا يتركونا، حتى أنه قد بدأ في التغير، الحزن يجعله فاقد الشهية، مفتقد الحماس، قليل الكلام، أعلم السبب ولكن لا أستطيع أن أخبره أنى أعلم لماذا تتألم، وأتصنع الجهل وأنى لم أسمع ما يقوله الجيران».

كل ما قالته رضينة لسيدة كان واقعا بغیضا حل على البيت الذي ما زالت آثار فرحة الزواج ترى على جدرانها الجديدة التي لم يأت الزمن ليطفئ بهجتها. ونقش الحنة على كفيها وقدميها يكاد ينطق بأنها ما زالت عروس. لم تأت سحابة الحزن وتلقى غمامتها المظلمة عليهم إلا بعد علمه بزواج مطلقة.

كان يترقب كل شهر اخبار الطمث عند رضينة بلهفة تحت وطأة أسئلة متطفلة من كل الذين يقابلوه. ودعوات يكرهها. كانت من طيبين أحيانا لا يستشعرون ما يفعلون كصفية وجيرانه أو خبثاء يتلذذوا في الاذء من عينة منصور. فبالرغم من المصيبة التي حطت على رأس هذا المتبلد واتجاهه إلى التدين حتى يستظل بكنف الله حتى يحميه ولكنه لم يفقد طبعه السيء وسماكة الجلد الغليظ الذي يمنع الإحساس. فلما كانوا يصطادوا على الشاطئ في الليالى القليلة التي يذهبون فيها إلى الصيد بسبب الشتاء. فكانوا متجاورين على الرمال بملا بسهم الثقيلة. ويرموا خيوط الصيد الرفيعة في الماء الغزير الذي يصل إلى أعلى درجات الامتلاء في شهور الشتاء. لذلك كان السمر انيسهم ليزيحوا ملل الانتظار. فذات مرة فأجئهم منصور بسؤاله لحامد: «أليس هناك قادم؟». فيرد حامد بالنفى فيتهكم منصور قائلاً: «هل قاعدة الصواريخ بها عطل؟». فيضحك وحيد ولا يجاربه أحد. وبعدها تحول إلى أمر آخر كأنه لم يفعل أي شيء. ولكنه قد فتح الجرح القديم بعد طلاقه زوجته السيئة واختلط الدماء بجرح حديث يراقبه كل لحظة ويشاهد مدى اتساع رقعته وعمقه الغار. من حسن حظه أن الليلة مظلمة ولا يوجد ضياء. تألم له صديقيه يونس والطبيب أشد الألم. برغم رقة حامد وبكائه السريع، إلا أن الحقد والأذى الذي يتلقاه أحيانا لا يجعل الدموع تذرف ولكن وجهه يفضحه فيبدي سمت الغضب الذي يسر جارحه، ولا يستطيع أن يبدو بشكل الذي لم ينتبه للإساءة.

لذلك أصبح حامد قليل الكلام مع زملائه وجيرانه دائما يشغل نفسه عنهم ويظهر أنه لا يمتلك وقت حتى يتبادل الحديث مع أحدهما لأنه أصبح مرتابا من أي بداية حوار مع أي شخص. يذهب إلى عمله كمتلصص يبتعد عن التجمعات. كأنه كلب شارع يمشى خائفا في الطرقات. مستعد أن يطلق ساقيه للريح في أي وقت لو وجد أحدهم ينحني على الأرض. لا مجال للانتظار هل الأنحاء لالتقاط حجر أما لشيء آخر. البعد هو السلامة. انزوى في بيته كل يوم يقلب في رأسه ما دار في يومه. ينفك الغم أحيانا بكتاب يهديه إليه الطبيب. يسرح بين صفحاته أو جلسة مودة بينه وبين صديقيه. يصبر نفسه بأن لا بد أن يكون في المستقبل ما يسعده. يعرف تمام أنه لم يصبح نفس الشخص الذي بدأ زواجه من ثلاثة أشهر. أين الفحولة التي كانت لا تهدى كل يوم. ما زال يرى السمراء جذابه وشبقة دائما تناديه ويرى في عينيها أنه أصبح كل عالمها ولكنه دخل سرداب مظلم لا يستطيع العودة منه إلى الضياء مرة أخرى. ويجد نفسه مجبر على الاستمرار في التقدم عسى أن يجد الضوء في نهايته. وهي حمولة صامته كالجبل القابع أمام خيام أهلها في صحراء حفافيت التي قدمت منها. حتى لا تشعره أنها لاحظت شيء. تنغمس في عملها وتزيد عليه. ينشرح صدرها عندما تسمع صوت ضحكاته مع صديقيه. ولم تغر من ذلك بل كانت تتشوق لقدومهما أن غابا. ومضت الأيام بين البسط والقبض مع حامد حتى أتت الضربة القاسمة. كان ذلك في يوم شاق للعمل تأخر حامد بسبب حالة

الطواري التي أصابت المدينة بسبب الزيارة التي سوف تأتي في شهر مارس. كان يطلق عليه رئيس المدينة بأنها الربيع القادم إلى القصير. ولكن الكل يعلم أنها بالنسبة له كأيام الخريف من الربيع الذي يمتلكه عندما يذكر اسم المحافظ أمامه. ابتسم حامد أثناء سيره بعد مغادرته جراج مجلس المدينة عندما تذكر هيئة العقيد رئيس المدينة وكيف كان يقاوم الضحك أمامه، عندما اصطحبوه ليرى لوحة الرخام التي نقش عليها اسم المحافظ التي وضعت في ساحة الجامع الجديد فعندما وصل وجدها مغطاة بقطعة قماش كأنها ستارة نافذة. فاصرباجلال واحترام زائد على ألا يفتحها حتى يكون السيد اللواء محافظ البحر الأحمر هو أول من يشاهدها. وأشار بأنه يجب أن يوضع أمامها خفير ليحرسها حتى لا يعبث بها الأطفال. ولكن حسان السائق الخاص به قال بمكر: « يجب أن تراجعها يا فندم، عسى أن يكون هناك خطأ في الحروف ولا يرى إلا أمام سيادة المحافظ يوم الافتتاح أمام الجمع فتقع الكارثة». فتغمز الحاضرون وكادت كلمات حسان أن تقتل العقيد لأنها تجسدت أمامه يالا الفاجعة، فهرع يفتح الستار في توتر فتمزقت بعض الخيوط الضعيفة من أطرافها وهو يقول: « إن كان هناك خطأ فلا زال أمامنا أكثر من شهر». انعطف حامد ناحية شارع البحر ليمر على يونس. فالوقت مناسب للزيارة فقد مروقت الغداء ولا قيلولة في الشتاء فالنهار قصير والشمس على عجلة من أمرها لا تكاد الساعة تصل إلى التاسعة صباحا وتكون الشمس في منتصف السماء. كلما ينظر حامد إلى

صديقه يشعر بأن هذه الدنيا ليس بها عدل بل خلقنا للمعاناة. فيصب غضبه على الأقدار والفسس سؤال من عينته «لماذا» يزحف إلى ذهنه. لا يستطيع تقبل ما أخبره به الدكتور سراج من أمر يونس بأن نقص الأكسجين عنده تظهر علاماته بوضوح. وأن هذا كفيل بأن ينهى على حياته في أي وقت. ولا توجد إمكانية للعلاج. إلا أن يكون هناك توفيق وحظ أو كما يقول حامد «أن يتدخل الإله الذي يجلس على عرشه فوق أو تحت مجرة اللبانه». نادى على يونس فلم يستطيع أن يدق على الباب العتيق لأنه منفتح على مصرعه كأنه فم حيوان اسطورى محنط مثل السمكة المنتفخة ذات الاشواك المعلقة على جدار البيت فوق الباب. يلمح الصغار يلعبون داخل وأصوات متداخلة للنساء. ولا أحد يسمع من الذي ينادى في الخارج واستمر يرفع في صوته لينتصر على الضجيج لأنه يستحق أن يقف أمام الباب ليروه من يسمع أصواتهم. حتى أتت النجدة من قبطان المنزل وهي تصرخ قائلة: «انظروا من في الخارج، هناك من ينادى يا عجر». فيبتسم حامد ويقول لنفسه «ما زالت بصحة جيدة». فيأتي الفرج عن طريق أحد أبناء سالم فيقول: «عم حامد يا جدة». فيلبى حامد النداء من صفية بالدخول فلا يوجد غريب كما قالت. فيجد الصالة مكتظه بكل عائلتها على شكل نصف دائرة وراس العائلة عزوز في منتصف قطر الدائرة يجلس على الأرض ساندا ظهره على كنبه سالم. بإضافة لوجود سيدة الحلبية بجوار صفية ويظهر على وجوههم المحمرة أنهم كانوا في وصلات من

الضحك والهزل. فقال حامد على استحياء: «أتمنى ألا أكون قد افسدت لحظة السعادة التي أراها عليكم باديتي». فقالت صفية: «هل هناك سعادة وهذا الرجل على قيد الحياة». فرد عزوز وهو ينظر إلى اللاشيء كأنه يوجه حديثه للشخص لا يراه غيره: «أنا الذي لم اسمع نصيحتك يا امي، عليها رحمة الله». فقالت صفية في تهكم: «رحمة الله وبركاته، وهل راينا لك أم أو أب، أنا كنت صغيرة وهو كان على مشارف المعاش». فظهرت أسنان عزوز الباقية كأنها انياب فقط وهو يضحك فقال: «اجلس يا حامد بجوار يونس هذا الطفل فإنه مولود من ثلاث سنوات، فقد خلفته بعد المعاش مباشرة». فاهتز من شدة الضحك ولكن لم يشاركوه لأنهم كلهم في صف صفية. فالتجته صفية لحامد وهي تقول: «أنت لا تعرف أهله فهم من كثرة نوادرهم في الغباء أصبحوا معرفة القصير فلا تخلو جلسة إلا ويكون حاضرين فيها كأنهم أقارب على الكسار وشكوكو». ثم واصلت في أسى مضحك قائلة: «لا انسى كلمة أبي عندما قال لي اقبله زوجا يا بنتي، أن لم تجدى فيه خير فتكفيك خفة ظله مثل أهله، كأنه يقول تزوجي الارجوز فإن أخفق كزوج، فسوف يسليك». فانفجر الجميع في الضحك وازدادوا فيه تحية للصفية وأن عزوز لا يحزنه هذا بل يزيده طربا. ويجعله أكثر استرجالا للفكاهة. وعندما انتهوا إلا يونس الذي لا يستطيع الإيقاف. قال عزوز: «أتعلم يا حامد أن بيتي أهلى كان بعيد عن هنا وكنت امضى الليل أحيانا عند صديق كان جار لهم بأي حجج حتى أعاين

بنفسى البضاعة- يقصد صفيّة- أثناء الذهاب والاياب، فتمت فوق سطح منزل هذا الصديق في ليلة شديدة الحرارة. وكان بيتهم أعلى بقليل من منزل البضاعة، وعندما استقيظت قبل الجميع مع أول ضوء فوجدت كل أهلها على السطح يغطون في النوم كاهل الكهف وهذا طبيعى ولكن غير الطبيعى». صمت عزوز بسبب اهتزازة الشديد من الضحك ودمعت عيناه وهو ينظر إلى صفيّة التي لوت شفيتها مستاءة من الحديث وترسم على وجهها تظاهرا كأنها تنتظر مثلهم نهاية القصة التي لا تعرفها من الاساس. فأردف قائلاً: «ولكن الغير طبيعى أن كل واحد فيهم مربوط كالخروف من قدمه بحبل نهايته معقودة في عمود معدن مثبت في وسط السقف، البهائم تخاف أن تسقط أثناء الليل». لم يستطيع أحد الوقوف في صف المجاملة. فأشاحت صفيّة بوجهها فهي لا تحب أن تهزم حتى في الهزل مثل الشخص الذي يأخذ لعب الطاولة أو الدمنيو كحياة أو موت. ومن غير مقدمات نظرت إلى حامد فقالت: «لابد أن تشد عزمك، فاطمة حبلت من واحد مثل هذا الكهل». وهي تشير إلى عزوز. فانطفأ وهج اللحظة والأنس مثل عود كبريت اغمس في الماء. فقال حامد بحزن شديد: «كل واحد بياخذ نصيبه». واستأذن في الذهاب في صمت حل على الجميع. ولم يمهلهم حامد ليصر أحدهم على ابقاءه. انسلخ سريعاً وانطلق من البيت. قال عزوز: «انك غليظة القلب، ما الداعى لأن تخبريه بذلك». فردت وهي مرتبكه بعض الشيء ويلحظ الجميع مدى الأسف الذي ملأ أقسام وجهها كأنه ماء غمر الأرض قائلة:

«فضلت أن يعلم منى، خير من أن يخبره أحد، فيكون مستعداً للصدمة». نهض يونس وهو يحاول بقدر استطاعته أن يكون سريعاً ولكنه أجهد لدرجة مهولة أمام البيت وهو ينادى على حامد الذي أختفى في أول منحى. فتقوس ظهره ونظر إلى أسفل وذراعه على الحائط مستنداً عليه وأنفاسه تتلاحق. استاءت سيدة الحلبية بشدة من هذا الموقف. واستعجبت من الرقة التي أظهرها عزوز لحامد. واستولى عليها الألم واللوم لنفسها فهي من أخبرت صفيّة بحمل فاطمة التي علمته قبل مجيئها إليها. و أفصحت عن تخوفها من صدمة حامد لو علم الخبر.

أوت إلى حجرة منى عندما وصلت بيت الأوانجى. وانشغلت عما من في البيت. فإنهم يتركونها عندما تكون مع الفتاة. منى صامتة فقد استسلمت للسجن وإلى ما ينمو في أحشائها. أضحت الغريزة الحيوانية هي من توجهها. وكل يوم يمر عليها تكون اهدى واقل ضجة وتذمر. جلست سيدة أمام سريرها على الأرض على الرغم من وجود كرسى. جلستها تذكرها يوم الانتظار على الطريق لا تعرف أين المصير. ينهش فيها مظهر حامد الجريح وهو يغادر، كيف نطقت بها يا صفيّة «أنت دائماً ترمى وبعدها تندمى على فعلتك». تذكرت يوم أن جرحتها صفيّة بوصفها للزينات بأنه من الحلب وكيف أنها انتبهت بعدها. نامت منى ولم تقوم سيدة من مكانها على الرغم من البرد الذي يتسرب إليها من البلاط كأنها تعاقب نفسها. واستمرت تتذكر كل فعل طيب من حامد منذ أن قابلته أول مرة. سمعت رعشة منى من

البرد فهبت إليها لتحكم الغطاء حولها. فهبط إليها أثناء ما تفعله فكرة كأنها وحى. اطفأت الانوار وتركت الحجرة بحرص على ألا تحدث أي ضجة، لا تريد أن يراه أصحاب البيت. اتجهت صوب حجرتها الصغيرة واغلقت الباب في سكون حتى لا يسمعها أحد. كانت تحافظ على ما خطر على بالها. استلقت على السرير الخشبي وغطت جميع جسدها وبعد أن انتشر الدفء من أنفاسها. سألت نفسها «لم لا؟». استشعرت بأثارة أعجبتها وتبدل الحزن فرحا ونامت بعد ذلك نوما عميقا وأخذت الأحلام تتدافع إليها من الماضى البعيد، من أيام طفولتها والجرى في شوارع القرى والنجوم مع أطفال من نفس ملامحها وبنفس قدر الحرمان.

\*\*\*\*

لم يذهب حامد إلى بيته بعد أن علم بحمل زوجته السابقة. لم يحمل حامد أي ضغينة إلى صفيّة فقد ابتلع الخبر كل شيء. أخذ يهرول يومها كأنه أصابه صرع. لا يسمع جيدا ما حوله أثناء السير، كل ما يصل إلى أذنه أصوات متداخلة سريعة كأنها صوت قادم من شريط كاسيت وقد أسرع الصوت بالضغط على زر. يتابع خطواته المتسارعة الهستيرية. شيء داخله يطالبه بأن يسقط أرضا وسوف يحملونه إلى بيته «هذا المسكين أولى بالعطف، ابكى يا حامد، استحضر الطيبة في البشر، أغمض عينيك وانهار على أرض الطريق، الآن هو الوقت المناسب، اسمع حديثي، إن اشعر بثقل في أسفل قدمك، انصت إليّ، لن تتركك

السمراء، هي تحبك، سوف تصرخ عندما تراهم يحملونك إليها، سوف تشاهد المحبة، الكل سوف يرى كيف يكون الحب وتصبح قصتك هي الأشهر في الوفاء في المدينة».

استمر في المقاومة حتى أوصلته قدماه إلى عشة فضائية على غير هدى. رمى نفسه في أحضانها. تركته يبكي ولا تسأله عن السبب. تشاركه النواح متذكراً ابنها الذي مات منذ سنوات بعيدة.

مع طقطقات الحطب تحت براد الشاي والإضاءة القليلة المنبعثة من الموقد والسكون الذي يزيده عمق صوت البحر الهائج. كانت كلمات حامد للفضائية معبرة عن حزنه. وأخبرها أن ما يؤلمه ليس حمل فاطمة ولكنه يأتي بمذلة له بين الجهلاء. وأصبح هذا الأمر ينغص عليه حياته ورضيته ليست بالحصينة فقد تصدق ما قد يقال فيه. واسته فضائية بقلب أم، فارتوت كلماتها بصدق مشاعرها. وأخذت تقص عليه قصصاً من الزمن الطويل الذي عاشته وكيف وجدت الفرح حزناً والحزن فرحاً مع الأيام. فانتبه حامد إلى ما تشير إليه أحياناً رمزا في حديثها عن ابنها، فقال لنفسه «لا توجد راحة في الحياة». فأظهر إليها أنه قد ارتاح بعد أن طهر قلبه بالبث والشكاية. ولم تمر ساعة إلا وكان حامد قد عاد إلى طبيعته في لقاءاته مع فضائية. عندها أضاءت سيارة انحرفت قادمة من الطريق إلى العشة. وبعد أن أطفأ السائق النور. علم حامد أن الدكتور سراج. وتساءل «ماذا أتى به؟».

ولكنه عرف الجواب عندما فتح الشخص الذي بجوار الباب في بطاء، أنه يونس. رجع معهم حامد إلى البيت. فقد علم أن يونس قد ذهب إلى الدكتور سراج وبعدها سألوا عنه رضينة وعندما أجابت بالنفى وأنه لم يحضر. اتجهوا دون تفكير إلى الكيلو عشر جنوب القصير. لم يكلمه الدكتور سراج في أي شيء، التزم الرجل الصمت إلا من بعض الكلمات القليلة، مثل زوجك قلقت عليك ويونس كاد يغمى عليه من صعود السلالم لشقتي. كان وجه حامد عابس وبه الغضب ظاهر في رده على الدكتور سراج «وما الداعي لكل هذا». بالطبع لم يجب أحد، حتى أوصلوه أمام بيته وظهر نور السيارة عندما سطع على البيت رضينة وهي واقفة على الباب تتلفع بشال من البرد يغطي نصفها العلوي كله. كما تركوها عندما أتوا للسؤال عنه. ودعهم في شكر مقتضب. أغلقت خلفه الباب، فاستعجبت من صمته. تبعته وهو يبذل ملابس العمل ولم تمهله حتى ينتهي فقالت: «ماذا حدث؟ ما الذي جعلك تتأخر في العودة حتى الآن هل حدث مكروه لك. وما زاد قلقي أن أصدقاءك لا يعلمون مكانك. وكان الطبيب به جذع عندما علم بعدم وجودك وإن كان قد حاول أن يخفيه». لم يجيب حامد واتجه إلى الحوش ولكنه غير رأيه بعد عدة خطوات بسبب الصقيع، ورجع إلى الحجرة. كانت واقفة كما هي لم تتحرك. جلس حامد على السرير وعندما اشتد الصمت بينهم. هي واقفة وهو جالس. لا يعلم ماذا يقول. فشعر بالواجب عليه أن يتكلم. فقال: «هل أصابك القلق؟». كان يعلم الإجابة

ولكنه يعطى لنفسه فرصة ليفكر في ماذا يقول. فأجابت كأنها تمثال لن يتحرك: «وعلى من أجزع إذا لم أقلق عليك». فمد ذراعه ليجذبها إليه بلطف. فجلست بجواره فقال: «كنت مهموما وكان الغضب يسيطر عليّ، ففضلت ألا اتى إلى البيت فألقاك بوجه عابس، فقادتني قدماى إلى فضائية. وأنت تعلم أنها بمنزلة الأم عندي».

- وما ذلك الشيء الذي كدر عليك يومك.

قالتها بصوت حنون قلق.

- الحياة في أغلبها شقاء، وقليل ما نجد فيها السعادة.

فضمها إليه كالطفلة الصغيرة في إشارة بأنه يقصدها بنهاية جملته. استشعرت أنه لن يبوح أكثر عن حاله. فاكتمت بما يقول ولكنها أقسمت عليه أن يجعلها أول ملجأ له في الشدائد ولا يتركها لهواجس تنهش فيها بلا رحمة.

حاول أن ينام ولكن هيهات أن يستجيب. كان يفضل أن ينهض ويترك السرير ولكن أن فعل ذلك سيقلق رضيعته. فغرق في أفكاره واطبق الليل يمرح فوق أنفاسه. فالليل يزيد ما يجده. أن وجد حب وهيام رسم بريشته الأحلام وأن أتت الهموم والكدر أخذ يصب حممه ويغرز ابره في كل جرح. الليل على حسب ما تغذيه. فتساءل في غضب «لماذا أنت مستاء ومتألم لهذه الدرجة. ماذا تركت لغيرك. لك أعوام تقرو وتتفاخر بأنك تغيرت للأفضل.

لا أيها الواهم. الظاهر أنه كتب على كل من نبتت جذوره في هذه الأرض لابد أن يكون تلوث حتى ولو ادعى غير ذلك. تتأثر جولتك على الرغم من يقينك أن من يعتقد ذلك فهو جاهل. أنه شيء بعيد في أعماقك ما زال ينبض. مهما أنكرت ذلك فهو موجود. أصبحت تداهن الجهل حتى تعيش. لا. إن الأمر هو حب التربة، قد يكون هناك أمور جانبية ولكن الأساس. أريد أن أكون عائلة طالما مشيت في هذا الطريق. لو بقيت عازب لكنت الرغبة خمدت. كاذب أنك تريد أن تبعد شبهة النقص في الفحولة. لأنك كالثور الهائج الذي لا يهدى، تكسرفي عظام هذه النحيبة التي تعشق التهشيم، لو كنت بعهد أجدادك لكانوا وضعوك في مرتبة الالهة وأصبحت العجل المقدس أبيس». بحركة خفيفة لا تذكر لمس جانب من أرداف رضىينة أثناء تسمر عينيه في الحجرة المظلمة باتجاه السقف. فتنهد بحزن فقال لنفسه «العجل أصبح مهموما لا يستطيع أن يرجع إلى ما اعتاد عليه، اطرد الأفكار السلبية يا حامد، زوجتك الصغيرة لم تظهر لك أبدا أنها تفكر في الأطفال، بل هي طفلة سعيدة معك، انظر إليها لتعلم مقدار الحزن في الأيام الأخيرة الذي الما بها بسببك. حرمتها من الليالى التي كنتم قد تكاشفتم فيها وأصبح كلا منكما يعلم ماذا يريد وليفه، أبعاد كل هذه الحواجز التي هدمت، تقف ولا تتقدم حتى تطئ قدميك كل ما كان ممنوع وغير مسموح، وأنت ليس أول من يكون بلا أطفال». فلاح أمامه اثنين من وادى خريط كانوا في عمر والده، وسوف تقابل في حياتك من هم مثلك.

استمر على حالته كثيرا حتى أسقطه الإرهاق في النوم دون أن يشعر.

\*\*\*\*

من أذان الفجر. قرع خطوات سيدة الحلبية في البيت الأوانجى على البلاط لا يتوقف. قامت ببعض الأعمال المنزلية المعتادة ولكنها كانت تؤاذيها بسرعة. رغبة في إنهاء معظمها فقد عزمت أمرها على الخروج إلى شارع البحر في السابعة صباحا. لو صادفها منصور وتمعن النظر فيها وهو ذاهب إلى الصلاة في الفجر لكان استفسر منها عن سر البهجة التي تعلق وجهها في هذه الأيام الكئيبة التي يعيشها عندما يكون في البيت. ولكنه لا يرى أحدا عندما يستقيظ للصلاة الفجر فالأمر ما زال صعبا عليه. فيكون في هيئة النائم عندما يخرج وعندما ياتي، يهتئ للناظر إليه أنه سوف ينام على قارعة الطريق من تعب في جرقدميه على الأرض.

وصلت سيدة إلى المكان الذي خططت أن تكون فيه على شارع البحر وهو مكان يستطيع المرء فيه أن يرى العدو منه والشاطئ الرملي الذي يفصل العدو عن المدينة. على الرغم من بؤس المباني المتجاورة أمام الشارع الأسفلتي، إلا أن هناك جمال يلوح من بعيد ويخبر المشاهد كما كانت جميلة في الماضي، مثل سيدة جار عليها الزمن بمطرقتها وأبقى على أطلال تحكى الماضي. جلست على السور المطل على البحر في الجهة المقابلة

للبيوت ذات الطابقين. ترى شمس مكتمله، تتوارى أحيانا قليلة وراء سحب مارة. أخذت ترسل نظرها بعيدا وتمسح الشاطئ حتى وجدته قادم وحيدا. على الرغم من علمها أنها قد تضع علامات استفهام كثيرة حول لقاءها بحامد وخصوصا أن أغلب الذين يمرون في هذا الوقت المبكر هم عمال الشركة الذين يبحثون دائما عن أي شيء غريب يستعملوه كنميمة يتلذذون بها في أوقات العمل الشاقة. ولكن وجدت متعة خافتة في أعماق نفسها قد تركتها من سنين طويلة تلح عليها بالظهور. فما زالت الأنثى داخلها شابة على الرغم من قدم الجسد وسطوة العمر عليه. ابتسمت كالطفلة عندما رآها، سلم عليها وهو يظن أنه وجدها بالصدفة، ربما تشتري سمن أو زيت للبيت الأوانجي. عاجلته بأنها تريده في أمر مهم جدا وأنها تنتظره. لاحظت أن ابتساماته واهنه قد أصابها الإرهاق على الرغم من محاولته في إخفاء ذلك. بالطبع ما حدث عند صفيته هكذا استنتجت. حرك حامد قدميها بخطوتين جانبا وأرجعهما مرة أخرى بهيئة متعجل أمام سيدة الواقفة فقالت: «على أن أخبرك بأمر خطير، ولا أطيق أن أستمر في حمله بمفردي فأنا وحيدة». عندما رأت أثر ما تقول على وجهه من علامات الاستغراب والدهشة، فاردفت قائلة: «أنت أخی لذلك أرجو منك أن تحمله معي». وقبل أن يستفهم، رفعت يدها لتجعله ينتظر لتقول: «سوف أزوركما اليوم قبل الغروب وبعد أن أنهى زيارتي، أخرج معي حتى تصحبني في طريق العودة وعند ذلك سوف أقص عليك كل شيء والآن إلى اللقاء». انطلقت سيدة مسرعة وهو

مغروس في الأرض كأنه شجرة ويلاحقها بنظراته مصدوما مما سمعه منها. ما هذه الحيرة التي ألقته عليه سيدة. استرجع كل ما هو مشترك بينه وبين سيدة الحلبية من لقاءات هنا أو هناك، في الماضي أو الحاضر حتى يجد أي قشرة هشة يبنى عليها تصوره ليستنتج ما سوف تخبره به لم يجد شيئا. الشيء الوحيد الذي جعله ينتظر مطمئن هو طريقتها في الحديث عن الأمر الخطير، كان وجهها باسم وغير مرتبكة، لذلك رجحت كفة أن ما سوف تقوله بتأكيد لا يمثل ضررا عليه أو عليها.

\*\*\*\*

انشغل ذهنه أغلب الوقت أثناء العمل بلقائه مع سيدة الحلبية. كان هذا الانشغال طيب لحامد لأنه ازاح ما الما به منذ أن سمع خبر حمل زوجته السابقة. وفي أول المساء بعد غروب الشمس مباشرة كانت سيدة الحلبية تطرق الباب. جلست حول موقد الشاي معهما، كما كانت رضينة مبتهجة بقدمها فقد أصبحت سيدة صديقه لها وكانت تفضلها عن قريباتها في العدو من العبادة ويعد هذا كسر للنمطية التي تربت عليها رضينة في مجتمعها المنغلق. كان حامد يدقق النظر في سيدة أثناء حديثها معهم ويحاول أن يصل إلى أي كلمة تقوده إلى سر مقابلة الصباح الباكر ولكنه لم يجد جديد. وقبل أن تنهض سيدة حتى تغادر. أخرجت قطعة قماش من لفة كانت معها وأهدتها إلى رضينة. وعندما استأذنت الرحيل. قال حامد: «سوف

أرافقك حتى الشارع». فردت سيدة قائلته: «لا يوجد داعى لذلك فأنا لا اهاب الظلام». فاتجه حامد إلى الباب كأنه لم يسمعها. وما هي إلا خطوات حتى وصلا إلى قرب ماء البحر الهائج. فقرر حامد بعد أن ابتعد عن العدو قليلا أن يترك الشاطئ ويتجه ناحية الغرب ليصل إلى الشارع السريع الذي بين المدينة والعدوة. على الرغم من طول المسافة، إلا أنه أفضل للحديث فالبحر كانت أمواجه تبتلع الكلمات قبل أن تصل إلى الأذن. اتسخت أقدامهم من المشى في الرمال الرطبة ذات اللون البنى الفاتح كأن تحتها مواد بترولية. وصلا إلى الطريق ولا يوجد غيرهما والأغلب أنه لن تمر أي سيارة قادمة أو ذاهبة. قال حامد: «أظن أن هذا الطريق انسب للحديث من الشاطئ». فقالت سيدة: «نعم». ثم قصت سيدة الحلبيية سبب أقامتها في بيت الأوانجى وحمل منى وكيف أن أصحاب البيت كانوا في أشد الضيق والخوف من الفضيحة عند علمهم بها. وأن فاروق ومنصور كانا أقرب إلى قتل الفتاة لولا الأم. وأنهم أتوا بها حتى تجهض منى ويتخلصوا من الحمل. وأنها اوهمتهم أن الحمل مثبت جيدا. وأنها لو حاولت أن ترغم منى على الاجهاض سوف تتعرض إلى الموت. وكانت تعطى إلى منى أعشاب تساعد الجنين على النمو والثبات وهم يظنون أنها تعطيهما ما يسرع الإجهاض، وأنها خائفه الآن من أن يتذكر منصور ما كانت تعطيه لمنى فيكشف خديعتها لأنه أصبح مهتما الآن بالعطارة، لم تترك شيئا لم تطلع حامد عليه، فأخبرته بأدق التفاصيل عن ما يدور في بيت الأوانجى. كانت

صدمته إلى حامد معرفته بما حدث لتلك المسكينة. واشتعلت داخله رغبة الانتقام إلى هؤلاء العمال السفلة. وتذكر يوم عيد النصف عندما وجدهم يستفزون منى وهي ترمى عليهم الأحجار وصمتوا عندما نادى عليها. وشعر بالذنب كيف لما يلاحظ أنهم وحوش، واكتفى بنصحها بالابتعاد. كانا يتوقفا كثيرا أثناء الحديث لثقل ما كانت تلقى سيدة وعظم ما يسمع حامد، حتى وصلت سيدة عند المبنى الوحيد الذي على يمين الطريق وهو مبنى شبان المسلمين. فقد كانت البيوت القليلة موجودة على اليسار، فقررت التوقف حتى تخبره بالاهم لأن المبنى يحميهم من الريح فسوف يكون الحديث واضح دون لبس. فقالت: «قد اتفقوا - تقصد بيت الأوانجي - على ترك الرضيع بعد الولادة أمام جامع في قنا. وسوف أقوم أنا ومنصور بذلك وبالطبع سوف يكون ليلا، خطرت فكرة لدى دون التدقيق في كيفية تنفيذها، لا أعلم لماذا استولت على رأسى، وهي أن أعطيك الطفل تربيته بدلا من أن نرميه لمصير مجهول. بتأكيد سوف يكون سيئا». فصعق حامد من الفكرة وارتعش جسده كأن البرد قد أصابه الآن وقال: «ماذا تقولى؟! كيف لي أن أخذ الطفل واجعله معى، وماذا أخبر الناس عنه، وهؤلاء الحمقى لن يتركوه حيا إلا بعيدا عنهم، أستطيع أن اتخيل ما يدور في رأس منصور منذ علمه لما حدث لاخته». فقالت سيدة وهي تتلفت برأسها في الظلام الذي اشتد سواده: «أعلم أن الأمر صعب وشديد الحساسية لكل، المهم أن يكون عندك الاستعداد للقبول».

- لماذا اخترتني دون الناس؟.

- لمعرفتي الجيدة بك. وأن قلبك رقيق حتى القطة والكلاب لها نصيب أمام بيتك... وليس لي أبناء.  
قالها بصوت حزين.

- حتى لو كان لك أبناء، كنت سوف ألجأ إليك، لتحمل معي ما وضعته الأقدار على كاهلي. وأنا متأكدة أنك لن تغذني، يا حامد المستقبل لك ولزوجتك، من وضع في رأسك أنك لن تنجب، اطرد تلك الأوهام من رأسك حتى تستريح.

توقفت عن الحديث وفكرت أنه من الأفضل ألا تطيل في نقطة الإنجاب. ثم قالت بنبرة حاملة: «أنا الآن أشعر بأنى خفيفة كأن شيئاً كان قابعا فوق صدري وتحمرت منه، أمر الطفل أن أحسنت إليه وأخذته يكبر بين يديك كان اكرم لطفل وأن رفضت فليس عليك حرج في ذلك، أه هناك كلمات يجب أن تقال في مثل هذه الأمور حتى وإن كان مثلك لا يحتاج إليها، ما أخبرتك به يجب أن يكون سرا بيننا في جميع الأحوال».

- بالطبع وبلا شك، الآن أتركك تكمل السير وحدك،  
والحديث لم ينته.

أعطاها ظهره وبدأ يجد السير مع اتجاه الريح الباردة وهو لا يصدق ما أخبرته به، فتلفت إلى الورا فرأى خيالها ما زال قريبا كأنه يتأكد أنه ليس في حلم، لم يتوقع نهائيا بأن هناك

في بيت الأوانجى سر عظيم. «نعم الآن افهم لماذا تدين منصور، وعملت سيدة في بيتهم واختفاء منى. ولكن لماذا اخترتني سيدة حتى تفسى سرها عندي، اعتقد أنها عطفت على بسبب موقف صفيّة فارادت أن تعطيني الطفل، ولكن ليس العطف وحده فأنا أصدقها بأن ليس لها خيار مع غيري لتحدثه، كل من حولها لن يصون السر، وهي تبحث عن مشاركة أمينة، منى أيتها المسكينة، كم اعتصر قلبي ألما عندما اتصور ماذا فعلوا بك وأنت التي لم تؤذى أحدا، وليس للطفل ذنب فهو أيضا بريء. سوف يأتي إلى عالم يبغضه من يوم مولده، في أي شهر الآن؟ عيد النصف، سبتمبر اكتوبر نوفمبر ديسمبر يناير، اعتقد أنه في الشهر الرابع أو الخامس. ولكن كيف أخذ هذا الطفل؟ ويصبح في بيتي كما تصورت سيدة».

وصل البيت وتسامر مع رضينة قليلا وتحجج بالنعاس. أنه يحتاج أن يكون وحيدا صامتا حتى يسترجع مع قائلته سيدة. بمجرد استلقاءه على السرير عاد إلى الحال التي تركته فيها سيدة. وحدث نفسه «لا يجب أن أتوقف كثيرا عند هل تعطف سيدة على أم لا، هذا جانب غير مهم إذا قورن بحجم الخبر، لقد ظلمتك يا سيدة عندما جرحتك بسبب عمك عندهم، يجب على الإنسان ألا يعطى لنفسه حق الحكم على الناس، ما دام هذا الشخص لا يؤذى أحدا بفعلته، لا أنكر أن فكرة جعل الطفل لي، قد استهوتني ولكن كيف؟ هذا هو السؤال الذي

يجب أن أجد له إجابته، إن كنت أرغب في الطفل، اذهب إلى قنا في نفس اليوم وأتبنى الطفل وأرجع به إلى القصير، ولكن أكون قد حكمت على الطفل بالعار طوال حياته، فسوف تعطيني الحكومة ورقة تقول أنه ليس ابني وأنه ابن ملجأ، يكبر غريب في بيتي ومهان بين الناس. كأنني أعلفه وأسمنه ليأكلوه الناس بألسنتهم عندما يشتد عوده. فهل التبني هو الطعام والملبس؟!، هذا الحل به غلظة وإن كان مغلف بالوداعة والرقعة». وأخذت الأفكار تتلقفه يمينا ويسارا وخمدت النار التي التي كانت تجذبه إليها بأن يتبنى الطفل.

\*\*\*\*

ما زال وقع ما علمه من سيدة عليه عظيم ولكن كان له أثر إيجابي في نفسه. فاستصغرها ما يعانى منه أمام ما حدث لى وإن كانت هناك بعض مشاعر الشماتة تجاه منصور وفاروق.

انشغل في عمله وابتعد بقدر الإمكان عن الجلوس مع زملائه ومررت الأيام حتى أتى حسان إلى الورش على غير عادته فهو يتأفف من الوجود بها ويستعذب قول هذا دائما وهو ينفذ بعض الأتربة عن ملابسه أو ينظر بتفحص محقق جرائم عن شيء عالق في طرف كم القميص ويتسال «من أين أتت هذه الوبرة». فعندما جلس بالقرب من حامد همس في إذهنه مسمعا الجميع بأن طليقته حامل. دون أي ترتيب أو تفكير، وجد حامد نفسه يندفع ليوهم حسان بأن زوجته حامل أيضا كشخص انزلقت

قدمه فكاد أن يسقط من أعلى جبل فأسرعت يده لتتشبث بنتوء رماه القدر بالقرب منه. لم يقولها بطريقة مباشرة على الرغم من الحاح حسان الذي تغير تماما من الحالة التي جاء بها ليتنمر إلى حالة مغايرة كأنه شخص دعى إلى حفل وعندما حضر لم يجد الحفاوة التي كان يمنى النفس بها وأصبح يتنطع على الآخرين وهم ينفرون منه كأنه لا يليق بمجالستهم. سريوما حامد من خيبة الأمل الذي لحقت بحسان. جعل حامد الحسد مطية له تبعد المتطفلين عنه. عيناه تخبرهم بأن هناك مولود قادم ولسانه ينكر، فانقشع الضباب الذي كان يجعل الكون ضيق حوله.

\*\*\*\*

صوت الطبول يعلو حتى يصل إلى السحب فوق المدينة ثم يتوقف فجأة دون تناسق. اقترح الدكتور سراج على يونس أن يلقوا نظرة على التلاميذ قبل أن يتجهوا إلى العدو. فلقد أخبر الأستاذ جمال الطبيب بأمر العرض. راقى الفكرة إلى يونس، فابن أخيه هناك ولكن مشى السلحفاة منعه. لا تتعدى المسافة بين شقة الطبيب والمدرسة الإعدادية الوحيدة بثلاث أو أربع دقائق بالسيارة. كانت المدرسة في غرب الطريق المؤدى إلى المستعمرة، بعد الجامع الجديد بقليل في الجهة المقابلة، دون سور يحيطها ولا توجد حولها بيوت. كان التلاميذ بملابسهم الفقيرة ولكن لا يستشعرون فقرها، يجلسون على الأرض الترابية الصلبة مثل لاعبين لكرة قدم في حصة تدريبية والأستاذ جمال غزالتة

هو الوحيد الواقف يمشى بينهم. وعندما وصل الدكتور سراج ويونس. شعر الأطفال بأهميتهم بسبب حضور الطبيب بقامته المهيبة وارتسمت على وجوه بعضهم علامات الجذ وهم يسمعون الأستاذ غزالتة ويسترقون النظرات ناحيته. مشى الطبيب ويونس بضعة خطوات بعيدا عن السيارة ليقتربا قليلا من جمعهم. لوح بيده الأستاذ غزالتة لهما. كان يراجع أسماء التلاميذ الذين كانوا معه في العام الماضي. قسم قطعة الأرض - الجالسين عليه الصغار - إلى ثلاث مناطق في ذهنه فمن يجد أمام اسمه في الورقة الكبيرة التي بين يده بأنه ممتاز يطلب منه أن يجلس في منطقة والجيد في منطقة ملاصقة والعاذي بعدهم. يعرفه جيدا الدكتور سراج وسبق حامد ويونس في التعرف عليه عند قدومه للقصير ويحترم آراءه الاشتراكية. ولكن فضل البعد عنه لعصبيته الزائدة التي تجتاح أحيانا أي فواصل وحواجز عندما تطفو على السطح. وأصبح الاحترام متبادل بينهم عندما يتقابلا ويستشعر الدكتور سراج مدى الاجلال الصادق الذي يراه في عينيه. ويتذكر جيدا زيارته الأخيرة في شقته الجديدة بعد أن أغلقت عيادته. وكيف انفجر ثائرا مبغضا ما لحق به. وليلتها اتخذ الغبن الواقع على الدكتور سراج مثلا صغيرا لما يحدث في مصر كلها. وتأسف في أسى، لأن الناس لا تشعر بالظلم لذلك ما زال الظالم يعيش في مأمن، وعلم الطيب ليلتها أن الأستاذ يتمنى بشوق أن تحدث ثورة حقيقة تطيح بكل من في السلطة. وانفجر كبركان حامد منذ سنين، فأخذ يقذف حممه مشبعة بالشتائم والسب الذي كان جيد جدا

في استخدام تعبيراته فلم يجعله سوقيا أو مبتزلا على الرغم من حدته. وتفاخر ليلتها أنه شارك في أحدث يناير ١٩٧٧- التي أسماها السادات هوجة الحرامية بعد أن سيطر عليها. وكان ليلتها يتندر بصوت مضحك على رجال الشرطة وهو يسرد كيف كانوا يركضون في شوارع القاهرة ليقنطدوا كل من تصل يديهم إليه حتى وإن كان طفلا أو امرأة أو عجوز مر بالصدفة. ولم يغيب عن الدكتور سراج ملاحظة مسحة الحزن في قهقهته التي لا تخطئها عين وهو يحكى عن التحقيقات البوليسية المفبركة التي داست باقدامها على بعض أصدقائه الذين طالتهم يد الاعتقال. وليلتها نسى ماذا جاء من اجله واحتد الجدال بينه وبين الدكتور سراج، لأن الطبيب كان رأيه أن رجال الشرطة مظلومين أيضا لأنهم غير مؤاهلين لعملهم، وليلتها ندم الطبيب أنه خالف الأستاذ غزالتة وشعر بأن قدميه غاصت في الوحل ووبخ نفسه بأنه لا يتعلم على الرغم من كبر سنه. فكان عليه ألا يقدم أي عذر للشرطة أمام الأستاذ غزالتة وهو يعلم تمام أنهم لهم ماضى سيء معه في مراهقته. ( فوالده يملك دكان صغير قديم على شارع البحر. إذا مر أحد من بابه يظن أن التة الزمن قد أخذته إلى عصر الممالك. فكل شيء يدل على الماضى البعيد فلا توجد كهرباء أو منتج يأتي من العصر الحديث. فما يوجد بالمحل جرات فخارية بها غسل أسود وجبنة قديمة (مش) وسلطة من الخوص دائرية بقطر متر تقريبا بها قش وفوقها بيض دجاج ولوف للاستحمام وبرميل زيت طهى. كان الأب يجلس بالداخل دائما على سرير جريد

خالى من أي فرش، ساكن، قليل الحديث، السواد يصبغ قدميه من الحركة حافيا في المحال ذو الأرضية الترابية الصلبة التي أضحت كأنها أسمنتية بفعل بقايا الزيت والعسل. كانت حياة الأب مسالمة حتى أتى زلزال اقتلع الهدوء من جذوره. في صباح يوم قاسى معتاد لأهل البلدة ينتظرون في طابور طويل رجال ونساء من أجل أن يحصلوا على حصتهم من ماء الشرب. وكل فرد بيده دفتر ورقى صغير مقيد فيه عدد أفراد أسرته وبجواره الصفائح المعدنية التي سوف يحمل فيها الماء. كان الماء يوزع من خزان ضخيملاً بماء يأتي من اليمن عن طريق المراكب. كانوا يتحايلون على الوقت بالحديث فيما بينهم أو متابعة شجار بين اثنين بسبب عدم الالتزام بالطابور. وكلما علت شمس الصيف في السماء تزيد من تبخر الصبر. حتى أتت عربة الشرطة تخترق شارع البحر الترابى بسرعة وتثير الغبار حتى ضجرت الناس وارتفعت أصوات سخطهم على العربة ومن بها. فانتظارهم لشربة ماء جعل الحياة يومها دون خوف. توقفت العربة في نهاية الطابور أمام دكان عم غزالتة. واقتاد العساكر الرجل حافيا بطريقة مهينة وهو مستسلم لا ينطق لسانه باعتراض. لم ينته اليوم إلا وعلمت القصير كلها أن إذاعة أسرائيل باللغة العربية كانت تلوم أهالي مدينة القصير على صمتهم أمام المشكلة الماء وكيف لا يعترضون على حكاهم الذين لم يوفروا لهم أهم شيء للحياة وهو الماء. وتأسفت على حال المدينة بأنها تقف في طابور طويل من الكنداستة حتى دكان عم غزالتة منتظرين حصتهم في الماء المشبع برائحة الجاز بسبب

نقله في سفن بترولية من اليمن.

لم يهتم يومها أحد بالماء أو بالجاز ولكن كيف علمت  
أسرائيل دكان عم غزالتة. إذن هناك جاسوس وقد يكون هو عم  
غزالتة. الكل يومها مرتبك، الشرطة وشيخ البلد. الرعب يسيطر  
على الجميع. الانتظار بقدم إشارة من المحافظة أو من أعلى باتخاذ  
إجراءات معينة. وتجمع بعض الأهالي أمام الطابينة وأخذوا يهتفوا  
بحياة الرئيس جمال عبد الناصر، واصفينه بأنه الزعيم الأوحـد  
والبطل الملهم. وهم يتلفتون إلى السماء والمجهول كأنهم يبحثون  
عن شيء ما ولو قال أي شخص في هذا اليوم كلمة مسيئة عن  
الرئيس لشيعت جنازته في الحال. الكل في منطقة دفاع. لم  
يجمعهم أو يسوقهم أحد. كأن كل واحد منهم يبرئ نفسه من  
تهمة سقطت عليهم من المجهول فلا بد من وجود خائن. الشك كان  
يطوف بين الناس كالهواء الذي يتنفسوه. استمر حبس الرجل لمدة  
شهر وبعدها تركوه. أكثر أبناءه تأثر بهذا الحدث هو جمال، لأنه  
يختلف عن أخوته الذين كان يداهنون ويلاطفون المأمور بشتى  
الطرق حتى يحسن معاملته أبيهم. أما جمال فانكسر شيء داخله  
لن يرجع إلى أصله، فقد شاهد والده يرتعد من الخوف في محبسه  
كأنه وضع في ثلج عندما زاروه ورفضه القاطع لأبنائه بتغيير  
ملابسه الرثة أو أن ينتعل حذاء. فقد قاده ذهنه الذي نـمى في  
أرض الخوف بأنه من الأفضل أن يكون على هذه الهيئة البائسة  
فقد يرافوا بحاله. وكيف كان يفكر بأن يعترف على نفسه

بالباطل حتى يبعد الجرم عن أولاده).

أرسل الأستاذ غزالتة كرسين خشبين للطبيب ويؤنس. جرى لاحضارهما ابن سالم. ووجهه تعلوه ابتسامته فخر بأن عمه في صحبة الطبيب سراجو. والأستاذ غزالتة يرسل إليه مقعد ليجلس عليه. وهذه ليست من عادة الأستاذ بأن يكون لطيفا مع أحد. فهم يرون كيف الناظر وبعض أكابر المدينة لا يفضلوا الاقتراب من الأستاذ الصارم. ويعد الصغار هذا بطولته من أستاذهم المفضل. فبالرغم من عنفه أحيانا معهم إلا أنهم يعشقونه.

لم يترك لهم وقتا للهرج بعد أن انتهى من نداء أسمائهم. فمسك بالطلبة الكبيرة المصنوعة من جلد الغنم وقرع بها بشدة. فعاد الجمع إلى الصمت سريعا. ونظر إليهم وهو يتلفت يمينا ويسارا لعله يجد من يهمس. فقال بصوت جهورى: «طبعا كلنا نتذكر العرض الذي تدرينا عليه في العام الماضى وكيف وصلنا إلى قدرة هائلة من الانضباط فيه. وأيضا نتذكر جيدا الاحباط الذي أصابنا جميعا عندما تم استبعاد مدينة القصير بسبب التكلفة، يبخلوا على المدينة الاعرق في المحافظة كى لا تحضر العيد القومى، لو كان هناك عدل في هذه البلاد لكان العيد القومى هنا وليس هناك، ولكن بسبب قلوبكم الطاهرة فسوف يأتوا إلينا ليشهدوا العرض هنا في القصير». فانفعل بعض الصغار فرحين وهم يتلفتون لبعضهم. فتوقف الأستاذ غزالتة عن الحديث ليعطيهم فرصة للتعبير عن بهجتهم ويرى مدى السعادة التي

ينتظرها ولولاها ما كان جلس مع فاروق دقيقة. قال أحد الصغار: «لقد سمعت من أبي أن المحافظ قادم». فرد الأستاذ غزالتة قائلاً: «العرض لنا ولاهلنا في المدينة وليس له، ولكن دونه لن نحصل عن الإذن بالتجمع، لذلك نحن نستغله حتى نستمتع». فقال طفل آخر: «هل الحج فاروق سوف يعطينا ملابس جديدة للعرض؟». شعر الطفل صاحب السؤال أن استفساره لم يرق لأستاذه. فقال غزالتة: «لا أحد يعطى دون أن يأخذ أولاً، لو أحضروا لكم هدايا فيجب أن تعلموا أنهم سوف يستفيدوا منكم أضعاف مضاعفة، لذلك يجب عليكم أن تكونوا مرفوعي الرؤوس، أنتم من تعطوا أكثر». كان يتمنى الأستاذ غزالتة أن يفصح أكثر لهم بدل صيغة الجمع في حديثه وأنه مفرد. عبارة عن راعي واحد. وما هو إلا صعلوك جديد يسقى الشراب ليصل إلى مراده ولكن فضل الرمز واكتفى ببعض التنفيس. فالغرض الأساسي له هو اسعاد هؤلاء المساكين الذين يعيشون في بقعة مفقودة. بدأ يرتب أماكن وقوفهم ويقدم هذا ويرجع ذلك. والصغار مستسلمين تماماً له كأنهم عرائس دون أرادة. اتسم التدريب بالجدية عندما قرع الأستاذ غزالتة الطبلتة العريضة الدائرية ذات الوجهين بايقاع قوى منضبط. كان يقرع بيده اليمنى ويحكم قبضته اليسرى عليها بضمها إلى جسده. كما قالوا قديماً «قرع الطبول يزيد الهمم ويبث النشاط». زاد عدد المتفرجين وخصوصاً الأمهات والاخوات. ولم يخلو الأمر من شيء من النقد من بعض الأمهات بسبب وجود أبنائهم في الخلف ولكن اكتفوا بالتذمر ولوى

الشفاه وهن في أماكنهن. فالأستاذ غزالة صاحب غزالة متقلبة  
كما يطلقوا على الإنسان العصبى في مصر. وقبل الانتهاء من  
التدريب الذي سوف يمتد حتى آخر ضياء للشمس. رفع الطبيب  
ذراعه الأيسر ملوحاً بالمغادرة، وعندما أوماً الأستاذ جمال برأسه  
مبتسماً، ضم الطبيب كفيه معاً مشجعاً.

\*\*\*\*

السكون البديع يحيط العدو ومآت الماعز الطيبة تبث في  
النفوس الطمأنينة ورائحة الحطب المشتعل أمام البيوت الطينية  
تعطى شيئاً من الدفء. يسوق القطعان أطفال وفتيان وفتيات  
صغار إلى الحظائر الطينية المنخفضة الأسطح التي جاورت البيوت.  
قادمين من المراعى القريبة غرب الشارع الأسفلتى. الغرض منها  
النزهة أكثر من الغذاء الشحيح. يتقدم ناحية حامد طفلة لم تتعد  
العاشرة ذات شعر أسود فاحم غير مسرح به بقايا ضفيرة مشطت  
من عدة أيام مضت، تلبس فستان ملون، أطفأ الزمان بهاءه. حافية  
القدمين، تمسك عصا بيدها للأغنام وفي الأخرى أخوه الصغير  
ذو الخمسة أعوام. طفولتهم من نوع خاص. سعادتهم بأن سمحت  
لهم رضينة بأن يأخذوا بعض الماعز لتمشيته مثل أقرانهم. فهم من  
قبيلة رضينة. فأبوهما راعى إبل دائم الغياب. توقف حامد عن  
تقطيع ساق جافة من شجر السبالة عندما اقترباً منه. علا صوته  
في المديح لهما وهو يتجه لفتح الحظيرة لأدخل الماعز ولم يتوقف  
عن التعبير عن الأمتناء والشكر بعملهم العظيم حتى رجع إليهم

ثم رفع الصغير إلى أعلى يلاعبه ويهدد فيه. فقد رأى حامد كيف كان الطفل متلهفا لهذا. فتدفقت ضحكاته المتقطعة الرنانة كأنه سوف يفقد وعيه من شدتها. بعدها اصطحبهما إلى رضينة التي تعد العشاء بالداخل حتى يسلموا عليها. دلف حامد أولا وهو يحمل الطفل والصبية وراءه من باب الحوش الجانبى. فقالت رضينة مرحبه بهم: «مرحبا بالفرسان». فأشار حامد إليها بما يحمل بين يديه وهو يتسم ثم قال: «أتعلمين من الصبية التي أحملها بين ذراعى». فقال الصبى وهو يضحك مستنكرا: «أنا رجل». فرد حامد: «وهل الرجل يلبس مثل النساء؟». فأنقذته رضينة من ورطته قائلة: «الرجل من يطيع كلام أمه وهو ينفذ ما تقول». فقالت الصبية في حياء: «النساء لا يجلبن الحسد. هذا ما تقوله أمى فهي تخاف على أختي فتخفيه، ألا تعلم ذلك يا عم حامد؟». فأتى الطفل بحركات مقاومة حتى يفلته حامد من بين ذراعيه وهو يقول: «عم حامد ليس مثلاً». فتركه حامد وهو يضحك من كلامه الذي قاله بطريقة الكبار. فاستطرد الطفل بعد أن أصبح واقفا على قدميه موجها حديثه لحامد وهو يشير بأصابعه الصغيرة إلى رأسه قائلاً: «أبي يقول إن الكتب أكلت عقلك». فقال حامد: «طالما ذكرت الأكل فسوف تأكل معنا». فأسرعت الصبية بالرد قائلة: «لا يمكن ذلك. فقد نبهت علينا أننا بأن لا نغيب قبل أن يحل الظلام». فلم تصر رضينة عن إبقائهم للعشاء للمعرفتها بامهما وكيف أنها لا تحب أن تظهر العوز وتفضل التجلد وأن ما قالتها الصبية ما هو إلا أوامر لقتها

الأم لابنتها. ولكن حامد تحايل عن رفضهما للبقاء للعشاء بأن اقترح وهو متجه لموقد النار قائلاً: «إذن نشرب معاً شاى بالحليب فهذا لن يأخذ وقتاً طويلاً، ما هي إلا دقيقتان». فرد عليه الصبي: «أحب الشاى دون حليب». وبذلك لم يدع الصبي لاخته فرصة للرفض. فوضع حامد الماء البارد في البراد المعدنى الصغير وأضاف إليه الشاى مباشرة حتى لا يستهلك وقتاً في التحضير. فانتظار الماء ليغلى ثم وضع الشاى بعد ذلك يحتاج وقت أطول. وأثناء ترك البراد بين الحطب المشتعل. أحضر حامد العيش المجفف ثم وضعه على قطعة قماش وغطاه بأطرافها وأخذ يهشمه بيد هون صلب حتى أصبح العيش مثل حبات السكر. ونظرات السعادة تشع من الغلام. ولكنها لم تدوم إلا دقائق فقد تدمر لاحقاً، لأنه وجب عليه أن ينتظر ليبرد كوبه لأنه دون حليب ليخفف من سخونته. وأن أخته بدأت تضع العيش المهشم أما هو لا يستطيع أن يلمس كوب الشاى الذي أمامه. فقال حامد: «لا توجد مشكلة». ثم اتجه إلى المطبخ واحضر صينية المونيوم فصب الشاى فيها ثم أعاده مرة أخرى إلى الكوب فزالت سخونته. «كيف فعلت ذلك يا عم حامد» قالها الصبي مندهشاً. فرد عليه حامد وهو يغادر الحوش قائلاً: «من الكتب». رجع إلى قطع الخشب وهو يتلفت ناحية الشارع ويسأل نفسه «لماذا تأخروا». ولم يتم تساؤله حتى رأى السيارة قادمة. يونس والطبيب كأن الأول يجعل لروحه نطاقاً أوسع لتتحرك فيه والثانى نقله من باب ضيق إلى آخر أوسع ليرى الدنيا، فلولاها لما وصل إلى يده كتاب ولا تعرف على فلاسفة

وادباء. شعر في هذه اللحظة بكم هائل من الرضا، لا يعلم مصدره تحديدا. بتأكيد الطبيب ويونس من ضمن أسباب المزاج الرائق. رفع صوته لرؤيته ليعلمها بقدم صديقيه. فأتى الصبي يركض ليلتصق بساق حامد. تقدمت نحو السيارة التشريفة المعتادة. الكلاب التي جعلت من بيت حامد مورد للطعام. تدور حول السيارة القادمة وهي تنبح بصوت محذر من الاقتراب وتحاول أن تقترب أكثر من المصباحين المضئين. وفجأة كل الضجيج ينتهي عندما تتوقف السيارة ويخرج منها الزوار.

« لا بد أن تعلم العدو كلها أن هناك زائرين ». فيتجه حامد بكل ود إلى الطبيب وابتسامته عريضة صادقة تنبعث من وجهه ليحيه وما زال الطفل عند ساق حامد يلازمه يكاد يجعله يتعثر. يصحبهم حامد إلى الباب الرئيسي. تزجرهم الرياح قليلا عندما يجتازوا جدار البيت الذي يصد عنهم سرعة الهواء البارد. فيسرعوا بضعة خطوات ليدخلوا البيت. كان مجلسهم في الشتاء في الغرفة التي على اليسار. فقد اعدّها حامد جيدا. فرشت بالكامل بكليم صوفى كعازل لبرودة أرضية الغرفة وفوقه بجوار كل حائط سجاد فضائية البدوى ذي الألوان العشوائية الزاهية اللين الذي يمنع بدوره خشونة الصوف للجالس عليه. وحرصت المساند القطنية للظهر للاتكاء. كان فخورا حامد بهذه الغرفة. وما لبس الضيفان أن جلس حتى أسرع حامد لاحضار الموقد ليضعه في منتصف الغرفة ليزيد من دفء الترحاب، وبجواره صندوق خشبي

به عدة الجبنة كاملة وبرد شاي وعدة أكواب زجاجية. واستمر حامد يدخل ويخرج عليهم مظهرا الاهتمام بالزيارة كأنها الأولى لهم. ولم يهدئ في مجلسه أو يندمج معهم في أي حوار إلا بعد أن أحضر صينية العشاء ووضعها فوق عدة وسائد حتى يجعلها فوق الأرض قليلا حتى تكون سهلة المنال للطبيب. وبعد أن انتهوا من العشاء. ورفع حامد الصينية. سألهم حامد وهو يحمص البن فوق الموقد عن سبب التأخير كأنه قد رآهم الآن. فابتسم الطبيب وهو يقول: «حامد وصل الان يا يونس». فهم حامد ما يرمى إليه الطبيب ولم يعلق. فاستدرك قائلا: «أحيانا لا أحب أن أزورك. لأنك تتكلف لي، فأنا اعدك صديق». فقال حامد: «وهذا شرف لي وفيه أتفاخر». وأثناء إعداد الجبنة قص عليهم حامد بشيء من الأسى ما قاله الطفل عن الكتب وما يقوله أبوه وطبعا ليس رآه لوحده، ابتسم يونس ببرائة تدعو حامد للتسامح. أما الطبيب فقد تذكر شيء قد نسيه في السيارة أثناء استماعه لحامد لذلك قال بعد أن انتهى حامد: «لقد جلبت لك ما سوف يلتهم المتبقى من عقلك». حدث حامد نفسه مبتهجا الأقرب كتاب جديد أو زجاجة نبيذ وأن كنت اشك في الأخيرة فالطبيب لم يغادر البلدة من فترة. وفي أثناء غياب الطبيب. أعاد حامد على يونس السؤال عن سبب التأخير وإن كان لا ينتظر اجابة أكثر من تبادل بعض الكلمات مع صديقه. ولكنه لم تروقه معرفته أنهم ذهبوا للأستاذ غزالة. شعر بغصّة في ذلك. تشابهه الغيرة أو شيء شبيه بها بين الأصدقاء. فعامد بينه وبين غزالة جدال متواصل عندما

يلتقيا، إذا تتطرق الحوار إلى نقاش. ويصفه حامد بينه وبين نفسه «أنه شخص سلم عقله إلى اتجاه واحد ولا يستطيع أن يخرج منه. يحفظ آراء من يدعمون فكرته وينتقى من الدين كل شاردة أو واردة تعضد من اعتقاده. لا يفرقه حامد في توصيفه عن رجال الدين الذين وضعوا للخيالهم حدا لا يتجاوزوه. الديمقراطية يطلق عليها الشورى في الإسلام. وعند الكلام عن الاشتراكية يسوق قصص بلهاء لا يستسيغها طفل فكر للحظة عن الإخاء بين المهاجرين والأنصار. وكيف كان الخلفاء لا ينامون حتى تأكل الرعية. مثله مثل أصحاب الإعجاز العلمي في القرآن». فحدثته نفسه بعد أن استحضر أمامه الأستاذ غزالتة «مالي لا أجد لنفسى طاقة لتحمل الغباء. ولماذا لا أكون أنا هو ذلك الأحمق. ولكنني لا أصر على جعل الصواب في صفى. إنما أريد بعض المنطق يا خلق. الأحمق من يعتقد أنه يمتلك الحقيقة وأنا أمتلك الشك فيها فقط. وعندما يضيقوا بي يقولون الحكمة الجامعة الشافية لكل مرض، لا بد أن نجنب العقل عند الدخول في الحضرة الإلهية. حمص البن يا حامد ولا تعكر صفائك. امضى وافعل ما تريد ولكن احترس من أن تشذ عن جمعهم. أتقن دورك في المسرحية إلى النهاية. لا تجعلهم يعتقدون أنك غريب بينهم. فامسية مثل الليلة هي لبديع الكلام وغريب القول ولتعة تكسير الطبقات الصخرية ليخرج المتوهج في كل اتجاه ويدمر بمقذوفاته كل المدن التي ظنت أنها رأسخة مطمئنة». صدق الظن. إنه كتاب فقط. فالقهوة هي سيدة

المجلس الليلة دون منازع. وكان عزاءه الوحيد أنه لن يضطر غدا للخوض في المياه الباردة. ويمشى فوق الشعاب المرجانية ليصل إلى حافة المياه العميقة ليستقط الزجاجة الفارغة دون سداة عموديا حتى تستقر في القاع السحيق ولا يعلم أحد بقصتها. قدم الفنجان السليم للطبيب والثاني ليونس ذي اليد المكسورة وارتشف هو القهوة من الفنجان الأسود دون يد وحوافه غير ملساء.

- هذا ما حدثتك عنه.

قالها الطبيب وهو يعطى الكتاب إلى حامد.

- ديستويفسكى، يا له من اسم صعب.

قهقهات لطيفة تخرج من يونس تناسب الإضاءة الخافته للحجرة عند سماعه حامد كيف يجاهد لينطق الاسم، ابتسم حامد ناظرا إليه في تهكم يليق بين الأصدقاء قائلا: «القصيرية لا نفع لهم إلا في السخرية». ثم أكمل مغيرا للنبرة الفكاهة بالجد: «الجريمة والعقاب الجزء الأول».

- سوف يعجبك هذا الكاتب فإنه يعتبر نبيا بين الكتاب أجمعين.

- إذن إنه غير حقيقى ولا وجود له في التاريخ.

- آه لو سمعك أحد غيرنا وأنت تقول هذا.

- أولهم جمال غزالتة.

- إذن علمت لماذا تأخرنا، لقد فاتك مشهد الصغار وهم يتدربون على العرض.
- قريبا نراهم في المدينة، يوم قدوم المحافظ. قالها وبه شيء من عدم الاكتراث.
- الأستاذ غزالتة ليس موجود الآن بينا. وأنت أكثر الناس الذي سمعت منى كيف كنت استاء من الحوار معه. وكيف كنت أفضل دائما الصمت. ولكن من الانصاف أن يأخذ حقه في الإشادة. ذلك الرجل صادق في عمله ويحاول على قدر استطاعته أن يدخل البهجة في قلوب التلاميذ الصغار.
- أراؤه شعبية سطحية لا تضيف إلى الصغار شيء إلا البسمة مثل المهرج، ولو صارح نفسه بذلك لأبدع وارتقى وصار محترما.
- افصل يا حامد بين ما تراه من ضيق أفاقه وعدم تقبله لأي رأى مخالف لوجهة نظره وبين ما يقوم به في المدينة. أنه يتحايل حتى يتحصل للأطفال على أي شيء لهم.
- إذن ليس هناك دخل بين ما يقوم به وما يقوله عن الثورة التي يؤمن بها أو كما يدعى، هو لا يفرق عن الشيخ المعتوه هارون.

انفجريونس كالطفل ضاحكا فنقل العدو مباشرة إلى حامد والطبيب اللذان دمعت أعينهما من انفجار القهقهات من مشاهدة يونس. وعلق الدكتور سراج قائلا: «عجبتك يا

يؤنس». بعدها استدركا حامد قائلاً: «نعم لا يفرق عنه إلا في أنه يريد أن يطور الدين بأسلوب يتناسب مع الآراء التي أعجبتة من الغرب. ولكنه يحاول أن يجعلها قادمة من الصحراء لأنه لا يستطيع أن يتقبل أنها أتت من الجانب الإنساني. مثله مثل معظم من ذهب إليهم وجاء يتشدد علينا ويقول بانه وجد إسلامًا بغير مسلمين. ولا أحد فيهم يستحي بأن يتوقف عن هذا الجهل المقدس الذي توارثوه ويركع على عتبة العلم كتلميذ صادق. ولكنهم يريدون أن يكونوا معلمين لمن تعلموا منهم. قمتة الوضاعة ورساخة جذورها. وعندما يأتي منادى منهم ويحقق ويدقق يتهموه بأنه خائن أو مرتد، أتذكر يوم أن ثار عليك غزالتة عندما اقتبست مقولة لطله حسين.

- تستطيع دائماً أن تجعلنى في صفك يا حامد. ولكن لا داعى إلى النبش في كل ما يقوله الناس. أين نذهب منهم، هؤلاء أهلنا. كل ما نستطيع فعله أن نسرق من حياتنا بينهم ساعات نخلو بها لأنفسنا وهذا ما نفعله الآن، نجدد النشاط حتى نعود إليهم، أنا تغيرت ولا بد لهم من وقت ليستقيظوا.
- لا أريد أن أكون متطرفاً. داء هذه المنطقة الدين. أي دين. ولن يصحوا من غفوتهم إلا بعد أن يتركوا الوهم. أو إن كان موجوداً فعلياً أن يبعث شيء يناسب هذا الزمان. أول مرة يتكلم حامد بحدة أمامهم.

استمر يونس على حاله يسمع ويسبح بتحريك لسانه

ومسبحته. أما الطبيب فشعر بالخوف من مما يقوله حامد ولكن انتصر داخله فكرة اعتبار حامد كأنه يدين بدين آخر. وجعل يونس بوصلته في التسامح والتقبل دون غضب. أصاب حامد الندم على كثرة الحديث من جانبه. فنهض متعللاً ليذهب إلى الحمام. وجد رضينة في الطرقة الصغيرة ساكنة تسمعهم. ثم تبعته وهو في طريقه للحمام وانتظرتة في الحوش حتى ينتهى وهي تنفخ في كفيها من البرد.

قالت: «لماذا لم يكن أصدقائك عبادة حتى اجلس بينكم». فداعبها حامد وهو يجذبها بأن تأتي ولكنها تملصت منه بسرعة معترضة كأنها صدقته.

انقشع الضيق الذي أصاب حامد من كثرة حديثه عندما عاد ووجد الدكتور سراج يقلب في الكتاب حتى يقرأ بعض الصفحات عليهم التي قد أختارها مسبقاً كعاداته. ويونس ماداً ساقيه وجاعلاً من واحدته فوق الآخر وكفيه مختفيان بينهما والمسبحة تدور ومرتخياً بظهره على المسند في سلام تام.

انتهر حامد فترة أعداده الشاى بأن يقص عليهم ماذا فعل اليوم في الورشة، فضحك أولاً ليعدهم بأن القادم به شيء من الهزل.

- زارنا اليوم رئيس المدينة في العمل وهو منزعج جداً كعادته من يوم أن علم بالزيارة المرتقبة التي جعلته يفقد كثيراً من وزنه، راجع بنفسه على النقاط التي كلفنا بها. ثم طلب بأن تخرج جميع السيارات من الجراج وجعلنا على شكل قافلة

وهو بسيارته في الأمام، وانطلقنا نجوب المدينة. كل هذا من أجل تجريب عربته رش المياه التي سوف تكون سابقة لموكب المحافظ. وهل تؤدي مهمتها على أكمل وجه أم لا.

— وما الفائدة من عربته المياه أمام سيارة المحافظ؟.

— حتى لا تثير الأتربة في وجه السيد اللواء يا شيخ يونس عندما يمر موكبه.

— هذا ما لا يطيقه بعض الشباب الذين رأوا قبسا من النور، مثلهم مثل غزالة ولكن كل واحد فيهم في مكان مختلف عن الآخر، فمنهم من يشعر بدفء وهجه ومنهم من يلمحه من بعيد، وسوف يأتي اليوم الذي يعم النور.

— طالما الحائل موجود لن يصلوا أبدا، لن يعم النور ما داموا يصرون على التمسك بالظلمة، الأرجل مثقلة بأحمال لا فائدة من حملها يا دكتور، فقط لأنها من ورث الأب، ومن ابن لابن، الأستاذ غزالة يكره الظلم وفي نفس الوقت يمارس تسلطه، هو بالنسبة لي المنطقة التي تجمع بين استبداد الحاكم وسطوة الدين، يجمع بين الاثنين. فلا تراه يطأ طئ الرأس للحكومة ويتأفف أن يجلس مع ذو عمته، مع أنه يحب السلطة ويمدح الدين. يريد أن يثور والمصحف في جيبه، كمن يدرس العلم والحجاب حول رقبتة، كيف يستقيم الأمر. الثورة هو اجتزاز كل ما سبق وليس إعادة ما سبق بحجج واهيه مثل العادات والتقاليد وأشياء أخرى بالية.

- لكل مجتمع ظروفه وليس كل ماضى فاسد، فهناك الكثير من يحلم بعودة الحضارة الإسلامية القديمة مثل أيام العصر العباسى الأول، ويرجع الفضل للعرب في تقدم الحضارة الحديثة، فتخيل العالم من غير ابن سينا والخوارزمى وابن الهيثم وابن رشد والفارابى والرازى.

- أولا كل ما ذكرتهم ليسوا عربا إلا ابن الهيثم فهو من العراق، لذلك زورا سوف أقبل أنه عربى كما يعتقد أهل العراق والخليج العربى إلى أن يأتى اليوم ويكتشفوا هذا الوهم، وأيضا لا يعجبني التفاخر بهم من الناحية الدينية، مثلما أسمع العلماء المسلمين. تسمية غريبة وشاذة إذا قيل عن نيوتن أو جاليليو بالعلماء المسيحيين، أه ولا تنس أيضا أنهم كلهم وصموا بالكفر في حياتهم ووصفوا بأنهم كانوا خبثاء الاعتقاد وتم قتل ونفى بعضهم. ولا يصل إلى عامة الناس إلا الكذب عنهم واستغلال الجهل بأن يرددوا على مسامعهم أنهم تفوقوا في علوم الكيمياء أو الفلك أو الطب بالتزامهم الدينى. لا أريد أن أعرق الخلاف بينى وبينك، فأنت صاحب فضل على لا أنكره، ولكن أخبرنى كيف يكون العرب أهل الجزيرة أصحاب علم وثقافة وحضارة، وتظهر أعمالهم من الفنون والعمارة في كل الدنيا إلا في الجزيرة لا أثر لها حتى في مكة.

شعر بالضيق مرة أخرى وأخذ يلوم نفسه مجددا ويعانى في

البحث عن مخرج ليقفل حديثه كأنه أصبح شخصين. شخص يتكلم ولا يسمع نفسه وأخريوجه العتاب الشديد لذاته. «انزلت قدمك مرة أخرى وكلما اندفعت إلى أسفل دون إرادة، تتساقط الكلمات من لسانك كأحجار مهیئة لتترك الجبل منتظره من يهمس بجوارها. وللأسف منها ما يصيبك. أنت تناضل ضد ما ولدت عليه وتحاول التخلص من الصبغة التي وجدت الكل متمسك بها. فلا تزج بمن حولك في حرب لم يستعدوا لها. أو لا رغبة عندهم للسفك الدماء من أجلها فلن يخوض المعارك إلا ذو الإيمان بقيمة الدافع».

وفق حامد في النهاية بأن وضع أن كل ما قاله ليست ادلة قطعية. ولكنها آراء تساعد على التحقق ليزيل بعض الحدة في اندفاعه. استشعر الدكتور سراج مدى أسف حامد على انفلات بعض الكلمات التي تشى بما يدور في ذهنه من صراع. فحدث نفسه وهو ينظر إلى حامد « لا تبحث عن الأعذار، ما حدث قد حدث، أو كما يقولوا لقد سبق السيف العزل، كلما جلست معك أرى الأمواج العاتية التي سوف تقتلعنى من جذورى التي رضيت عنها، كنت امتلاً بكم الخرافات والاساطير دون أن يلفظها عقلى، وتصطف بكل أريحية بجانب ما تعلمته في كلية الطب وما قرأته في حياته. كأنى شخص له عقلان. كيف كنت استعذب قراءة أصل الأشياء لدارون وفي نفس اللحظة احفظ عن ظهر قلب بأن ادم وحواء هما أول البشر. والآن أنا على مشارف الفترة الأخيرة لتوديع الدنيا ويقتلنى إحساس كما ضيعت من

أيامى في كهف الماضى».

عند اقتراب انتهاء الأمسية بدأ الدكتور سراج في قراءة بضعة صفحات من الرواية التي أحضرها وكان يشعر بالفخر كأنه هو مؤلفها. أبدى حامد كثيرا من الاهتمام والحماسة ويرجع ذلك للوم يضغط عليه من الداخل بأنه تحدث أكثر مما ينبغى. فأراد الاعتذار بطريقة غير مباشرة. وإن كان صوت الطبيب يجبرك على الإنصات. مخارج الكلمات واضحة ويبطئ أو يتعجل حسب وقع ما يقرأه. غابوا جميعا مع صوته حتى التي تجلس في الطرقة خارج الحجرة، إلى أن قال الدكتور سراج «اذ ساورته فكرة غريبة أخذت تضطرب في مخه كالجنين إذ ينقر البيض... وتملكته هذه الفكرة كأنها وسواس». عندها كان حامد لا يوجد في الحجرة بينهم إلا بجسده. سرحت أفكاره إلى سيدة الحلبية وما أفصحت عنه منذ أسبوعين. لماذا غابت كل هذا الوقت. كانت لا تنقطع عن زيارة رضينة، قد تكون منى مريضة، ارجو السلامة، فقد هيتت نفسى بأن أكون أبا في الشهور القادمة، بتأكيد الأمر صعب ويلزمه احتياط واجب ولكن أين المفر. القيت نفسى في البحر ولا نجاة بغير الخوض فالارتداد عار وخيبة. يجب علي أن أنفرد بسيدة حتى تعلم ما نويت عليه. بالطبع أنى ما زلت في الشهور الأولى للزواج ولكن للعقم رائحة باهتة، استشعرها تنبعث مع أنفاسى.

لم يمر إلا بضعة ليالى بعد تلك الليلة حتى تم الاتفاق بين

حامد وسيدة على وضع الطفل بعد مجيئه بأنه سوف يتأخذه ابننا له أمام الناس. وأن على سيدة أن تذيع أمر أن زوجته حبلت ولكن ليس بين العابادة وأن تزيل الخبر بأنهم يتكتموا خوفا من الحسد. اجتاحت الاثنان موجة عنيفة من البهجة والترقب اللذيذ، فقد اكتشف حامد أن للسيدة همّة عالية في تنفيذ ما اتفقوا عليه وأن السنين الصعبة في حياتها السابقة صبغتها بغموض لا يستطيع المرء أن يعرف ما داخلها إذا لم تفصح عنه بارادتها. وأنها كانت لا تنفرد به بشكل يثير الشبهة. واستولت عليها بعد أن وافق حامد على أخذ الطفل ما يستولى على الإنسان عندما يشعر أنه يصنع التاريخ أو يسيطر على مقاليد مهمة. بالإضافة للحمل الثقيل الذي يشاركها فيه حامد وأنها ليست وحيدة في بيت الضباع أن حاولوا أن يغدروا بها.

أما حامد فقد تخلص من الغطاء الثقيل الذي كان يخنقه بالتفكير في أمر المولود القادم بمجرد أن أفصح لسيدة على موقفه. فكان الصراع الخانق الذي يدور في ذهنه عبارة عن شد وجذب بين تفاؤل وتشاؤم وإن كان السيء هو الأقوى في السابق. فكان يتذكر منصور وفاروق وما تبثه ملامحهما وتصرفاتهما من سوء طباع وتبلد في المشاعر فكيف يقبل بطفل قادم من نفس المنابع التي نشأ منها الاثنان. وأخذ مع الأيام يتخبط في قبح ما يتخيل ويقلب في ماضيه البعيد ويتذكر أبوه المختفى وأمه التي فارقت الدنيا وأشقاؤه وأصدقاء الطفولة كيف أنهم جميعا مختلفون. فالطيب تحول إلى شرير والسيء أصبح متسامحا ومن

توقعت له المجد خالف ظنك. ومن قلت عليه أنه لين الطباع تمرد.  
الإنسان دائم التغيير. الصالح طالح والعكس. المهم فترة الطفولة  
وما أجملها. لا بد الترفع عن ماضى لم يختاره. وانتهى الصراع عند  
مقابلته لسيدة الحلبية تماما ولم يظهر مجددا بعد أن حسم أمره.

\*\*\*\*

الارتباك والترقب هو المسيطر على المشهد أمام الجامع الجديد.  
أغلب الذكور موجودين أمام الجامع إلا قلة لم تكن متواجدة مثل  
الدكتور سراج الذي فضل البقاء في منزله في هذا اليوم ويونس  
الذي حجز مكانا له فوق ربوة مرتفعة ليجلس عليها لي شاهد  
العرض الذي سوف يتم في منتصف المدينة. فهو لن يستطيع أن  
يكون مع الناس أمام الجامع الجديد ويأتي مسرعا إلى هذا  
المكان لي شاهد ابن أخيه مع بقية الصبية.

ما زال بعض العمال في ذلك الصباح ينظفون الواجهة وعلى  
وشك الانتهاء من العمل الذي بدأ من منتصف الليل. وآخرون  
يرفعون بعض الأخشاب والبراميل الفارغة التي كانت تستعمل  
كسقالات ليخفوها خلف المبنى أو بالداخل، فيرتفع صوت  
منصور بالصراخ أحيانا وهو يجري خلف أحد العمال إذا أخطأ أو  
تلكا في فعل شيء. أو باللعنات لأسعد طابية على أي شيء  
لمجرد تفريغ شحنة الغضب فيتلقفها أسعد كأنها أوسمة إشادة.  
والشيخ هارون لا يهدأ ولا يريد أحد أن يشغله بأي حوار جانبي  
عن متابعة المشهد ككل من أكثر من زاوية. فيسرع من جنب

إلى آخر في خطوات لا تناسب الكتل الدهنية التي تهتز أسفل الجلباب والعباية الأزهرية الجديدة التي فصلت خصيصا لهذا اليوم والحذاء الأسود اللامع الذي سوف يحتفظ به فوق الدلاب لاحقا ولن يستخدمه إلا في العظيم من الأمور. يريد أن يظهر بشكل لائق يمحو اللقاء الأول في رمضان السابق. فكله ثقة أنه سوف يكون من القلائل الذين سوف تحيطهم الهالات الرسمية. وأثناء تحركه بين الجمع لمح القسيس في رداءه الأسود يقف منتظرا بين الناس في دائرة صغيرة لا يقرب منه أحد بسبب الاشمزاز وليس الاحترام. فقال لنفسه «لا مفر اليوم فإني ملائيك والضروريات تبيح المحظورات». واتجه ناحيته وهو يتمتم قائلا: «شاهت الوجوه، وجوه الكفرة والفجرة، يد الله فوق أيديهم، وحجاب الله على ابصارهم وسهام الله ترميهم». سلم على القسيس في تعالٍ ظاهر وتلقف منه القسيس السلام في خضوع مبتذل. فهناك اتفاق غير متفق عليه أن يكونا في انتظار المحافظ وهما متجاوران. اللياقة الحكومية تتطلب ذلك. على الساعة التاسعة أتى ضجيج أصوات سيارات من بعيد فانصت الجمع الكثيف، وبدأ التهامس وبعض الأصوات المرتفعة تشير بأنه هو. فجأة أتت سيارة المأمور الجيب لتجعل المتجمهرين الذين يسدون الطريق ليفسحوا فورا مرتدين إلى جنبات الطريق كأنهم عكار في الماء انحسر بفعل مادة كيماوية. وبعدها انطلقت السيارة ناحية شمال المدينة وما هي إلا دقائق بعدها ظهر الموكب من بعيد. تسرع أمامه سيارة مياه الرش وحامد بجانب السائق في زي عمال البترول النظيف

الذي أهدها إليه صديقه الطبيب كما يذكر دائماً بتباهى. فوجوده ضرورى خوفاً من أي أعطال. بعد أن تخطت سيارة الرش الجامع الجديد بعشرات الأمتار وفي اللحظة التي توقفت أمام جبانة المسيحين، كان موكب المحافظ المكون من خمسة عشر سيارة قادمة معه من الغردقة وصل. فكل مديرية أرسلت مديرها وأهم موظفيها. مدير الأمن ومدير الأوقاف ومدير الصحة ومدير التربية والتعليم ومدير الاسكان، بالإضافة إلى كبار العاملين في مبنى المحافظة. لم يكتفى يومها رئيس المدينة بهذا الزحام من العربات، فقد كلف كل سيارات مجلس المدينة أن تخرج وتتذيل موكب المحافظ بعد دخوله للمدينة حتى سيارات المياه الضخمة حتى يبدو الجمع مهيب ويحظى بالرضا. هال الناس ما شاهدوه من سيارات تعد فخمة في نظرهم وأخذوا يحدقون فيمن سوف يخرج منها. ولم يفسد مشهد الإعجاب إلا ظهور سيارة الإسعاف القادمة من الغردقة في صحبة المحافظ لتأمين أي طارىء. فسيارة الإسعاف مرتبطة في ذكرياتهم بأنه من تحضر أجساد من لقوا حتفهم خارج المدينة في محافظات أخرى، لذلك عندما شاهدوها أخذوا يتمتموا بكلمات «الله أكبر عليك» ويستعيذون بالله من شرها ولولا أنها قادمة مع المحافظ لكانوا انهالوا عليها بالأحجار حتى يهشموا زجاجها كما يفعلون عندما تحضر فقيدا لهم.

ترجل المحافظ من سيارته فهلل الحاضرين ووقفوا. لم يتقدم خطوة مبتعداً عن سيارته حتى أتى فاروق لاهثاً من الخلف واصطحبه. لم يسير مع المحافظ إلا ذو حظوة وثقته بقدرته على

الاقتراب. أفسح رئيس المدينة المجال إلى فاروق في هيئة مترفع عن الفضل ولكنه مرتعب ويريد أن يحتمى به، لأنه يعلم مدى العلاقة الوثيقة بين فاروق واللواء. فرسم على وجه ابتسامة بلهاء ليخفى الحرارة المشتعلة داخله التي تلتهم اعصابه. على الرغم من قلة قوة قسم الشرطة من العساكر، إلا أنها كانت كافية لجعل شيء من النظام حول المحافظ بسبب الرعب والخوف المتجذر في القلوب. ارتفع الأصوات قائلة «نورت القصير يا سيادة المحافظ». «أهلاً بأسد أكتوبر». رفع ذراعه ليحييهم بابتسامة عريضة وهو يدور بعينيه فيهم من تحت النظارة الشمسية الكبيرة التي تلتهم معظم وجهه. أخذ فاروق يشرح للمحافظ كيفية بناء الجامع ومساحته وبعض المعلومات التي لا تستعدى أحد لشرحها. هذه المئذنة وهذا باب الجامع الرئيسى. والمحافظ ورفاقها يستمعون بتمعن متكلف ظاهره كأنهم في منطقة أثرية وفي النهاية ختم فاروق حديثه بأن أهلى المدينة يهدون الجامع اليك حتى تسلمه لوزارة الأوقاف. أبدى تأثيره الواضح بالجملة الأخيرة في هيئة من سوف تنزل دموعه ونظر إلى الأرض في تواضع كأنه تفاجأ بهذا الحديث وشاركه جميع من حوله نفس المشاعر. بعدها استئذان فاروق منه بأن يزيح الستارة الحمراء التي تغطى اللوحة الرخامية التي توثق اسم المشروع. على الرغم من مراجعة رئيس المدينة هذه اللوحة عشرات المرات إلا أنه كاد يغمى عليه أثناء الكشف عنها خوفاً من وجود خطأ ما. تأمل اللواء اسمه طويلاً في إعجاب صامت، كانوا حوله ساكنين في لحظة صمت كأنه يصلى.

حتى صفق فتبعه من حوله بالتصفيق ثم الجمع من الأهالي كأنهم فلزات جيدة التوصيل لمشاعر المسئول. ضجت الجماهير بصوت واحد «الله أكبر وتحيا مصر».

انتهى افتتاح الجامع الجديد. هرول كثير من العوام إلى المحطة التالية للمحافظ ليصلوا إليها قبل أن تتحرك السيارات. حاول العسكر جاهدين أن ينزلوا الصبية الذين اعتلوا سطح عربية الرش لكنهم فشلوا في ذلك. انطلقت السيارة ترش الماء والصبية يلوحون بفخر إلى الذين يسرون على أقدامهم وكثير من الغيظ إلى الصبية الغير اشقياء الذين يتمنون أن يكونوا معهم.

تم تشغيل مكبر الصوت المثبت فوق عربة من عربات مجلس المدينة أثناء تحرك موكب المحافظ. كان يصدح بالأغاني الوطنية التي تمدح القتال في سبيل الوطن. وعند وصول المحافظ إلى منطقة العرض بالقرب من وسط المدينة بعد القلعة مباشرة، كان منصور مع بعض الموظفين يشيرون بأذرعهم كأنهم رجال مرور إلى شارع جانبي تراب واسع لتقف فيه السيارات المرافقة للمحافظ. صحب فاروق المحافظ في عجلة ذات مهابة ليدخله بيتا مكونا من طابقين ليصعد إلى الطابق الثاني ليرى العرض من شرفة البيت المتسعه. فقد اختار فاروق هذا المنزل بعناية ليليق بالضيف وبالطبع كانت موافقة أهل البيت شيء ثانوى. كان المنزل من التراث المعماري القديم ذو بلكونة خشبية واسعة. أعدت مائدة إفطار في الطابق الثانى. حاول أسعد طابية أن يغلق

باب البيت عن عمد بعد أن دخل المحافظ وعدة أفراد قليلا حتى لا يتيح للبرلمانى العبادى ليلحق بهم. ولكنه فشل في اللحظة الأخيرة بسبب نظرة ثابتة ذات معنى من الرجل بعد أن وضع عصاه ليمنع الغلق. فاعتذر طابية بخبث واضح. لم تستمر الجلسة حول مائدة الإفطار إلا دقائق معدودة ليقف المحافظ في البلكونة ويجواره فاروق. وقف الأستاذ غزالة وحيدا في منتصف الشارع تحت أشعة الشمس المنعشه في شهر مارس يملؤه الفخر والثقة بالنفس وبصوت جهورى عسكرى قال: «طابور العرض بدأ» ودق بشدة على الطبلية الضخمة التي كانت كأنها كرش يتدلى منه. خرج صفان من التلاميذ من جانبيين الطريق وهم متشحون بقمصان حمراء وبيضاء عبارة عن اقمشة فصلت لهم مثل القمصان الفسفورية لرجال المرور والعمال. أتوا في خطوات منتظمة متناسقة مع دقات الطبل، ثم أخذت الصفوف تتداخل وتتخرج بشكل دقيق. ويرسمون بأجسادهم اسم مصر واسم المحافظ. كانوا أهل البلدة في منتهى السعادة وهم ينظرون إلى أبناءهم الصغار وإن كانت أعينهم في أغلب الوقت تتجه إلى القابع في الأعلى، ليروا مدى تأثير ما يشاهد فهذا أعماق أثرا في نفوس البسطاء. انتهى العرض بأن شكل الصبية هرم قاعدته من التلاميذ الأقوى حتى انتهى بصبي ضئيل الجسم في أعلى الهرم واخرج من جيبه علم مصر وهلل الحاضرين ضاحكين للصبي فلا يوجد شخص غير معروف في المدينة حتى وأن صغر عمره. توقفت دقات الطبل بعد رفع العلم فرفع المحافظ قبضيته إلى أعلى

معبرا عن القوة.

اتجه المحافظ إلى الجامع الكبير ليرى بنفسه المستوصف الملحق خلفه الذي أسسه فاروق. ترك فاروق قيادة الحديث لصديقه الشيخ هارون. فصال وجال بمنتهى الخفة والروعة في تناسق يحسده عليه المتبحرون في اللغة وينبهر به غير المتعمقين. أكال للمحافظ المدح والفخر وأعلاه في الإشادة حتى كاد يجلسه على الخلق إليها. وقدم له الأطباء الغرباء الذين يعملون في خدمة المدينة وكيف أنهم تركوا ديارهم لخدموا وطنهم. وبعد إنهاء الشيخ هارون حديثه قال المحافظ وهو يتلفت في غضب انبعث من وجهه ولم تخفه النظارة العريضة بل زادته قسوة: «إذا كانت الصحة والرياضة والأوقاف يرهاها فاروق بك فما دور المديرية في المحافظة، نغلقها إذن ولا داعى لصرف المرتبات». فهب فاروق معترضا بأدب جم قائلا: «هو مجهود لا يخرج إلى النور إلا بتوجيهاتكم يا معالي المحافظ. وبمساعدة السادة مديرين المديرية فلولا اشرافهم لما تم كل هذا». فقال المحافظ: «اتمنى هذا» بنفس التجهم. ما قاله المحافظ ما هو إلا إطراء إلى فاروق وحتى يعلم الجميع أنه رجل المحافظ، وما الحديث إلا مسرحية تحدث كثيرا في مصر والتوبيخ أمام العامة يجيده المسئولون على من دونهم لذلك لم ينطق أي مدير من من ذكرهم ليدافع عن نفسه فلا يمكن التعقيب بالمعارضة على شخصية كانت عسكرية. فكل ما تم في المدينة بعلمه وأمره. وما قاله

المحافظ لن يعود عليهم بأي ضرر في وظائفهم حتى وإن صفعهم أمام الناس.

انطلق الركب إلى مبنى الشبان المسلمين الذي تم طلاؤه وبدأ في أبهى حلة له. لعب المحافظ تنس الطاولة مع أحد الشباب وسط انبهار ابله من الحاضرين للموقف واعجاب شديد بالتواضع الذي اتصف به السيد اللواء. واعتبروه إنجازا لا يقاويه آخر. وأخذوا يهللوا لكل حركة تأتي منه أثناء اللعب. وكانهم اكتشفوا حالا أحسن لاعب لتنس الطاولة في العالم. ثم خرجوا بعد ذلك من الباب الخلفى ليتجهوا إلى ناحية ملعب كرة القدم الذي يفصل بين المبنى وشاطئ البحر. لم يتوقفوا في الصوان الضخم الذي نصب في وسط الملعب، رصت المناضد والمقاعد داخله. وتم تخطيط ملعب خماسى بالجير أمامه لتقام المباراة النهائية للدورة الكروية التي تحمل اسم اللواء عفت. واكملوا سيرهم حتى الشاطئ ليشهد المحافظ سباق السباحة الذي سوف ينطلق من سقالة شركة الفوسفات حتى الشاطئ. تقوس الساحل يجعل المشهد كأن المتسابقين موجودون على شاطئ آخر مقابل. وصل العناء إلى منتهاه بالعساكر الذين يوسعون الدائرة حول الضيوف حتى أصبح كثير من أهالي المدينة لا تفصله إلا أمتار قليلة عن المحافظ. أحضر فاروق بك للمحافظ منظر ليشهد السباق من أوله ومسدس حتى يأذن ببدء السباحة بأن يطلق طلقة في الهواء. ما فعله فاروق يعد جريمة لو كانت لغيره. فلا يحق له أن يمتلك

سلاح أو منظار. ولكن لم يخطر على بال أي أحد من ممثلين القانون نهائيا هذا الجرم. بدأ السباق وأخذ يتردد بين أهالي المدينة وخصوصا الصغار في صوت مرتفع باسم من سوف يفوز بالسباق وكان يدعى (رمانة). وجعلوا يقولوه في هيئة من شاهد فيلم سينمائي أكثر من مرة. حتى وصلت ببعض كبار السن أن تظاهر بأنه لا يحب متابعة السباق وفضل الرجوع للبقاء بالقرب من الصوان في وسط الملعب لأنه يعرف من سوف يفوز. ووصل ببعضهم أن يصر على إقناع القادمين إلى الشاطئ بأن رمانة سوف يكسب السباق كعادته فما الداعي للمكوث على الشاطئ والانتظار.

أطلق المحافظ طلقة البداية. قفز كل المتسابقين وكانت القوارب الصغيرة للأهالي تؤمنهم خوفا من حدوث أي مكروه. تابع المحافظ السباق بالمنظار في شغف وكلما شاهد شيئا أعجبه كان يبعد المنظار عن عينيه ويعلق مع فاروق عليه. لم يخلف رمانة توقعات أهلى المدينة، فقد وصل الشاطئ بفارق كبير عن من خلفه كأنه بدأ السباق من منتصف المسافة. كان شابا فارغ الطول ذا عضلات متناسقة لا يوحي جسده بأنه يحتوى على نسبة دهون. سلم على المحافظ وسط تحيات الفخر من الحاضرين. اصطحب فاروق المحافظ للرجوع إلى الصوان المعد. فهناك سوف ينتظرون قدوم الفائزين من اختراق الضاحية الذي سوف يبدأ من أقصى شمال المدينة. كانت النار مشتعله عند

فاروق بردا وسلاما أما عند كبير العباددة فكان يصطلى من شدتها، يكتم غيظه ويستعدى كل خبرات العمر الطويل حتى يتكيف مع الوضع. أنه الإنسان يستطيع أن يتطور واللا فعليه أن يترك الحياة لغيره. لا وجود لأحد غير فاروق، هو من يتم الميل عليه للاستفسار أو القهقهة المنفردة التي يجب على كل من يراها أن يبتسم أو يضحك كالابلة. يهز عصاه ويمرر أصابعه الطويلة من حين لآخر على شاربه كأنه يذكر نفسه بالمهابة التي يمتلكه أمام قبائل العباددة فذلك يكفيه. وتجنح مخاوفه ناحية اعتذار المحافظ لدعوته لزيارة العوينة. فإن حدث ذلك فقد يتهدم جانب كبير من جدار العز الذي بناه طوال أعوام ماضيه في أرض العباددة. فحتى وأن اعتبرهم كالأنعام كما يطلق عليهم بين أبناءه ولكنهم يحتاجون للعصا ليقودهم أمامه والاتفرقوا عنه. المحافظ بالنسبة له ما هو إلا وسيلة تباهى مثلها مثل تفاخر أمير دولة فقيرة أو طاغية دولة من دول أفريقيا بزيارة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أو ملكة إنجلترا له. أما في أعماق نفسه فيشعر باحتقار ذلك الزائر ويثق بأن عرقه اسما منه ولكن للضرورة أحكام. لم يرق له مكان جلوسه في الصوان. ففاروق على يمين المحافظ ومدير الأمن على يساره، ثم هو. حمد الله في سره أنه منع العباددة من حضور هذه اللقاءات بحجة أن المحافظ يجب أن يزورهم في مكانهم في العوينة. حاول أكثر من مرة أن يسترعى انتباه سكرتير المحافظ حتى يشير له بأن يقترب. ولكن الخبيث لم يلتفت مرة واحدة إليه أثناء طوافه حول المحافظ

والوقوف أحيانا عند إذنيه. وعندما ضاق صدره. أو ما لتابعه. بأن يذهب خلف السكرتير الخبيث وأن يحضره. التابع اسمه جامع ولكن تنطق جامع بين العبادة، هو رجل في نهاية عقده السادس. طويل بضخامة، شديد السمرة، أصلع الرأس ولكنه معتم بشاش أبيض طويل وتكثرفي وجهه النتوءات التي تبث الرعب فيمن يشاهده لأول مرة. وله من البأس والجلد باع طويل. نشيط في خدمته، ملازم للكبير العبادة منذ أن تربع على كرسى البرلمان. كأنه الظل. يخدم في بيته وفي مندرته أو كما يطلقوا عليها العبادة الخيمة. لذلك اشتهر بلقب خادم الحرمين بين العبادة سخريته مما يفعل. لو أمر بالقتل لقتل. استسلم تماما السكرتير إلى جامع كأنه طفل وجدته أمه في مكان غير مناسب في الشارع فسحبته من ذراعه كالريشه التي ليس لها وزن حتى تعاقبه في مكان بعيد عن الضوضاء. يعرفه شكلا السكرتير فقد شاهده منذ قبل أثناء زيارات كبير العبادة إلى المحافظة. ويرجع استسلام السكرتير لعدة أشياء منها أنه مذنب وتعمد التجاهل ليرضى فاروق، وأنه لا يوجد من يستطيع أن يعترض على إشارة من هذا الحيوان المفترس الذي تظهر في عينيه أنه لا يهتمه أي اعتبارات أو موازنات لذلك فالأسلم أن تخضع له حتى لا ينهى عليك. لذلك عندما قال له جامع أن الحج يريدك لم يستغرب ورد بخضوع على السمع والطاعة. انتهى الحوار الخاطف بعد ذلك مع السكرتير وسط الصخب على أن يحضر المحافظ إلى العوينة نظير مكافأة سخية.

بدأ سباق الجرى من شمال المدينة أمام المستعمرة. كان في أوله يرعاه الالتزام بسبب وجود الأستاذ غزالته في المقدمة في سيارة منصور ولكن عندما وصل السباق إلى منتصفه. أسرعت السيارة ليصل الأستاذ غزالته إلى مبنى الشبان حتى يكون في انتظار الفائزين، لذلك انهار الالتزام والانضباط وتدخلت الدرجات الهوائية، ليصطحب كل صديق صديقه ليركب خلفه. ومن كانت داخله الحرج وحب النزاهة اكتفى بأن يمسك بقبضة صندوق الدراجة الخلفى لتثير ساقيه للإسراع، ولكن كان الأستاذ غزالته بالمرصاد بعصاه الطويلة التي تنثني كالسوط في ليونتها. كان واقفا على بعد قبل الصوان ليكون فلتر لكل من يأتي. فهو يعرفهم جميعا. فعندما يأتي من لم يدخل السباق من أوله ويدعى أنه الأول يشير له من بعيد أن يرجع. فتعلو صيحات الحاضرين ضاحكه. لذلك لم يمر منه إلا عشرة شباب يستحقوا أن يكونوا الفائزون إذا تسابقوا بشرف. وبعد ذلك بدأت المباراة النهائية في دورة كرة القدم بين فرق المدينة. وكانت الفرقتان تمثلان الحارة الوسطانية وحارة تحت. وفازت حارة تحت بسبب أن الحكم كان من حارة فوق فمال بقراراته الظالمة ليجعل كفة الفوز للحارة تحت. حتى لا تتباهى الحارة الملاصقة لهم بالانتصار. سلم المحافظ الجوائز للفائزين وكانت عبارة عن ملابس رياضية وأدوات منزلية بسيطة من صوانى واطباق وأكواب زجاجية. بعد أن انفض اليوم الرياضى، علم الجميع أن الركب متجه إلى العوينة. امتعض فاروق من الفكره وشاركه أغلب القصيرية

في تلك الامتعاضة. ولكنه ليس له في الأمر من شيء. صحى من نشوته كأنه كان سكران وبدأ يتذكر من ينغص عليه سريرته. وأخذ يستحضر مصيبتة كأنه اكتشفها الآن. سبب ذلك التقاء عينه بعين أخوه منصور من على بعد أثناء مغادرة الصوان ويفصلهما الناس وغبار الهرولة. شعر بأن منصور أته نفس الغمة في نفس اللحظة. كأن هناك في الأعلى شيطاناً يصوب سهامه اللعينة إليهما فقط.

لم تستغرق زيارة المحافظ أكثر من ساعة في العوينة. رقصوا أمامه الدربلة وذبحوا عند قدمه بضعة من الخرفان. وشاهد سباق الهجن وكانت أول مرة يتم فيها ذلك في المدينة حتى أنه كان في غاية الصعوبة على إقناع عدد من شبان العبادة المتمرسين في ركوب الجمال أن ينظم لهم ذلك واستغرق الإقناع عدة أيام. فطالما هناك سباق بين القصيرية فلا بد أن يكون في العوينة سباق آخر ولكن بطبيعة مختلفة. كانت طرفة سباق الهجن. أن كل المتسابقين لم يفهموا لماذا يجب أن يكون هناك فائز واحد وله جائزة. فبعد أن انتهى السباق امتعضوا جميعاً من هذا حتى الفائز نفسه وشعر بالخرج في أن يترك رفائقه ويذهب وحيداً إلى مكان المحافظ ليسلم عليه. ووصفوا يومها أنهم مجموعة من الأغبياء من قبل القصيرية. وأنه يجب على العبادة المتواجدون في القصير أن يحمدا الله على نعمة الجيرة. وإلا لكانوا مثل أقاربهم الذين يسكنون الصحراء. وعلق المحافظ يومها موجهاً

حديثه إلى كبير العبادة متسائلاً بسخرية: «أقاربك هؤلاء؟». غادر المحافظ العوينة ليتوقف للغذاء في بيت فاروق. جعلت غرفة الضيوف المتسعة فقط للخاصة فقط، حتى أن العقيد رئيس المدينة فضل على أن يقوم بدور الخادم في رص الأطباق الناقصة على أن يغادر الجمع بسبب عدم وجود مقعد له. فزامل منصور وطايبية. واكتسى بقناع المهموم بأمر الضيوف، فلا يطعم قبل أن يطعموا. وبعد أن انتهى اصطكاك المعالق في الأواني وامتلات البطون، أخذ يتاعب المحافظ الجالسين معه ببعض النكات البذيئة بشيء من التورية مستلهمين إياها من أنواع الطعام الذي كان منذ دقائق قليلة على المناضد. والكل يضحك في صوت مرتفع، وكل واحد فيهم ينظر إلى من بجانبه في دهشة طفولية فرحة من التي ترتسم على وجوه الفقراء عند لقاء احد شديد الثراء كأنه يقول له كم هورائع هذا الرجل، يا لها من بساطة يبتها. ولم يتجرأ أحد من الحاضرين على أخذ زمام الحديث. الأمر كله هزر يلقيه السيد اللواء وما عليهم إلا الضحك أو كلمة تجمل الحوار من نوعية فعلا، صحيح، بالطبع، وعند الصمت بعض جمل المديح. إلى أن ألقى المحافظ عصا الحديث ليتلقفها الشيخ هارون. عندما قال للحاضرين: «أود أن أفعل شيئاً للأخوة الأقباط في القصر». فسكت المستمعون بشيء من الاستغراب الحذر وغلبت الحيرة حتى على الخاصة من الدائرة القريبة منه. فاستدرك قائلاً: «هل هنا مسيحي في الحاضرين؟». فأجاب مدير مكتب العمل:

«الحمد لله الكل مسلمون». فأيده الحاضرون بهمهمات وهزت الرؤوس بالإيجاب. عندها ابتسم المحافظ قائلاً: «إذن الواحد يأخذ راحته في الحديث». فقهقه الحاضرون بطريقتة بلهاء سعيدة. ثم نظر إلى الشيخ هارون في آخر طرف الحجرة متسائلاً: «أين صديقك الذي كان بجوارك عند افتتاح الجامع؟». فضج الجمع بالضحك مجدداً معرفتهم مغزى التساؤل. فرد الشيخ هارون مبتسماً في صوت مرتفع: «أنها الضرورة يا سيادة المحافظ». فأشار المحافظ بإصبعه في اتجاه الشيخ هارون ثلاث مرات بجديتة أخرستهم ثم قال: «فعلاً كما قال الشيخ، إنها الضرورة، تعلمون أن الرئيس السادات يكره كبيرهم. لعنة الله عليه ولكن الدولة تريد أن توصل رسالة إلى المسيحيين، بأن طلباتهم مستجابة دون هذا الرأس الفاسد، طالما طلبوها بأدب وليس بتناول واعتقاد أنها حق وأيضا حتى يعلم الغرب أن الخلاف في مصر ليس مع الأقباط بل مع رأس الكنيسة الذي يريد أن يكون زعيماً سياسياً وليس زوحياً «زوحى يا زوحى». فعاد الضحك منفجراً من أفواههم بسبب الابتزال في نطق وتكرار «زوحى». ثم استطرد قائلاً بعد أن انتهوا من نوبة الضحك المبالغ فيها كراماً للمهرج المجل: «لذلك قررت أن أعطيهم أرضاً حتى يبنوا عليها دار مناسبات. أقوالها مجدداً دار مناسبات وليس لهم الحق في الصلاة فيها». بالطبع كل الموجودين لم يرق لهم هذا ولكن لا يستطيعون أن يهمسوا بامتعاض. وهذا هو أصل انتشار الدين في أي بقعة من الأرض، من غير قوة تعتقد به أو تستخدمه لن يتبعه العامة، إذا ظهر اليوم شخص يدعى

أنه له علاقة بالسماء سوف يقتله أصحاب السلطة أو يتركوه للعامّة لينهشوا لحمه. لذلك سوف يصبح أمره وأمر ما يدعو إليه بين قلة لا يلتفت إليها أحد حتى ينضم إليه كبير لتكون نقطة تحول. فعامّة الناس لا عقل لهم. يتبعون ما وجوده بعد الولادة أو ما يفرضه أصحاب السلطة. لذلك سوف نجد الصمت من من سمعوا بأمر دار المناسبات التي سوف تعطى للمسيحين. بل سوف يحاول كل شخص داخله أن يروض نفسه على شيء لم تعتاده من قبل وسوف يقدر على شكها في النهاية.

عندما تكلم المحافظ بشأن دار المناسبات لم ينتظر منهم رأى أو مشورة. فالأمر لا يتعدى بالنسبة له حاجز السمر في الجلسة. ولكن نظرته للشيخ هارون كانت واضحة للكليهما فقط. فأحيانا العين تتحدث أكثر من اللسان. فهز الشيخ هارون مؤخرته وهو جالس ثم تكلم قائلاً: «أهل الذمة لهم علينا حق، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة). وما يشير إليه سيادة المحافظ هو الانتقاص في الحق، فكلنا يا سادة لنا أماكن للمناسبات إن كانت سعيدة أو حزينة لذلك من الظلم ألا يكون لهم أيضاً مكان يجتمعون فيه عند الحاجة إليه وهذا حق، وأن الله إذا أراد شيئاً بين خلقه على الأرض يجريه على يد أشخاص مثل سيادة اللواء. فهم واجهته في العدل والبطش والرحمة، فما من شيء يخرج منهم إلا

وكان أمرا إلهيا». وابتسم وهو ينظر إليهم جميعا متسائلا: «من منكم تودوا لمقابلة السيد المحافظ؟». انتظر قليلا وهو مستمتع باستغرابهم السؤال ثم أكمل: «لا بد على أي شخص مسلم قبل أن يقابل حاكم أو رئيس أو ملك بأن يتوضأ لأن المقابلة إما فيها رضا من الله أو سخطه». فتعالت الأصوات «رضا إن شاء الله». كان حديث الشيخ هارون له وقع السحر على السيد اللواء، فقد شعر بأنه مختلف عن بقية الناس بهذا الاختيار الرباني.

وبعد أن صلوا العصر جماعة. اتجه الجمع إلى المحطة النهائية للزيارة وهي توديع مراكب الفسيخ من أمام السقالة. تقريبا القصير كلها أمام السقالة حتى أنت سيارة المحافظ وتوقفت أمام مدخل السقالة مباشرة. كان المحافظ في رفقة فاروق. انتظر قليلا حتى تكتمل حاشيته التي تهول من كل جانب وبعدها تقدم ماشيا. كان المراكب الثلاثة على الجانب الأيمن للسقالة. ورؤوس البحارة في انتظار المحافظ عند نهاية السقالة. سلم عليهم وأخذت الصور التذكارية بالكاميرا القادمة من الغردقة. وبعدها ركبوا البحارة فلوكة حتى يصل كل واحد فيهم إلى مركبه. وانطلقت المراكب مغادرة وسط تلويح المحافظ بيده. كان فاروق أكثر الموجودون توترا في الدقائق القليلة التي كانت للمحافظ على السقالة. بسبب الهزل والنكات التي كانت بين القصيرية الذين على الشاطئ وبين البحارة على المراكب فعزوز وأمثلة لم يتركوا المشهد يمر دون استعراض للمواهب الهزلية.

فتاره أحدهم يولول على الشاطئ كأنه زوجة مودعة وسط  
توسلات مضحكة بالأ تجعل الحزن يأكل شبابها فيلوح إليه  
بحارة بشاله ويرسل القبالات. وقد استشاط غضبا أيضا من كم  
الأطفال الصغار على مراكب الفسيخ الذي يفضح كل الترتيب  
فلا يعقل أن يكون هناك أطفال. ولكن مر كل هذا دون  
التفات من المحافظ أو تعقيب، فربما لم يلحظ المحافظ أي شيء أو  
قد يكون لاحظ. وغادر المحافظ المدينة وهو في اتم السعادة وأصر  
على أن يرافقه فاروق في سيارته إلى الغردقة. وبعد المغادرة بدقائق  
أعطى رئيس المدينة الإذن بخروج الماعز من الطابينة. وكانت  
بالمئات وكل قطيع يعلم أين يتجه. أخذت الأطفال تجرى وراء  
الجديان حتى تمتطيها وسط نهر الكبار او ضحك عندما يرفض  
جدي مذلة الركوب فينطح أحدهم فيبكيه. حفر تدفق جموع  
الماعز في ذاكرة الأطفال ولم ينسوه للعشرات السنين القادمة  
حتى أنهم كانوا يتندرون على الذي ولد بعد هذا اليوم أو كان  
صغيرا لا يدرك بأنه لم يحضر ( حرب العنيز).

\*\*\*\*

أتت الإشارات بأن منى سوف تلد الليلة أو غدا. فالأنات  
والنظرات المتسائلة والفطرة ترجح ذلك. فلملمت الحاجة منيرة  
عزيمتها وجاهدت أن تظهر قويه أمام منصور في الصباح وقبل أن  
يغادر فقالت له: «الموعد الليلة أو غدا».

- ماذا علي أن أفعل؟! هل أنتظر في الصالة وأدعو الله أن

يجعل السلامة لها.

- أبقى في البيت وادعوا الله أن يكون الستر لنا. لم يعجبه رد أمه كأن العار له وحده. فأجاب وهو يستعد للخروج قائلاً: «لست ببعيد، المحال قريب، أفضل من ولدك الكبير الذي هرب إلى الغردقة من أسبوعين ويتسائل مثل اللصوص بعبارات غامضة في مكالماته حتى لا يفهمه موظف السنترال المتلصص».

- اخوك معه أعمال كثيرة وشاقة وله أسرة وأنت الخير والبركة يا منصور. فأشاح عنها برأسه وهو متجهم وترك البيت.

انتظامه في عمله في المحال وتركه اللهو أتاح له أن ينتبه إلى إرثه من أبيه. وأصبح أغلب الوقت تدور في رأسه بعض الأمور مثل كيف لفاروق أن يبني فندق في الغردقة ويصرف ببذخ في استقبال المحافظ. من أين يأتي بكل هذا المال. «المحال لا يستطيع أن يجعلني غنيا كما ينبغي وأنا فرد واحد وفاروق لا يسأل ولا يهتم وهو الحريص في طبعه. إذن ما تركه أبي ليس قليلاً».

بعث من يحضر له الغذاء من البيت. لم ترتاح الحاجة منيرة لفعلته. انتظرت إلى أذان العصر وبعدها أرسلت في طلبه مع سيدة. فانتهزت الفرصة وأسرعت أولاً إلى العدو لتخبر حامد بأن عليه أن ينتظرها في منتصف الليل عند الملاحية وأن لم تأت فيكررها في الليلة التالية كما اتفقوا قبل ذلك من عدة أسابيع، فالأسلم

أن يأخذ الرضيع في المدينة وليس في قنا، لأن الأخير له عقبات كثيرة من مواصلات غير متوفرة، وأن اتاحت بضربات حظ فماذا يقول لرفاق السفر من أهل القصير الذي يعرفونه عن أمر الطفل، وأيضا ماذا يقول لرضينة التي لم يفاتها في شيء حتى هذه اللحظة.

رجعت سيدة إلى بيت الأوانجى وصدرها ممتلئ بنسمات التوفيق بعد أن أخبرت حامد. وعلمت بعد رجوعها من العدو من عمال المحال أن منصور ذهب إلى البحر مع عم سمير. استبشرت خيرا بغيابه الذي خفف التوتر والقلق لديها. وقبل منتصف الليل بساعتين بدأت منى تنازع الآلام غير المفهومة حتى سيطرت الفطرة عليها. وأصبحت تتصدع وأنفاسها تتلاحق أحيانا وأخرى تحبس كأنها لحظات الموت. صوت المقرئ الدائم في البيت المنبعث من المسجل يلتهم صوت الحياة. قدم وصرخ في بيت الأوانجى يعلن مجيئه. كانت الحاجة منيرة عند رأس ابنتها تبث فيها الطمأنينة وتظاهرت بعدم الاكتراث لرويتها لتغير وجه سيدة من الارتباك إلى الانبساط بعد خروج المولود وأن حاولت أن تسترق النظرات الخاطفة لترى هل هو ذكراً أم أنثى. بعدها أمرت سيدة بشيء من الصرامة بأن تأخذه خارج الغرفة. فقد أتى لها شعور في تلك اللحظات بأن سيدة سوف تقرب المولود إلى منى بطريقة عفوية، كما يحدث في مثل هذه الحالات. انسحبت سيدة من الحجرة بعجلة وهي تحمل المولود الذي يصرخ بوداعه بين يديها. أغلقت عليه غرفتها بعد أن لفته بعنايه لتحميه من بقايا برد

الشتاء الذي يظهر على استحياء في بعض ليال شهر مايو. رجعت لحجرة منى. فوجدتها نائمة والحاجة منيرة بجانبها متكئة. أخذت تخلى الحجرة في صمت من الأوانى التي كانت تستعملها في الولادة وتجمع الاقمشة المبللة التي جفت بها. وما هي إلا دقائق قليلة بعد ذلك وسيدة الحلبية تسير في الظلام مسرعة باتجاه الملاحه. كادت أكثر من مرة أن تسقط على وجهها. معها المولود تضمه بعاطفة جياشة كأنه منها، لعلها تتعاطف معه لأنها لا تريد أن يصبح مصيره مثل أيامها. وما أن اقتربت من طرف الملاحه الأقرب إلى شاطئ البحر حتى انتصب شبح وتقدم ناحيتها. كانت متأكده أنه حامد ولكنها حضرت في ذهنها ماذا سوف تقول له لو كان هذا الشبح ليس حامد. أخذ منها الرضيع دون أن ينطق بكلمة، يسمعها واطرافه ترتعش من الإثارة.

لم تلاحظ الحاجة منيرة غياب سيدة لأنها لم تتحرك من مكانها وشغلها غضبها من أبنائها كيف يتركوها في مثل ليلة كهذه. أليس من الأفضل أن يكون على الأقل ابنها منصور بجواره الآن، ليأخذ سيدة والمولود ويتجه إلى قنا في العتمة وينتهي هذا الكابوس، الآن يجب أن ننتظر إلى الغد. نظرت إلى ابنتها ومسحت على جبينها والألم يعتصرها وتحدث نفسها «الولد أتى إلينا من ناحيتك ولكن لا نستطيع تقبله، حكمتك يا الله».

دلفت سيدة إلى الحجرة في سكون. اقتربت من السرير حتى تستطلع هل من مستقيظ. فما زالت عينيها لا تستطيع الرؤية

في ظلام الحجرة. فقالت الحاجة منيرة: «اجلسى عندك ما زلت مستيقظة أو اذهب إلى غرفتك». أيقنت سيدة أنها لم تلحظ غيابها فجلست على الأرض بجوار السرير قائلة: «كنت خارج البيت وعدت منذ قليل».

- ما الذي جعلك تغادري البيت؟

- الدوام لله وحده.

- ماذا حدث؟

- المولود مات بمجرد أن غادرت الحجرة وبعدها أتيت لأخبرك ولكن وجدتك مرهقة وابنتك نائمة، فاكتفيت بتنظيف الحجرة وبعدها ذهبت إلى الخارج واحتميت بالظلام ودفنته بعيدا، أتى بالحل من نفسه ولم يكلف أحدا بالتعب في البحث عن مخرج له من هذه الدنيا. صمتت سيدة فجأة لأنها انتبهت أنه لا يجب أن تتحدث بهذه الطريقة التي توحدت فيها مع المولود.

- لم يترك أحد.

- لا. نهضت سيدة لتغادر حتى لا تسأله مرة أخرى، فما زالت مرتبكة.

أتى منصور بعد الظهر متأخر على غير عادته عندما يبیت في البحر. حاول أن يتصنع بفعل بعض الأشياء التي تلازمه من طباعه كافتعال ضجة مع قدومه. ولكنه فشل في هذا بمجرد أن وجد

أمه متجهمة صامته، تجلس على الكنبه في الصاله واضعه يديها منتصف بطنها كأنها تصلى وتنظر إليه بعينيها باستياء ظاهر دون أن تحرك رأسها باتجاهه. يعلم مدى الضيق الذي سببه بهروبه ليلته أمس ولكنه لا يعير لذلك وزنا. طلب من سيدة أن تحضر له أي شيء لياكله.

- من أين تأتيك الرغبة في الطعام. أيصح ما فعلته أمس؟ أن تتركنا وتذهب، ماذا نعمل لو حدث طارئ؟.

عندها أيقن منصور أن منى وضعت، حمد الله داخله لأنه لن ينتظر ليلته أخرى، وانفجرت أساريره فاغتاضت أمه. فأكملت قائلة: «أنت شخص انانى لا تفكر إلا في نفسك لا يهمك أمر من حولك».

- يكفي يا حاجة، إذن الليلة نذهب أنا وأنت. يقصد سيدة إلى قنا.

- حتى هذا العمل الذي كنا نحتاجك فيه قد انتهى.

- لقد مات المولود، وقد دفنته.

- أين؟ امتزج الارتباك مع الفرحة.

- في المنطقة بين العوينة والعدوة، في ممر السيل.

- الأرض طرية هناك وقد تنبش الكلاب وتستخرجه. هل رأك أحد؟.

- هو ضئيل لدرجة لن تجعل الكلاب تشم رائحته وسوف

تلتهمه الأرض في يومين.

– سوف أذهب إلى الغردقة لأزف الخبر لفاروق، الحمد والشكر لك يا رب، حليتها من عندك. خرج مسرعا متخليا عن وقاره الذي أحاط به نفسه منذ أن دخلت سيدة البيت كمن وصلته البشارة ولم ينتبه أنها لم تجب عن بقية سؤاله بشأن هل لمحها أحد أم لا.

\*\*\*\*

بعد عدة أيام من الذهاب والإياب، أغلبها بالليل، اقترحت رضينة أن تستقر مع فضاية حتى موعد إعلان الولادة، بسبب المشقة التي التهمت قواهم. والحذر الذي أعياهم أثناء الذهاب والمجيء حتى لا يراهم أحد. فتارة يمشون على الشاطئ وأخرى بين الطريق الأسفلتى والشاطئ وكان الأخير وعرا. أتى اقتراح رضينة على هوى حامد لأنه رأى بنفسه كيف المغامرة بترك الطفل لفضاية وحيدا لأبد من وجود أحدهما بصفة دائمة معها، وأمام الجيران من العبادة في العدو أن رضينة تبتعد عن العيون حتى يتم لها أيام حملها كأنها ذاهبة إلى بيت امها. زادت صرامة فضاية مع المقترين والزائرين لها بأن تشيح لهم بعصاها حتى يبتعدوا لوجود ضيفة معها.

ساعدت الرضعات المطاطة التي أحضرها حامد في غذاء الرضيع. ولكن لم يسلم الأمر من عدة مرات بأن يمرض وفي أحداها كان لا مفر من إحضار الطبيب سراج لرويته والكشف عليه. فاتى

الطبيب وتم الكشف عليه على أنه طفل من العبادة البدوى. لم يلحظ الدكتور ويونس في المرات التي قدموا إلى بيت حامد أن رضينته غير موجوده. فالذى يعلمه العبادة غالبا لا يعرف بأمره القصيرية. وقد قللوا المجيء بعد أن أخبرهم حامد بأنه ينتظر مولود قادم. غلبت فرحة الصديقان على اللوم على حامد بتأخير إعلان ذلك سابقا وعلمهم مؤخرا من القيل والقال بين الناس. لم يكن حامد يحمل هم ما يصل إلى القصيرية من أخبار عن حمل زوجته، ولكنه كان قلقا من أن يصل الخبر إلى حفايت. لا يريد أن يضم آخرين معه في هذا السر، فالأمر لن يتحملة أحد. كل يوم يمر عليه كأن أثقالا نزلت من على ظهره. ينظر إلى الجنوب مترقب كمنتظر العاصفة. فقد يفاجئه زائر في أي لحظة.

ما زال هناك كثير من الغمام الذي يحجب الصفاء في رأس رضينته. كانت تجهد نفسها بالعمل في عشة فضائية بأن تتفنن بأحداث أسباب لترهق نفسها حتى لا تركز إلى التفكير الذي كان يسبب لها الكدر بعض الأحيان ويقذفها بتساولات من نوعية «ما هذا الذي أصنعه؟ هل هو ابن أشرار أما أخيار؟». وإن كان بصيص من شعاع المحبه يلامس قلبها عندما تنفرد بالرضيع وتحديثه بهمسات لا يسمعها غيرهما بأنه أمه وعليه أن يطيعها ليصبح شابا صالحا. كان يلاحظ حامد الجانب المعتم وينظر إليها باسى. وفي نفس الوقت يشاهد عزيمتها وصلابتها وأنها تستحى أن تتذمر. وفي ليلة كان الرضيع نائم وفضائية ساكنة

على الرمال بجوارهما في ليلة مقمرة يوحى هواؤها بأن الصيف سوف يكون له بأس وقسوة هذا العام. أشار إليها بيده كى تقوم تتبعه ناحية الشاطئ وعندما اقترب الاثنان من الماء. وخاض قليلا في المياه الضحلة فاقتربت منه رافعه طرف ثوبها فامسك بيدها ثم تكلم وهو ينظر إلى الأمام وهي بجانبه قائلا: «كل إنسان له سريعيش عليه ولا يطلع عليه الآخرون، وهذا حق لكل إنسان أن يكون له خصوصية واعتقد دون سرفي حياة كل شخص تصبح حياته فارغة خاوية ليس لها معنى. وكلما كان هذا السرفيه سمو ورفعة فسوف يقود صاحبه إلى الجانب المشرق من الحياة، من يوم أن وجدت هذا الطفل وأنا متحمس، أشعر بالإثارة والتشويق المحفز الذي يجعل الأيام ليست مملتة، كأنني أخطط إلى مستقبلى ولا أترك ذلك للأقدار. أتعلمين يا حبيبتي أن كثير من الملوك لم يكونوا أبناء للملك أو الملكة، كان الأهم هو الحفاظ على الملك، فعندما لا تلد الملكة أو لا تنجب الذكور، يأتوا بجارية تحمل ويوهموا العامة أن الملكة سوف تنجب قريبا وأحيانا يوهموا الملك نفسه أن زوجته الملكة حامل، كل هذا حتى تستمر المملكة، حدث هذا في معظم الممالك السابقة وقد يكون مستمرا حتى الآن ولكنه سر، هناك ملك عظيم اسمه رمسيس الثانى، بنته ميريت آمون أنجبت بنتا جميلة ذات عيون زرقاء من النحات الأعظم في تاريخ مصر القديمة ولم يعلم أحد بذلك إلا بعد سنوات من زوال الخطر على المملكة. وأيضا النحات لا يعلم من أبوه وقد رباه كبير النحاتين في وقتها واتخذه ابننا له،

وفي شخص آخر اسمه أبو ربحان البيروني من المشاهير في العلم،  
تبناه شخص يوناني وجعل منه هذا الاسم الكبير. لن أطيل  
عليك في القصص فهي كثيرة مثل أيام الدنيا، لا بد أن نجعله  
مختلفا يا رضىينة ونقف بجواره حتى يصبح أحسن الناس. لو  
كان هنا عدل في بلادنا لكنت اعلنت لهم جميعا أنه ليس ابني  
ولكنهم أصبحوا أشرارا ولكن لا يشعرون، حولهم شيء يسير في  
عروقهم كالدم إلى مسوخ».

لم يطق حامد أن يتم الشهرين كاملا. وأعلن في صباح يوم  
من شهر يوليو أن زوجته ولدت في عشة فضائية ليلية أمس. واستئذان  
من العمل ذلك الصباح بعد أن أخبر زملاءه بأمر المولود الجديد.  
وكان ملتحفا بمظهر القوة ولكنه انفجر باكيا بنحيب. مثل  
ليلة سماعه انشاد قصيدة خديجة في مقام سيدى عبد القادر  
الجيلانى. عندما هبوا من أماكنهم عند سماعهم الخبر وأصبح  
يتلقى التهاني وزملاء العمل يتلقفونه ويهزونه كأنه عود  
شجرة طرى، لم يشك لحظة في صدق الشاعر التي اجتاحتها كأنه  
الأب الحقيقى. أسرع مهرولا بعد ذلك لمنزل الدكتور سراج ليأخذ  
سيارته ليحضر زوجته وفضائية إلى بيته في العدو. عرض عليه  
الطبيب أن يحضر معه ولكنه أخبره أن زوجته بخير وهو يقفز من  
على السلالم. سعدت رضىينة بعودتها إلى بيتها. لم يكف حامد عن  
الذهاب بالسيارة إلى قلب المدينة والرجوع طوال النهار، مليء البيت  
بأكياس الفول السودانى ليوزعها على الزائرين. وأحضر ألواح

الثلج من شركة الفوسفات ليشرّب كل من أتى الشربيات مثلجا، يعلم أنه بعد أنكسار الشمس إلى الغروب ستبدا الأعداد تزيد في البيت وحوله. يجري هنا وهناك ولا تفارقه رغبة البكاء. جعل مجلسه في مكان الجبنة عندما كبر الظل. تتوافد عليه الأفواج من العدوّة والعوينة لتبارك له مولوده ويجلسون حوله وشاركه الجيران باقامة عدة مواعد لعمل الجبنة حتى يحتسى القهوة كل الحاضرين. يبكي أمامهم من الفرحة وسط تعجب الصغار وشفقة الكبار عليه. تساوى جميعا مع رضينة في كشف هذا المستور فأصبح لا يخفى مشاعره أمامهم، يتذكر والده الغائب كأنه استلم منه الداء كاملا وأتى له إحساس بأن أباه مات في بلاد غريبة لأنه يشعر به كأنه حل فيه. تهامسوا بعد ذلك بأن فرحته بابنه قد احترقت جزء من صلابة الرجال داخله وجعلته رقيقا. انحل العقد الذي حاول أن يحافظ عليه بعيدا عن أنظار الناس وأضحى من هذا اليوم مثل أبيه. زخم الحديث بين العباددة في عدة اتجاهات فكانوا أحرارا في سهرتهم عند بيت حامد. تذكروا قصص الجدود والجدات وعلت ضحكاتهم بذكريات القبائل والأنساب وحضريومها شاب صغير العمر غامق السمرة نحيل، أشار أحد كبار السن له ليسلم على عمه حامد فتقدم الشاب خجلا وعندما تصافح مع حامد قال أحد أقارب الفتى بفخر: «أنه اسمه عيسى من قبيلة الكير يجاب وهو الذي فاز في يوم سباق الإبل». اهتاجت مشاعر حامد وهو ينظر إلى الشاب وترقرقت الدموع في عينيه ثم جلس صامتا يسمع حديثهم عن سبب عدم تقبل

الشباب للجائزة بأنهم عبادة جبال، والفروسية عندهم دون ثمن وإن كانت هناك جائزة فلا بد لكل وليس لواحد مثل الفلاحين - أي شخص غير عابدي يعتبر فلاح في نظرهم ولكن ليست بالنظرة الدونية القاهرية إلى أبناء الدلتا - كان هذا من الأشياء المحيرة لحامد لم يفهمها ولم يستطيع أن يدافع عن أقاربه أمام سخرية القصيرية من هذا الموقف، بل كان يكتفى بالابتسامة، وسوف يتذكر هذا الموقف ثانية بعد عدة أعوام عندما يقع بين يديه كتاب ممزق غير مكتمل الصفحات يسمى (مهزلة العقل البشري) لكاتب عراقي يسمى علي الوردى، فسر لماذا لم يفهموا المسابقة؟! فهم مثل البدائيون يجوعوا معا ويشبعوا معا، إذا اصطاد أحدهم فريسة فيجب أن يأكل منها الكل ويكفيه فخرا صاحبها أنه كان السبب في تجمعهم. وأنهم لا يعرفون المدنية ولا صراعاتها للتطور فالتنافس ممنوع والتكالب الفردي يعدونه عيبا لا يجوز للإنسان أن يتصف به. وكان هذا واضحا عند حامد عندما كان محررا من بيع السيارات الصفيح للأطفال في بداية الأمر ولم يستطع أن يكسر هذا الحاجز مع أبناء جلدته من العبادة، ولكن هذه البداوة كانت في أقصى درجاته عند العبادة وبعد ذلك تتدرج لتخف لتمر بكل أطراف الناس في مصر، فأحيانا تظهر وأحيانا تتستر، فالقصيرية مثلا كانوا مثال للعمال السيئين في بداية عملهم في شركة الفوسفات، يعملوا بعض الأيام وعندما يقبضوا الأجر يختفوا ولا يرجعوا إلا بعد نفاذ النقود. وهذا شائع في جميع أنحاء البلاد وليس في القصير فقط .

كانت رضينة ثابتة لم تهتز حتى أمام تساؤلات بعض النساء على أنها لا يظهر عليه آثار الحمل والولادة بل كانت ترد عليهم قائلة: «ماذا سوف تقولون لو كشفت لكم وجه ولدى. والله كأنه مولود منذ عامين وليس الآن. على الرغم رفضه أن يرضع من صدرى». فكن يكبرن ويضحكن مرددات: «شاذلى يا أبو الحسن». وأفادت الرضيع ذكرها رفضه للرضاعة منها. فكانت النساء التي لديها مولود في فترة الرضاعة تأتي إلى رضينة لتطعم كرار الكبير كما أطلقوا عليه النسوة. بدأ القصيريه في زيارة العدوة في الأيام التالية وسط اندهاش الصغار كأنهم اغراب من بلاد أخرى. حمل عزوز بأشياء من زوجته صفية لحامد. وبسبب ثقلها قال عزوز مازحا: «هدايا من عند البرنسيسته». أتى يونس برفقة الطبيب، ظهرت سطوة المرض عليه وجعلته يبدو أكبر من الدكتور سراج عمرا. بالغ حامد في مداعبته أمام الحاضرين وجذبه إلى الحديث المرح.

مر الأسبوع الولادة بمشاعر واحاسيس حقيقية، لم يلحظ حتى بينه وبين نفسه أنه ليس الأب. بدأ يلاعب الطفل ويكلمه كأنه شخص كبير، يتبادلوه بينهم ومعهم فضاية التي لم ترجع إلى عشته وقررت ألا تذهب إلا بعد مجيء أهل رضينة من حفافيت. ابهر حامد رضينة بأن سجل شريط كاسيت بصوتها وهي تخبر أمها بأنها وضعت مولودا وسمته كرار. وارسل المسجل والشريط مع السائق العبادى الشاهد الأول للقاء حامد برضينة ليسمعوا رسالته رضينة. ثم يحضرهم معه عند رجوعه من جولة توزيع

الماء. وبعد بضعة أيام كانوا في العدو بجوار ابنتهم، وقد خفف السائق دون أن يقصد شدة غضب أم رضية عندما استنكرت أن تلد ابنتها وهي ليست معها بقوله أن أغلب الناس في المدينة علمت بقدم مولود لحامد فجأة. وثم بعد ذلك تم تهدت الأم بنفس الدواء من بئر الجهل. بأن ادعى حامد أن أحد الصالحين قابله وأخبره بقدم كرار ولكنه عليه أن يتكتم الخبر عن الكل وإلا فسد الحمل. تولى عم فراج عمل الكرامة كما يطلقون عليها العبادة وهي أن يدعو الناس إلى العشاء وذبح شاه لهذه المناسبة. انتهى الزحام في بيت حامد ولم يبق إلا أم رضية لتخدم ابنتها حتى تمر فترة النفاس وساعد الطبع الصامت للعبادة الجبال من عدم تتبع أو تتدخل أم رضية في شئون بنته النسائية. وكانت المساعدة فقط في الطعام ونظافة البيت. وحرم الزوجين من بعضهما وسط ضحكات من أن لآخر بينهما لأنهما لم يفكرا في ذلك مسبقا.

\*\*\*\*

زارتهم سيدة الحلبية على استحياء وهي تنظر من أن لآخر لحامد الذي لا يرغب في أن تلتقى عيناه بعينيها كأنهما متخاصمان، استشعرت سيدة الحرج من تواجدها وحدثتها نفسها ربما حامد لا يريد أن يراها مرة أخرى حتى لا تذكره باصل المولود. عاتبته رضية عن غيابها وانقطاعها لأكثر من شهرين. لم يطبق حامد الانتظار معهم وانسحب ليجلس في الخارج أمام البيت باتجاه البحر في الظل فالشمس الصيف خلف البيت مائله ما زالت تتلكأ

قبل الغروب وما هي إلا لحظات قليلة حتى اتاهم صوت الضجيج الذي يحدثه الدق على الصفيح. فعلموا ماذا يفعل. وبعد أن أنهت سيدة سمرها مع رضىينة وامها. غادرت البيت واقتربت من حامد الذي كان في مكان يسمح لهما بالحديث دون أن يسمعهما أحد. تحدثت وهي واقفة بجواره وهو جالس على الرمال يربط قطعتين من الصفيح بسلك معدنى رقيق فقالت: «شعرت أنك لا ترغب في رويتى». اعتدل قليلا حامد وترك ما في يديها ونظر إليه من أسفل ولكنها لم تعطيه فرصة للحديث فأكملت قائلة: «أعلم أنك لا تريد أن أذكرك بما أخفينا، كرار ابنك يا حامد، وسوف أحاول بقدر المستطاع ألا أزعجك بزيارتى مرة أخرى». فانتفض حامد قائما بهيئة منكره لما سمع منها فقال: «لا يا سيدة أنت أختى ولا أرب أن أقطع المودة التي بيننا ولكن استعظمت أن تحكى لك رضىينة بمنتهى العفوية عن حملها وولادتها ولا تعلم أنك تشاهدها كاذبه، شعرت بما يشعر الخائن لزوجته، فظهر عليّ الضيق فقط من ذلك، لا تشغلى بالك، اعتقد ذلك مع الوقت سوف ينتهى». ثم نظر إليه مبتسما مستطردا «ولو غبت عن زيارتنا سوف أتى إلى بيت الأوانجى بنفسى لأسأل عليك».

خفت كلمات حامد ما وقع بقلب سيدة وأيضا كان تنفيس لما لحق به لأنه كان صادق فيما أفصح لسيدة وليس كما ظنت بأنه لا يرغب في رؤيتها.

\*\*\*\*

كانت حياة المجون والصلعكة التي كان يحيها منصور في السابق كفيله بشغله عن أي شيء دونها. ولم يخطر على ذهنه لحظة واحده ليفكر فيما تركه أبوه من ميراث، كان مثل شخص ولد على عقيدة فشغلته عن غيرها فكان متأخذ لكل ما وجده كأنه ثابت لا يطوف على باله بضرورة التفكير فيه. كانت يأخذ المال من أمه واخيه ويسحب دون علم أحد من المحال، المهم ألا ينضب مال من جيبه. أخوه الأكبر في منزلة عاليه، وكلما زاد في تمجيده اكتسب علوا في ذاته هو شخصيا، ولكن كل هذا انهار بسبب زلزال منى وتدينه، وزاد اعتقاده أنه باقترابه إلى الله وتغير طريقه المعوج إلى الصلاح جعله يعيد حساباته في ميراثه. وأن من المستحيل أن يكون المحال هو صاحب الفضل في كل ما هم فيه. وخصوصا ما حدث لفاروق في خلال سنة، وبعده كم من مرة وبخ نفسه على السذاجة التي كان يعيش فيه. وبعد ما غلت رأسه وامتلت بالحقد، اندفع كالمحموم في ليلته مظلمه إلى حوش بيته وأخذ يحاول أن يفتح المخزن الذي اتخذه فاروق له من بعد موت أبيه. لا بد أن يكون بالداخل جواب، لم يدخله نهائيا. ولم ير أي شخص يقترب من هذا المخزن في حياته، دائما مغلق.

أيقظت سيدة الحاجة منيرة، فقامت مفزوعه تحملق في الظلام وهي تتحسس بذراعيها كأنها فقدت بصرها. أخبرتها أن منصور يبحث عن شيء في الحوش. انتفضت الحاجة منيرة قائلة يا رب الطف، خذ بيدي يا سيدة. نهضت وهي تستعدل ثيابها ولم

تعتنى في البحث عن غطاء لرأسها الأشيب وخرجت من حجرتها بمساعدة سيدة وبعدها أمرتها بأن تذهب إلى غرفتها وتغلق الباب عليها، وقفت قليلا حتى تغلق سيدة الباب وبعد ذلك مسحت العرق المتصبب من جبهتها بكم الجلباب. ثم أخذت تمشى بجوار الحائط حتى وصلت إلى باب الحوش فانارت المصباح الوحيد في الحوش الواسع فكانت الإضاءة صفراء خافته ولكنها كافية لترى منصور أمام أحد المخازن وتفضح مدى الفزع الذي اجتاحه وزاد من القشعريرة التي المت به رويته لامة برأسها الشائب الذي جعلها في صورة مغايره لما اعتاد عليه.

– النور أحسن من الظلمه.

– نور ربنا هو الأنفع.

– ماذا تفعل عندك؟

– لماذا هذا المخزن مغلق؟ وعليه هذا الكم من الاقفال الضخمة.

– هذا مخزن أخوك.

كانت تريد أن تكمل ولكنه انفعل قائلا: «ليس هناك شيء يسمى مخزن فاروق، كلنا نعمل في خير أبونا الذي تركه لنا وليس لفاروق فضل في ذلك ونترك جانبا موضوع من أتى إلى الحياة أولا، لو كان فاروق هو من بدأ التجارة أو كان ذو وظيفة خاصة بعيد عنا لصح له امتلاك مخزن».

– منذ متى ونحن نتحدث بهذا الأسلوب بيننا.

- منذ أن علمت كم كنت غيبيا.

ثم اندفع باتجاهها كجمرة متوهجة ليدلف إلى داخل البيت.

من أول نور للصباح كانت سيدة تطرق باب بيت أسعد طابية وتخبره أمر السيدة الكبيرة بأن يتصل بأي طريقة بالحج فاروق أو يذهب ليحضره فوراً الأمر جلل. لم ينتظر طابية لحظة في بيته بعد ما سمع، اتجه إلى سنترال المدينة المتهالك الذي منذ افتتاحه في المدينة وهو قديم كأنهم جلبوه بعد أن خاضوا به الحرب.

كما توقعت الحاجة منيرة، منصور لن ينتهي، أحضر شاكوش ضخم ومطرقة لتكسير وتركهم في الصالة كأنه يتحداهم، ولكن لم يمهل القدر فبعد دقائق من عرضه لأدواته لتفصح عما انتوى على فعله، كان فاروق في بيت الأوانجي، غادر الغردقة بعد إنهاء مكالمته طابية، كان يظن أن الطارئ متعلق بمنى، ولكنه استشاط غضبا عندما علم من أمه بما حدث ليلة أمس. كان منصور يسمعهم جيدا من حجرته ولكنه لم يحرك ساكنا، نادى فاروق على سيدة وامرأها أن تترك البيت اليوم ولا تأتي إلا في المساء، ومشى معها حتى الباب الرئيسي في هيئة كأنه يطردها من البيت، زجر الباب بعدها بقوة وأخذ يصيح باسم منصور، فأتى منصور متمهلا على غير عجلة عن عمد وهو يشير بيديه للأسفل بحركات استفزازية تعنى لفاروق بأن يخفق صوته ثم قال: «لما هذه الضجة؟». بالطبع لم تعجب فاروق طريقته في الحديث.

- هل فقدت عقلك يا منصور، أصبح التناول على عادة.
- طلب الحق أصبح تناول!
- أي حق تقصد؟
- ورث أبي الذي أخفيته لنفسك، أنا ابحت عن حقي ولكن لا أعلم أين، توقعت أن يكون في المخزن الذي لم تخطو قدماى داخله، أه وأن لم أجد ما أظن لن يهدأ بالى حتى أجد ما اقصد، أنت تعلم جيدا عن ماذا أتحدث.
- يا منصور أنا أخوك الكبير، وأصبحت رب الأسرة بعد موت والدك، وهل قصرت أنا معك في شىء، تركت لك معظم المال تديره بنفسك ولا أحاسبك على ما تفعل.
- المحال
- قالها منصور وانفجر ضاحكا بسخرية وخبث ثم استطرد قائلا: «محل يبني فندق في الغردقة ويجعل المحافظ صديقك، ماذا تظن في يا حاج فاروق». نطق الجملة الأخيرة ببطئ بتهكم حزين.
- أقسم بالله أن في المخزن أوراق ودفاتر خاصة وبالغت في كثرة الأقفال خوفا على ضياعها أو سرقتها.
- افتح المخزن واجعلنى ارها.
- فابتسم فاروق واتجه إلى منصور يمازحه ويهزه برفق قائلا: «طول عمرك عنيد، طول ما أنت كبرت وأصبحت رجلا لا بد

أن تحمل معى الأمانة، نعم الحج ناصر ترك لنا الكثير ولكن سامحنى يا أذى هل كان معقول أن أفصح لك عن السرفى الماضى والله لو كنت مكانى لفعلت تماما مثلى.

أخذت تدعو الحاجة منيرة بصوت عالى لهما وتذكرهم أنهم أخوه ولن يجدوا الخير إلا معا وانبهرت بالتحول المفاجئ الغير متوقع الذى أحدثه فاروق. اصطحب فاروق منصور إلى الحوش وفتح المخزن واخرج حقيبة قديمة ولكنها بحالة جيدة، ثم أعطى جميع المفاتيح لمنصور قائلا: «المخزن الآن لك بعد أن اذهب، ابحث فيه جيدا ليس به شىء ثمين، المال كله فى هذه الحقيبة».

اجتمعوا فى حجرة الحجة، فتح فاروق الحقيبة الضخمة الممتلئ عن آخرها بالنقود الورقية ذات القيمة الكبيرة. انفطر قلب منصور من هول ما رأى، وشعر بخدر الحشيش فى جسده كأنه عاود إلى تدخينه. كانت تنظر إليهم الحاجة بعين الريبة والخوف، الوحيد المبتسم هو فاروق. قال منصور: «سوف أخذ النصف». ولم يبتعد نظره عن الحقيبة المفتوحة. انفعل فاروق غاضبا قائلا: «لماذا التقسيم؟ ولماذا النصف؟ يا منصور اجعلنا نكمل كما بدأنا، لا يجب أن يطرىء علينا اختلاف».

- هذا الكلام كان يجدى نفعا قبل فترة المحافظ أم الآن فنحن أغنياء أمام الناس وفى ظهرنا الحكومة، لذلك وجب تقسيم الورث.

- كما ترى يا منصور لا أريد أن اغضبك، ولكن لا بد أن

نلتزم بشرع الله، أمك لها نصيب وأختك أيضا.

- لا، سوف أخذ النصف من هذه الحقيبة، لو تريد شرع الله، فلي أيضا في الفندق، ولكن سوف اكتفى بالنصف في المال وبيت الأوانجى كله والمحال كله، وأنت حلال عليك ما بنيت في الغردقة وهذا المال يكفيك حتى تكمل ويبقى معك المزيد.

وأخذ الشد والجذب بين فاروق ومنصور ساعات في الحساب، كان فاروق يذكره بما صرف في الجامع الجديد وزيارة المحافظ حتى يقتصد بما سوف يأخذه منصور، وفي النهاية انتصر منصور وتم له ما طلب وسط صمت تام لأمهما وذهول، وتركتهما أكثر من مرة لتتفقد منى في حجرتها فما زالت محبوسه، غادر فاروق بيت الأوانجى بالحقيبة الضخمة وبها نصف المال في صفاء بين الاخوين لم يعتادا عليه طوال حياتهما معا، وكانت آخر جملة قالها فاروق لمنصور يمازحه قبل أن يغادر بأن يستضيفه هو وعائلته عندما يأتوا إلى القصير فرد منصور وهو في قمة غبضته «بأن البيت بيت أخوه يأتي إليه متى شاء».

أغلق منصور على نفسه الباب بحجرته ما تبقى من النهار وطول الليل. يعد في نصيبه. كاد عقال عقله ينفك من كثرة المال الذي حصل عليه، في اليوم التالي أفرغ المخزن من الحقائق القديمة المتشابهة للحقيبة الممتلئة وبعض الأشياء القديمة الأخرى وبحث بدقة في أي شيء وجدته ثم اختار حقيبة

لنفسه ووضع بها المال الخاص به ثم وضع عليها باقى الحقائق الفارغة. ثم أقفل المخزن بنفس الطريقة القديمة ولكن الشك جعله يحضر أقفالا أخرى غير الاقفال القديمة عسى أن يكون فاروق معه نسخة منها. وظن بأن نفسه اطمئنت حتى اجتاحتها خواطر وأفكار مرة أخرى بعد عدة ليال من تقسيم المال، كانت بدايتها تساؤله «كيف استسلم فاروق بسهولة لجميع طلباتى. وما تلك الرقة التي كانت تلازمه أثناء حديثه معى، هو أختى وأنا أعرفه جيدا، كيف كان لين معى؟ قد يكون ما بنى من الفندق أضعاف ما أخذت، ولكن لا، الفندق في مراحل المتقدمه». حتى نهض من سريره ذات ليلة كأنه ملسوع واتجه إلى الحوش وفتح الحقائق القديمة الفارغة كالمهوف كأنه يبحث عن شيء ما ثم رجع إلى حجرته وهو مصدوم من أثر الاستنباط الذي اتخذه حقيقة غير قابله لجدل. بان وجد اظلال شكلتها بعض الاتربة يفضح ما كان سابقا فى الحقائق. ولكن فاروق كان كلما ذهب إلى الغردقة كان يأخذ منها حتى ترك في النهاية حقيبة واحدة، اتجه في اليوم التالى بعد صلاة الفجر إلى الغردقة، وجدهم ما زالوا نائمين. واستقيظ كل من بيت على صوت طرقة، فتح له فاروق الباب وظهرت بعده بهية والبنات عندما سمعن صوت فاروق يرحب به، سلم عليهم بوجه عابث، زادت من حدته اللحية الكثيفة. انسحبت بهية وأخذت البنات إلى الداخل فما استشفتة من رويتها لمنصور بأن هناك ما يعكز مزاجه وأكد لها فاروق هذا الإحساس بإشارة من عينيه بأن تغادر. رفع فاروق صوته قائلا: «ابن حلال،

نفطر سويًا». لم يرد عليه منصور واتجه إلى غرفة الضيوف فتبعه فاروق. وعندما أغلق فاروق الباب قال: «ما بك يا منصور» بصوت خافت.

- أين بقية المال يا فاروق؟.

- ماذا تعنى؟.

- كما كنت ساذج عندما صدقتك، أريد القسمة الحقيقية. هناك أربع حقائب فارغة غير الحقيقية التي اقتسمناها، إذن لي عندك حقيبتان أخريان.

- أنت مخبول، أنا فعلا أخطأت عندما طاوعتك، كان من المفروض ألا أسمح لك بأي شيء، أنت طماع يا منصور على الرغم من صدقي معك.

انفعل فاروق وكان صوته مدويا، وقبل أن ينطق منصور بكلمة عاجله فاروق مستطردا: «اسمع واجعل حديثي رأسخا في ذهنك، أستطيع أن انسى أنك أختي وأنت تعلم أن شوكتي أصبحت قوية الآن ولن أسمح لك بتناول مجددا كما فعلت في القصير». ثم أخفض صوته مكتفيا بالتلميح السابق بالبطش مستدركا: «أنت رجل غنى جدا الآن. بل أغنى واحد في المدينة، معك الكثير، أحمد ريك على ما أعطاك ولا تظن بي الظنون».

- ولكن يقتلني إحساس أني خدعت.

قالها بنبرة منكسرة حزينة فقد استطاع فاروق أن يذكره

بهيبته القديمة.

- يا منصور الحقائق الأخرى الفارغة وخشب الأثاث المكسر  
كان للخداع لوفتح سارق المخزن، تصدق بالله أنا بعد أن  
تركته منذ عدة أيام وأنا في حيرة بسبب كيف أكمل  
انشاء الفندق الضخم وفكرت أن تساعدني لو احتجت اليك،  
وتصبح شريك معي، يا منصور كلها بضعة شهر ويصبح  
أخوك عضو مجلس شعب وبعدها تفتح لنا أبواب الخير والله  
سوف أجعل مالك أضعافا مضاعفة، لابد أن تتخطى عشرة  
الشك التي بيننا. والايام القادمة كفيله باراحة قلبك، انتهت  
المحنة الكبرى فلا تجعل الخواجات- يقصد القساوسة فما  
زال إيمانهم بأن ما حدث لأختهم منى ما هو إلا أعمال سفلية  
شريرة- يعكروا ما بيننا.

\*\*\*\*

كرار هو أمتع اللحظات لحامد التي يقضيها معه. وحتى  
عندما يكون بعيدا عنه يشغل وقته بالتفكير فيه ويسرح  
بخياله في محبته وكيف سوف ينشئه، يستعجل الأيام ويتوسل  
إليها بأن تسرع يريد أن يكلمه ويسمع صوته ويصطحبه معه  
أيما ذهب، انتشر اسمه الجديد بين الناس أبوكرار انتشارا  
سريعا كأي شيء يحدث في هذه المدينة الصحراوية التي كل  
تفاعلاتها داخلية ولا يوجد أي مجتمع قريب عنها ليخفف من شدة  
وهج أحداثها، لذلك علم الجميع بغرابته ما يحدث لحامد من بكاء

صامت عند أي مناسبة سعيدة أو حزينة، غادر الاسم القديم مع الماضي يأتي أحيانا في الأوراق الرسمية عندما يوقع على استلام مرتبه كل شهر.

كما توقع هو وليس كما توقعوا. لم تتأثر محبته للأطفال بعد قدوم كرار. كلما رأى شيء أعجبه في أحدهما تمناه لابنه وإن لاحظ في آخر نقصا في خلق أو بلادة كان يرمى السبب على الأبوين. كان يصنع كلما كان في البيت عربات من الصفيح للأطفال، لم يكن الدافع هو المال فكثيرا ما يتنازل عن ثمنها. يعجبه تجمع الأطفال حوله وجلس رضىنة بالطفل بجواره. قلل ذهابه بعيدا للصيد الأسماك كما اعتاد في السابق. حتى طاووعه الدكتور سراج في الصيد ليلا أمام منزله طالما أصبح البعد لا يطاق عن كرار ولم يتبق من رفقاء البحر إلا حامد والطبيب. فبعد أن ابتعد منصور عنهم لانشغاله في عمله في المحال بعد أن تركه له أخوه وزادت علاقة الصداقة بينه وبين الشيخ هارون. أصبحت معرفته بصحبة البحر ذكرى من الماضي، وأظهر لحامد في إحدى المرات القليلة التي قابله فيها في الشارع أنه شخص غريب عنه، كان يرتدى يومها جلباب فخم أبيض قصير ولكنه يضيف سنوات للعمر منصور الحقيقي وصندل جديد يبدو عليه من نوعية احذية الشيخ هارون. كان السلام بارد وبه نوع من التعالي ولم يبارك له على مولوده. ولكنه لا يعلم أن حامد سره هذا اللقاء وجعله يطوى صفحة منصور إلى الأبد دون ندم. لأنه لا يريد أن ينظر ويدقق في قسّمات وجهه. واكتشف

مع الأيام التالية في حياته أن منصور كان عبئاً نفسياً عليه وشخص يزعج الروح بالقرب منه. وكان كلما رآه بالصدفة بعد ذلك يتعكر صفاء يومه ويسأل نفسه «كيف كنت ادمر نفسى معه في السابق».

يونس لا يترك البيت إلا بسيارة. فكان حامد يزيل وحشة المكوث وحيدا بأن يحضره إلى العدو بسيارة الدكتور. فكان حامد يحمله من مقعده في السيارة إلى مكان جلوسه في البيت أو خارجه. وكانت رضينة دائما تطلب بأن يقرأ يونس على رأس كرار. والغريب في الأمر بأن حامد كانت عبراته تتساقط وهو ينظر إلى كرار في حجر يونس. ويبكى عندما يرى الطفل يلهو بسبحة يونس، متناقضات غير مفهومة في شخصية حامد. أصبح هشاً، يحمل يونس من السيارة يبكى، تدعوله صفية بصوت عالي يبكى، يشاهد كلب يلعب لأنثى شعرها على الشاطئ أمام بيته يبكى، يرى الناس قادمين من الحج يبكى، يسمع الأغاني يبكى، استسلم تماماً لهذه الهشاشة وأصبح المجتمع متطوراً معه لا يستغرب حالته، يتركوه دون تعقيب.

\*\*\*\*

فك الحصار الذي كان مفروضاً على منى. لم يستطع فاروق أو منصور أن يقف في وجه الحاجة منيرة فيما اتخذت من قرار بأن تخرج منى بصحبة سيدة كل يوم للمشى خارج البيت. كان هناك دافعان لدى الأم لفعل ذلك. الأول أن تعاقب فاروق ومنصور

على الخسة والندالة التي شاهدها منها يوم تقسيم الورث وكيف أن الكبير قد سرق الصغير الجشع وأنه أصبحت موقنه تمام أنهم أبناء الصول ناصر بكل شره. بالطبع تعلم تمام أن الاخوين لم يصرأ على عدم خروج منى بسبب أن كل واحد منهم يعلم أنه أخذ أكثر من حقه ولم تعطى بال إلى تهديد فاروق ومنصور لها بأنه لو رجعت مرة أخرى ممتلئت البطن سوف يقتلوه. والدافع الثانى هو عاطفة الأمومة لابنتها فبعد أن أنزلت حملها أصبحت صامته لا تخرج كلماتها العفوية، كأنها سجيننة داخل جسدها. تنظر دائما إلى الأمام كأنها لا تنصت لمن حولها، كانت اشبه بأنثى حيوان أليف أخذوا منها أطفالها بعد أن ولدتهم أو ماتوا أمامها تحت عجالات السيارات وتهز فيهم لينهضوا ولكنهم لا يستجيبوا وهي لا تدرك ما السبب. وفي أول مغادرة لمنى خارج بيت الأوانجى أوصت الحاجة منيرة جيدا سيدة الحلبية حتى لا تتركها مهما كان السبب فلا بد عليها أن تعقد ذراعها في ذراع منى حتى تعود. كانت خائفه من أن يحدث أي شيء مخجل مثل هروبها فتضطر أن تحبسها للأبد، ولكن ما حدث كان مفاجاة لهم، فقد كانت كسجين طال به العمر داخل السجن فعندما تحرر كان يمشى كأنه يمر في طرقات السجن بين الزنازين. تخلصت تمام من طبائعها السابقة أو قد نسيتها مثل جمع الأوراق في جيوبها، كانت مطيعه لسيدة في أي شيء، حاول الأطفال في بادئ الأمر أن يستفزوها بالكلمات المعتادة معها ولكنها لم تستجب ولا حتى بنظرة لهم ولم تسبهم بأسمائهم وأسماء أمهاتهم «يا ابن عزيزة

ويا ابن أم أحمد» كما كان يحدث في السابق حتى فتر حماس الأطفال بعد شهر تقريبا من ظهورها في شوارع المدينة. التقى بهما حامد ذات يوم بعد تأخره في إصلاح سيارة الطبيب بعد انتهاء عمله في مجلس المدينة، كانت سيدة ومنى جالستين على نهاية سور البحر في نفس المكان الذي انتظرت فيه سيدة حامد لتخبره أنه تريد أن تطلعه على سر. كانت أول مرة يقابلها حامد ولكنه كان يسأل عليه كثيرا، سلم عليها بترحاب واضح حتى ظهرت منها ابتسامه دفينه سريعا ما اختفت. أخذ يداعبها حامد ويسالها: «هل تتذكرين من انا». وأخذ يجذب انتباهها بأن تنظر إليه وهو يشير إلى منزله البعيد على الشاطئ هناك في أقصى التقوس. فكانت تنظر باستحياء. ثم دون مقدمات قال لسيدة: «بأنها عليها أن تحضرها إلى بيته لتسلم على رضىنته». وبعدها تركهم، أكمل طريقه يبكى صامتا مستحسننا ما خطر على ذهنه من جعل منى تزورهم في البيت، لم تصدق سيدة ما سمعته وجعلته من قبيل المجاملة. مرت عدة أيام على هذا اللقاء حتى قابلها مرة أخرى عند يونس. وسأله عن أمر منى وهل عدم إحضارها إلى بيته في العدو بسبب أخوتها. فأنكرت ذلك تماما قائلة «لا يشعروا بوجودها ولا يهتموا أين تكون، المهم ألا تجلب لهم مشاكل». لم تتأخر سيدة يوم آخر بعد لقائها الأخير بحامد، فقد استحسنت الدعوة بزيارة العدو وكانت تحملها الشفقة بمنى وتريد أن تجعلها قريب من ابنها. وإن كانت تحفها بعض المخاوف من فعل شيء يغضب حامد، فاخذت تكرر على مسامع منى المقتاده معها

بغير إرادة بجمل تصلح لنصح الأطفال بأن تكون لطيفة وهادئة في بيت حامد حتى يجعلونا نزورهم دائما ولا يقولوا شيء لفاروق ومنصور فيمنعوك من الخروج وتصبحى محبوسه في حجرتك. كانت منى في عالم آخر ساكن لا يزعجه ما يصل إلى أذنيها أثناء السير. لم يستطيع حامد أن يسيطر على مشاعره عندما رأى منى تدخل البيت، سلم عليهم وفر إلى الخارج كمن تفاجئه معدته وعليه أن يستفرغ. جلست سيدة وأجلست منى بجوارها في أرضية الحوش الأسمنتية النظيفة، تركت مع سيدة الطفل لتحضر لهم شيئا يشربونه. أخذت تتهدد سيدة الطفل وتقربه من منى لتنظر إليه. كانت غير مهتمة وتنظر بطرف عينيها في هيئة متحفظة. شربت بنهم غريب ما قدمته رضينة إليها، أخذت رضينة الطفل من سيدة ثم قدمته بعد برهة من الوقت إلى منى التي لم تمد يديها فجعلته رضينة في حجر منى، كانت سيدة تراقب ما يحدث بحرص شديد متحفزه لحماية الطفل من أي حركة تصدر من منى تؤذيه. ارتخت أعصاب سيدة المشدودة ومعها المراقبة المشددة بعد أن لاحظت كيف تتصرف منى مع الطفل، فكانت تترك له أصابعها ليشدهم ويجذبهم. وعندما همت سيدة بمغادرة اعترضت منى بشيء خفيف من الامتعاض ولكن كبرته سيدة كأنها تشاهده بعدسة مكبرة. وتوالت الأيام وأصبحت زيارة منى للعدوة كثيرة وكانت تقول رضينة أن كرار يحبها.

ما كانت تقصه سيدة الحلبية للحجة منيرة على تعلق منى بابن حامد. جعل الأم تشعر بالشفقة على ابنتها، واستحسنت ذهابها إلى العدو وفضلته عن السير في القصير دون هدف واعتقدت هي وسيدة الحلبية بأن منى أصبحت هادئة ومهندهم بسبب ربطها بزيارة العدو، ونسوا أن السكون أتى من قبل ذلك ولكن الإنسان كثيرا ما يعالج نفسه بأشياء مثل تلك. بعثت الحاجة منيرة إلى حامد أكثر من مرة ليأتي إلى زيارتها ولكنه كان يعد بالزيارة ويخلف. حتى راته يمر أمام البيت في توقيت جلوسها أمام البيت الذي أصبح قليلا. فرفعت سيدة صوتها باسمه وهي بين المتخوف والسعيد من ردة فعله، فزين وجهه بابتسامة عريضة وتقدم نحوهما وسلم على الحاجة منيرة بإجلال، فقالت الحاجة منيرة معاتبية: «نحمد الصدفة التي مكنتنا من رؤيتك، ألسنت مثل أمك؟».

- طبعا.
- ألم أرسل لك أكثر من مرة لتزورني حتى أبارك لك مولودك - نظر حامد بتمعن في عين الحاجة وسيدة وأخذ يبحث في نبرات الكلمات عن شيء يزعجه ولكن لم يجد - أعلم أنها متأخرة ولكن أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أذهب بعيدا عن البيت، أنتظريومي.
- أطال الله في عمرك.
- إذن اسمح لي بأن ابعث هدية للمولود مع سيدة. وأيضا

لحسن استضافت زوجتك لبنتى، أه كما تشكر فيها سيدة  
وتحكى عنها قصص في نظافتها وجمال بيتها.

لم تسعد حامد كثيرا مقابلته بالحجة منيرة ولكنه  
تخطاها سريعا. ولكن ما أسعد قلبه بعد ذلك ما أرسلته مع  
سيدة لابنه لاحقا، كيس ضخم يزن عشرة كيلوجرامات  
من اللبن البودرة الذي يوزع مجانا في المدينة أحيانا ولكنه لم  
يحصل عليه، لأنه ظن في البداية أن هذا اللبن يوزع بتسجيل  
اسم المولود فقط وباسبقية. وعندما علم من الدكتور سراج أن  
الكميات التي تصل من المعونات الأوربية إلى المدينة شحيحة ولا  
تكفى. وأن شيخ البلد يرجح دائما كفة الطفل الذي تكون  
عنده مشاكل صحية ولا يستسيغ لبن الماعز وهذا ليس لنظام  
يتبعه ولكنه لعدالتة في نفس الرجل. فلغى حامد فكرة تتبع  
وصول اللبن واضطراره الجلوس في مندرة العبادة في العوينة.  
ولكنه كان يمني نفسه بأن يكون لكرار حظ فيه لما سمعه  
عن فوائده للأطفال. وكان ذلك طمع أبوى لا أكثر لأن كرار  
كان يشرب لبن الماعز وأي سيدة في ضرعها لبن في العدو شرب  
منها وكان ذو شهية مفتوحة أسعدت رضينة. وكانت تخاف  
عليه أحيانا من الحسد. وأن غلبها التفاخر تمازجهن بقول: «أشرب  
يا ولدى ليكن كلهن أمهاتك ولا تتزوج بناتهن».

\*\*\*\*

قارب العام الثانى على الانتهاء لمغادرة فاروق بيت الأوانجى.

رسخت جذوره وقواعده في الغردقة وأصبحت له اشواك فكان الاقتراب منه بحساب، الكثير أصبح يهابه. زاد الاندماج بين فاروق واللواء عفت مع الأيام، كان فاروق يفهم ماذا يريد المحافظ بمجرد النظر إليه، كان مثل أسعد طابيه معه ولكنه في مرتبة علوية. حتى تلاشى دور السكرتير وانحصر في الأعمال الورقية. أفشى له المحافظ حتى بالغرائز، كان صندوقه الأسود الذي جمعت فيه كل ما هو خفى. وكلما زاد حجم الصندوق كلما شعر فاروق بالجبوت والثقة بأنه الرجل الثانى. خصصت له أكثر من قطعة أرض بمساحات واسعة على شاطئ البحر اختارهم بنفسه. لا يناديه المحافظ أمام الناس إلا بسيادة النائب وخصوصا في القصير عندما يزورها ويثنى عليه أمام أهل البلدة. فقد كانت له زيارتان بعد الزيارة الأولى. أهمها بالنسبة لفاروق يوم أن حضر إلى المدينة بعد أن ضجت القصير بقصة الديك الذي يتكلم ناطقا بقول: «لا إله إلا الله». كانت الناس تقف طوابير أمام بيت صاحب الديك في منطقة الصعايدة لتدخل وتشاهد الديك. وإن كانت محظوظة تسمعه وهو يصدح بالصوت العالى يوحد الله. بالطبع لم يصرح المحافظ بأنه قادم لروية هذا الديك ولكن الفضول قتله بعد أن سمع القصة من فاروق ومن موظفين المحافظة وهم يقسمون بذلك. فأتى إلى القصير بصحبة فاروق كأنها زيارة مفاجأة واحضر معه أوراق تسليم دار المناسبات للكنيسة. سربت الأخبار إلى رئيس مجلس مدينة القصير من

المحافظة حتى يستعد فلا يفاجئه المحافظ. أخبر رئيس المدينة القسيس بأن المحافظ سيصل صباحا في زيارة قصيرة ليسلمهم دار المناسبات بعد أن انتهى بناؤها. كانت جلسة المحافظ في بيت الأوانجي، حضرها منصور والشيخ هارون وكبير العبادة ورئيس المدينة والقسيس وبعض المسيحيين ذو الشأن من تجار وموظفين حكوميين بالإضافة إلى بعض الأشخاص لا يتعدى عددهم عن سبعة وهؤلاء لهم دور مهم في مثل هذه الزيارات من تهليل أو تصفيق أو إلقاء قصيدة شعر. افتتح المحافظ الحديث قائلا: «كما بدأ الأمر من هنا فلا بد أن ينتهي أيضا هنا، بيت الخير دائما - يقصد بيت الأوانجي - كان فاروق من أشد المؤيدين لفكرة بناء دار مناسبات للأخوة المسيحيين وافصححت هنا عن خطة الحكومة فيما يخص أماكن العبادة، وأسلمك الآن الأوراق الخاصة بملكية». بالطبع يقصد القسيس فقام خاضعا ولكنه سعيدا سعادة لا توصف ليستلم الأوراق. فاستئذ أن فاروق من المحافظ بأن يدخل المصور الذي أحضره خصيصا لهذه المناسبة. فقال المحافظ معقبا: «أنه يفكر في كل شيء ولا تفوته فاته». التقط المصور أكثر من صورة لجمعهم. عمت البهجة بكل الحاضرين بسحر المحافظ، نسى فاروق ومنصور والشيخ هارون الأعمال السفلية التي يصنعها القسيس لهم ولم يخطر على بال القسيس ومن معه ما حدث في الماضي من أرض الكنسية التي بنى عليها جامع وإسلام ماري كأنه لم يحدث إطلاقا. بل زادوا في

النسيان بأن وجه القسيس قبل مغادرته دعوة كل الحاضرين على الغداء في الكنيسة على شرف المحافظ. فقبلها ولكن قبل أن يأذن لهم بالمغادرة، قال كلمته الأخيرة إلى المسيحيين «ارجو أن تصون الجميل لفاروق وتتقنوا معه في الانتخابات القادمة لأن مجلس الشعب الحالي بالتأكيد سوف يحله الرئيس السادات في القريب العاجل، سيادة النائب- يقصد فاروق- ناجح ناجح. ولكن من الذكاء الوقوف في ظهر المنتصر». فهلل الشيخ هارون فرحا «اللّه أكبر». اغتاض عضو مجلس الشعب العبادى ولم يستطع أن يخفى حنقه. ولكن ما بيد حيله بالطبع سوف يقف خلفه والاضاع كل شيء. بارك للفاروق بعد تكبيرة الشيخ هارون. وقد تكون تلك المباركة هي التي جعلته لا يغادر بيت الأوانجى مثل المسيحيين والصعاليك. وعندما أتى الإفطار على حدود الساعة العاشرة صباحا قال المحافظ: «املؤوا بطونكم جيدا فالיום فطار وعشاء». فضحكوا لفهمهم ما يشير إلى الغداء في الكنيسة فالمعتاد للنسبة كبيرة من المسلمين في مصر بأنهم يشعرون بالتقزز من طعام المسيحيين المصريين فقط. أثناء الإفطار ذكر فاروق أمر الديك المبروك، فأدلى كل شخص بدلوه وهو سعيد بتفرد مدينته بشيء مثل هذا. وأخذوا يتفاخروا بأنهم سمعوه وهو يوحّد باللّه. وتداخلت أصواتهم المرتفعة وكل واحد يحاول أن يسيطر على الحديث. واللواء يتناول الطعام وترتسم على وجهه ابتسامة تشوق للرؤية هذا الديك، فأشار فاروق

بذراعيه مازحا: «يا سادة الهدوء، سيادة المحافظ لا يسمعكم». ثم قال بسماجته التي تتضح عندما يريد أن يصنع دعابة «والا نرفع الجلسة» فاهتز ضاحكا.

- الناس في القصير يقولوا أنهم سوف يدفنوا هذا الديك عند موته في مقابر المسلمين.

قالها منصور بتعجب ولكنه غير منكر لما قال.

فرد عليه كبير العبادلة قائلا «أنه أمر عجيب، فعلا أنه ديك مبروك ولو حدث ما يقوله منصور قد يكون رحمة لأصحاب القبور». استفز ما قاله حفيظة الشيخ هارون كأنه لا يصح لأحد بأن يتكلم في الدين طالما هو موجود فقال: «إن جميع المخلوقات تسبح ولكن لا نفقه تسبيحها، الكل يذكر الله حتى الأسماك تذكر الله وإن توقفت عن الذكر يصطادها الصياد - ذكر السمك سمعه الشيخ هارون قديما من شيخ متصوف في قوص وكان يبغضه - لذلك أرى قول دفنه في مقابر المسلمين فيه مبالغة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكا). صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا الديك أجرى الله على يده معجزة بأن نفهم قوله حتى تكون لنا علامة وعظة تذكرنا بخالقنا بسم الله الرحمن الرحيم «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»<sup>(\*)</sup>.

(\*) سورة فصلت آية (٥٣).

قال المحافظ: «ونعمة بالله، وهل يصح أكل هذا الديك يا مولانا».

- بالطبع وقد يكون فيه شفاء وهذا الديك يؤمن تماما بأن رسالته في الدنيا لخدمة الإنسان مثله مثل البهائم، يفعلها وهو راضخ مطيع للمشيئة الرحمن فهو أرحم الراحمين.

- صعب أن أتناول نفسا تقول لا إله إلا الله.

- نعم نعم قلبك لين كقلوب الصالحين يا سيادة المحافظ على الرغم أنه خلق في جسد أسد.

- نحضره لسيادتك حتى تراه وتسمعه بنفسك.

- بل الأفضل أن أذهب بنفسى يا فاروق.

فاستحسنوا اختيار المحافظ. أسرع منصور تاركا البيت قبلهم. تقدم على منصور كل من كان في الخارج من مأمور القصير والضباط وأسعد طابية وجاموع في لهفة وارتباك. ألقى عليهم منصور باستعجال بهيئة غاضبة بأن المحافظ سوف يذهب للرؤية الديك وعليهم أن يأتوا معه لتهيئة الزيارة وإبعاد الزائرين. وصل منصور ورفاقه إلى البيت الريفى الذي زاروه كلهم من قبل، يبوح كل ركن فيه عن قسوة الفقر الذي يرتع في المكان، طوب لبن هش وأرض ترابية تصلبت مثل عقولهم بسبب رش الماء. الديك موجود في غرفة بائسة مثل بقية البيت لا يوجد باب للحجرة. تغلق بـ ٥٠٠٠ ميلين فوق بعضهما لسد فتحة الباب حتى لا يخرج الديك

وفتحة مربعة تعمل كنافذة واسعة عالية مطلة على البيت من الداخل، من أراد أن يشاهد الديك يصعد على قطعة مستطيلة من خشب قوى محمولة فوق أربعة أحجار صلبة متقاربين في الشكل يستخدمهم صاحب البيت بالليل كسيرير بدائى للنوم، بالطبع لم يوافق منصور على صعود المحافظ على السيرير مثله مثل الآخرين، فاصر على ابعاد البرميلين وسط اعتراض صاحب الديك خوفا من هربه ولكن لم يعيره أحد انتباهه ولكن عندما هاج الديك بسبب الضجة التي فعلوها، اکتفوا بابعاد البرميل الذي في الأعلى فقط. انزعج أكثر الديك من كثرة العيون التي تحديق فيه عندما أتى المحافظ. وبعد عدة دقائق عصبية ولو كان في الإمكان لقبولوا قدمي الديك. انقذهم الديك بأن صاح صيحته الغريبة عن بقية الديوك بأن يطيل في صياحه كأنه مُغنٍ ذو نفس طويل. فصفق الحاضرون وهلل بعضهم. اقتنعوا جميعاً أنهم سمعوا لا إله إلا الله. ومدح الشيخ هارون المحافظ قائلاً: «ليس كل من أتى لي شاهد الديك سمع منه التوحيد، يا سيادة المحافظ ماذا بينك وبين الله؟».

أمر الديك لا يختلف عن بحث الصيادين عن اصداق عليه اسم الله أو أي اسم من التسعة وتسعين اسماً له أو المزارعين بأن يجدوا فرع شجرة أو ورقة عليه نقش أو رسمه تقارب اسم الله حتى ولو كان الاسم مكتوباً ببرايز العصافير، ولي الأعناق بأكثر من اتجاه لقراءة أي شيء تفعله السحب المارة أو أسراب الطيور المهاجرة.

\*\*\*\*

لم تمر عدة أيام على زيارة المحافظ والا وكان وفد من أهالي المدينة ذاهب إلى الغردقة. كان معظم أفراده من القصيرية من موظفين ومدرسين وصيادين وكبار العائلات عمرا. تم الاستعانة بعدة سيارات أجرة. ووافق رئيس المدينة على إعطاء الوفد سيارتين كبيرتين نقل وتم تغطية الصندوق الخلفى لكل سيارة بقطعة قماش سميكة حتى تصبح مظلة فتحمى المسافرين من أشعة الشمس. كان عددهم يفوق المائة. وصلوا إلى الغردقة عصرا متوجهين إلى بيت فاروق. وقفوا أمام البيت في مشهد مهيب. خرج فاروق من بيته ويرسم على وجهه الدهشة. وسلم على كل فرد فيهم بحرارة. وبعد أن انتهى من السلام. تقدم إليه رجل قارب على السبعين من عمره. وأمسك كتفه أمام الناس. وفاروق ما زال يلتزم بسمت الاستغراب. فقال الرجل: «نريدك أن تحمل الأمانة، وقد أتينا إليك من القصير فلا ترجعنا خاسرين». والكل ينظر إلى الرجل وفاروق في تشوق وترقب لما سوف ينتهى إليه الحديث. فقال فاروق وهو ينظر إليه «محبة الناس ليس لها ثمن، وأنتم تامرونى وأنا انفذ». فهلل كل الحاضرون وسط الاحضان والقبلات وأخذ يردد الشباب الصغير في حماس بنغمة موسيقية «القصير القصير القصير». فرحوا بالنجاح الزائف. فقد اجتمعت العصبية التي كانت تؤازر الأستاذ تهاوى في السابق وقرروا أنهم لا بد عليهم أن يختاروا شخص ليخوض الانتخابات خوفا من ذهاب كرسى القصيرية في البرلمان إلى سفاجا أو الغردقة. وأخذوا

يقترحون أسماء من شخصيات في المدينة وتحاشوا في البداية اسم فاروق. وبعد أن تحيروا قال أحدهم «لا يوجد شخص مناسب إلا الحج فاروق». فصدقوا على قوله واتفقوا أن يجمعوا أنفسهم ويذهبوا ليقنعوا فاروق بالترشح.

المجتمعات تصاب أحيانا بالأمراض النفسية مثل الإنسان الواحد. فالمجتمع ككل أصبح مريضا ويوهم نفسه أنه هو من يدير وليس مجبورا على شيء.

بعد أسابيع قليلة حل مجلس الشعب كما قال المحافظ، لا يعنى الصعيد ما يدور في القاهرة من أمور سياسية، ولا يختلفون أبدا مع السلطة. يعتبرون الموضوع أبوى صرف. الرئيس هوزعيم القبيلة ولا يجوز الخروج عنه لذلك اعضاء مجلس الشعب هم رؤوس العائلات الأكثر غنى أو عددا. ويتعصب لهذا المنصب العامة من الناس كأنهم مشجعين للنادى لا أكثر ولا أقل لأنه لن يصيبهم أي نفع من صاحب الكرسي كما يطلقوا عليه. ولكن يشعرون بلذة النصر على أحد الأشخاص الآخرين من القبائل أو العائلات الأخرى. فأصبح فاروق يقضى عدة أيام من كل أسبوع في المدينة ليظهر في المناسبات كأفراح أو أحزان. وإن لم يجد هذا أو ذاك يزور العائلات في مناديرهم ويتسامر بود معهم، بالطبع معه الشيخ هارون كظله مع عدد يتجاوز العشرون كأنهم أجزاء من جسده كلما سار في المدينة أو ذهب إلى مكان. فعلا كما أخبره المحافظ منذ زمن، أنه أصبح عضوا معتمدا في البرلمان ولا

يبقى إلا بعد الشكليات التي لابد منه.

\*\*\*\*

أرسل حما فاروق عبد الرازق عمران العشرات من نساء ورجال إلى القصير في يوم الانتخابات، كانت العربات النقل الضخمة تشحنهم كالأغنام والإبل، اشتركت عربات المحافظة في هذا الأمر دون وجل على عكس ما كان يفعله كبير العبادة من استقدام مؤيديه بجهود ذاتية لا دخل للحكومة فيها. امتلأت شوارع القصير بالأغراب كأن القصير أصبح لها مولد من موالد المشاهير كالسيد البدوي في طنطا. انتظر فاروق وكبير العبادة قدوم الصناديق من بقية مناطق المحافظة حتى يتم الفرز في مركز القصير. فتحت الصناديق في منتصف الليل. اكتسح فاروق الأصوات وبعده عضو العبادة الذي كاد يغمى عليه من صاعقة كثرة الأصوات التي أخذها فاروق في صناديق الشلاتين وحلايب. وهو متأكد أن فاروق غير معروف تماما هناك. عما الصخب بالفرحة من القصيرية حتى الصباح. وهم يطوفون حاملين كرسي خشبي ذو أناقته.

اعتزل بعدها فاروق المدينة تماما وأصبح منصور مكانه كأنه هو الذي نجح في الانتخابات السابقة. لم تشعر الحاجة منيرة بالفخر والسرور لهذا المنصب الذي حصل عليه ولدها الأكبر. لم يعد لها في الدنيا رغبة إلا الحفاظ عن ابنتها منى.

وتدعو الله أن يمد لها في عمرها حتى تحمى تلك الضعيفة، لأنها مؤمنة بأنها لو تركت الدنيا سوف يرموها أخوتها إلى الشارع دون حتى الطعام أو يضعوا لها السم كالفئران. وزاد اعتقادها في ذلك لأنها أصبحت تستجدي من ولديها المال. منصور يتلكأ في إعطائها وفاروق يدعى النسيان. حتى أنها أصبحت دائمة اللوم لنفسها عندما تسرح في تفكيرها في ابنتها، بأنها كان يجب عليها أن تجنب جزءا من المال قبل أن يقتسماه حتى لا تذلل نفسها إليهما كما يحدث الآن، وتحفظ جزءا من حق منى في ميراثها. فكرت في أن تبيع ذهبها المكتظ في يديها ودولابها وتبنى بيت لسيدة الحلبية بدل من عشتها البائسة فوق هضبة العوينة حتى تجد منى مكانا لها. فسيده أظهرت الأمانة خلال خدمتها في بيت الأوانجي وأيضا المحبة التي نمت بين منى وبينها. ولكنها تراجع عن هذا القرار عندما أفصحت عن ما يدور في ذهنها مع سيده. لأن سيده كانت تعتقد إن أبناءها لن يسمحوا بذلك وقد يطردوها من المدينة كلها. فنصحتها بالتروى قد يفصح الله عن حل من عنده. انشغلا بحال منى ومنى مشغولة فقط بكرار. تستقيظ من نومها وتذهب إلى العدو كل يوم مرتين مرة الصباح والأخرى في العصر ولولا تعليمات الحاجة منيرة لسيدة لكانت منى أصبحت من أهل العدو. تعلقت بالطفل وكان يساعدها على هذا التعلق حامد عن قصد ورضينة عن غير قصد. فكانت مثل جليسة الأطفال. تستلم كرار منذ وصولها إلى البيت. وعندما

أصبح يستطيع المشى كانت تسحبه معها ليسير على الشاطئ  
متعلق في جلبابها. حاول بعض الناصحين أن يبعد كرار عن  
منى حتى لا يتأخر في الكلام أو يأخذ منها جنونها. كان حامد  
يبتسم للناصحين ابتسامة المنكر ولا يعقب على حديثهم...

تمت

